

هذّبه وحقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه

الدكتور بشار عواد معروف عصام فارس الحرستاني

المجلّد الثالث

المائدة إلى الأعراف

مؤسسة الرسالة


بسم الله الرحمن الرحيم


تفسير الطبري
٣

الطّبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسَّسَة الرِّسَالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف : ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب : ٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا»، يا أيها الذين أقَرُّوا بوحدانيةِ الله، وأذعنوا له بالعبوديةِ، وسَلَّمُوا له الألوهةَ، وصَدَّقُوا رسولَهُ محمداً ﷺ في نبوته وفيما جاءهم به من عند ربهم من شرائع دينه. «أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ»، يعني: أوفوا بالعهودِ التي عاهدتموها رَبَّكُم، والعقود التي عاقدتموها إياه، وأوجبتم بها على أنفسكم حقوقاً، وألزمتم أنفسَكُم بها لله فروضاً، فأتِمُّوها بالوفاءِ والكمالِ والتمامِ منكم لله بما ألزمكم بها، ولمن عاقدتموهُ منكم، بما أوجبتموه له بها على أنفسكم، ولا تَنْكُثُوها فتنقضوها بعد توكيدها.

و«الإيفاء بالعهد»، إتمامه على ما عقد عليه من شروطه الجائزة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ

اختلف أهلُ التأويل في «بهيمة الأنعام» التي ذكر الله عَزَّ ذِكْرُه في هذه الآية أنه أحَلَّها لنا.

فقال بعضهم: هيِ الأنعامُ كُلُّها.

وقال آخرون: بل عَنَى بقوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ»، أجِنَّة الأنعام التي توجدُ في بطون أمهاتها - إذا نُحرت أو ذُبحت - ميتةً.

وأولى القولين بالصواب في ذلك، قولُ من قال: عَنَى بقوله: «أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ»، الأنعام كلها: أجنَّتُها وسِخَالها[1] وكبارها. لأنَّ العربَ لا تمتنعُ من تسميةِ جميعِ ذلك «بهيمة وبهائم»، ولم يُخَصِّص الله منها شيئاً دون شيء. فذلكَ على عُمومِهِ وظاهرِهِ، حتى تأتيَ حُجةٌ بخصوصه يجبُ التسليم لها.

وأما «النَّعَم» فإنها عند العرب، اسمٌ للإبلِ والبقر والغنم خاصة، كما قال جَلَّ ثنـاؤُهُ: ﴿وَالأَنْعَـامَ خَلَقَهَـا لَكُمْ فِيهَـا دِفْءٌ وَمَنَـافِعُ وَمِنْهَـا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ثم قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]، ففصل جنس النعم من غيرها من أجناس الحيوان.

وأما «بهائمها»، فإنها أولادها. وإنما قلنا يلزم الكبار منها اسم «بهيمة»، كما يلزم الصغار، لأنَّ معنى قولِ القائل: «بهيمة الأنعام»، نظير قوله: «ولد الأنعام». فلما كان لا يسقط معنى الولادةِ عنه بعد الكبرِ، فكذلك لا يسقطُ عنه اسمُ البهيمةِ بعد الكبر.

وقد قال قوم: «بهيمة الأنعام»، وَحْشِيُّها، كالظباء وبقر الوحش والحُمُر.[2]

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

عَنَى بذلك: إلا ما يُتْلَى عليكم من تحريمِ الله ما حَرَّمَ عليكم بقوله: «حُرِّمَتْ عليكم الميتة» الآية. لأنَّ الله عزَّوجلَّ استثنى مما أباح لعباده من بهيمة الأنعـام، ما حرَّم عليهم منهـا. والـذي حرّم عليهم منها، ما بَيَّنَهُ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]. وإن كان حرَّمه الله

(١) السَّخْلَةُ: ولد الشاة، من المعز والضأن، ذكراً كان أو انثى.

(٢) هذه مقالة الفراء في (معاني القرآن: ١/ ٢٨٩).

علينا، فليسَ من بهيمة الأنعام فيستثنى منها. فاستثناءُ ما حرَّم علينا مما دخل في جملة ما قَبْلَ الاستثناء، أشبهُ من استثناءِ ما حَرَّمَ مما لم يدخلْ في جملة ما قبل الاستثناء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾

(يعني): يا أيها الذين آمنوا أوفوا بعقودِ الله التي عقد عليكم مما حَرَّمَ وأحَلَّ، لا مُحِلِّينَ الصيدَ في حرمكم، ففيما أحَلَّ لكم من بهيمةِ الأنعام المذكَّاة دون ميتتها، مُتَّسَعٌ لكم ومُسْتَغْنًى عن الصيدِ في حالِ إحرامكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله يقضي في خَلْقِه ما يشاء، من تحليلِ ما أرادَ تحليلَهُ، وتحريمِ ما أرادَ تحريمَهُ، وإيجابِ ما شاء إيجابَهُ عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه، فأوفوا، أيها المؤمنونَ، لَهُ بما عَقَدَ عليكم من تحليلِ ما أحَلَّ لكم وتحريمِ ما حَرَّمَ عليكم، وغير ذلك من عقوده، فلا تَنْكُثوها ولا تنقضوها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾

معنى الكلام: لا تَسْتَحِلُّوا، أيها الذين آمنوا، معالمَ الله، فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج: من تحريمِ ما حَرَّمَ الله إصابتَهُ فيها على المحرم، وتضييعِ ما نهى عن تضييعهِ فيها، وفيما حرَّم من استحلالِ حُرمات حَرَمه، وغير ذلك من حدودهِ وفرائضهِ، وحلالهِ وحرامهِ، لأنَّ كُلَّ ذلك

من معالمهِ وشعائرهِ التي جعلها أماراتٍ بين الحقِّ والباطل، يُعْلَم بها حلالُه وحرامه، وأمرُه ونَهْيُهُ. لأنَّ الله نهى عن استحلالِ شعائره ومعالمِ حدوده وإحلالها نهياً عامًّا، من غيرِ اختصاصِ شيءٍ من ذلك دون شيء، فلم يَجُز لأحدٍ أن يوجِّه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها، ولا حُجَّةَ بذلك كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ»، ولا تستحِلُّوا الشهرَ الحرام بقتالكم فيه أعداءكم من المشركين، وهو كقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧].

وأما «ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ» الذي عَنَاهُ الله بقوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ»، فرَجَبُ مُضَر، وهو شهرٌ كانت مضر تحرِّمُ فيه القتال.

وقد قيل: هو في هذا الموضع «ذو القعدة».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ

«أما الهدي»، فهو ما أهداهُ المرءُ من بَعيرٍ أو بقرةٍ أو شاةٍ أو غير ذلك، إلى بيت الله، تَقَرُّباً به إلى الله، وطلبَ ثوابه.

يقول الله عزَّ وجلَّ: فلا تستحِلُّوا ذلك، فتغصبوه أهلَهُ غَلَبَةً، ولا تَحُولُوا بينهم وبين ما أهدوا من ذلك أنْ يبلُغوا به المحِلَّ الذي جعله الله جلّ وعزّ مَحِلَّه من كعبته.

المائدة: ٢

وأما قولُه: «وَلَا ٱلْقَلَائِدَ»، فإنه يعني: ولا تحلوا أيضاً القلائد.

فإذْ كان ذلك تأويله، فمعلوم أنه نَهْيٌ من الله جَلَّ ذِكْرُهُ عن استحلالِ حرمة المقلَّد، هَدْياً كانَ ذلك أو إنساناً، دونَ حُرْمَةِ القلادة، وإنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه، إنما دَلَّ بتحريمهِ حرمةَ القلادة، على ما ذكرنا من حرمة المقلَّد، فاجتزأ بذكره «القلائد» من ذكرِ «المقلد»، إذْ كان مفهوماً عند المخاطَبين بذلك معنى ما أريد به.

فمعنى الآية ـ إذْ كان الأمرُ على ما وصفنا ـ: يا أيها الذين آمنوا لا تُحِلُّوا شعائرَ الله، ولا الشهرَ الحرام، ولا الهديَ، ولا المقلِّد نفسَه بقلائد الحرم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا

يعني بقوله عَزَّ ذِكْرُه: «وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ»، ولا تُحِلُّوا قاصدي البيت الحرام العَامِدِيهِ.

«والبيت الحرام»، بيت الله الذي بمكة.

«يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ»، يعني: يلتمسون أرباحاً في تجاراتهم من الله.

«وَرِضْوَاناً»، يقول: وأنْ يرضَى الله عنهم بنسكهم.

ثم اختلف أهلُ العلم فيما نسخ من هذه الآية، بعد إجماعهم على أنَّ منها منسوخاً.

فقال بعضهم: نُسِخَ جميعُها.

وقال آخرون: الذي نسخ من هذه الآية قوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ».

وقال آخرون: لم يُنسخ من ذلك شيءٌ، إلا القلائد التي كانت في الجاهلية يتقلَّدونها من لِحَاء الشجر.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة، قولُ مَنْ قالَ: نسخ الله من هذه الآية قوله: «وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ»، لإجماعِ الجميعِ على أنَّ الله قد أحَلَّ قتالَ أهلِ الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كلها. وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قَلَّد عُنقه أو ذِراعيه لحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أماناً من القتلِ، إذا لم يكن تَقَدَّمَ له عَقْدُ ذمةٍ من المسلمين أو أمان، وقد بيَّنَّا فيما مضى معنى «القلائد» في غير هذا الموضع.

وأما قوله: «وَلَا آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ»، فإنه محتملٌ ظاهره: ولا تُحِلُّوا حُرْمةَ آمِّين البيت الحرام من أهل الشرك والإسلام لعمومه، جميعَ مَنْ أَمَّ البيتَ. وإذا احتمل ذلك، فكان أهل الشرك داخلينَ في جملتهم، فلا شك أن قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، ناسخٌ له. لأنه غيرُ جائزٍ اجتماع الأمرِ بقتلِهم وتَرْكِ قتلهم في حالٍ واحدة ووقتٍ واحد. وفي إجماعِ الجميعِ على أنَّ حُكْمَ الله في أهل الحرب من المشركين قتلُهم، أمُّوا البيتَ الحرام أو البيتَ المقدس، في الأشهر الحرم وغيرها ما يُعلم أنَّ المنعَ من قتلِهم إذا أمُّوا البيتَ الحرام منسوخٌ ومحتملٌ أيضاً: ولا آمينَ البيت الحرام من أهلِ الشرك.

وأكثر أهل التأويل على ذلك.

وإن كان عُني بذلك المشركون من أهلِ الحربِ، فهو أيضاً لا شَكَّ منسوخ.

وإذْ كان ذلك كذلك وكان لا اختلافَ في ذلك بينهم ظاهر، وكان ما كان مستفيضاً فيهم ظاهراً حجةً، فالواجبُ، وإن احتملَ ذلك معنًى غيرَ الذي قالوا، التسليمُ لما استفاض بصحته نَقْلُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا

يعني بقوله: «يَبْتَغُونَ»، يطلبون ويلتمسون. و«الفضل» الأرباحُ في التجارة. و«الرضوان»، رِضَى الله عنهم، فلا يُحِلُّ بهم من العقوبةِ في الدنيا ما أحلَّ بغيرِهم من الأممِ في عاجل دنياهم، بحجِّهم بيتَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: وإذا حللتم فاصطادوا الصيدَ الذي نَهَيْتُكم أنْ تُحِلُّوه وأنتم حُرُمٌ. يقول: فلا حرجَ عليكم في اصطيادهِ، واصطادوا إنْ شئتم حينئذٍ، لأن المعنى الذي من أجله كنتُ حرَّمْتُه عليكم في حالِ إحرامكم قد زال.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ»، ولا يحمِلَنَّكُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: شَنَآنُ قَوْمٍ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: بُغْض قوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾

(يعني): ولا يَحمِلَنَّكُمْ بُغْض قومٍ، لأنْ صَدُّوكم عن المسجدِ الحرام، أيها المؤمنون، أنْ تعتدوا حُكْمَ الله فيهم، فتجاوزُوه إلى ما نَهاكم عنه، ولكن الزمُوا طاعةَ الله فيما أحببتم وكرهتم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾

معنى الكلام: ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شنآنُ قومٍ أنْ صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا، ولكن لِيُعِنْ بعضُكم بعضاً بالأمر بالانتهاءِ إلى ما حَدَّهُ الله لكم في القوم الذين صَدُّوكم عن المسجدِ الحرام وفي غيرهم، والانتهاء عما نهاكم الله أن تأتوا فيهم وفي غيرهم، وفي سائر ما نهاكم عنه، ولا يُعِنْ بَعْضُكُمْ بعضاً على خلاف ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢﴾

وهذا وعيدٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ وتهدُّدٌ لمن اعتدى حَدَّهُ وتجاوز أمره. يقول عَزَّ ذِكْرُه: «وَٱتَّقُوا ٱللهَ»، يعني: واحْذَروا الله، أيها المؤمنون، أنْ تلقوه في معادِكم وقد اعتديتم حَدَّهُ فيما حَدَّ لكم، وخالفتم أمرَهُ فيما أمركم به، أو نهيَهُ فيما نهاكم عنه، فتستوجبوا عقابه، وتستحقوا أليمَ عذابه، ثم وصَفَ عِقَابَهُ بالشِّدَّةِ فقال عَزَّ ذِكْرُه: إنَّ الله شديدٌ عقابُه لِمَنْ عاقَبَهُ من خَلْقِه، لأنها نارٌ لا

يطفأ حَرُّها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهبها، نعوذ بالله منها ومن عَمَلٍ يُقَرِّبُنا منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: حَرَّم الله عليكم، أيها المؤمنون، الميتةَ.

و «الْمَيْتَةُ»: كُلُّ ما له نَفْسٌ سائلةٌ من دوابِ البَرِّ وطيرِهِ، مما أباحَ الله أكْلَها، أهليَّها ووحشيَّها، فارقتها روحُها بغيرِ تذكية[1].

وأما «الدَّمُ»، فإنه الدمُ المسفوحُ، دونَ ما كان منه غير مسفوحٍ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ قال: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُه إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فأما ما كان قد صار في معنى اللحم، كالكَبِدِ والطِّحالِ، وما كانَ في اللحم غير منسفحٍ، فإنَّ ذلك غير حرام، لإجماعِ الجميع على ذلك.

وأمـا قوله: «وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ»، فإنه يعني: وحُرِّم عليكم لحمُ الخنزير، أهليُّهُ وبَرِّيُّه.

فالميتـةُ والـدمُ مخـرجهمـا في الـظاهـر مخـرجُ عمومٍ، والمرادُ منهما الخصـوصُ. وأمـا لحم الخنزير، فإنَّ ظاهره كباطنه، وباطنه كظاهره، حرامٌ جميعه، لم يخصص منه شيء.

عنى بقوله: «وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱلله بِهِ»، وما ذُبحَ للآلهةِ وللأوثان، يُسَمَّى عليه غيرُ اسمِ الله.

---

(١) التذكية: الذبح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُنْخَنِقَةُ

وهي التي تختنقُ، إمَّا في وثاقها، وإما بإدخالِ رأسها في الموضع الذي لا تقدر على التخلص منه، فتختنق حتى تموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمَوْقُوذَةُ

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «وَٱلْمَوْقُوذَةُ»، والميتةُ وقيذاً.

يقال منه: «وقَذَهُ يَقِذُه وقْذاً»، إذا ضَرَبَهُ حتى أشرفَ على الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ

يعني بذلك جَلَّ ثناؤهُ: وحُرِّمَتْ عليكم الميتةُ تردِّياً من جبلٍ أو في بئر، أو غير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلنَّطِيحَةُ

يعني بقوله: «النَّطِيحَةُ»، الشاةُ التي تنطحها أخرى فتموت من النطاحِ بغيرِ تذكيةٍ. فَحَرَّمَ الله جَلَّ ثناؤهُ ذلك على المؤمنين، إنْ لم يدركوا ذكاته قبل موته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ»، وحرّم عليكم ما أكلَ السبع غير المعَلَّمِ من الصوائد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ»، إلا ما طَهَّرْتُموهُ بالذبح الذي جعله الله طهوراً.

فتأويل الآية: وحرم عليكم ما أُهِلَّ لغيرِ الله به والمنخنقة وكذا وكذا وكذا، إلا ما ذَكَّيتم من ذلك.

وإذْ كان الأمرُ على ما وصفنا، فكُلُّ ما أُدْرِكَتْ ذَكاتُه من طائرٍ أو بهيمةٍ قبل خروج نَفَسِه، ومفارقةِ روحه جسدَه، فحلالٌ أكلُه، إذا كان مما أَحَلَّهُ الله لعباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَا ذُبِحَ عَلَىٰ ٱلنُّصُبِ»، وحرم عليكم أيضاً الذي ذُبِحَ على النُّصُب.

و«النُّصُب»، الأوثانُ من الحجارة، جماعة أنصاب كانت تجمع في الموضع من الأرضِ، فكان المشركون يُقَرِّبونَ لها، وليست بأصنام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ

يعني بقوله: «وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِٱلْأَزْلَامِ»، وأنْ تطلبوا عِلْمَ ما قُسم لَكُمْ أو لم يُقْسَمْ، بالأزلام.

وهو «استفعلت» من «القَسْم» قَسْم الرزقِ والحاجات. وذلك أنَّ أهلَ الجاهلية كان أحدُهم إذا أرادَ سفراً أو غزواً أو نحو ذلك، أَجالَ القِداحَ وهي

«الأزلام» وكـانت قِداحاً مكتوباً على بعضِها: «نهاني ربّي»، وعلى بعضها: «أمرني ربّي» فإنْ خرجَ القدحُ الذي هو مكتوبٌ عليه: «أمرني ربي»، مضى لما أرادَ من سفـرٍ أو غزوٍ أو تزويجٍ وغير ذلك. وإنْ خرجَ الذي عليه مكتوبٌ: «نهـاني ربي»، كَفَّ عن المُضِيِّ لذلـك وأمسـك، فقيل: «وَأَن تَسْتَقْسِمُـوا بِٱلْأَزْلَامِ»، لأنهم بِفِعْلِهم ذلك كانوا كأنهم يسألون أزلامَهُم أن يَقْسِمن لهم.

وأما «الأزلام»، فإنَّ واحدها «زَلَم»، ويقال: «زُلَم»، وهي القِداحُ التي وصفنا أمرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ

يعني جَلَّ ثناؤهُ بقوله: «ذَٰلِكُمْ»، هذه الأمورُ التي ذكرها، وذلك: أكلُ الميتـةِ، والدم، ولحم الخنزير، وسائر ما ذكر في هذه الآية مما حرم أكله، والاستقسام بالأزلام، «فِسْقٌ»، يعني: خروجٌ عن أمرِ الله عَزَّ ذِكْرُه وطاعته، إلى ما نهى عنه وزجر، إلى معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ

يعني بقوله جَلَّ ثناؤهُ: «ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ»، الآن انقطعَ طَمَعُ الأحزابِ وأهلِ الكفرِ والجحود، أيها المؤمنون. «مِن دِينِكُمْ»، يقول: من دينكم أنْ تتركُوه فترتدُّوا عنه راجعينَ إلى الشِرْكِ.

فإنْ قال قائلٌ: وأيُّ يوم هذا اليوم الذي أخبرَ الله أنَّ الذين كفروا يئسوا فيه من دِينِ المؤمنين؟

قيل: ذُكِرَ أنَّ ذلك كان يوم عرفة، عام حج النبيّ ﷺ حجة الوداع، وذلك بعد دخولِ العربِ في الإسلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ

يعني بذلك: فلا تَخْشوا، أيها المؤمنون، هؤلاء الذين قد يَئِسُوا من دِينكم أنْ تَرجعُوا عنه من الكفار، ولا تخافوهم أنْ يَظْهَرُوا عليكم، فيقهروكم ويردُّوكم عن دِينكم. «وَٱخْشَوْنِ»، يقول: ولكن خَافونِ، إنْ أنتم خالفتم أمري واجترأتم على معصيتي، وتَعَدَّيتم حُدودي، أنْ أُحِلَّ بكم عقابي، وأُنْزِلَ بكم عذابي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، اليوم أكملتُ لكم، أيها المؤمنون، فرائضي عليكم وحُدودي، وأمْرِي إياكم ونهيي، وحلالي وحرامي، وتنزيلي مِنْ ذلكَ ما أنزلتُ منه في كتابي، وتبياني ما بيَّنتُ لكم منه بوحيي على لسانِ رسولي، والأدلة التي نصبتُها لكم على جميع ما بكم الحاجة إليه من أمر دينكم، فأتممتُ لكم جميعَ ذلك، فلا زيادةَ فيه بعد هذا اليوم. قالوا: وكان ذلك في يوم عرفة، عام حجَّ النبي ﷺ حجة الوَدَاع. وقالوا: لم ينزل على النبي ﷺ بعد هذه الآية شيءٌ من الفرائض، ولا تحليل شيء ولا تحريمه، وأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَعِشْ بعد نزولِ هذه الآية إلَّا إحدى وثمانين ليلة.

وقال آخرون: معنى ذلك: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، حَجَّكُم، فأفردتم بالبلد الحرام تحُجُّونه، أنتم أيها المؤمنون، دونَ المشركين، لا يخالطُكُمْ في حَجِّكم مشرك.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، أن يقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ أخبر نبيَّه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم - يوم أنزل هذه الآية على نبيه - دينَهم، بإفرادِهم البلدَ الحرام، وإجلائِه عنه المشركينَ، حتى حَجَّهُ المسلمونَ دونهم لا يخالطهم المشركون.

ولا يَدْفَعُ ذُو عِلْمٍ أنَّ الوحيَ لم ينقطعْ عن رسولِ الله ﷺ إلى أنْ قُبِضَ، بل كان الوحيُ قبلَ وفاتِه أكثر ما كان تتابعاً. فإذْ كان ذلك كذلك وكان قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ﴾ آخرَها نزولاً[1]، وكان ذلك من الأحكامِ والفرائض كان معلوماً أنَّ معنى قوله: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، على خلافِ الوجه الذي تأوَّله مَنْ تأوَّله أعني: كمالَ العباداتِ والأحكام والفرائض.

فإنْ قال قائلٌ: فما جعل قولَ مَنْ قال: «قد نزل بعد ذلك فرض»، أَوْلى من قولِ مَنْ قال: «لم ينزل»؟

قيل: لأنَّ الذي قال: «لم ينزل»، مخبرٌ أنه لا يعلمُ نزولَ فَرْضٍ، والنفي لا يكون شهادة، والشهادةُ قولُ مَنْ قال: «نزل». وغير جائز دفعُ خبرِ الصادقِ فيما أمكن أن يكون فيه صادقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: وأتممتُ نعمتي، أيها المؤمنون، بإظهارِكم على عدوِّي وعدوِّكم من المشركينَ، ونفيي إياهم عن بلادكم، وقطعي طمعهم من

---

(١) حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ الذي ساقه المؤلف (١٠٨٧٠-١٠٨٧٣) وهو في الصحيحين: البخاري (٤٣٦٤) و(٤٦٠٥) و(٤٦٥٤) و(٦٧٤٤)، ومسلم (١٦١٨).

المائدة: ٣

رجوعكم وعَوْدِكم إلى ما كُنْتُمْ عليه من الشرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: ورضيتُ لكم الاستسلامَ لأمري، والانقيادَ لطاعتي، على ما شرعتُ لكم من حدودِهِ وفرائضِه ومعالمه. «دِيناً»، يعني بذلك: طاعة منكم لي.

فإنْ قال قائل: أوَ ما كانَ الله راضياً الإسلامَ لعبادِهِ إلا يوم أنزل هذه الآية؟

قيل: لم يَزَلِ الله راضياً لخلْقِه الإسلامَ ديناً، ولكنه جَلَّ ثناؤُهُ لم يزل يُصَرِّفُ نبيه محمداً ﷺ وأصحابه في درجاتِ الإسلام ومراتبه درجةً بعد درجة، ومرتبةً بعد مرتبة، وحالاً بعد حالٍ، حتى أكملَ لهم شرائعه ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه، ثم قال حين أنزل عليهم هذه الآية: «وَرَضِيتُ لَكُمْ ٱلإِسْلَامَ» بالصفة التي هو بها اليوم، والحال التي أنتم عليها اليوم منه. «دِيناً» فالزموه ولا تفارقوه.

ونزلت هذه الآية بعرفة في حجة الوداع على رسول الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فَمَنِ ٱضْطُرَّ»، فَمَنْ أصابَهُ ضُرٌّ. «فِي مَخْمَصَةٍ»، يعني: في مجاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: فمن اضْطُرَّ في مَخْمصةٍ إلى أكلِ ما حَرَّمتُ عليه منكم، أيها المؤمنون، من الميتةِ، والدمِ ولحمِ الخنزير وسائر ما حرمتُ عليه بهذه الآية. «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ»، يقول: لا متجانفاً لإِثم.

وأما «المتجانف للإِثم»، فإنه المتمايلُ له، المنحرفُ إليه. وهو في هذا الموضع مُرَادٌ به المتعمِّدُ له، القاصدُ إليه، من «جَنَفَ القومُ عليَّ»، إذا مالوا. وكل أعوج فهو «أجنف»، عند العرب.

وأما تجانفُ آكلِ الميتةِ في أكْلِها وفي غيرِها مما حَرَّمَ الله أكْلَهُ على المؤمنِينَ بهذه الآية، للإِثم في حالِ أكله، فهو: تَعَمُّدُهُ أكلَ ذلك لغيرِ دفعِ الضرورةِ النازلةِ به، ولكن لمعصيةِ الله، وخلافِ أمره فيما أمره به من تركِ أكلِ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

وفي هذا الكلام متروك، اكتفى بدلالة ما ذكر عليه منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: فمن اضطر في مخمصة إلى ما حرمتُ عليه مما ذكرتُ في هذه الآية، غيرَ متجانفٍ لإثمٍ فأكلَهُ، فإنَّ الله له غفورٌ رحيم فترك ذِكْرَ «فأكله»، وذكر «له»، لدلالةِ سائرِ ما ذكرَ من الكلامِ عليهما.

وأما قوله: «فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، فإنَّ معناه: فإنَّ الله لمن أكلَ ما حرمتُ عليه بهذه الآية أكلَهُ، في مخمصةٍ، غيرَ متجانفٍ لإثم. «غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، يقول: يسترُ له عن أكلهِ ما أكلَ من ذلك، بعفوه عن مؤاخذتهِ إياه، وصَفْحِه عنه وعن عقوبته عليه. «رَّحِيمٌ»، يقول: وهو به رفيقٌ. ومِنْ رحمتهِ ورِفْقِه به، أباحَ له أكلَ ما أباحَ له أكله من الميتةِ وسائرِ ما ذكر معها في هذه الآية، في حالِ خوفه على نفسه من كَلَبِ الجوع وضُرِّ الحاجةِ العارضةِ ببدنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يسألك، يا محمدُ، أصحابُكَ: ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل؟ فَقُلْ لهم: أُحِلَّ لكم منها. «الطَّيِّبَاتُ»، وهي الحلال الذي أذن لكم رَبُّكُمْ في أكلِهِ من الذبائح، وأحل لكم أيضاً مع ذلك، صيدُ ما عَلَّمْتُم من «الجوارح»، وهُنَّ الكَواسب من سباعِ البهائم.

وترك من قوله: «وَمَا عَلَّمْتُم»، «وصَيْدُ» ما عَلَّمتم من الجوارحِ، اكتفاءً بدلالةِ ما ذكر من الكلام على ما تُرِك ذِكْرُه.

وذلك أنَّ القومَ، فيما بَلَغنا، كانوا سألوا رسولَ الله ﷺ حين أمرهم بقتل الكِلاب، عما يحلُّ لهم اتخاذُه منها وصَيْدُه، فأنزل الله عَزَّ ذِكْرُه فيما سألوا عنه من ذلك هذه الآية. فاستثنى مما كان حرّم اتخاذه منها، وأمر بقُنْيَةِ[1] كلابِ الصيد، وكلابِ الماشية، وكلابِ الحَرْثِ، وأَذِنَ لهم باتخاذ ذلك.

وكُلُّ ما صادَ من الطيرِ والسِّباعِ فمن الجوارح، وأنَّ صيدَ جميعِ ذلك حلالٌ إذا صادَ بعد التعليم، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ عَمَّ بقوله: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ»، كُلَّ جارحةٍ، ولم يخصص منها شيئاً. فكلُّ «جارحة»، كانت بالصفةِ التي وصفَ الله من كُلِّ طائرٍ وسبعٍ، فحلالٌ أكْلُ صَيدِها.

فإنْ ظنَّ ظانٌّ أن في قوله: «مُكَلِّبِينَ»، دلالةً على أنَّ الجوارحَ التي ذكرت في قوله: «وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ»، هي الكلابُ خاصة، فقد ظَنَّ غيرَ الصواب.

---

(١) يعني: اقتناء.

وذلك أنَّ معنى الآية: قُلْ أُحِلَّ لكم، أيها الناسُ، في حالِ مصيرِكُم أصحابَ كلابِ الطيباتُ، وصيدُها ما عَلَّمْتُموه الصيدَ من كواسبِ السباعِ والطير. فقوله: «مُكَلِّبِينَ»، صِفَةٌ للقانص، وإن صاد بغير الكلاب في بعض أحيانه. وهو نظيرُ قولِ القائل يخاطبُ قوماً: أُحِلَّ لَكُمُ الطيباتُ وما علمتم من الجوارح مكلبين مؤمنين. فمعلومٌ أنه إنما عَنَى قائلُ ذلك، إخبارَ القوم أنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ أحَلَّ لهم، في حالِ كونهم أهلَ إيمان، الطيبات وصيد الجوارح التى أعلَمهم أنه لا يحلُّ لهم منه إلا ما صادوه به. فكذلك قوله: «أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ» لذلك نظيره، في أنَّ التكليبَ للقانصِ بالكلاب كان صيده أو بغيرها، لَا أنه إعلامٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه أنه لايحلُّ من الصيد إلا ما صادته الكلاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: تُعَلِّمُونَهُنَّ»، تؤدِّبون الجوارحَ فتعلمونهن طَلَبَ الصيد لكم. «مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱلله»، يعني بذلك: من التأديبِ الذي أدَّبكم الله، والعلمِ الذي عَلَّمكم[1].

وأنَّ «التعليم» الذي ذكره الله في هذه الآية للجوارح، إنما هو أنْ يعلِّمَ الرجلُ جارحَهُ الاستشلاء إذا أُشلي على الصيد[2]، وطلبه إياه إذا أُغري، أو إمساكه عليه، إذا أخذه من غير أنْ يأكلَ منه شيئاً، وأنْ لا يفرَّ منه إذا أراده، وأنْ يجيبَهُ إذا دَعَاهُ. فذلك، هو تعليمُ جميع الجوارح، طيرها وبهائمها. فإنْ أكَلَ من الصيدِ جارحةُ صائدٍ. فجارحَتُهُ حينئذٍ غير مُعَلَّمٍ. فإنْ أدرك صيده صاحبُه حياً فَذَكَّاهُ، حَلَّ له أكْلُه. وإنْ أدركه ميتاً، لم يَحِلَّ له أكله، لأنه مما

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٠٢.
(٢) يعني: أُغري بطلب الصيد.

أكله السَّبعُ الذي حَرَّمَهُ الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾، ولم يدرك ذكاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكُلُوا مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ

يعني بقوله: «فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ»، فكلوا، أيها الناسُ، مما أمسَكَتْ عليكُم جوارِحُكُم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱلله عَلَيْهِ»، على ما أمسكتْ عليكم جوارِحُكم من الصيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: واتقوا الله، أيها الناسُ، فيما أمَرَكُمْ به وفيما نَهَاكم عنه، فاحذروه في ذلك أنْ تُقْدِمُوا على خِلافِه، وأنْ تأكُلوا من صيدِ الجوارح غيرِ المعلَّمةِ، أو مما لم تُمْسِكْ عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تطعَمُوا ما لم يُسَمَّ الله عليه من الصيدِ والذبائح مما صادَهُ أهلُ الأوثان وعَبَدَةُ الأصنامِ ومَنْ لم يُوَحِّد الله من خَلْقِه، أو ذبحوه، فإنَّ الله قد حرَّم ذلك عليكم فاجتنبوه.

ثم خَوَّفهم إنْ هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك ومن غيره. فقال: اعلموا أنَّ الله سريعٌ حسابُهُ لمن حاسَبَهُ على نِعَمه عليه منكم، وشكرِ الشاكر منكم ربَّهُ على ما أنعمَ به عليه بطاعته إياه فيما أمر ونهى، لأنه حافظٌ لجميع ذلك فيكم، فيحيط به، لا يخفى عليه منه شيء، فيجازي المطيعَ منكم بطاعته، والعاصيَ بمعصيته، وقد بيَّن لكم جزاء الفريقين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ»، اليوم أُحِلَّ لكم، أيها المؤمنون، الحلالُ من الذبائحِ والمطاعم دونَ الخبائثِ منها.

وقوله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ»، وذبائحُ أهلِ الكتاب من اليهود والنصارى، وهم الذين أُوتُوا التوراةَ والإنجيل وأنزل عليهم، فَدَانُوا بهما أو بأحدهما. «حِلٌّ لَّكُمْ»، يقول: حلالٌ لكم، أكلُه دونَ ذبائحِ سائرِ أهلِ الشرك الذين لا كتابَ لهم من مشركي العرب وَعَبَدَةِ الأوثانِ والأصنام. فإنَّ مَنْ لم يكن منهم مِمَّن أقَرَّ بتوحيد الله عَزَّ ذِكْرُه ودانَ دينَ أهلِ الكتابِ، فحرامٌ عليكم ذبائحهم.

ثم اختلف فيمن عَنَى الله عَزَّ ذِكْرُه بقوله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ»، من أهل الكتاب.

فقال بعضُهم: عَنَى الله بذلك ذبيحةَ كلِّ كتابيٍ ممن أنزل عليه التوراة والإنجيل، أو ممن دخل في مِلَّتهم فدان دِينَهم، وحَرَّم ما حَرَّموا، وحَلَّلَ ما حَلَّلُوا، منهم ومن غيرهم من سائرِ أجناسِ الأمم.

وقال آخرون: إنما عَنَى بالذين أُوتوا الكتاب في هذه الآية، الذين أنزل عليهم التوراةَ والإنجيلَ من بني إسرائيل وأبنائهم، فأما مَنْ كان دخيلاً فيهم من سائر الأمم ممن دانَ بدينهم وهم من غيرِ بني إسرائيل، فلم يُعْنَ بهذه الآية، وليس هو ممن يَحِلُّ أكلُ ذبائحهِ، لأنه ليس ممن أوتيَ الكتابَ من قَبْل المسلمين. وهذا قولٌ كان محمدٌ بن إدريس الشافعي يقوله: حدثنا بذلك عنه

الربيع، ويتأولُ في ذلك قولَ مَنْ كره ذبائحَ نصارى العرب من الصحابة والتابعين[١].

قال عليٌّ رضوان الله عليه: لا تأكلوا ذبائحَ نصارى بني تغلب، فإنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر[٢].

وهذه الأخبار عن عليٍّ رضوانُ الله عليه، إنما تدل على أنه كان ينهى عن ذبائحِ نصارى بني تغلب، من أجلِ أنهم ليسوا على النصرانيةِ، لتركِهم تحليلَ ما تُحلِّلُ النصارى، وتحريم ما تُحَرِّمُ، غير الخمر. ومَنْ كان منتحلاً مِلَّةً هو غير متمسكٍ منها بشيءٍ، فهو إلى البراءةِ منها أقرب منه إلى اللحاقِ بها وبأهلها. فلذلك نهىَ عليٌّ عن أكلِ ذبائحِ نصارى بني تغلب، لا مِنْ أجلِ أنهم ليسوا من بني إسرائيل.

فإذْ كان ذلك كذلك، وكان إجماعاً من الحُجَّةِ أنْ لا بأسَ بذبيحةِ كُلِّ نصرانيّ ويهوديّ دانَ دينَ النصرانيِّ أو اليهودي، فأحَلَّ ما أحلُّوا وحَرَّمَ ما حرموا، من بني إسرائيل كان أو من غيرهم، فَبَيِّنٌ خطأ ما قال الشافعي في ذلك، وتأويله الذي تأوّله في قوله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ»، أنه ذبائح الذين أوتوا الكتابَ التوراة والإنجيل من بني إسرائيل، وصوابُ ما خالف تأويله ذلك: وقول مَنْ قال: إنَّ كلَّ يهودي ونصراني فحلالٌ ذبيحتُه، من أيِّ أجناس بني آدم كان.

وأمّا «الطعامُ» الذي قال الله: «وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ»، فإنه الذبائح.

---

(١) راجع الأم للشافعي: ٢/١٩٦.

(٢) ساقه الطبري بأسانيد عديدة (١١٢٣٠-١١٢٣٤) ورواه الشافعي في «الأم»: ١٩٦/٢، وساق أثراً عن ابن عباس أيضاً بهذا المعنى (١١٢٣٥).

المائدة: ٥

وأما قوله: «وَطَعَامُكُم حِلٌّ لَّهُمْ»، فإنه يعني: ذبائحكم، أيها المؤمنون، حِلٌّ لأهلِ الكتاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ»، أحل لكم، أيها المؤمنون، المحصنات من المؤمنات وهُنَّ الحرائرُ مِنْهُنَّ أن تنكحوهن «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، يعني: والحرائر من الذين أُعْطُوا الكتابَ، وهمُ اليهودُ والنصارى الذين دَانُوا بما في التوراةِ والإنجيلِ من قبلكم، أيها المؤمنون بمحمدٍ ﷺ من العربِ وسائرِ الناس، أنْ تَنْكِحُوهُنَّ أيضاً. «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ»، يعني: إذا أعطيتم مَنْ نكحتم من مُحْصَناتِكم ومحصناتِهم. «أُجُورَهُنَّ»، وهي مُهُورهُن.

واختلف أهلُ التأويل في المحصناتِ اللاتي عَنَاهُنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك الحرائرَ خاصة، فاجرةً كانتْ أو عفيفةً. وأجاز قائلو هذه المقالةِ نِكَاح الحرة، مؤمنةً كانتْ أو كتابيةً من اليهود والنصارى، من أيِّ أجناسِ الناسِ كانت، بعد أن تكونَ كتابية، فاجرةً كانت أو عفيفةً. وحَرَّمُوا إماءَ أهلِ الكتاب أن يُتَزَوَّجن بكلِّ حالٍ، لأن الله جَلَّ ثناؤُهُ شرطَ في نكاحِ الإماء الإيمانَ بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥].

وقال آخرون: إنما عَنَى الله بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، العفائفَ من الفريقين، إماءً

كُنَّ أو حرائرَ. فأجاز قائلو هذه المقالةِ نكاحَ إماء أهلِ الكتابِ الدائناتِ دِينَهم بهذه الآية، وحَرَّموا البغايا من المؤمناتِ وأهلِ الكتاب.

ثم اختلف أهلُ التأويل في حكم قوله عَزَّ ذِكْرُه: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، أعامٌّ أم خاصٌّ؟

فقال بعضهم: هو عامٌّ في العفائفِ منهن، لأنَّ «المحصنات»، العفائف. وللمسلم أنْ يتزوجَ كُلَّ حُرَّةٍ وأَمَةٍ كتابيةٍ، حربيةً كانتْ أو ذميَّةً.

واعتلُّوا في ذلك بظاهرِ قوله تعالى: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، وأن المعنيَّ بهن العفائف، كائنةً مَنْ كانت منهن. وهذا قولُ مَنْ قال: عَنَى بـ«المحصنات» في هذا الموضع: العفائف.

وقال آخرون: بل اللواتي عَنَى بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، الحرائر منهن، والآيةُ عامة في جميعهن. فنكاح جميع الحرائرِ اليهود والنصارى جائزٌ، حربيّات كُنَّ أو ذميات، من أيِّ أجناسِ اليهود والنصارى كُنَّ. وهذا قولُ جماعةٍ من المتقدمين والمتأخرين.

وقال آخرون منهم: بل عَنَى بذلك نِكاحَ نساء بني إسرائيل الكتابياتِ منهن خاصةً، دونِ سائرِ أجناسِ الأممِ الذين دانوا باليهودية والنصرانية. وذلك قول الشافعي[1] ومَنْ قال بقوله.

وقال آخرون: بل ذلك معنيٌّ به نساءُ أهلِ الكتاب الذين لهم من المسلمين ذِمَّةٌ وعهدٌ. فأما أهلُ الحرب، فإنَّ نساءهم حرام على المسلمين.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ»، حرائرَ المؤمنين وأهلِ

(١) الأم: ٥/٦، وسنن البيهقي: ٧/١٧٣.

الكتـاب. لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ لم يأذَنْ بنكاحِ الإماء الأحرارِ في الحالِ التي أباحهن لهم، إلا أنْ يَكُنَّ مؤمناتٍ، فقال عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فلم يُبِحْ منهن إلا المؤمنات. فلو كان مراداً بقوله: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ»، العفائف، لدخل العفائفُ من إمائِهم في الإباحة، وخرج منها غيرُ العفائفِ من حرائرهم وحرائرِ أهل الإيمان. وقد أحَلَّ الله لنا حرائرَ المؤمنات، وإنْ كُنَّ قد أتينَ بفاحشةٍ بقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [التوبة: ٢٩].

فنكاحُ حرائرِ المسلمين وأهلِ الكتاب حلالٌ للمؤمنين، كُنَّ قد أتينَ بفاحشةٍ أو لم يأتين بفاحشة، ذميةً كانتْ أو حربيّةً، بعد أنْ تكون بموضعٍ لا يخافُ الناكحُ فيه على ولده أن يُجْبَرَ على الكفر، بظاهرِ قولِ الله جَلَّ وعزَّ: «وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ».

فأما قولُ الذي قال: «عَنَى بذلك نساءَ بني إسرائيل، الكتابيّات منهن خاصة»[1] فقولٌ لا يوجبُ التشاغل بالبيانِ عنه، لشذوذهِ والخروجِ عما عليه علماءُ الأمة، من تحليلِ نساء جميعِ اليهودِ والنصارى.

وأما قوله: «إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ»، فإنَّ «الأجر»: العِوَض الذي يبذله الزوجُ للمرأة للاستمتاعِ بها، وهو المهر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ

(١) يعني قول الشافعي.

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أُحِلَّ لكم المحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أُوتوا الكتابَ من قَبْلِكم، وأنتم محصنون غير مسافحين ولا مُتَّخِذي أخدان.

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «مُحْصِنِينَ»، أعِفَّاء. «غَيْرَ مُسَافِحِينَ»، يعني: لا معالنينَ بالسِّفاحِ بكُلِّ فاجرةٍ، وهو الفجور. «وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ»، يقول: ولا منفردينَ ببغيَّةٍ واحدةٍ، قد خَادَنَها وخَادَنَتْهُ، واتخذها لنفسه صديقةً يفجرُ بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٥﴾

يعني بقـولـه جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلإِيمَانِ» ومَنْ يجحد ما أمَرَ الله بالتصديقِ به، من توحيدِ الله ونبوّةِ محمدٍ ﷺ وما جاء به من عند الله، وهو «الإيمان»، الذي قال الله جَلَّ ثناؤُهُ: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، يقول: فقد بَطلَ ثوابُ عمله الذي كان يعمله في الدنيا، يرجو أن يُدْرِكَ به منزلةً عنـد الله. «وَهُـوَ فِي الآخِـرَةِ مِنَ ٱلْخَـاسِـرِينَ»، يقول: وهو في الآخرة من الهالكين، الذين غَبَنوا أَنْفُسَهم حظوظَها من ثوابِ الله بكفرِهم بمحمدٍ ﷺ، وعملِهم بغير طاعةِ الله.

وقد ذكر أن قوله: «وَمَن يَكْفُرْ بِٱلإِيمَانِ»، عَنَى به أهلَ الكتاب، وأنه أنزل على رسول الله ﷺ من أجلِ قوم تَحَرَّجُوا نِكاحَ نساءِ أهل الكتاب لما قيل لهم: «أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُم حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ».

قيل: وجه تأويله ذلك كذلك، أنَّ «الإيمانَ» هو التصديقُ بالله وبرسله

وما ابتغاهم به من دِينه. و«الكفرَ» جحودُ ذلك. قالوا: فمعنى «الكفر بالإيمان»، هو جحود الله وجحوده توحيده. فَفَسَّرُوا معنى الكلمةِ بما أُريدَ بها، وأعرضوا عن تفسيرِ الكلمةِ على حقيقةِ ألفاظها وظاهرها في التلاوة.

فإنْ قال قائل: فما تأويلها على ظاهرها وحقيقة ألفاظها؟

قيل: تأويلها: ومَنْ يأبَ الإيمانَ بالله، ويمتنع من توحيدهِ والطاعةِ له فيما أمَرَهُ به ونَهاهُ عنه. فقد حَبِطَ عَملهُ. وذلك أن «الكُفْرَ» هو الجحودُ في كلام العربِ، و«الإيمان» التصديق والإقرار. ومَنْ أبى التصديقَ بتوحيدِ الله والإقرارَ به، فهو من الكافرينَ. فلذلك تأويلُ الكلام على وجهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يا أيها الذين آمنوا، إذا قُمْتُمْ إلى الصلاةِ، وأنتم على غيرِ طهرِ الصلاةِ، فاغسلُوا وجوهَكُمْ بالماءِ وأيديكم إلى المرافق.

ثم اختلف أهلُ التأويل في قوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَىٰ ٱلصَّلاَةِ»، أمرادٌ به كُلَّ حالٍ قامَ إليها، أو بعضها؟ وأيّ أحوالِ القيام إليها؟

فقال بعضهم في ذلك بنحوِ ما قُلْنَا فيه، من أنه مَعْنيٌّ به بعضُ أحوالِ القيام إليها دونَ كُلِّ الأحوال، وأنّ الحالَ التي عُني بها، حالُ القيامِ إليها على غير طُهْر.

وقال آخرون: معنى: ذلك: يا أيُّها الذينَ آمنوا إذا قمتم من نومِكم إلى الصلاة.

وقال آخرون: بل ذلكَ معنيٌّ به كل حال قيامِ المرءِ إلى صلاته، أنْ يجدِّد لها طُهْراً.

وقال آخرون: بل كان هذا أمراً من الله عَزَّ ذِكْرُه نبيَّهُ ﷺ والمؤمنينَ به: أنْ يتوضَّأ لِكُلِّ صلاةٍ، ثم نُسخ ذلك بالتخفيف.

وأَوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب، قولُ مَنْ قال: إن الله عَنَى بقوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَىٰ ٱلصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا»، جميعَ أحوالِ قيامِ القائمِ إلى الصلاة، غير أنه أمرُ فرضٍ بغسل ما أمرَ الله بغسلِهِ القائمَ إلى صلاته، بعد حَدَثٍ كانَ منه ناقضٍ طهارتَهُ، وقبل إحداثِ الوضوءِ منه - وأمرُ نَدْبٍ لمن كان على طُهْرٍ قد تَقَدَّمَ منه، ولم يكن منه بعده حَدَثٌ ينقضُ طهارته. ولذلك كان عليه السلام يتوضأ لكل صلاةٍ قبل فتحِ مكة، ثم صلَّى يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلم أُمَّتَهُ أنَّ ما كان يفعل عليه السلام من تجديدِ الطهر لكلِّ صلاةٍ، إنما كان منه أخذاً بالفضل، وإيثاراً منه لأحَبِّ الأمرين إلى الله، ومسارعةً منه إلى ما ندبه إليه ربّه - لا على أنَّ ذلك كان عليه فرضاً واجباً.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أن في الحديث الذي ذكرناه عن عبدالله بن حنظلة أن النبيَّ ﷺ أمر بالوضوء عند كل صلاة[1]، دلالةً على خلافِ ما قلنا منْ أنَّ ذلك كان ندباً للنبيِّ عليه السلام وأصحابه - وخُيِّلَ إليه أنَّ ذلك كان على الوجوب - فقد ظَنَّ غيرَ الصواب.

وذلك أنَّ قولَ القائلِ: «أمرَ الله نبيه ﷺ بكذا وكذا»، محتملٌ من وجوهٍ لأمرِ الإيجابِ، والإرشادِ والندبِ، والإباحةِ، والإطلاق. وإذ كان محتملاً ما ذكرنا من الأوجه، كان أولى وجوهه به ما على صحته الحجةُ مُجْمعةٌ، دونَ ما

(١) أخرجه الطبري (١١٣٢٨) و(١١٣٢٩)، وهو عند أبي داود (٤٨)، وصحح ابن كثير إسناده في تفسيره (٨٣/٣). وانظر فتح الباري: ٢٣٢/١.

لم يكن على صحته برهانٌ يوجب حقيقة مدَّعيه[١]. وقد أجمعت الحُجَّةُ على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يوجب على نبيه ﷺ ولا على عباده، فرضَ الوضوء لكلِّ صلاةٍ، ثم نسخ ذلك. ففي إجماعها على ذلك، الدلالةُ الواضحةُ على صِحَّةِ ما قلنا: مِنْ أنَّ فِعْلَ النبيِّ ﷺ ما كان يفعل من ذلك، كان على ما وصَفْنَا، من إيثارهِ فِعْلَ ما نَدَبَهُ الله عَزَّ ذِكْرُه إلى فِعْلِهِ وندبَ إليه عبادَهُ المؤمنين بقوله: «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق» الآية، وأنَّ تَرْكَهُ في ذلك الحال الذي تركه، كان ترخيصاً لأمته، وإعلاماً منه لهم أنَّ ذلك غير واجبٍ ولا لازمٍ له ولا لهم، إلاَّ من حَدَثٍ يوجب نقضَ الطُّهْرِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ

اختلف أهلُ التأويل في حَدِّ «الوجه» الذي أمر الله بغسله القائمَ إلى الصلاةِ بقوله: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم».

فقال بعضهم: هو ما ظهر من بَشَرةِ الإنسان، من قُصَاص شعر رأسه[٢]، منحدراً إلى مُنْقَطعِ ذَقَنه طولاً، وما بين الأذنين عرضاً. قالوا: فأمَّا الأذنُ وما بطن من داخلِ الفم والأنفِ والعينِ، فليس من الوجه. وغير واجب غسلُ ذلك ولا غسل شيءٍ منه في الوضوء. قالوا: وأما ما غطاه الشعر منه، كالذقن الذي غطاه شعر اللحية، والصُّدغين اللذين قد غطاهما عِذَار اللحية[٣]، فإنَّ إمرارَ الماء على ما علا ذلك من الشعر، مجزِىءٌ من غسل ما بطن منه من بشرة

---

(١) يعني: حق مُدَّعيه، والطبري يستعمل حقيقة بمعنى حق.

(٢) قصاص الشعر: نهاية منبته من مقدم الرأس.

(٣) عذار اللحية: جانبا اللحية.

الوجه، لأنَّ «الوجه» عندهم: هو ما عَنَّ لعينِ الناظرِ مَن ذلك فقابلها، دونَ غيره.

وقال آخرون: «الوجه»، كُلُّ ما دونَ منابتِ شعرِ الرأسِ إلى منقطع الذَّقَن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ما ظهر من ذلك لعينِ الناظرِ وما بَطَن منه من منابتِ شعرِ اللحية النابتِ على الذَّقَن وعلى العارضين، وما كان منه داخل الفم والأنف، وما أقبل من الأذنين على الوجه. كل ذلك عندهم من «الوجه» الذي أمر الله بغسله بقوله: «فاغسلوا وجوهكم». وقالوا: إن ترك شيئاً من ذلك المتوضِّئ فلم يغسله، لم تُجْزِه صلاتُه بوضوئِه ذلك.

وأوْلى الأقوالِ بالصوابِ في ذلك عندنا، قولُ من قال: «الوجه» الذي أمر الله جَلَّ ذِكْرُهُ بغسله القائمَ إلى صلاته: كُلُّ ما انحدرَ عن منابتِ شَعَر الرأسِ إلى مُنقطع الذَّقَن طولاً، وما بين الأذنين عرضاً، مما هو ظاهرٌ لعينِ النـاظـر، دونَ ما بطن من الفم والأنف والعين، ودون ما غَطَّاهُ شعـرُ اللحيةِ والعارضين والشاربين فستره عن أبصارِ الناظرين، ودونَ الأُذنين.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب ـ وإنْ كان ما تحت شعر اللحية والشاربين قد كان «وجهاً» يجب غسلهُ قبل نباتِ الشعرِ الساتر عن أعين الناظرين، على القائم إلى صلاته ـ لإجماعِ جميعِهم على أنَّ العينين من الوجه، ثم هم ـ مع إجماعهم على ذلك ـ مُجْمِعُونَ على أنَّ غسلَ ما عَلاَهما من أجفانهما دون إيصالِ الماء إلى ما تحت الأجفان منهما، مُجْزِئ.

فإذْ كان ذلك منهم إجماعاً بتوقيفِ الرسولِ ﷺ أُمَّتَهُ على ذلك، فنظير ذلك كل ما عَلاَهُ شيءٌ من مواضعِ الوضوءِ من جَسَدِ ابن آدمَ من نفس خَلْقِه ساتِرَه، لا يصلُ الماء إليه إلا بكُلْفةٍ ومؤونةٍ وعلاجٍ، قياساً لما ذكرنا من حكم العينين في ذلك.

فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أنَّ مِثْلَ العينين في مؤونة إيصالِ الماء إليهمــا عنـد الـوضـوء، ما بَطَنَ من الأنفِ والفم وشَعَـر اللحيةِ والصـدغين والشاربين، لأنَّ كُلَّ ذلك لا يصلُ الماءُ إليه إلا بعلاجٍ لإيصالِ الماء إليه، نحو كلفة علاج الحدقتين لإيصالِ الماء إليهما أو أشدّ.

وإذا كان ذلك كذلك، كان بَيِّناً أنَّ غسلَ مَنْ غسل من الصحابة والتابعين ما تحتَ منابتِ شعرِ اللحية والعارضين والشاربين، وما بطن من الأنف والفم، إنما كان إيثاراً منه لأشَقِّ الأمْرَيْنِ عليه: من غسل ذلك، وترك غسله، كما آثر ابنُ عمر غسلَ ما تحت أجفانِ العينين بالماء بصبِّه الماء في ذلك ـ لا على أنَّ ذلك كان عليه عنده فرضاً واجباً.

فأما مَنْ ظَنَّ أنَّ ذلك من فِعْلِهم كان على وجه الإيجابِ والفرض، فإنه خالف في ذلك بقوله منهاجَهم، وأغفل سبيلَ القياس، لأنَّ القياسَ هو ما وصفنا من تمثيل المختلف فيه من ذلك، بالأصلِ المُجْمَعِ عليه من حكم العينين، وأنْ لا خبرَ عن واحدٍ من أصحاب رسولِ الله ﷺ أوجب على تاركِ إيصالِ المـاء في وضـوئـه إلى أصـولِ شعـرِ لحيتـه وعـارضيه، وتـاركِ المضمضـة والاستنشاق، إعادةَ صلاته إذا صَلَّى بطهره ذلك. ففي ذلك أوضحُ الدليلِ على صحة ما قلنا من أنَّ فِعْلَهم ما فعلوا من ذلك، كان إيثاراً منهم لأفضل الفعلين، من الترك والغسل.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ في الأخبار التي رُويت عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إذا توضأ أحدكم فليستنثر»[1]، دليلاً على وجوب الاستنثار: فإنَّ في إجماعِ الحُجَّة على أنَّ ذلك غيرُ فرضٍ واجب، يجب على مَنْ تَرَكَهُ إعادة الصلاةِ التي

---

(١) هكذا رواه الطبري معلقاً، وهو قطعة من حديث أبي هريرة عند البخاري (١٦١) و(١٦٢)، ومسلم (٢٣٧) و(٢٣٨).

صَلاَّها قَبْلَ غسله، ما يُغْني عن إكثارِ القولِ فيه[1].

وأما الأذنان، فإنَّ في إجماع جميعهم على أنَّ تَرْكَ غسلهما، أو غسلَ ما أقبل منهما مع الوجه، غير مُفْسدٍ صلاةَ مَنْ صَلَّى بطهرهِ الذي ترك فيه غسلهما ـ مع إجماعهم جميعاً على أنه لو ترك غسلَ شيءٍ مما يجب عليه غسله من وجهه في وضوئه، أنَّ صلاته لا تجزئه بطهوره ذلك ـ ما يُنبىءُ عن أنهما ليسا من الوجه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ

اختلف أهلُ التأويل في «المرافق»، هل هي من اليدِ الواجبِ غسلها، أم لا؟ بعد إجماع جميعهم على أنَّ غسلَ اليدِ إليها واجب.

فقال مالك بن أنس ـ وسئل عن قولِ الله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق»، أترى أن يخلف المرفقين في الوضوء؟ ـ قال: الذي أمر به أن يُبْلغ «المرفقين»، قال تبارك وتعالى: «فاغسلوا وجوهكم»، فذهب هذا يغسل خلفه!!![2]. فقيل له: فإنما يغسل إلى المرفقين والكعبين لا يجاوزهما؟ فقال: لا أدري «ما لايجاوزهما»، أما الذي أمر به أن يبلغ به فهذا: إلى المرفقين والكعبين.

وقال الشافعي: «لم أعلمْ مخالفاً في أنَّ المرافق فيما يغسل»، كأنه يذهب إلى أن معناها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى أن تُغْسَل المرافق.

وقال آخرون: إنما أوجب الله بقوله: «وأيديكم إلى المرافق»، غسلَ اليدين إلى المرفقين، فالمرفقان غايةٌ لما أوجبَ الله غسلَهُ من آخرِ اليدِ، والغايةُ

---

(١) وانظر فتح الباري (١/٢٦٢) ففيه تفصيل.

(٢) يعني: قفاه!

غيرُ داخلةٍ في الحدِّ، كما غير داخل الليلُ فيما أوجبَ الله تعالى على عبادِه من الصوم بقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. لأنَّ الليلَ غايةٌ لصوم الصائم، إذا بلغه فقد قضى ما عليه. قالوا: فكذلك المرافق في قوله: «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق»، غاية لما أوجبَ الله غسلَهُ من اليد. وهذا قول زُفَر بن الهذيل[1].

والصوابُ من القول في ذلك عندنا: أنَّ غسلَ اليدين إلى المرفقين من الفرضِ الذي إنْ تركه أو شيئاً منه تاركٌ، لم تجزه الصلاة مع تركه غسلَهُ. فأما المرفقان وما وراءهما، فإنَّ غسل ذلك من الندب الذي نَدَبَ إليه ﷺ أمته بقوله: «أمتي الغرُّ المحجلون من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يُطيل غُرَّته فليفعل»[2].

فلا تفسد صلاة تاركِ غسلِهما وغسل ما وراءهما، لما قد بَيَّنا قَبْلُ فيما مضى: مِنْ أنَّ كُلَّ غايةٍ حُدَّتْ بـ«إلى»، فقد تحتمل في كلامِ العرب دخول الغاية في الحدِّ وخروجها منه. وإذا احتمل الكلام ذلك، لم يجز لأحدٍ القضاء بأنها داخلة فيه، إلا لمن لا يجوز خلافه فيما بيَّن وحكَم ـ ولا حُكمَ بأنَّ المرافقَ داخلةٌ فيما يجب غسله عندنا ـ ممن يجبُ التسليمُ بحكمه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾

اختلف أهلُ التأويل في صفة «المسح» الذي أمر الله به بقوله: «وَٱمْسَحُوا بِرُؤوسِكُمْ».

---

(١) زفر بن الهذيل العنبري، الفقيه المشهور من أجلاء أصحاب أبي حنيفة.

(٢) ذكره المؤلف معلقاً، وهو في الصحيحين: البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦) من حديث أبي هريرة.

فقال بعضهم: وامسَحُوا بما بَدَا لكم أنْ تمسحوا به من رؤوسكم بالماء، إذا قمتم إلى الصلاة.

وقـال آخرون: معنى ذلك: فامسحوا بجميعِ رؤوسكم. قالوا: إنْ لم يمسح بجميعِ رأسهِ بالماء، لم تجزه الصلاةُ بوضوئهِ ذلك.

وقال آخرون: لايجزئ مسح الرأسِ بأقلَّ من ثلاثِ أصابع. وهذا قولُ أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أمرَ بالمسح برأسه القائمَ إلى صلاته، مع سائر ما أمره بغسلهِ معه أو مسحهِ، ولم يحدَّ ذلك بحدٍّ لا يجوزُ التقصيرُ عنه ولا يجاوزه. وإذْ كان ذلك كذلك، فما مسح به المتوضىءُ من رأسه فاستحقَّ بمسحهِ ذلك أنْ يقال: «مسح برأسه»، فقد أدَّى ما فرض الله عليه من مسحِ ذلك، لدخولهِ فيما لزمه اسم «ماسحٍ برأسه» إذا قام إلى صلاته.

فإنْ قال لنـا قائل: فإنَّ الله قد قال في التيمم: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، أفيجزىءُ المسحُ ببعضِ الوجهِ واليدين في التيمم؟

قيل له: كلّ ما مسح من ذلك بالتراب، فيما تنازعت فيه العلماء ـ فقال بعضهم: «يجزيه ذلك من التيمم»، وقال بعضهم: «لايجزيه» ـ فهو مُجْزِئه، لدخوله في اسم «الماسحين به».

ومـا كان من ذلك مُجْمَعاً على أنه غير مُجْزِئه، فمسلَّمٌ لِمَا جاءت به الحجةُ نقلاً عن نبيِّها ﷺ. ولا حجةَ لأحدٍ علينا في ذلك، إذ كان من قولنا: إنَّ ما جاء في آي الكتـاب عامّـاً في معنىً، فالواجبُ من الحُكْمِ أنه على عُمومهِ، حتى يَخُصَّهُ ما يجبُ التسليمُ له. فإذا خُصَّ منه شيءٌ كان ما خُصَّ منه خارجاً من ظاهرهِ وحُكْم سائرهِ على العموم.

و«الـرأس» الـذي أمـر الله جلّ وعـزّ بالمسـح به بقـولـه: «وَامْسَحُـوا بِرُؤوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ»، هو منابتُ شعرِ الرأس، دونَ ما جاوزَ ذلك إلى القفا ممَّا استدبر، ودونَ ما انحدر عن ذلك مما استقبلَ من قبلِ وجه إلى الجبهةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ

اختلفث القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقـرأهُ جمـاعةٌ من قَرَأَةِ الحجازِ والعراق: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، نصباً، فتأويله: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديَكم إلى المرافق وأرجلَكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم. وإذا قرئَ كذلك، كان من المُؤَخَّرِ الـذي معناه التقديمُ، وتكون «الأرجل» منصوبة عطفاً على «الأيدي». وتأوَّلَ قارِئُو ذلك كذلك، أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ: إنما أمر عباده بغسلِ الأرجل دونَ المسح بها.

وقـرأ ذلـك آخـرون من قَرَأَةِ الحجـاز والعـراق: ﴿فَـامْسَحُـوا بِرُؤوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾، بخفضِ «الأرجل». وتأول قارئو ذلك كذلك: أنَّ الله إنما أمرَ عبـادَهُ بمسح الأرجل في الوضوء دونَ غَسْلِها، وجعلوا «الأرجلَ» عطفاً على «الرأسِ»، فخفضوها لذلك.

والصواب من القول عندنا في ذلك. أنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه أمر بعمومِ مسحِ الرجلين بالماء في الوضوء، كما أمر بعمومِ مسح الوجه بالتراب في التيمم. وإذا فعـل ذلـك بهمـا المتـوضئ، كان مستحقًّا اسم «ماسحٍ غاسلٍ»، لأنَّ «غسلهما»، إمرارُ الماء عليهما أو إصابتهما بالماء، و«مسحهما»، إمرارُ اليدِ أو ما قامَ مقامَ اليدِ عليهما. فإذا فعل ذلك بهما فاعلٌ فهو «غاسلٌ ماسح».

ولـذلـك ـ من احتمـال «المسح» المعنيين اللذين وصفتُ من العمومِ

والخصوصِ ، اللذين أحدهما مسح ببعض، والآخر مسح بالجميع - اختلفت قراءةُ القَرَأةِ في قوله: «وأرجلكم»، فَنَصَبها بعضُهم، توجيهاً منه ذلك إلى أنَّ الفرضَ فيهما الغسلُ، وإنكاراً منه المسحَ عليهما، مع تظاهرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بعمومِ مسحهما بالماء. وخفضها بعضهم، توجيهاً منه ذلك إلى أنَّ الفرضَ فيهما المسحُ.

ولما قلنا في تأويل ذلك - إنه معنيٌّ بِهِ عموم مسحِ الرجلين بالماء - كَرِهَ مَنْ كره للمتوضيءَ الاجتزاءَ بإدخالِ رجليه في الماء دونَ مَسْحِهما بيدهِ أو بما قامَ مقامَ اليد، توجيهاً منه قوله: «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين»، إلى مسح جميعهما عامًّا باليد، أو بما قامَ مقامَ اليدِ، دونَ بعضهما، مع غسلهما بالماء.

فإذا كان «المسحَ» المَعْنَيان اللذان وصفنا: من عمومِ الرجلينِ بالماء، وخصوص بعضهما به، وكان صحيحاً، أنَّ مُرادَ الله من مسحهما العمومُ، وكان لعمومهما بذلك معنى «الغسل» و«المسح»، فبيِّنٌ صوابُ قَرَأَةِ القراءتين جميعاً، أعني النصبَ في «الأرجل» والخفض. لأنَّ في عموم الرجلين بمَسحهما بالماء غسلُهما، وفي إمرارِ اليد وما قام مقامَ اليدِ عليهما مسحُهما.

فوجهُ صواب قراءة مَنْ قرأ ذلك نصباً، لما في ذلك من معنى عمومها بإمرارِ الماء عليهما.

ووجهُ صواب قراءةِ مَنْ قرأه خفضاً، لما في ذلك من إمرارِ اليد عليهما، أو ما قام مقام اليد، مسحاً بهما.

غير أنَّ ذلكَ وإنْ كان كذلك، وكانت القراءتان كلتاهما حسناً صواباً، فأعجبُ القراءتين إليَّ أنْ أقرأها، قراءة مَنْ قرأ ذلك خفضاً، لما وصفتُ من جمع «المسح» المَعْنَيين اللذين وصفتُ، ولأنه بعد قوله: «وامسحوا

برؤوسكم»، فالعطفُ به على «الرؤوس» مع قُرْبه منه، أوْلى من العطفِ به على «الأيدي»، وقد حِيْلَ بينه وبينها بقوله: «وامسحوا برؤوسكم».

فإنْ قال قائل: وما الدليلُ على أنَّ المرادَ بالمسح في الرجلين العموم، دونَ أن يكون خصوصاً، نظيرَ قولك في المسح بالرأس؟

قيل: الدليلُ على ذلك، تظاهرُ الأخبارِ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ويل للأعقابِ وبُطونِ الأقدامِ من النار»[1]. ولو كان مسحُ بعضِ القدمِ مجزئاً من عمومها بذلك، لما كان لها الويلُ بتركِ ما تُرك مَسْحُهُ منها بالماء بعد أنْ يُمسحَ بعضُها، لأنَّ مَنْ أدَّى فَرْضَ الله عليه فيما لزمه غُسْلُه منها، لم يستحق الويلَ، بل يجب أنْ يكونَ له الثوابُ الجزيل. وفي وجوب الويل لعَقِب تارك غسل عَقِبه في وضـوئه، أوضحُ الدليلِ على وجوب فرض العمومِ بمسح جميعِ القدم بالماء، وصحةِ ما قلنا في ذلك، وفسادِ ما خالفه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾

واختلف أهلُ التأويل في «الكعب»:

والصوابُ من القول في ذلك، أنَّ «الكعبين»، هما العظمان اللذان في مفصل الساق والقدم، تُسَمِّيهما العربُ «المِنْجَمين». وكان بعضُ أهلِ العلم بكلام العرب يقول: هما عظما الساق في طرفها.

---

(١) ساقه المؤلف من حديث أبي هريرة (١١٤٩٧-١١٥٠٤)، وعائشة (١١٥٠٥-١١٥١٠)، وجابر بن عبدالله الأنصاري (١١٥١١-١١٥١٨)، وعبدالله بن عمرو بن العاص (١١٥٢٠-١١٥٢٤)، وأبي أمامة (١١٥٢٥). وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة: البخاري: (١٦٥)، ومسلم (٢٤٢)، ومن حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: البخاري (١٦٣)، ومسلم (٢٤١). وأخرجه مسلم (٢٤٠) من حديث عائشة.

واختلف أهلُ العلم في وجوبِ غسلهما في الوضوء، وفي الحدِّ الذي ينبغي أن يبلغ بالغسل إليه من الرجلين، نحو اختلافِهم في وجوبِ غسلِ المرفقين، وفي الحدِّ الذي ينبغي أن يبلغ بالغسل إليه من اليدين. وقد ذكرنا ذلك، ودَلَّلْنَا على الصحيحِ من القولِ فيه بعلله فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا۟﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وإنْ كنتم جنباً»، وإن كنتم أصابتكم جنابةٌ قبلَ أنْ تقومُوا إلى صلاتِكم فقمتم إليها. «فاطَّهَّروا»، يقول: فَتَطَهَّرُوا بالاغتسالِ منها قبل دخولِكم في صلاتِكم التي قمتم إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: وإنْ كنتم جَرْحَى أو مُجَدَّرين، وأنتم جنب.

وأما قوله: «أو على سَفَرٍ»، فإنه يقول: وإنْ كنتم مسافرين وأنتم جنب. «أو جاء أحدٌ منكم من الغائط»، يقول: أو جاء أحدكم من الغائطِ وقد قَضَى حاجَتَـهُ فيه وهو مسافر. وإنما عَنَى بذكر مجيئِهِ منه، قضاء حاجته فيه. «أو لامستم النساء»، يقول أو جامعتم النساء وأنتم مسافرون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً»، فإنْ لم تجدوا أيها المؤمنون، إذا قمتم إلى الصلاةِ وأنتم مَرْضَى مقيمونَ، أو على سفرٍ أصحَّاء، أو قد جاء أحدٌ منكم من قضاءِ حاجته، أو جامَعَ أهلَهُ في سفرِهِ. «ماء فتيمموا صعيداً طيباً»، يقول: فَتَعَمَّدُوا واقصدوا وجهَ الأرض. «طيباً»، يعني: طاهراً نظيفاً غير قذرٍ ولا نجسٍ، جائزاً لكم حلالاً. «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه»، يقول: فاضربوا بأيديكم الصعيدَ الذي تَيَمَّمْتُموه وتَعَمَّدْتُموه بأيديكم، فامسحُوا بوجوهكم وأيديكم مما عَلِقَ بأيديكم. «منه»، يعني: من الصعيدِ الذي ضربتموه بأيديكم، من تُرابِهِ وغباره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ما يريدُ الله ليجعل عليكم من حرج»، ما يريدُ الله بما فَرَضَ عليكم من الوضوءِ إذا قمتم إلى صلاتكم، والغُسل من جنابتكم، والتيمم صَعيداً طيباً عند عدمكم الماء. «ليجعلَ عليكم من حَرَجٍ»، ليلزمكم في دينكم من ضِيقٍ ولا ليعنتَكُمْ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ولكن يريد ليطهركم»، ولكن الله يريد أن يطهِّركم، بما فَرَضَ عليكم من الوضوء من الأحداث، والغسلِ من الجنابة، والتيمم عند عدم الماء، فَتنَظَّفُوا وتطهَّرُوا بذلك أجسامكم من الذنوب.

وقوله: «وليتم نِعْمَتَهُ عليكم»، فإنه يقول: ويريدُ رَبُّكم مع تطهيركم من ذنوبكم بطاعتِكم إياهُ فيما فَرَضَ عليكم من الوضوء والغسل إذا قمتم إلى الصلاة، بالماء إنْ وجدتموه، وتَيَمُّمكُم إذا لم تَجِدُوه أنْ يُتِمَّ نعمتهُ عليكم بإباحتِه لكم التيممَ، وتَصْييرهُ لكم الصعيدَ الطيبَ طهوراً، رخصةً منه لكم في ذلك، مع سائر نِعَمه التي أنعم بها عليكم، أيها المؤمنون. «لَعَلَّكُمْ تشكرون»، يقول: لكي تشكروا الله على نِعَمِه التي أنعمها عليكم، بطاعتِكم إياه فيما أمركم ونهاكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: واذكروا نعمةَ الله عليكم، أيها المؤمنون، بالعقودِ التي عقدتموها لله على أنفسكم، واذكروا نعمته عليكم في ذلك بأنْ هَدَاكُم من العقودِ لما فيه الرِّضَى، ووفَّقَكُمْ لما فيه نَجَاتُكم من الضلالةِ والرَّدَى، في نِعمٍ غيرها جَمَّة.

وأما قوله: «وميثاقه الذي واثَقَكُمْ به»، فإنه يعني: واذكروا أيضاً، أيها المؤمنون في نعم الله التي أنعم عليكم. «ميثاقه الذي واثقكم به»، وهو عهدُه الذي عاهدكم به.

وأما قوله: «واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور»، فإنه وعيدٌ من الله جَلَّ اسمه للمؤمنين كانوا برسولِهِ ﷺ من أصحابه، وتَهَدُّداً لهم أنْ ينقضوا ميثاقَ الله الذي واثقهم به في رسوله[1]، وعهدهم الذي عاهدوه فيه ـ بأن يضمروا له

(١) قوله: «بأن يضمروا...» متعلق «أن ينقضوا ميثاق الله...» بأن يضمروا.

خِلَافَ ما أبدوا له بألسنتهم.

يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: واتقو الله، أيها المؤمنون، فخافوهُ أنْ تُبَدِّلُوا عهدَهُ وتنقضوا ميثاقَهُ الذي واثقكم به، أو تخالفوا ما ضَمِنْتُمْ له بقولكم: «سمعنا وأطعنا»، بأنْ تُضمِرُوا له غيرَ الوفاءِ بذلك في أنفسكم، فإنَّ الله مُطَّلعٌ على ضمائرِ صدوركم، وعالِمٌ بما تُخْفِيه نفوسُكم، لا يَخْفى عليه شيءٌ من ذلك، فيُحِلّ بكم من عقوبته ما لا قِبَلَ لكم به، كالذي حَلَّ بمن قبلكم من اليهودِ من المَسْخِ وصنوفِ النِّقم، وتصيروا في معادِكم إلى سخطِ الله وأليمِ عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ﷺ، لِيَكُنْ من أخلاقِكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدلِ في أوليائكم وأعدائكم، ولا تَجُورُوا في أحكامِكم وأفعالِكم فتجاوزوا ما حددتُ لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصِّروا فيما حددتُ لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حَدِّي، واعملوا فيه بأمري.

وأما قوله: «ولا يجرمنكم شنآنُ قومٍ على أن لا تعدلوا»، فإنه يقول: ولا تحملنكم عداوةُ قومٍ على أنْ لا تعدلوا في حكمكم فيهم وسيرتكم بينهم، فتجوروا عليهم من أجلِ ما بينكم وبينهم من العداوة.

وقد قيل: إنَّ هذه الآية نزلتْ على رسولِ الله ﷺ حين هَمَّت اليهودُ بقتله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «اعدلوا»، أيها المؤمنون، علَى كُلِّ أحدٍ من الناس، وليًّا لكم كان أو عدوًّا، فاحملوهم على ما أمرْتُكم أنْ تَحْمِلُوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحدٍ منهم عنه.

وأما قوله: «هو أقربُ للتقوى»، فإنه يعني بقوله: «هو»، العدلُ عليهم أقرب لكم، أيها المؤمنون، إلى التقوى، يعني: إلى أنْ تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهلِ التقوى، وهم أهلُ الخوفِ والحذر من الله أنْ يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئاً من معاصيه.

وإنما وصف جَلَّ ثناؤُهُ «العَدْل» بما وصفه به من أنه «أقرب للتقوى» من الجور، لأنَّ مَنْ كان عادلاً، كان لله بعدله مطيعاً، ومَنْ كان لله مطيعاً، كان لا شَكَّ من أهلِ التقوى، ومَنْ كان جائراً كان لله عاصياً، ومَنْ كان لله عاصياً، كان بعيداً من تقواه.

وأما قوله: «واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون»، فإنه يعني: واحذروا، أيها المؤمنون، أنْ تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حُكْمَهُ وقَضَاءَهُ الذي بَيَّنَ لكم، فَيُحِلَّ بكم عقوبتَهُ، وتستوجبوا منه أليمَ نكالِهِ. «إنَّ الله خبير بما تعملون»، يقول: إنَّ الله ذُو خبرةٍ وعلم بما تعملون، أيها المؤمنون، فيما أمَرَكُم به وفيما نهاكم عنه، من عملٍ به أو خلافٍ له، مُحْصٍ ذلكم عليكم كلّه، حتى يجازيكم به، جزاءَكم، المحسنَ منكم بإحسانِهِ، والمسيءَ بإساءته، فاتقوا أنْ تُسِيئُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات»، وَعَدَ الله، أيها الناسُ، الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به من عندِ رَبِّهم، وعملوا بما وَاثَقَهُم الله به، ووفوا بالعقودِ التي عاقدَهم عليها بقولهم: «لنسمعنَّ ولنطيعنَّ الله ورسوله»، فسمعوا أمرَ الله ونهيه وأطاعوه، فعملوا بما أمرهم الله به، وانتهوا عما نهاهم عنه.

ويعني بقوله: «لهم مغفرة»، لهؤلاء الذين وفوا بالعقودِ والميثاقِ الذي واثقهم به ربهم. «مغفرة»، وهي ستر ذنوبهم السالفة منهم عليهم وتغطيتها، بعفوهِ لهم عنها، وتركه عقوبتهم عليها وفضيحتهم بها. «وأجر عظيم»، يقول: ولهم مع عفوهِ لهم عن ذنوبهم السالفةِ منهم، جزاءً على أعمالهم التي عملوها، ووفائهم بالعقود التي عاقدوا ربهم عليها. «أجر عظيم». و«العظيم» من خيرهِ غير محدودٍ مَبْلَغُه، ولا يعرفُ مُنْتَهاهُ غيرهُ تعالى ذِكْرُهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «والذين كفروا»، والذين جَحَدُوا وحدانيةَ الله ونقضوا ميثاقه وعقودَه التي عاقدوها إياهُ. «وكذبوا بآياتنا»، يقول: وكذبوا بأدلَّةِ الله وحُجَجِهِ الدالة على وحدانيتهِ التي جاءت بها الرسلُ وغيرها. «أولئك أصحاب الجحيم»، يقول: هؤلاء الذين هذه صِفَتُهم أهلُ «الجحيم»، يعني: أهل النار الذين يخلُدونَ فيها ولا يخرجونَ منها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «يا أيها الذين آمنوا»، يا أيها الذين أقَرُّوا بتوحيدِ الله ورسالةِ رسوله ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم. «اذكروا نعمت الله عليكم»، اذكروا النعمةَ التي أنعمَ الله بها عليكم، فاشكروه عليها بالوفاءِ له بميثاقهِ الذي واثَقَكُم به، والعقود التي عاقَدْتُمْ نبيكم ﷺ عليها. ثم وصف نعمته التي أمرهم جَلَّ ثناؤُهُ بالشكرِ عليها مع سائرِ نعمهِ، فقال: هي كَفُّهُ عنكم أيدي القومِ الذين هَمُّوا بالبطشِ بكم، فَصَرَفَهُمْ عنكم، وحالَ بينهم وبين ما أرادوه بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ: واحذَرُوا الله، أيها المؤمنون، أنْ تُخالِفُوهُ فيما أمَرَكُم ونهاكم، وأنْ تنقضوا الميثاقَ الذي واثَقَكُم به، فتستوجِبُوا منه العقابَ الذي لا قِبَلَ لكم به. «وعلى الله فليتوكل المؤمنون»، يقول: وإلى الله فليُلْقِ أزمَّة أمورهم، ويستسلم لقضائه، ويَثِقْ بنصرته وعونه المُقِرُّونَ بوحدانيّةِ الله ورسالة رسوله، العاملونَ بأمرهِ ونهيه، فإنَّ ذلك من كمالِ دينهم وتمامِ إيمانهم وأنّهم إذا فعلوا ذلك كَلأَهُم ورَعَاهم، وحفظهم مِمَّنْ أرادَهُمْ بسوءٍ، كما حفظكم ودافعَ عنكم، أيها المؤمنون، اليهودَ الذين هَمُّوا بما هَمُّوا به من بسطِ أيديهم إليكم، كلاءَةً منهُ لكم، إذْ كنتم من أهلِ الإيمانِ به وبرسولهِ، دونَ غيره، فإنَّ غيره لايطيقُ دَفْعَ سوءٍ أراد بكم ربُّكم، ولا اجتلابَ نفعٍ لكم لم يَقْضِهِ لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾

وهذه الآية أُنزلتْ إعلاماً من الله جَلَّ ثناؤُهُ نبيَّه ﷺ والمؤمنينَ به، أخلاقَ الذين هَمُّوا ببسطِ أيديهم إليهم من اليهود وأنَّ الذي هَمُّوا به من الغدرِ ونقضِ العهدِ الذي بينهم وبينه، من صفاتهم وصفاتِ أوائلهم وأخلاقِهم وأخلاقِ أسلافهم قديماً واحتجاجاً لنبيه ﷺ على اليهود بإطلاعه إيَّاه على ما كانَ عِلْمهُ عندَهم دونَ العرب، من خَفِيِّ أمورِهم ومكنونِ علومهم وتوبيخاً لليهود في تَماديهم في الغيِّ وإصرارهم على الكفرِ، مع علمهم بخطأ ما هُمْ عليه مُقيمون.

يقول الله لنبيه ﷺ: لا تستعظموا أمرَ الذين هَمُّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهودِ بما هَمُّوا به لكم، ولا أمرَ الغدر الذي حاولوه وأرادوه بكم، فإنَّ ذلك من أخلاقِ أوائلهم وأسْلافهم، لا يَعْدُونَ أنْ يكونوا على منهاج أوَّلهم وطريق سَلَفِهم.

ثم ابتدأ الخبر عَزَّ ذِكْرُه عن بعضِ غَدَراتهم وخياناتِهم، وجراءتهم على رَبِّهم، ونقضهم ميثاقَهم الذي واثَقَهم عليه بَارِئُهم، مع نعمهِ التي خَصَّهم بها، وكراماته التي طَوَّقهم شكرها، فقال: ولقد أخذ الله ميثاقَ سَلَف مَنْ هَمَّ ببسطِ يدهِ إليكم من يهودِ بني إسرائيل، يا معشر المؤمنين، بالوفاءِ له بعهودهِ، وطاعته فيما أمرهم ونهاهم.

«وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً» يعني بذلك: وبعثنا منهم اثني عشر كفيلاً، كفلوا عليهم بالوفاءِ لله بما واثَقُوه عليه من العهودِ فيما أمَرَهم به وفيما نهاهم عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا

يقول تعالى ذكره: وقال الله لبني إسرائيل: «إني معكم»، يقول: إني ناصركم على عدوِّكم وعدوِّي الذين أمرتكم بقتالهم، إنْ قاتلتموهم ووفيتم بعهدِي وميثاقي الذي أخذته عليكم.

وفي الكلام محذوف، استغنى بما ظهرَ من الكلامِ عما حذف منه. وذلك أنَّ معنى الكلام: وقال الله لَهُمْ إني معكم فترك ذكر «لهم»، استغناءً بقولِه: «ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل»، إذ كان مُتقدّم الخبرِ عن قومٍ مسمَّين بأعيانهم، فكان معلوماً أنَّ ما في سياق الكلام من الخبر عنهم، إذ لم يكن الكلامُ مصروفاً عنهم إلى غيرهم.

ثم ابتدأ ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ القسمَ فقال: قَسَماً لَئِنْ أقمتم، معشرَ بني إسرائيل، الصلاة. «وآتيتم الزكاة»، أي: أعطيتموها مَنْ أمرتُكم بإعطائِها. «وآمنتم برسلي»، يقول: وصدّقتم بما أتاكم به رسلي من شرائع ديني.

وأما قوله: «وعَزَّرتُموهم»، فإنه يقول: نَصَرْتُموهم.

وأما قوله: «وأقرضتم الله قرضاً حسناً»، فإنه يقول: وأنفقتم في سبيل الله، وذلك في جهادِ عَدُوِّه وعدوكم. «قرضاً حسناً»، يقول: وأنفقتم ما أنفقتم في سبيله، فأصبتم الحق في إنفاقكم ما أنفقتم في ذلك، ولم تَتَعَدَّوْا فيه حُدودَ الله وما نَدَبَكُم إليه وحثَّكم عليه، إلى غيره.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك بني إسرائيلَ، يقولُ لهم جَلَّ ثناؤُهُ: لَئِنْ أقمتمُ الصلاةَ، أيها القومُ الذين أعطوني ميثاقَهم بالوفاء بطاعتي واتِّباع أمري، وآتيتم الزكاةَ، وفعلتم سائرَ ما وعدتكم عليه جنَّتي. «لأُكَفِّرَنَّ عنكم سيِّآتكم»، يقول: لأُغَطِّيَنَّ بعفوي عنكم ـ وصفحي عن عقوبتكم، على سَالفِ أجرامكم التي أجرمتموها فيما بيني وبينكم ـ على ذنوبكم التي سَلَفَتْ منكم من عبادة العجل وغيرها من موبقاتِ ذُنوبِكم. «ولأدخلنكم» مع تغطيتي على ذلك منكم بفضلي يومَ القيامة. «جناتٍ تجري من تحتها الأنهار».

فـ «الجنات»، البساتين.

وإنمـا قلتُ معنى قولـه: «لأكفِّـرنَّ»، لأغـطين، لأنَّ «الكفـر»، معنـاه الجحود، والتغطية، والستر.

وقوله: «تجري من تحتها الأنهار»، يقول: تجري من تحتِ أشجار هذه البساتين التي أَدْخَلْكُمُوها، الأنهارُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾

يقول عز ذكره: فَمَنْ جَحَدَ منكم، يا معشرَ بني إسرائيل، شيئاً مما أمرتُه به فتـركَهُ، أو ركبَ ما نهيتهُ عنه فعملَهُ، بعد أخذِي الميثاقَ عليهِ بالوفاء لي بطاعتي واجتنابِ معصيتي. «فقد ضَلَّ سواءَ السبيل»، يقول: فقد أخطأ قَصْدَ الطريق الواضحِ، وزَلَّ عن منهجِ السبيل القاصد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: يا محمد، لا تَعْجَبَنَّ من هؤلاءِ اليهودِ الذين هَمُّوا أنْ يَبْسُطوا أيديهم إليكَ وإلى أصحابكَ، ونكثوا العهدَ الذي بينكَ وبينهم، غدراً منهم بك وبأصحابك، فإنَّ ذلك من عاداتهم وعاداتِ سَلَفهم، ومن ذلك أنِّي أخذتُ ميثاقَ سَلَفهم على عهدِ موسى ﷺ على طاعتي، وبعثتُ منهم اثني عشر نقيباً قد تُخُيِّرُوا من جميعِهم ليتحسَّسوا أخبارَ الجبابرةِ، ووعدتُهم النصرَ عليهم، وأنْ أُورثهم أرضَهم وديارهم وأموالهم، بعد ما أريتهم من العِبَر والآيات - بإهلاكِ فرعون وقومِه في البحر، وفلق البحرِ لهم، وسائرِ العبر - ما أريتهم، فنقضوا مِيثاقَهُم الذي واثقوني، ونَكَثُوا عهدي، فلعنتهم بنقضهم ميثاقهم. فإذْ كان ذلك من فِعْلِ خيارهم، مع أياديَّ عندهم، فلا تستنكروا مِثْلَهُ من فعلِ أراذِلهم.

وفي الكلام محذوف، اكتُفِيَ بدلالةِ الظاهر عليه. وذلك أنَّ معنى الكلام: «فَمَنْ كفرَ بعد ذلك منكم فقد ضَلَّ سواءَ السبيل» - فنقضوا الميثاق، فَلَعَنْتُهم. «فبما نَقْضِهم ميثاقَهم لعناهم»، فاكتفى بقوله: «فبما نقضهم ميثاقهم» من ذكر «فنقضوا».

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «فبما نقضهم ميثاقهم»، فَبِنَقْضِهم ميثاقَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينةِ وبعض أهلِ مكة والبصرة والكوفة: ﴿قَاسِيَةً﴾ بالألف على تقدير «فاعلة» مِنْ «قسوةِ القلب»، من قولِ القائل:

«قَسَا قلبه، فهو يقسُو، وهو قاسٍ»، وذلك إذا غَلُظَ واشتدَّ وصار يابساً صلباً.

فتأويلُ الكلام على هذه القراءة: فَلَعَنَّا الذينَ نَقَضُوا عهدي ولم يَفُوا بميثاقي من بني إسرائيل، بنقضِهم ميثاقَهم الذي واثقوني. «وجعلنا قلوبهم قاسيةً»، غليظة يابسةً عن الإيمانِ بي، والتوفيق لطاعتي، منزوعةً منّها الرأفةُ والرحمة.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً﴾.

ثم اختلف الذين قرأوا ذلك كذلك في تأويله.

فقال بعضهم: معنى ذلك «القسوة»، لأنَّ «فعيلة»، في الذم أبلغ من «فاعلة»، فاخترنا قراءتها «قسية» على «قاسية»، لذلك.

وقال آخرون منهم: بل معنى «قسِيَّةً» غير معنى «القسوة»، وإنما «القسية» في هذا الموضع: القلوبُ التي لم يَخْلُصْ إيمانُها بالله، ولكن يخالط إيمانَها كُفْرٌ، كالدراهم «القَسيَّة»، وهي التي يخالط فِضَّتها غِشٌّ من نحاسٍ أو رَصاص وغير ذلك.

وأعجبُ القراءتين إليَّ في ذلك قراءة مَنْ قرأ: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً﴾ على «فعيلة»، لأنها أبلغ في ذم القوم من «قاسية». وأولى التأولين في ذلك بالصواب، تأويل مَنْ تأوله: «فعيلة» من «القسوة»، كما قيل «نفس زَكِيَّة» و«زاكية»، و«امرأة شاهدة»، و«شهيدة»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ وصف القومَ بنقضِهم ميثاقَهم وكفرهم به، ولم يَصِفْهُمْ بشيءٍ من الإيمانِ، فتكون قلوبهم موصوفة بأنَّ إيمانها يخالطهُ كفرٌ، كالدراهم القَسِيَّة التي يخالط فِضَّتها غشٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وجعلنا قلوبَ هؤلاء الذين نقضوا عهودَنا من بني إسرائيل قَسِيَّة، منزوعاً منها الخيرُ، مرفوعاً منها التوفيقُ، فلا يؤمنون ولا يهتدون، فهم لنزعِ الله عزَّ وجلَّ التوفيقَ من قلوبهم والإيمانَ، يُحَرِّفُون كلامَ ربِّهم الذي أنزله على نبيهم موسى ﷺ، وهو التوراةُ، فيبدِّلُونَهُ، ويكتبونَ بأيديهم غير الذي أنزله الله جلَّ وعَزَّ على نبيهم، ثم يقولون لِجُهَّالِ الناسِ: «هذا هو كلامُ الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ، والتوراة التي أوحاها إليه». وهذا من صفةِ القرونِ التي كانت بعد موسى من اليهود، ممن أدرك بعضُهم عصرَ نبينا محمدٍ ﷺ، ولكنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه أدخلهم في عِدَادِ الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدركَ موسى منهم، إذْ كانوا من أبنائهم، وعلى منهاجِهم في الكذبِ على الله، والفريةِ عليه، ونقضِ المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «ونَسُوا حظًّا»، وتركوا نصيباً، وهو كقوله: ﴿نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، أي: تركوا أمرَ الله فتركَهُم الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾

يقول تبارك وتعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: ولا تزالُ يا محمدُ، تَطَّلعُ من اليهود ـ الذين أنبأتُكَ نبأَهُم، من نقضِهم ميثاقي، ونكثهم عهدي، مع أياديَّ عندهم، ونعمتي عليهم ـ على مِثْلِ ذلك من الغدرِ والخيانةِ «إلا قليلاً منهم»، إلا قليلاً

منهم لم يخونوا.

و«الخائنة» في هذا الموضع: الخيانة، وُضع - وهواسمٌ - مَوْضِعَ المصدرِ، كما قيل: «خاطئة»، للخطيئة، و«قائلة»، للقيلولة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣﴾

وهذا أمرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ بالعفوِ عن هؤلاء القومِ الذين هَمُّوا أن يبسطوا أيديهم إليه من اليهود. يقول الله جلَّ وعزَّ له: اعفُ، يا محمد، عن هؤلاء اليهود الذين هَمُّوا بما هَمُّوا به من بسطِ أيديهم إليكَ وإلى أصحابكَ بالقتل، واصفحْ لهم عن جُرْمهم بتركِ التعرُّضِ لمكروههم، فإني أحِبُّ مَنْ أحسنَ العفوَ والصَّفحَ إلى مَنْ أساءَ إليه.

وكان قتادة يقول: هذه منسوخة. ويقول: نسختها آية «براءة»: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، الآية [التوبة: ٢٩].

والذي قاله قتادة غير مدفوعٍ إمكانهُ، غيرَ أنَّ الناسخ الذي لا شك فيه من الأمرِ، هو ما كانَ نافياً كُلَّ معاني خلافهِ الذي كان قبله، فأمَّا ما كان غيرَ نافٍ جميعَه، فلا سبيلَ إلى العلم بأنه ناسخ إلَّا بخبرٍ من الله جلَّ وعزَّ أو من رسولِهِ ﷺ. وليس في قوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، دلالةٌ على الأمر بنفي معاني الصَّفح والعفو عن اليهود.

وإذْ كان ذلك كذلك - وكان جائزاً، مع إقرارهم بالصَّغار وأدائهم الجزية بعد القتال، الأمرُ بالعفو عنهم في غَدْرة هَمُّوا بها، أو نكثة عَزَمُوا عليها، ما لم يَنْصِبُوا حرباً دون أداء الجزية، ويمتنعوا من الأحكام اللَّازمَتِهم - لم يكن

واجباً أنْ يحكم لقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية، بأنه ناسخٌ قولَهُ: «فاعفُ عنهم واصفحْ إنَّ الله يحب المحسنين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: وأخذنا من النصارى الميثاقَ على طاعتي وأداء فرائضي، واتباع رسلي والتصديق بهم، فسلكوا في ميثاقهم الذي أخذتُه عليهم منهاجَ الأمةِ الضالَّةِ من اليهودِ، فَبَدَّلُوا كذلك دِينَهم، ونَقَضُوه نقضَهم، وتركوا حَظَّهم من ميثاقي الذي أخذتُه عليهم بالوفاءِ بعهدي، وضيَّعوا أمري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فأغرينا بينهم»، حَرَّشْنَا بينهم وألقينا، كما تغري الشيء بالشيء.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: لما ترك هؤلاء النصارى، الذين أخذتُ ميثاقَهم بالوفاءِ بعهدي، حَظَّهم مما عهدتُ إليهم من أمري ونهي، أغريتُ بينهم العداوةَ والبغضاء.

وأولى التأويلين في ذلك عندنا بالحق، تأويلُ مَنْ قال: «أغرى بينهم بالأهواء التي حدثت بينهم»، كما قال إبراهيم النخعي، لأنَّ عداوةَ النصارى بينَهم، إنما هي باختلافِهم في قولهم في المسيح، وذلك أهواءٌ، لا وحْيٌ من الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: اعفُ عن هؤلاءِ الذين هَمُّوا ببسطِ أيديهم إليكَ وإلى أصحابكَ واصفح، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ من وراءِ الانتقامِ منهم، وسَيُنَبِّئُهم الله عند ورودِهم عليه في معادِهم، بما كانوا في الدنيا يصنعون، من نقضِهم ميثاقه، ونكثِهم عهده، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم أمره ونهيه، فيعاقبهم على ذلك حَسْبَ استحقاقِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه لجماعة أهلِ الكتاب من اليهودِ والنصارى الذين كانوا في عصرِ رسولِ الله ﷺ: «يا أهل الكتاب» من اليهودِ والنصارى. «قد جاءكم رسولنا»، يعني محمّداً ﷺ.

وقوله: «يبين لكم كثيراً مما كنتم تُخْفُونَ من الكتاب»، يقول: يبينُ لكم محمّد رسولنا، كثيراً مما كنتم تَكتمونَهُ الناسَ ولا تُبَيِّنُونَهُ لهم ممّا في كتابكم. وكان مما يُخْفونَهُ من كتابِهم فبيَّنه رسولُ الله ﷺ للناس: رَجْمُ الزَّانيين المحصنين.

وقيل: إنَّ هذه الآية نزلت في تبيينِ رسولِ الله ﷺ ذلك للناس، من إخفائهم ذلك من كتابِهم.

وقوله: «ويعفو عن كثير»، يعني بقوله: «ويعفو»، ويترك أَخْذَكُم بكثيرٍ مما كنتم تُخْفُونَ من كتابِكم الذي أنزلَهُ الله إليكم، وهو التوراةُ، فلا تعملون به حتى يأمره الله بأخذكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لهؤلاء الذين خاطبهم من أهلِ الكتاب: «قد جاءكم»، يا أهلَ التوراة والإنجيل. «من الله نور»، يعني بالنور، محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحَقَّ، وأظهرَ به الإِسلامَ، ومَحَقَ به الشرك، فهو نورٌ لمن استنار به يبيِّن الحق. ومن إنارته الحق، تبيينُه لليهودِ كثيراً مما كانوا يُخْفُونَ من الكتابِ.

وقوله: «وكتاب مبين»، يقول، جَلَّ ثناؤُهُ: قد جاءكم من الله تعالى النورُ الذي أنار لكم به معالمَ الحقِّ. «وكتاب مبين»، يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيدِ الله، وحلالِهِ وحرامِهِ، وشرائعِ دينه، وهو القرآنُ الذي أنـزله على نبينا محمدٍ ﷺ، يبينُ للناسِ جميعَ ما بهم الحاجةُ إليه من أمرِ دينهم، ويوضحه لهم، حتى يعرفوا حقَّه من باطله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾

يعني عَزَّ ذِكْرُه: يهدي بهذا الكتاب المبين الذي جاء من الله جل جلاله. ويعني بقوله: «يهدي به الله»، يرشد به الله ويسدد به، و«الهاء» في قوله: «به» عائدة على «الكتاب». «من اتبع رضوانه»، يقول: من اتبع رِضَى الله.

ويعني بقوله: «سُبُلَ السلام»، طُرُقَ السلام. و«السلام»، هو الله عَزَّ ذِكْرُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: يهدي الله بهذا الكتاب المبين، من اتبع رضوان الله إلى سُبُلِ السلام وشرائع دينه. «ويخرجهم»، يقول: ويخرج من اتَّبَعَ رِضْوانَهُ. و«الهاء والميم» في: «ويخرجهم» إلى من ذُكر. «من الظلمات إلى النور»، يعني: من ظلماتِ الكفرِ والشركِ، إلى نورِ الإسلام وضيائه. «بإذنه»، يعني: بإذنِ الله جلَّ وعزَّ. و«إذنه» في هذا الموضع: تَحْبيبه إياهُ الإيمانَ برفع طابعِ الكفرِ عن قلبه، وخاتم الشركِ عنه، وتوفيقه لإبصار سُبُلِ السّلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾

يعني عَزَّ ذِكْرُه بقوله: «ويهديهم»، ويُرْشِدُهم ويُسَدِّدُهم. «إلى صراطٍ مستقيم»، يقول: إلى طريقٍ مستقيم، وهو دينُ الله القويم الذي لا اعوجاجُ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾

هذا ذمٌّ من الله عَزَّ ذِكْرُه للنصارى والنصرانية، الذين ضَلُّوا عن سُبُلِ

السلام، واحتجاجٌ منه لنبيه محمد ﷺ في فِرْيتهم عليه بادِّعائِهم له ولداً.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: أقسم، لقد كَفَرَ الذين قالوا: إنَّ الله هو المسيح بن مريم و«كفرهم» في ذلك، تغطيتهم الحقَّ في تركِهم نفيَ الولدِ عن الله جلَّ وعزَّ، وادِّعائهم أنَّ المسيحَ هو الله، فِرْيةً وكذباً عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ، لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمدُ، للنصارى الذين افتروا عليَّ، وضَلُّوا عن سواءِ السبيلِ بقِيلهم: إنَّ الله هو المسيح بن مريم: «من يملك من الله شيئاً»، يقول: مَنِ الذي يُطيقُ أنْ يدفعَ من أمرِ الله جَلَّ وعَزَّ شيئاً، فيردَّهُ إذا قضاه.

وقوله: «إنْ أراد أنْ يُهلكَ المسيحَ بن مريم وأمَّهُ ومَنْ في الأرض جميعاً»، يقول: مَنْ ذا الذي يقدرُ أنْ يَرُدَّ من أمرِ الله شيئاً، إنْ شاء أن يهلك المسيح بن مريم، بإعدامِهِ من الأرضِ وإعدام أمه مريم، وإعدامِ جميعِ مَنْ في الأرض من الخَلْقِ جميعاً.

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء الجَهَلَةِ من النصارى: لو كان المسيحُ كما تزعمون ـ أنّه هو الله، وليس كذلك ـ لقدر أنْ يردَّ أمرَ الله إذا جاءه بإهلاكِه وإهلاكِ أمه. وقد أهلك أمَّهُ فلم يَقْدِرْ على دفعِ أمرِهِ فيها إذْ نزلَ ذلك. ففي ذلك لكم معتَبرٌ إن اعتبرتم، وحجةٌ عليكم إنْ عقلتم: في أنَّ المسيحَ، بَشَرٌ كسائر بني آدم، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي لايُغلبُ ولا يُقهرُ ولا يُردُّ له أمرٌ، بل هو الحيُّ الدائمُ القيُّومُ الذي يُحيي ويُميتُ، ويُنشيءُ ويُفني، وهو حيٌّ لا يموت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾

يعني تبارك وتعالى بذلك: والله له تصريفُ ما في السموات والأرض وما بينهما ـ يعني: وما بينَ السماءِ والأرضِ ـ يهلك مَنْ يشاء من ذلك ويبقي ما يشاء منه. ويُوجِدُ ما أرادَ ويعدمُ ما أحبَّ، لا يمنعه من شيءٍ أراد من ذلك مانعٌ، ولا يدفعه عنه دافعٌ، يُنْفِذ فيهم حُكْمَهُ، ويُمضي فيهم قضاءه، لا المسيح الذي إنْ أراد إهلاكَهُ رَبُّهُ وإهلاكَ أمِّهِ، لم يملك دفعَ ما أرادَ به ربُّه من ذلك.

يقول جلَّ وعزَّ: كيف يكون إلهاً يُعبدُ مَنْ كان عاجزاً عن دفعِ ما أرادَ به غيرهُ من السوء، وغير قادرٍ على صَرْفِ ما نزلَ به من الهلاكِ؟ بل الإلهُ المعبود الذي له ملكُ كُلِّ شيءٍ، وبيده تصريفُ كُلِّ مَنْ في السماءِ والأرضِ وما بينهما.

فقال جَلَّ ثناؤُهُ: «وما بينهما»، وقد ذكر «السموات» بلفظِ الجمع، ولم يقل: «وما بينهن»، لأن المعنى: وما بينَ هَذينِ النوعينِ من الأشياء.

وقوله: «يخلقُ ما يشاء»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ويُنشىءُ ما يشاء ويوجده، ويخرجهُ من حالِ العدم إلى حالِ الوجود، ولن يقدر على ذلك غيرُ الله الواحدِ القهَّار. وإنما يعني بذلك، أنَّ له تدبيرَ السمواتِ والأرض وما بينهما وتصريفه، وإفناءه وإعدامه، وإيجادَ ما يشاء مما هو غير موجودٍ ولا مُنْشأ. يقول: فليس ذلك لأحدٍ سواي، فكيف زعمتم، أيها الكَذَبَةُ، أنَّ المسيحَ إلهٌ، وهو لا يطيقُ شيئاً من ذلك، بل لا يقدرُ على دفعِ الضرَر عن نفسهِ ولا عن أمهِ، ولا اجتلابِ نفعٍ إليها إلا بإذني؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾

يقول عَزَّ ذِكْرُه: الله المعبودُ، هو القادرُ على كل شيء، والمالكُ كلَّ شيء، الذي لا يعجزُه شيءٌ أرادَهُ، ولا يغلبه شيءٌ طلبه، المقتدرُ على هلاكِ المسيح وأمه ومَنْ في الأرض جميعاً ـ لا العاجز الذي لايقدرُ على منعِ نفسهِ من ضُرٍّ نزلَ به من الله، ولا منعِ أمِّهِ من الهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾

يقول الله لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» لهؤلاء الكَذَبَةِ المفترين على رَبِّهم. «فلم يعذبكم» رَبُّكم، يقول: فلأيِّ شيءٍ يعذبكم رَبُّكم بذنوبِكم، إنْ كان الأمرُ كما زعمتم أنكم أبناؤُه وأحبَّاؤُه، فإنَّ الحبيبَ لا يعذِّبُ حبيبه، وأنتم مُقِرُّونَ أنه معذبكم؟ وذلك أنَّ اليهود قالت: إنَّ الله معذبنا أربعينَ يوماً عَدَدَ الأيامِ التي عبدنا فيها العجلَ، ثم يخرجنا جميعاً منها، فقال الله لمحمدٍ ﷺ: قُلْ لهم: إنْ كنتم، كما تقولون، أبناءَ الله وأحباءه، فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم؟ يُعْلِمُهُمْ عَزَّ ذِكْرُه أنَّهم أهلُ فِرْيَةٍ وكذبٍ على الله جلَّ وعزَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ، قل لهم: ليس الأمرُ كما زعمتم أنكم أبناءُ الله وأحباؤه. «بل أنتم بَشَرٌ مِمَّنْ خلَقَ»، يقول: خَلْقٌ من بني آدم، خلَقَكُم

الله مثـل سائر بني آدم، إنْ أحسنتم جُوزِيتم بإحسانِكم، كما سائر بين آدم مَجْزِيُّونَ بإحسانِهم، وإنْ أسأتم جُوزيتم بإساءتكم، كما غيركم مجزيٌّ بها، ليس لكم عنـدَ الله إلاَّ ما لغيركم من خَلْقِـه، فإنهُ يغفرُ لمن يشاءُ من أهلِ الإيمانِ به ذنوبَه، فيصفح عنه بفضله، ويسترها عليه برحمته، فلا يعاقبه بها.

«ويعذب من يشاء»، يقول: ويعدل على مَنْ يشاء من خَلْقِه فيعاقبه على ذنوبِهِ، ويفضَحهُ بها على رؤوسِ الأشهادِ فلا يسترها عليه.

وإنما هذا من الله عزَّ وجلَّ وعيدٌ لهؤلاء اليهود والنصارى المُتَّكِلينَ على منـازلِ سَلَفهم الخيارِ عنـدَ الله، الذين فَضَّلَهُم الله جَلَّ وعَزَّ بطاعتهم إياهُ، واجتباهـم لمسارعتهم إلى رِضاهُ، واصطبارهم على ما نابهم فيه. يقول لهم: لا تغتـروا بمكـانِ أولئك مني ومنازلهم عندي، فإنهم إنما نَالُوا ما نالوا منيّ بالطاعةِ لي، وإيثار رضاي على محابِّهم لا بالأماني، فجدُّوا في طاعتي، وانتهوا إلى أمري، وانزَجرُوا عَمَّا نهيتُهم عنه، فإني إنما اغفرُ ذنوبَ مَنْ أشاءُ أنْ أغفر ذنوبه من أهل طاعتي، وأعذِّب مَنْ أشاء تعذيبه من أهل معصيتي لا لمن قرَّبتْ زُلْفَةُ آبائه مني، وهو لي عدوٌّ، ولأمري ونهيي مخالفٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ١٨﴾

لله تدبيرُ ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وتصريفهُ، وبيده أمره، وله ملكهُ، يُصَرِّفهُ كيف يشاءُ ، ويدبرهُ كيف أَحَبَّ، لا شريكَ له في شيءٍ منه، ولا لأحدٍ معهُ فيه ملكٌ، فاعلموا أيها القائلون: «نحنُ ابناء الله وأحباؤه»، أنه إنْ عَذَّبكم بذنوبكم، لم يكن لكم منه مانعٌ، ولا لكم عنه دافع، لأنه لا نسبَ بين أحدٍ وبينه فيحابيه لسبب ذلك، ولا لأحدٍ في شيءٍ دونه ملك، فيحول بينه

وبينه إنْ أرادَ تعذيبَهُ بذنوبِه، وإليه مصيرُ كُلِّ شيءٍ ومَرْجِعهُ. فاتَّقوا، أيها المفترون، عقابَه، إياكم على ذِنوبِكم بعد مرجعكم إليه، ولا تغترُّوا بالأمانيِّ وفضائلِ الآباء والأسلاف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقول: «يا أهل الكتاب»، اليهودَ الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ يوم نزلت هذه الآية. وذلك أنهم أو: بعضهم، فيما ذكر لما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإيمان به وبما جاءهم به من عند الله، قالوا: ما بعثَ الله من نبيّ بعد موسى، ولا أنزل بعد التوراة كتاباً!

ويعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «قد جاءكم رسولنا»، قد جاءكم محمد ﷺ رسولنا. «يبيّن لكم»، يقول: يعرفكم الحقَّ، ويوضح لكم أعلامَ الهدى، ويرشدكم إلى دين الله المرتضى.

«على فترة من الرسل»، يقول: على انقطاعٍ من الرسل. و«الفترةُ» في هذا الموضع الانقطاعُ. يقول: قد جاءكم رسولنا يبينُ لكم الحَقَّ والهدى، على انقطاعٍ من الرسل.

ويعني بقوله: «أنْ تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير»، أنْ لا تقولوا، وكي لا تقولوا، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تَضِلُّوا، وكي لا تضلوا.

فمعنى الكلام: قد جاءكم رسولُنا يبينُ لكم على فترةٍ من الرسل، كي لا تقولوا ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نذير. يعلمهم عَزَّ ذِكْرُه أنه قد قطعَ عُذْرَهُم برسوله ﷺ، وأبلغ إليهم في الحجة.

ويعني بـ «البشير»، المُبَشِّر مَنْ أطاعَ الله وآمنَ به وبرسوله، وعملَ بما آتاهُ من عند الله، بعظيمِ ثوابهِ في آخرته، وبـ «النذير»، المنذر مَنْ عصاه وكذَّبَ رسولَه ﷺ، وعملَ بغيرِ ما أتاهُ من عند الله من أمرهِ ونهيه، بما لا قِبَلَ له به من أليم عقابهِ في معادِهِ، وشديدِ عذابهِ في قيامته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لهؤلاء اليهود الذين وصفنا صِفَتهم: قد أعذَ[illegible]يكم، واحتججنا عليكم برسولنا محمدٍ ﷺ إليكم، وأرسلناه إليكم ليبيِّنَ لكم ما أشكلَ عليكم من أمرِ دِينكم، كيلا تقولوا: «لم يأتِنا من عندك رسولٌ يبيِّنُ لنا ما نحنُ عليه من الضلالة»، فقد جاءكم من عندي رسولٌ يُبَشِّرُ مَنْ آمنَ بي وعمل بما أمرتُه وانتهى عما نهيتُه عنه، وينذر مَنْ عصاني وخالف أمري، وأنا القادر على كل شيء، أقدرُ على عقابِ مَنْ عصاني، وثواب من أطاعني، فاتَّقُوا عقابي على معصيتكم إيايَ وتكذيبكم رسولي، واطلبوا ثوابي على طاعتكم إياي وتصديقكم بشيري ونذيري، فإنِّي أنا الذي لايعجزه شيءٌ أرادَه، ولا يفوته شيءٌ طَلَبَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ

وهذا ايضاً تعريفٌ من الله لنبيه محمدٍ ﷺ، قَديمَ تمادِي هؤلاء اليهودِ في الغيّ، وبُعْدِهم عن الحقِّ، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم، وبطء إنابتِهم إلى الرشادِ، مع كثرةِ نعمِ الله عندهم، وتتابعِ أياديه

وآلائهِ عليهم، مُسَلِّياً بذلك نبيَّهُ محمداً ﷺ عما يحلُّ به من علاجهم، وينزل به من مقاساتِهم في ذاتِ الله. يقولُ الله له ﷺ: لا تأسَ على ما أصابكَ منهم، فإنَّ الذهابَ عن الله، والبُعْدَ من الحق، وما فيه لهم الحظ في الدنيا والآخرة، من عاداتهم وعادات أسْلافهم وأوائلهم وتَعَزَّ بما لاقى منهم أخوكَ موسى ﷺ، واذْكُر إذْ قال موسى لهم: «يا قوم اذكُروا نعمةَ الله عليكم»، يقول: اذكروا أيادي الله عندكم، وآلاءه قبلكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ موسى ذكَّر قومَهُ من بني إسرائيل بأيَّام الله عندهم، وبآلائه قبلهم، مُحَرِّضهم بذلك على اتباع أمرِ الله في قتال الجبارين، فقال لهم: اذكروا نعمةَ الله عليكم أنْ فضَّلكم، بأنْ جعلَ فيكم أنبياء يأتونكم بوحيهِ، ويخبرونكم بأنباءِ الغيبِ، ولم يُعْطِ ذلك غيرَكُم في زمانكم هذا.

فقيل: إنَّ الأنبياء الذين ذكرهم موسى أنهم جُعِلُوا فيهم: هم الذين اختارهم موسى إذْ صار إلى الجبل، وهم السبعونَ الذين ذكرهم الله فقال: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٣].

«وجعلكم ملوكاً»، سَخَّرَ لكم من غيرِكم خَدَماً يخدمونكم.

وقيل: إنما قال ذلك لهم موسى، لأنه لم يكن في ذلك الزمان أحدٌ سواهم يخدمُه أحد من بني آدم.

وقال آخرون: كُلُّ مَنْ ملك بيتاً وخادماً وامرأةً، فهو «ملك»، كائناً مَنْ كان من الناس.

فقال قائلو هذه المقالة: إنما قال لهم موسى ذلك، لأنهم كانوا يملكون الدُّورَ والخَدَمَ، ولهم نساءٌ وأزواج.

وقال آخرون: إنما عَنَى بقوله: «وجعلكم ملوكاً»، أنهم يملكون أنفُسَهُم وأهْلِيهم وأموالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾

اختلف فيمن عنوا بهذا الخطاب.

فقال بعضهم: عَنَى به أمةَ محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: عُنِي به قومُ موسى ﷺ.

وأوْلى التأويلين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: «وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين»، في سياق قوله: «اذكروا نعمةَ الله عليكم»، ومعطوفٌ عليه.

ولا دلالةَ في الكلام تدلُّ على أنَّ قوله: «وآتاكم ما لـم يؤتِ أحداً من العالمين»، مصروفٌ عن خطابِ الذين ابتدىءَ بخطابِهم في أوّلِ الآية. فإذْ كان ذلك كذلك، فأنْ يكون خطاباً لهم، أوْلى من أن يقال: هو مصروفٌ عنهم إلى غيرهم.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ قوله: «وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين»، لا يجوزُ أنْ يكون لهم خطاباً، إذ كانت أمةُ محمَّدٍ قد أُوتيتْ من كرامةِ الله جَلَّ وعَزَّ بنبيِّها عليه السلام محمّدٍ، ما لم يُؤْتَ أحدٌ غيرهم ـ وهم من العالمين ـ فقد ظَنَّ غير الصواب. وذلك أن قَوله: «وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين»، خطابٌ من موسى ﷺ لقومِه يومئذٍ، وعَنَى بذلك عالمي زمانه، لا عالمي كُلِّ زمان. ولم يكن أوتيَ في ذلك الزمان من نِعَمِ الله وكرامته، ما أوتيَ قومُه ﷺ، أحد من العالمين، فخرج الكلام منه ﷺ على ذلك، لا على جميع عالمِ كُلِّ زمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قولِ موسى ﷺ لقومه من بني إسرائيل، وأمرِه إياهم - عن أمر الله إياه - بأمرهم بدخولِ الأرضِ المقدسة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾



وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قِيلِ موسى عليه السلام لقومِه من بني إسرائيل، إذْ أمرهم الله عَزَّ ذِكْرُه إيّاه بدخولِ الأرضِ المقدسة، أنه قال لهم: امضُوا، أيها القومُ، لأمرِ الله الذي أمركم به من دخولِ الأرض المقدسة. «ولا ترتـدوا»، يقـول: لاتـرْجِعُوا القَهْقَرى مُرْتَدِّينَ. «على أدباركم»، يعني: إلى ورائكم، ولكن امضُوا قُدُماً لأمرِ الله الذي أمركم به، من الدخولِ على القومِ الذين أمركم الله بقتالِهم والهجومِ عليهم في أرضهم، وإنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد كتبها لكم مَسْكناً وقراراً.

ويعني بقوله: «فتنقلبوا خاسرين»، أي: تنصرفوا خائبين هُلَّكاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾

وهـذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن جوابِ قومِ موسى عليه السلام، إذ أمرهم بدخولِ الأرض المقدسة: أنهم أَبَوْا عليه إجابَتَهُ إلى ما أَمَرَهُم به من ذلك، واعْتَلُّوا عليه في ذلك بأنْ قالوا، إنَّ في الأرضِ المقدسة التي تأمرنا

بدخولها، قوماً جَبَّارينَ لا طاقةَ لنا بحربهم، ولا قوةَ لنا بهم. وسموهم «جبّارين»، لأنهم كانوا لشدةِ بطشهم وعظيمِ خلقهم، فيما ذكر لنا، قد قَهَرُوا سائرَ الأمم غيرهم.

وأصلُ «الجبار»، المصلحُ أمرَ نَفْسِه وأمرَ غيرِه، ثم استعمل في كُلِّ مَنِ اجترَّ نفعاً إلى نفسهِ بحقٍّ أو باطل طلبَ الإصلاح لها، حتى قيل للمتعدِّي إلى ما ليسَ له ـ بغياً على الناس، وقهراً لهم، وعُتُوًّا على رَبِّهِ ـ «جبار».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قولِ قومِ موسى لموسى، جواباً لقوله لهم: «ادخلوا الأرضَ المقدسة التي كتب الله لكم»، فقالوا: «إنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها»، يعنون: حتى يخرجَ من الأرضِ المقدسة الجبارونَ الذين فيها، جُبْناً منهم، وجَزَعاً من قتالهم. وقالوا له: إنْ يَخْرُجْ منها هؤلاء الجبارون دخلناها، وإلا فإنَّا لا نُطيقُ دخولَها وهم فيها، لأنه لا طاقةَ لنا بهم ولا يَدَان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا

وهـذا خبـرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن الرجلين الصَّالحين من قومِ موسى: «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا»[1]، أنهما وفيَا لموسى بما عهد إليهما من ترك إعلام قومِه بني إسرائيل الذين أمرَهم بدخولِ الأرضِ المقدسةِ على الجبابرةِ

(١) هذان الرجلان مذكوران في سفر العدد من التوراة الحالية (الإصحاح الثالث عشر والرابع عشر).

من الكنعانيين. بما رأيا وعاينا من شِدَّةِ بَطشِ الجبابرةِ وعِظم خلقهم، ووصفهما الله عزَّ وجلَّ بأنَّهُمَا مِمَّنْ يخافُ الله ويراقبه في أمره ونهيه.

وأما قوله: «أنعم الله عليهما»، فإنه يعني: أنعم الله عليهما بطاعةِ الله في طاعةِ نبيهِ موسى ﷺ، وانتهائِهم إلى أمرهِ، والانزجارِ عما زَجَرَهُمَا عنه ﷺ، من إفشاءِ ما عاينا من عجيبِ أمرِ الجبارين إلى بني إسرائيل، الذي حدّث عنه أصحابهما الآخرون الذين كانوا معهما من النقباء.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾

وهذا خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قولِ الرجلين اللذين يخافان الله لبني إسرائيل، إذ جَبُنُوا وخَافُوا من الدخولِ على الجبارين، لَمَّا سمعوا خبرهم، وأخبرهم النقباءُ الذين أفشَوْا ما عاينوا من أمرِهم فيهم، وقالوا: «إنَّ فيها قوماً جبارين وإنا لَنْ ندخلها حتى يخرجوا منها»، فقالا لهم: ادخلوا عليهم، أيها القوم بابَ مدينتهم، فإنَّ الله معكم، وهو ناصِرُكم، وإنكم إذا دخلتُم البابَ غلبتموهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله جَلَّ وعَزَّ عن قولِ الرجلين اللذين يخافان الله، أنهما قالا لقومِ موسى يُشَجِّعَانِهم بذلك، ويُرَغِّبانهم في المضيِّ لأمرِ الله بالدخولِ على الجبارين في مدينتهم ـ تَوَكَّلُوا أيها القومُ، على الله في دخولكم عليهم، فيقولان لهم: ثِقُوا بالله، فإنه معكم إنْ أطعتموه فيما أمركم من جهادِ

عَدُوِّكم. وعنيا بقولهما: «إنْ كنتم مؤمنين»، إنْ كنتم مصدِّقي نبيكم ﷺ فيما أنبأكم عن رَبِّكم من النصرةِ والظفرِ عليهم، وفي غيرِ ذلك من إخباره عن ربه ـ ومؤمنين بأنَّ ربَّكم قادر على الوفاء لكم بما وَعَدَكُم من تمكينِكم في بلادِ عدوِّه وعدوِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ذِكْرُهُ عن قولِ الملأ من قومِ موسى لموسى، إذ رُغِّبوا في جهادِ عَدُوِّهم، وَوُعِدُوا نصرَ الله إيَّاهم إنْ هُمْ ناهضوهم ودخلوا عليهم بابَ مدينتِهم أنهم قالوا له: «إنا لن ندخلها أبداً»، يعنون: إنا لَنْ ندخل مدينتهم أبداً.

و«الهاء والألف» في قوله: «إنا لن ندخلها»، من ذكر «المدينة».

ويعنون بقولهم: «أبداً»، أيامَ حياتنا. «ما داموا فيها»، يعنون: ما كانَ الجبارُونَ مُقيمينَ في تلك المدينةِ التي كتبها الله لهم وأُمِروا بدخولها. «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون»، لانجيءُ معكَ يا موسى إنْ ذهبتَ إليهم لقتالهم، ولكن نتركك تذهب أنت وحدكَ وربُّك فتقاتِلانهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ وعَزَّ عن قِيلِ قومِ موسى حين قال له قومُه ما قالوا، من قولهم: «إنَّا لَنْ ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنتَ وربك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون» ـ أنه قال عندَ ذلك، وغضب من قِيلهم له، داعياً: يا رب

إني لا أملكُ إلا نفسي وأخي - يعني بذلك، لا أقدرُ على أحدٍ أنْ أحملَهُ على ما أُحِبُّ وأريدُ من طاعتكَ واتِّباعِ أمركَ ونهيك، إلا على نفسي وعلى أخي.

ويعني بقوله: «فافْرُقْ بيننَا وبين القومِ الفاسقين»، افْصِلْ بيننا وبينهم بقضاءٍ منك تقضيه فينا وفيهم، فتبعِدُهم منّا.

وعَنَى بقوله: «الفاسقين»، الخارجين عن الإيمانِ بالله وبه إلى الكفرِ بالله وبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾

قوله: «محرمة عليهم أربعين سنة»، معنيٌّ به جميع قوم موسى، لا بعض دونَ بعضٍ منهم. لأنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه عَمَّ بذلك القومَ ولم يخصص منهم بعضاً دون بعضٍ. وقد وفَى الله جَلَّ ثناؤهُ بما وعَدَهُم به من العقوبةِ، فتَيَّهَهُم أربعينَ سنة، وحَرَّمَ على جميعِهم، في الأربعين سنة التي مكثوا فيها تائهينَ، دخولَ الأرضِ المقدَّسة، فلم يدخلها منهم أحدٌ، لا صغير ولا كبير، ولا صالح ولا طالح، حتى انقضت السنون التي حَرَّمَ الله عزَّ وجلَّ عليهم فيها دخولها. ثم أَذِنَ لمن بقيَ منهم وذراريهم بدُخولها مع نبيِّ الله موسى والرجلين اللَّذَيْن أنعمَ الله عليهما، وافتتح قريةَ الجبارين، إن شاء الله، نبيُّ الله موسى ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فلا تأسَ»، فلا تَحْزَن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمد ﷺ: واتْلُ على هؤلاء اليهود الذين هَمُّوا أنْ يبسطُوا أيديهم إليكم، وعلى أصحابك معهم ـ وعَرِّفْهُم مكروهَ عاقبةِ الظلمِ والمكرِ، وسوء مغبَّة الخَتْرِ[1] ونقضِ العهد، وما جزاء الناكثِ وثوابُ الوافي ـ خبرَ ابني آدم، هابيل وقابيل، وما آل إليه أمرُ المطيع منهما ربَّه الوافي بعهده، وما إليه صار أمرُ العاصي منهما ربَّهُ الخاترِ الناقضِ عهده. فلتعرف بذلك اليهود وخامةَ غِبِّ غَدْرهم ونقضهم ميثاقَهم بينك وبينهم، وهَمِّهم بما هَمُّوا به من بسطِ أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإنَّ لك ولهم ـ في حسن ثوابي وعِظَم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتولَ الوافِيَ بعهدِه من ابني آدم، وعاقبتُ به القاتلَ الناكثَ عهده ـ عزاءً جميلاً.

ويعني بقوله: «من المتقين»، من الذين اتقوا الله وخافوه، بأداءِ ما كَلَّفَهُم من فرائضِه، واجتنابِ ما نهاهم عنه من معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ عن المقتولِ من ابنَيْ آدم أنه قالَ لأخيهِ ـ لما قال له أخوهُ القاتل: لأقتلنَّكَ ـ: والله، «لئن بسطتَ إليَّ يدك»، يقول:

---

(١) الخَتْر: أسوأ الغَدْر.

مددتَ إليَّ يدك. «لتقتلني ما أنا بباسطٍ يديَ إليك»، يقول: ما أنا بمادٍّ يدي إليكَ. «لأقتلك».

وقد اختلف في السبب الذي من أجله قالَ المقتولُ ذلك لأخيهِ، ولم يمانعه ما فَعَلَ به.

فقال بعضهم: قال ذلك، إعلاماً منه لأخيهِ أنه لا يستحلُّ قتلَهُ ولا بَسْطَ يدهِ إليه بما لم يأذَن الله جَلَّ وعَزَّ له به.

وقال آخرون: : لم يَمْنَعَهُ مِمَّا أرادَ من قَتْلِهِ، وقالَ ما قالَ له مما قَصَّ الله في كتابه: إلَّا أنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه فرضَ عليهم أنْ لايمتنعَ مَنْ أُريدَ قتله ممن أراد ذلك منه.

وأولى القولين في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد كان حرَّم عليهم قتلَ نفسٍ بغيرِ نفسٍ ظُلماً، وأنَّ المقتولَ قال لأخيه: «ما أنا بباسط يديَ إليكَ إنْ بسطتَ إليَّ يدكَ»، لأنه كان حراماً عليه من قتل أخيه مثلُ الذي كان حراماً على أخيهِ القاتل من قتله. فأمَّا الامتناع من قتله حين أراد قتله، فلا دلالَة على أنَّ القاتلَ حين أراد قتله وعَزَمَ عليه، كان المقتولُ عالماً بما هو عليه عازمٌ منه ومحاولٌ من قتلهِ، فترك دَفْعَهُ عن نفسهِ. بل قد ذكر جماعةٌ من أهلِ العلم أنه قَتَلَهُ غِيلةً، اغتالَهُ وهو نائمٌ، فشدَخَ رأسه بصخرةٍ. فإذْ كان ذلك ممكناً، ولم يكن في الآيةِ دلالةٌ على أنه كان مأموراً بتركِ منعِ أخيه من قتله، ولم يكن جائزاً ادعاءُ ما ليسَ في الآية، إلَّا ببرهانٍ يجب تسليمُه.

وأما تأويل قوله: «إنِّي أخافُ الله رب العالمين»، فإنه يعني: إنِّي أخافُ الله في بَسْطِ يدي إليكَ إنْ بسطتها لقتلك. «ربَّ العالمين»، يعني: مالكَ الخلائق كلها، أنْ يعاقبني على بَسْطِ يدي إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾

تأويله: إني أريدُ أن تنصرفَ بخطيئتكَ في قَتْلِكَ إيايَ ـ وذلك هو معنى قوله: «إني أريدُ أن تبوء بإثمي» ـ وأما معنى: «وإثمك»، فهو إثمه بغير قتلِه، وذلك معصيته الله جَلَّ ثناؤُهُ في أعمالٍ سِوَاه، لإجماعِ أهلِ التأويل عليه، ولأنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد أخبرنا أنَّ كُلَّ عاملٍ فجزاءُ عمله له أو عليه. وإذا كان ذلك حكمه في خَلْقِه، فغيرُ جائزٍ أن يكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يُؤْخَذُ القاتلُ بإثمهِ بالقتلِ المحرمِ وسائرِ آثامِ معاصيهِ التي ارتكبها بنفسه، دون ما ركبَهُ قتيلُه.

فإن قال قائل: أو ليس قتلُ المقتول من بني آدمَ كان معصيةً لله من القاتلِ؟

قيل بلى: وأَعْظِمْ بها معصيةً!

فإنْ قال: فإذا كان لله جَلَّ وعَزَّ معصيةً، فكيف جازَ أن يُريد ذلك منه المقتول، ويقول: «إني أريد أن تبوء بإثمي»، وقد ذكرتَ أنَّ تأويلَ ذلك، إني أريدُ أنْ تبوءَ بإثمِ قتلي؟

قِيلَ: معناه: إني أريدُ أنْ تبوءَ بإثمِ قتلي إنْ قَتَلْتَنِي، لأنِّي لا أقتلكَ، فإنْ أنتَ قتلتني، فإني مريدٌ أنْ تبوء بإثمِ معصيتكَ الله في قتلك إياي. وهو إذا قتله، فهو لا محالة باءَ به في حُكْمِ الله، فإرادته ذلك غير موجبةٍ له الدخولَ في الخطأ.

ويعني بقوله: «فتكونَ من أصحابِ النار وذلك جزاء الظالمين»، يقول: فتكون بقتلكَ إيايَ من سكانِ الجحيمِ، ووقودِ النار المُخَلَّدينَ فيها. «وذلك

جزاء الظالمين»، يقول: والنارُ ثوابُ التاركينَ طريقَ الحَقِّ، الزائلينَ عن قَصْدِ السبيل، المُتَعَدِّينَ ما جُعِل لهم إلى ما لم يُجْعَلْ لهم.

وهذا يدل على أنَّ الله عَزَّ ذِكْرُه قد كان أمرَ ونهى آدم بعد أنْ أهبطَهُ إلى الأرض، ووعد وأوعد. ولولا ذلك ما قالَ المقتولُ للقاتل: «فتكونَ من أصحابِ النار» بقتلكَ إيايَ، ولا أخبره أنَّ ذلك جزاءُ الظالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فطوّعت»، فآتَتْهُ وساعَدَتْهُ عليه.

وأما قوله: «فأصْبَحَ من الخاسرين»، فإن تأويله: فأصبح القاتلُ أخاهُ من ابْنَيْ آدمَ، من حزبِ الخاسرين، وهم الذين بَاعُوا آخِرَتَهُم بدُنْياهم، بإيثارِهم إياها عليها، فوُكِسُوا في بيعهم، وغبنوا فيه، وخابوا في صفقتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾

تأويل الكلام: فأثارَ الله للقاتل - إذْ لم يَدْرِ ما يصنع بأخيه المقتول. «غُراباً يبحث في الأرض»، يقول: يحفر في الأرض فيثير ترابها. «ليريه كيف يواري سوأةَ أخيه»، يقول: ليريه كيف يواري جيفةَ أخيه.

وفي ذلك محذوفٌ ترك ذكره، استغناء بدلالة ما ذكر منه، وهو: «فأراه بأنْ بَحَثَ في الأرض لغرابٍ آخَرَ ميتٍ فَواراهُ فيها»، فقال القاتلُ أخاه حينئذٍ:

«يا ويلتى أعجزتُ أنْ أكونَ مثلَ هذا الغراب»، الذي وارى الغرابَ الآخر الميتَ. «فأُوارِيَ سوأةَ أخي»، فواراه حينئذ. «فأصبح من النادمين»، على ما فرطَ منه، من معصيةِ الله عَزَّ ذِكْرُه في قتلِه أخاه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾

فمعنى الكلام: من جنايةِ ابن آدم القاتل أخاهُ ظلماً، حَكَمْنَا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتلَ منهم نَفْساً ظُلماً، بغيرِ نفسٍ قُتِلَتْ، فقتل بها قصاصاً. «أو فسادٍ في الأرض»، يقول: أو قتل منهم نفساً بغير فسادٍ كان منها في الأرض، فاستحقت بذلك قتلها. و «فسادها في الأرض»، إنما يكونُ بالحرب لله ولرسوله، وإخافة السبيل.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في تأويلِ قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «ومَنْ قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتلَ الناسَ جميعاً ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً».

وأَوْلى الأقوال عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: تأويلُ ذلك: أنه مَنْ قتل نفساً مؤمنةً بغير نفسٍ قَتَلتها فاستحقتِ القَوَد بها والقتلَ قِصاصاً. أو بغيرِ فسادٍ في الأرضِ، بحربِ الله ورسوله وحربِ المؤمنينَ فيها، فكأنما قَتَلَ الناسَ جميعاً فيما استوجبَ من عظيمِ العقوبةِ من الله جَلَّ ثناؤُهُ، كما أوعده ذلك من فعله ربُّه بقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٣].

وأما قوله: «ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً»، فأوْلى التأويلات به، قول مَنْ قال: مَنْ حَرَّمَ قَتْلَ مَنْ حَرَّمَ الله عَزَّ ذِكْرُه قتله على نفسه، فلم يتقدّم على قتله، فقد حَيِيَ الناسُ منه بسلامتهم منه، وذلك إحياؤه إياها. وذلك نظير خَبرِ الله عَزَّ ذِكْرُه عَمَّنْ حاجَّ إبراهيمَ في ربِّهِ إذْ قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. فكان معنى الكافر في قِيلِهِ: «أنا أحيي»، أنا أترك مَنْ قَدِرت على قتله ـ وفي قوله: «وأُميتُ»، قتله من قتله. فكذلك معنى «الإِحياء» في قوله: «ومَنْ أحياها»، من سَلِمَ الناسُ من قَتْلِهِ إياهم، إلَّا فيما أذِنَ الله في قتله منهم. «فكأنما أحْيَا الناس جميعاً».

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلات بتأويلِ الآية، لأنه لا نفسَ يقومُ قَتْلُها في عاجلِ الضُّرِّ مقامَ قَتْلِ جميعِ النفوس، ولا إحياؤُها مقامَ إحياء جميعِ النفوس في عاجـل النفـع. فكـان معلوماً بذلك أنَّ معنى: «الإِحياء»: سلامة جميع النفـوس منـه، لأنـه مَنْ لم يتقـدم على نفسٍ واحدة، فقد سَلِمَ منه جميع النفوس ـ وأنَّ الواحدة منها التي يقوم قتلُها مقامَ جميعها إنما هو في الوِزْر. لأنه لا نفسَ من نفوسِ بني آدم يقومُ فَقْدُها مقامَ فَقْدِ جميعها، وإنْ كان فَقْدُ بعضِها أعمّ ضرراً من فقدِ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا قسم من الله جَلَّ ثناؤُهُ أقسم به: أنَّ رُسُلَهُ صلواتُ الله عليهم قد أتت بني إسرائيل الذين قَصَّ الله قَصَصهم وذَكَرَ نبأهم في الآياتِ التي تَقَدَّمتْ، من قوله: «يا أيُّها الذين آمنوا اذْكُروا نعمةَ الله عليكم إذْ هَمَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم» إلى هذا المـوضـع. «بـالبينـات»، يعني: بالآياتِ الـواضحة

والحجج البيِّنة على حقيقة ما أرسلوا به إليهم، وصحة ما دَعوهُمْ إليه من الإيمانِ بهم، وأداءِ فرائضِ الله عليهم.

يقول الله عَزَّ ذِكْرُه: «ثم إنَّ كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون»، يعني: أن كثيراً من بني إسرائيل.

«بعد ذلك»، يعني: بعد مجيء رُسُلِ الله بالبينات.

«في الأرض لمسرفون»، يعني: أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمرَ الله ونهيه، ومحادُّو الله ورسله، باتِّباعِهم أهواءَهم. وخلافهم على أنبيائهم، وذلك كان إسرافَهم في الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾

وهذا بيانٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن حُكْمِ «الفساد في الأرض»، الذي ذكره في قوله: «من أجلِ ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه مَنْ قتلَ نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض» أعْلَمَ عبادَهُ: ما الذي يستحقُ المُفْسِدُ في الأرض من العقوبةِ والنكال، فقال تبارك وتعالى: لا جزاءَ له في الدنيا إلاَّ القتلُ، والصلبُ، وقطعُ اليد والرِّجل من خلافٍ، أو النفي من الأرضِ، خزياً لهم. وأما في الآخرة إنْ لم يَتُبْ في الدنيا، فعذابٌ عظيم.

و«المحاربُ لله ورسوله»، هو مَنْ حارب في سابلة المسلمين وذِمَّتهم، والمغير عليهم في أمصارِهم وقراهم حِرَابةً. لأنه لا خلافَ بين الحُجَّةِ أنَّ مَنْ نَصَبَ حرباً للمسلمين على الظلم منه لهم، أنه لهم محارِبٌ، ولا خلافَ فيه. فالذي وصفنا صِفَتَهُ، لا شك فيه أنه لهم نَاصبٌ حرباً ظلماً. وإذْ كان ذلك

كذلك، فسواء كان نَصْبَهُ الحربَ لهم في مِصْرِهم وقُراهم، أو في سُبلِهم وطُرقِهم: في أنه لله ولرسوله محاربٌ، بحربه مَنْ نَهاه الله ورسوله عن حربهِ.

وأما قوله: «ويسعون في الأرض فساداً»، فإنه يعني: ويعملون في أرض الله بالمعاصي: من إخافةِ سُبُل عبادِه المؤمنينَ به، أو سُبُل ذمتهم، وقطعِ طُرُقهم، وأخذِ أموالهم ظلماً وعدواناً، والتوثُّبِ على حرمهم فجوراً وفُسُوقاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ما لِلَّذي حاربَ الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً، من أهلِ ملَّةِ الإسلام أو ذمتهم - إلاَّ بعض هذه الخلال التي ذكرها جَلَّ ثناؤُه.

ثم اختلف أهلُ التأويل في هذه الخلال، أتلزم المحاربَ باستحقاقه اسم «المحاربة»، أم يلزمه ما لَزِمَهُ من ذلكم على قَدْرِ جُرْمِهِ، مختلفاً باختلافِ أجرامه؟

فقال بعضهم: تَجِبُ على المحارب العقوبةُ على قَدْرِ استحقاقِهِ، ويلزمه ما لزمه من ذلك على قَدْرِ جُرْمه، مختلفاً باختلاف أجرامه.

واعتلَّ قائلو هذه المقالة لقولهم هذا، بأنْ قالوا: إن الله أوجبَ على القاتلِ القَودَ، وعلى السارقِ القَطْعَ. وقالوا: قال النبيُّ ﷺ: «لايحل دَمُ امريءٍ مسلمٍ إلاَّ بإحدى ثلاث خِلال: رجل قتل فقتل، ورجل زنى بعد إحصان فرُجم، ورجل كفر بعد إسلامه»[1]. قالوا: فحظر النبيُّ ﷺ قَتْلَ رجلٍ مسلمٍ

---

(١) هكذا ساقه المؤلف معلقاً من غير إسناد، وهو في الصحيحين: البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه بمعناه.

إلَّا بإحدى هذه الخلال الثلاث. فأما أن يُقْتَلَ من أجلِ إخافتِه السبيلَ من غيرِ أن يقتـل أو يأخذ مالاً، فلذلك تقدَّمُ على الله ورسوله بالخلافِ عليهما في الحكم. قالـوا: ومعنى قول مَنْ قال: «الإمـام فيه بالخيار، إذا قَتَل وأخافَ السبيل وأخـذَ المال»، فهنالك خيارُ الإمامِ في قولهم بين القتل، أو القتلِ والصلب، أو قطعِ اليدِ والرِّجْلِ من خِلاف. وأما صلبه باسم المحاربة، من غير أنْ يفعلَ شيئاً من قتلٍ أو أخذ مالٍ، فذلك ما لم يَقُلْهُ عالمٌ.

وقال آخرون: الإمام فيه بالخيار: أنْ يفعل أيَّ هذه الأشياء التي ذكرَها الله في كتابه.

واعتلَّ قائلو هذه المقالة بأنْ قالوا: وجدنا العطوف التي بـ «أو» في القرآن بمعنى التخيير، في كل ما أوجبَ الله به فرضاً منها، وذلك كقوله في كفارةِ اليمين: ﴿فَكَفَّـارَتُـهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، وكقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِياماً﴾ [المائدة: ٩٥]. قالوا: فإذا كانت العُطوفُ التي بـ «أو» في القرآن، في كل ما أوجبَ الله به فرضاً منها في سائر القرآن، بمعنى التخيير، فكذلك ذلك في آية المحاربين ـ الإمام مخير فيما رأى الحكم به على المحارب إذا قَدَر عليه قبل التوبة.

وأَوْلى التأويلين بالصواب في ذلك عندنا، تأويلُ مَنْ أوجب على المحارب من العقـوبـة على قَدْرِ استحقـاقـه، وجعـل الحُكْمَ على المحاربين مختلِفاً باختلافِ أفعالهم. فأوجب على مُخيفِ السبيلِ منهم إذا قُدِرَ عليه قبل التوبة، وقبل أخذ مالٍ أو قتل ـ النفيَ من الأرض. وإذا قُدر عليه بعد أخذ المال وقتل

النفس المحرم قتلُها ـ الصلب، لما ذكرتُ من العلة قَبْلُ لقائلي هذه المقالة.

فأما ما اعتلَّ به القائلون: إنَّ الإمامَ فيه بالخيار، من أن «أو» في العطف تأتي بمعنى التخيير في الفرض، فقولٌ لا معنى له، لأن «أو» في كلام العرب قد تأتي بضروبٍ من المعاني، لولا كراهة إطالةِ الكتابِ بذِكْرِها لذكَرْتُهَا، وقد بينتُ كثيراً من معانيها فيما مضى، وسنأتي على باقيها فيما يستقبل في أماكنها إنْ شاء الله.

فأما في هذا الموضع، فإنَّ معناها التعقيب، وذلك نظير قولِ القائل: «إنَّ جزاءَ المؤمنين عند الله يوم القيامة أنْ يُدْخِلهم الجنةَ، أو يرفع منازلهم في عِلِّيينَ، أو يسكنهم مع الأنبياءِ والصديقين»، فمعلومٌ أنَّ قائلَ ذلك غير قاصد بقِيله إلى أنَّ جزاءَ كُلِّ مؤمنٍ آمنَ بالله ورسوله فهو في مرتبةٍ واحدة من هذه المراتب، ومنزلة واحدة من هذه المنازل بإيمانه، بل المعقولُ عنه أنَّ معناه: أنَّ جزاء المؤمن لن يخلُو عند الله عَزَّ ذِكْرُه من بعضِ هذه المنازل. فالمقتصدُ منزلتهُ دونَ منزلةِ السابق بالخيراتِ، والسابقُ بالخيرات أعلى منه منزلةً، والظالمُ لنفسه دونهما، وكلٌّ في الجنة كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣]. فكذلك معنى المعطوف بـ«أو» في قوله: «إنما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله»، الآية، إنما هو التعقيب.

فتأويله: إنَّ الذي يحاربُ الله ورسولَهُ ويسعى في الأرض فساداً، لن يخلو من أنْ يستحق الجزاءَ بإحدى هذه الخلال الأربع التي ذكرها الله عَزَّ ذِكْرُه ـ لا أن الإمام محكم فيه ومخيَّرٌ في أمره ـ كائنةً ما كانت حالتُه، عظمت جريرته أو خفَّتْ، لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لكانَ للإمامِ قتل مَنْ شَهر السلاح مخيفاً السبيلَ وصلبَهُ، وإنْ لم يأخذ مالاً ولا قتلَ أحداً، وكان له نفيُ مَنْ قَتَل وأخذَ المال وأخافَ السبيل. وذلك قولٌ إنْ قاله قائلٌ، خلافُ ما صَحَّتْ به

الآثارُ عن رسولِ الله ﷺ من قوله: «لايحل دَمُ امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجـل قتل رجلاً فقتل به، أو زنى بعد إحصان فرجم، أو ارتَدَّ عن دينه»[1]، وخلاف قولِهِ: «القطعُ في رُبْع دينارٍ فصاعداً»[2]، وغيرُ المعروف من أحكامه[3].

فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ هذه الأحكام التي ذكرتَ، كانت عن رسولِ الله ﷺ في غير المحارب، وللمحارب حكم غير ذلك منفرد به.

قيل له: فما الحكمُ الذي انفردَ به المحارب في سننه؟

فإن ادَّعى عنه ﷺ حُكماً خلافَ الذي ذكرنا، أكْذَبَهُ جميعُ أهلِ العلم، لأنَّ ذلك غير موجودٍ بنقلِ واحدٍ ولا جماعة.

وإنْ زعم أنَّ ذلك الحكمَ هو ما في ظاهر الكتاب، قيل له: فإنَّ أحسنَ حالاتكَ إنْ سُلِّمَ لك، أنَّ ظاهر الآية قد يحتملُ ما قُلْتَ وما قاله مَنْ خالفكَ فما برهانُكَ على أنَّ تأويلكَ أوْلى بتأويلِ الآيةِ من تأويله؟

وبعد، فإذْ كان الإمامُ مخيَّراً في الحكم على المحارب، من أجل أنَّ «أو» بمعنى التخيير في هذا الموضع عندك، أفَلَهُ أنْ يَصْلبَهُ حيًّا، ويتركه على الخشبةِ مصلوباً حتى يموتَ من غير قَتْلِه.

فإن قال: «ذلك له»، خالفَ في ذلك الأمَّةَ.

وإنْ زعم أنَّ ذلكَ ليسَ له، وإنما له قتله ثم صلبه، أو صلبه ثم قتله ـ ترك علَّته من أنَّ الإمامَ إنما كان له الخيارُ في الحكم على المحارب من أجل أن «أو» تأتي بمعنى التخيير.

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

(٢) هكـذا ساقه المؤلف معلقاً من غير إسناد وهو في الصحيحين: البخاري (٦٧٨٩) و(٦٧٩٠) و(٦٧٩١)، ومسلم (١٦٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) معطوف على قوله: خلاف ما صحَّت به الآثار.

وقيل له: فكيف كان له الخيار في القتل أو النفي أو القطع، ولم يكن له الخيار في الصلبِ وحده، حتى تجمع إليه عقوبة أخرى؟

وقيل له: هل بينكَ وبين مَنْ جعل الخيارَ حيثُ أبيتَ، وأبى ذلك حيثُ جعلتَهُ له ـ فرقٌ من أصلٍ أو قياس؟ فلن يقول في أحدهما قولاً إلا أُلْزِمَ الآخر مثله.

وأما قوله: «أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف»، فإنه يعني به جَلَّ ثناؤُهُ: أنه تقطع أيديهم مخالِفاً في قطعِها أرجُلهم. وذلك أنْ تقطع أَيْمُنُ أيديهم، وأشمُلُ أرجلهم. فذلك «الخلاف» بينهما في القطع.

واختلف أهلُ التأويل في معنى «النفي» الذي ذكر الله في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هو أنْ يُطْلَبَ حتى يُقْدَرَ عليه، أو يهربَ من دارِ الإسلام.

وقال آخرون: معنى «النفي» في هذا الموضع: أنَّ الإمامَ إذا قدر عليه نَفَاهُ من بلدته إلى بلدةٍ أخرى غيرها.

وقال آخرون: معنى: «النفي من الأرض»، في هذا الموضع: الحبس.

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معنى «النفي من الأرض»، في هذا الموضع، هو نفيهُ من بلدٍ إلى بلدٍ غيره، وحبْسُه في السجن في البلدِ الذي نُفيَ إليه، حتى تَظْهَرَ توبتُه من فسوقه، ونُزُوعه عن معصيته رَبَّهُ.

وإنما قلتُ ذلك أَوْلى الأقوالِ بالصحة، لأنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في معنى ذلك على أحدِ الأوجه الثلاثة التي ذكرتُ. وإذْ كان ذلك كذلك ـ وكان معلوماً أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ إنما جعل جزاءَ المحارب: القتل أو الصلبَ أو قطعَ اليد والرجل من خلافٍ، بعد القدرةِ عليه، لا في حال امتناعه ـ كان معلوماً أنَّ النفيَ أيضاً إنما هو جزاؤُه بعد القُدرةِ عليه، لا قبلها. ولو كان هَرَبُهُ من

الطلب نفياً له من الأرض، كان قطع يده ورجله من خلافٍ في حالِ امتناعه وحربهِ على وجهِ القتال، بمعنى إقامةِ الحدِّ عليه بعد القُدْرةِ عليه. وفي إجماع الجميع أنَّ ذلك لا يقومُ مقامَ نفيهِ الذي جعله الله عزَّ وجلَّ حداً له بعد القدرةِ عليه، بطل أنْ يكونَ نفيُه من الأرض، هربَهُ من الطلبِ.

وإذْ كان كذلك، فمعلومٌ أنه لم يَبْقَ إلاَّ الوجهان الآخران، وهو النفي من بلدةٍ إلى أخرى غيرها، أو السَّجْن. فإذْ كان ذلك كذلك، فلا شك أنه إذا نُفيَ من بلدةٍ غيرها، فلم ينف من الأرض، بل إنما نفي من أرضٍ دون أرض. وإذ كان ذلك كذلك ـ وكان الله جَلَّ ثناؤُهُ إنما أمر بنفيهِ من الأرض ـ كان معلوماً أنه لا سبيلَ إلى نفيهِ من الأرض إلا بحبسهِ في بُقْعة منها عن سائرها، فيكون منفيًّا حينئذٍ عن جميعها، إلاَّ مما لا سبيلَ إلى نفيهِ منه.

وأما معنى «النفي»، في كلام العرب، فهو الطرد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ذلك»، هذا الجزاء الذي جازيتُ به الذين حاربوا الله ورسولَهُ، وسَعَوْا في الأرضِ فساداً في الدنيا، من قتلٍ أو صلبٍ أو قطعِ يدٍ ورجلٍ من خِلاف. «لهم»، يعني: لهؤلاءِ المحاربينَ. «خِزْيٌ في الدنيا»، يقول: هو لهم شرٌّ وعارٌ وذلةٌ ونكالٌ وعقوبةٌ في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: «ولهم في الآخرةِ عذاب عظيم»، يقول عَزَّ ذِكْرُه: لهؤلاء الذين حاربوا الله ورسولَه وسعوا في الأرضِ فساداً، فلم يَتُوبُوا من فِعْلِهم ذلك حتى هَلَكُوا ـ في الآخرة، مع الخزي الذي جازَيْتُهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها ـ «عذابٌ عظيم»، يعني: عذاب جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: إلَّا الذين تابوا من شِرْكِهم ومناصَبتهم الحربَ لله ولرسولِهِ والسَّعي في الأرض بالفساد، بالإسلامِ والدخولِ في الإيمان، مِنْ قَبْلِ قُدرةِ المؤمنينَ عليهم، فإنه لا سبيلَ للمؤمنين عليهم بشيءٍ من العقوباتِ التي جعلهَا الله جزاءً لِمَنْ حاربَه ورسولَهُ وسعَى في الأرض فساداً، من قتلٍ، أو صلب، أو قطع يدٍ ورجلٍ من خلافٍ، أو نفيٍ من الأرض فلا تِباعَةَ قِبلَهُ لأحدٍ فيما كان أصابَ في حالِ كفره وحربه المؤمنين، في مالٍ ولا دم ولا حرمةٍ. قالوا: فأما المسلمُ إذا حاربَ المسلمين أو المعاهدين، وأتى بعضَ ما يجبُ عليه العقوبةُ، فلن تَضَعَ توبتُه عنه عقوبةَ ذَنْبه، بل تَوْبتُه فيما بينه وبينَ الله، وعلى الإمامِ إقامةُ الحدِّ الذي أوجبه الله عليه، وأخذُه بحقوقِ الناس.

وقال آخرون: بل هذه الآية معنيٌّ بالحكمِ بها، المُحارِبون الله ورسولَهُ: الحُرَّابُ من أهلِ الإسلام، مَنْ قَطَعَ منهم الطريقَ وهو مقيمٌ على إسلامه، ثم استأمن فأُومِنَ على جناياتهِ التي جناها، وهو للمسلمين حربٌ - ومَن فعل ذلك منهم مرتدًا عن الإسلام، ثم لَحِقَ بدارِ الحرب، ثم استأمنَ فأُومِنَ. قالوا: فإذا أمَّنه الإمامُ على جناياته التي سلفت، لم يكن قِبَله لأحدٍ تَبِعة في دمٍ ولا مالٍ أصابه قبل توبته، وقبلَ أمانِ الإمام إيَّاه.

وقال آخرون: معنى ذلك: كلُّ مَنْ جاء تائباً من الحُرَّاب قبل القُدْرة عليه، استأمن الإمام فأمَّنه أو لَمْ يستأمنه، بعدَ أن يجيءَ مستسلماً تاركاً للحرب.

وقال آخرون: بل عَنَى بالاستثناء في ذلك، التائبَ من حربه الله ورسولَه والسعي في الأرض فساداً بعد لحاقهِ في حربه بدارِ الكفر. فأما إذا كانت حِرَابتُه وحربُه وهو مقيمٌ في دار الإسلام. وداخلٌ في غمارِ الأمةِ، فليست توبتُه واضعةً عنه شيئاً من حدودِ الله جَلَّ وعَزَّ ، ولا من حقوقِ المسلمينَ والمعاهدين، بل يُؤْخَذُ بذلك.

وقال آخرون: إنْ كانت حِرَابته وحربُه في دارِ الإسلام، وهو في غير مَنْعةٍ من فئةٍ يلجأُ إليها، ثم جاء تائباً قَبْلَ القُدْرَةِ عليه، فإنَّ توبتَهُ لا تضعُ عنه شيئاً من العقوبةِ ولا من حقوقِ الناس، وإنْ كانت حِرَابته وحَرْبه في دار الإسلام، أو هو لاحقٌ بدارِ الكفر، غير أنه في كُلِّ ذلك كان يلجأُ إلى فئةٍ تمنعه مِمَّنْ أرادَهُ من سلطانِ المسلمين، ثم جاء تائباً قبل القُدْرَةِ عليه، فإنَّ توبته تضعُ عنه كُلَّ ما كان من أحْداثه في أيامِ حِرابته تلك، إلا أنْ يكونَ أصابَ حَداً، أو أَمَرَ الرُّفقة بما فيه عقوبة، أو غُرْم لمسلم أو معاهد وهو غير ملتجىءٍ إلى فئة تمنعه، فإنه يُؤْخَذُ بما أصابَ من ذلك وهو كذلك، ولا يضعُ ذلك عنه توبتُه.

وقال آخرون: تضع توبته عنه حَدَّ الله الذي وَجَبَ عليه بمحاربته، ولا يسقطُ عنه حقوق بني آدم.

وأوْلى هذه الأقـوالِ في ذلـك بالصـواب عنـدي، قولُ مَنْ قال: توبةُ المحاربِ الممتنعِ بنفسه أو بجماعةٍ معه قبل القُدرةِ عليه، تضعُ عنه تَبِعاتِ الدنيا التي كانت لزمته في أيام حربه وحِرَابته، من حدودِ الله، وغُرْمٍ لازم، وقَوَدٍ وقصاص، إلاَّ ما كان قائماً في يده من أموال المسلمين والمعاهدين بعينه. فيردّ على أهلِهِ لإجمـاعِ الجميعِ على أنَّ ذلـك حكم الجمـاعـةِ الممتنعـةِ المحاربةِ لله ولرسوله، الساعيةِ في الأرض فساداً على وجه الردة عن الإسلام. فكذلك حُكْمُ كُلِّ ممتنعٍ سَعَى في الأرض فساداً، جماعةً كانوا أو واحداً.

فأمَّا المستخفي بسرقته، والمتلصِّصُ على وجه اغتفال مَن سرقَهُ، والشاهرُ السلاحَ في خلاء على بعضِ السَّابلةِ، وهو عند الطلب غيرُ قادرٍ على الامتناع، فإنَّ حُكْمَ الله عليه تابَ أو لم يَتُبْ ماضٍ، وبحقوق من أخذ ماله، أو أصاب وليَّه بدم أو خَتْلٍ، مأخوذ، وتوبتهُ فيما بينه وبين الله جَلَّ وعَزَّ قياساً على إجماعِ الجميعِ على أنه لو أصابَ شيئاً من ذلك وهو للمسلمينَ سِلْمٌ، ثم صار لهم حرباً: أنَّ حربه إياهم لن يضعَ عنه حقاً لله عَزَّ ذِكْرُه، ولا لآدمي. فكذلك حكمهُ إذا أصاب ذلك في خلاء أو باستخفاء، وهو غيرُ ممتنعٍ من السلطان بنفسه إنْ أراده، ولا له فئةٌ يلجأ إليها مانعةٌ منه.

وفي قوله: «إلَّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم»، دليلٌ واضح لمن وُفِّق لفهمه، أنَّ الحكمَ الذي ذكره الله جَلَّ وعَزَّ في المحاربين، يجري في المسلمينَ والمعاهدين، دون المشركينَ الذين قد نَصَبُوا للمسلمين حرباً، وذلك أن ذلك لو كان حكماً في أهل الحرب من المشركين، دونَ المسلمين ودون ذمتهم، لوجَبَ أنْ لا يُسْقِطَ إسلامُهم عنهم - إذا أسلموا أو تابوا بعد قُدْرَتِنا عليهم - ما كانَ لهم قبل إسلامهم وتوبتهم من القتل، وما للمسلمين في أهل الحرب من المشركين. وفي إجماع المسلمين أنَّ إسلامَ المشركِ الحربيِّ يضع عنه، بعد قدرةِ المسلمين عليه، ما كان واضعه عنه إسلامُهُ قبلَ القُدْرَةِ عليه ما يدلُّ على أنَّ الصحيحَ من القولِ في ذلك قولُ مَنْ قال: «عَنَى بآية المحاربين في هذا الموضع، حُرَّاب أهل الملة أو الذمة، دونَ مَنْ سواهم من مشركي أهل الحرب».

وأما قوله: «فاعلموا أنَّ الله غفور رحيم»، فإنَّ معناه: فاعلموا، أيها المؤمنونَ، أنَّ الله غير مؤاخذٍ مَنْ تابَ من أهلِ الحرب لله ولرسوله، الساعينَ في الأرض فساداً، وغيرهم بذنوبهِ، ولكنه يعفو عنه فيسترها عليه، ولا يفضحهُ بها بالعقوبةِ في الدنيا والآخرة رحيمٌ به في عفوهِ عنه، وتركه عقوبته عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعَدَ من الثوابِ وأوعدَ من العقاب. «اتقوا الله»، يقول: أجيبوا الله فيما أمَرَكُم ونهاكم بالطاعةِ له في ذلك، وحَقِّقُوا إيمانَكم وتصديقكم ربَّكم ونبيَّكم بالصالح من أعمالكم. «وابتغوا إليه الوسيلة»، يقول: واطلبوا القُرْبَةَ إليه بالعملِ بما يُرْضِيه.

و«الوسيلة»: هي «الفعيلة» من قولِ القائل: «توسلتُ إلى فلان بكذا»، بمعنى: تقرَّبتُ إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ للمؤمنين به وبرسوله: وجاهدوا، أيها المؤمنون، أعدائي وأعداءكم في سبيلي، يعني في دِينهِ وشَريعته التي شرعها لعبادِه، وهي الإسلام، يقول: أتعِبُوا أنفسكم في قتالهم وحملهم على الدخولِ في الحنيفية المسلمة، «لعلكم تفلحون»، يقول: كيما تنجحوا، فتدركوا البقاء الدَّائم والخلود في جنانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ

مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

يقـول عَزَّ ذِكْرُه: إنَّ الذين جَحَدُوا ربوبية ربِّهم وعبدوا غيرَه، من بني إسرائيل الذين عبدوا العجلَ، ومن غيرهم الذين عبدوا الأوثان والأصنام، وهلكوا على ذلك قبل التوبة، لو أنَّ لهم مِلكَ ما في الأرض كلِّها وضعفَهُ معه، ليفتدوا به من عقابِ الله إياهم على تركِهم أمرَهُ، وعبادَتِهم غيرَهُ يومَ القيامة، فافتدوا بذلك كُلِّهِ، ما تقبَّل الله منهم ذلك فداءً وعِوضاً من عذابِهم وعقابهم، بل هو مُعَذِّبهم في حَمِيم يوم القيامة عذاباً موجعاً لهم.

وإنما هذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ لليهودِ الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَرِ رسولِ الله ﷺ: أنَّهم وغيرهم من سائر المشركين به، سواءٌ عنده فيما لهم من العذابِ الأليم والعقاب العظيم. وذلك أنهم كانوا يقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾، اغتراراً بالله جَلَّ وعَزَّ وكذباً عليه. فَكَذَّبهم تعالى ذِكْرُهُ بهذه الآية وبالتي بعدها، وحَسَم طمعهم، فقال لهم ولجميع الكَفَرَةِ به وبرسوله: «إنَّ الذين كَفَرُوا لو أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعاً ومِثْلَهُ مَعَهُ ليفْتَدُوا به من عذابِ يومِ القيامةِ ما تُقُبِّلَ منهم ولهم عذابٌ أليم. يُريدون أنْ يَخْرُجُوا من النارِ وما هم بخارجينَ منها ولهم عذابٌ مقيم»، يقول لهم جَلَّ ثناؤُهُ: فلا تطمعوا أيُّها الكفرةُ في قَبُول الفديةِ منكم، ولا في خروجكم من النارِ بوسائل آبائِكم عندي بعد دُخُولِكُمُوها، إنْ أنتم مُتّم على كُفْرِكم الذي أنتم عليه، ولكن تُوبُوا إلى الله توبةً نَصُوحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «يريدون أن يخرجوا من النار»، يريد هؤلاء الذين كفروا بربِّهم يوم القيامةِ، أنْ يخرجُوا من النارِ بعد دخولها، وما هم بخارجينَ منها. «ولهم عذابٌ مقيم»، يقول: لهم عذابٌ دائم ثابتٌ لايزولُ عنهم ولا ينتقلُ أبداً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: ومَنْ سرقَ من رجلٍ أو امرأة، فاقطعوا، أيها الناسُ، يَدَهُ ولذلك رفع «السارق والسارقة»، لأنهما غير مُعَيَّنَيْنِ، ولو أُريدَ بذلك سارقٌ وسارقةٌ بأعيانِهما، لكان وجهُ الكلام النَّصب.

وقال تعالى ذِكْرُهُ: «فاقطعوا أيديهما»، والمعنى: أيديهما اليمنى.

وقوله: «جزاءً بما كسبا نكالاً من الله»، يقول: مكافأةً لهما على سرقتهما وعملهما في التلصُّصِ بمعصيةِ الله. «نكالاً من الله»، يقول: عقوبةً من الله على لُصُوصيتهما.

وقوله: «والله عزيز حكيم»، يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: «والله عزيزٌ»، في انتقامِهِ من هذا السارقِ والسارقةِ وغيرهما من أهلِ معاصيه. «حكيمٌ»، في حُكْمِه فيهم وقضائهِ عليهم.

يقول: فلا تُفَرِّطُوا أيها المؤمنون، في إقامة حكمي على السُّرَّاقِ وغيرهم من أهـلِ الجـرائم الذين أوجبتُ عليهم حدوداً في الدنيا عقوبةً لهم، فإني بحكمتي قضيتُ ذلك عليهم، وعلمِي بصلاحِ ذلك لهم ولكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «فمن تاب»، من هؤلاء السراقِ، يقول: مَنْ رجع منهم عمَّا يكرههُ الله من معصيتِهِ إيَّاه، إلى ما يرضاهُ من طاعته. «من بعد ظُلْمه»، و«ظلمه»، هو اعتداؤُه وعمله ما نهاهُ الله عنه من سرقةِ أموالِ الناس.

«وأصلح»، يقول: وأصلح نَفْسَهُ بحملها على مكروهها في طاعة الله، والتوبة إليه مما كان عليه من معصيته.

وقوله: «فإنَّ الله يتوب عليه»، يقول: فإنَّ الله جَلَّ وعَزَّ يرْجعه إلى ما يحبّ ويرضى، عما يكرَه ويسخط من معصيته.

وقوله: «إنَّ الله غفور رحيم»، يقول: إن الله عَزَّ ذِكْرُه ساترٌ على مَنْ تاب وأناب عن معاصيه إلى طاعته ذنوبَه، بالعفو عن عقوبته عليها يوم القيامة، وتركه فضيحتَه بها على رؤوسِ الأشهاد. «رحيمٌ»، به وبعبادهِ التائبينَ إليه من ذنوبهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٠﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه محمد ﷺ: ألم يعلمْ هؤلاء ـ يعني القائلينَ: «لن تَمسَّنَا النارُ إلا أياماً معدودة»، الزاعمينَ أنهم أبناءُ الله وأحباؤُه ـ أنَّ الله مدبِّر ما في السمواتِ وما في الأرض، ومصرفه وخالقه، لا يمتنعُ شيءٌ مما في واحدةٍ

منهما مما أرادَه، لأنَّ كُلَّ ذلك ملكهُ، وإليه أمره، ولا نسبَ بينه وبين شيءٍ مما فيهما ولا مِمَّا في واحدةٍ منهما، فيحابيه بسببِ قرابتهِ منه، فينجيهِ من عذابهِ، وهو به كافرٌ، ولأمره ونهيه مخالِفٌ أو يدخله النار وهو له مطيعٌ لِبُعْدِ قرابتهِ منه، ولكنه يعذِّب مَنْ يشاء من خَلْقِهِ في الدنيا على معصيته بالقتلِ والخسفِ والمسخِ وغير ذلك من صنوف عذابه، ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتَّوبةِ عليه من كفره ومعصيته، فينقذه من الهَلَكةِ، وينجيه من العقوبة. «والله على كل شيء قدير»، يقول: والله جَلَّ وعَزَّ على تعذيبِ مَنْ أرادَ تعذيبه من خَلْقِهِ على معصيته، وغفرانِ ما أراد غفرانَهُ منهم باستنقاذِهِ من الهلكة بالتوبةِ عليه وغير ذلك من الأمورِ كلها قادرٌ، لأنَّ الخَلْقَ خلقُه، والملكَ مُلْكُه، والعباد عباده.

وخرج قوله: «ألم تعلم أنَّ الله له ملكُ السموات والأرض»، خطاباً له ﷺ، والمعنيُّ به مَنْ ذكرتُ من فِرَقِ بني إسرائيلَ الذين كانوا بمدينة رسولِ الله ﷺ وما حَوَاليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾

تأويلُ الآية: يا أيُّها الرسولُ لا يحزنك الذين يُسارعونَ في جحودِ نُبُوَّتِكَ، والتكذيبِ بأنكَ لي نبيٌّ، من الذين قالوا: صدَّقنا بك، يا محمدُ، أنك لله رسولٌ مبعوث، وعلمنا بذلك يقيناً، بوجودنا صِفَتَكَ في كتابنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾

يقول جَلَّ ثناؤهُ لنبيه محمد ﷺ: يا أيها الرسولُ لا يحزنك تسرُّع مَنْ

تسرَّع من هؤلاء المنافقينَ الذين يُظْهِرُونَ بألسنتهم تصديقَك، وهم مُعتقدونَ تكذيبكَ إلى الكفرِ بك، ولا تسرُّعُ اليهودِ إلى جحودِ نُبُوَّتِكَ. ثم وصف جَلَّ وعَزَّ له صِفَتهم، ونعتهم له بنعوتهم الذَّميمة وأفعالهم الرديئة، وأخبره مُعَزِّياً له على ما ينالُه من الحزنِ بتكذيبهم إياه، مع علمهم بصدقه، أنَّهم أهلُ استحلالِ الحرامِ والمآكلِ الرديئةِ والمطاعمِ الدنيئة من الرُّشَى والسُّحْت، وأنهم أهلُ إفكٍ وكذبٍ على الله، وتحريفٍ لكتابه. ثم أعْلَمَهُ أنه مُحِلٌّ بهم خِزْيَهُ في عاجلِ الدنيا، وعقابه في آجلِ الآخرة، فقال: هم «سَمَّاعُونَ للكذب»، يعني هؤلاء المنافقين من اليهود، يقول: هم يسمعون الكذب، و«سمعهم الكذب»، سمعُهم قولَ أحبارِهم: أنَّ حُكْمَ الزاني المحصن في التوراة، التحميمُ والجلد. «سماعون لقومٍ آخرين لم يأتوك»، يقول: يسمعون لأهلِ الزاني الذين أرادوا الاحتكامَ إلى رسول الله ﷺ، وهم القومُ الآخرون الذين لم يكونوا أتوا رسولَ الله ﷺ، وكانوا مُصِرِّينَ على أنْ يأتوهُ.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: يُحَرِّفُ هؤلاء السَّماعونَ للكذب، السماعون لقومٍ آخرين منهم لم يأتوك بَعْدُ من اليهود. «الكَلِمَ» وكان تحريفُهم ذلك، تغييرَهم حُكْمَ الله تعالى ذِكْرُهُ الذي أنزله في التوراةِ في المحصَناتِ والمحصَنينَ من الزُّناةِ بالرجمِ إلى الجَلْدِ والتحميم. فقال تعالى ذِكْرُهُ: «يحرفون الكلم»، يعني: هؤلاء اليهود، والمعنيُّ حكم الكَلِم، فاكتفى بِذِكْرِ الخبرِ من «تحريف الكلم» عن ذِكْرِ «الحكم»، لمعرفةِ السامعينَ لمعناهُ. وكذلك قوله: «من بعد مواضعه»، والمعنى: من بعد وضْعِ الله ذلك مواضِعَهُ، فاكتفى بالخبر من ذِكْرِ «مواضعه»، عن ذكرِ «وضع ذلك»، كما قال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة:١٧٧]، والمعنى: ولكن البِرَّ برُّ مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخر.

وقد يحتمل أنْ يكون معناه: يحرفون الكلم عن مواضعه فتكون «بعد» وضعت موضع «عن»، كما يقال: «جئتك عن فراغي من الشغل»، يريد: بعد فراغي من الشُّغل.

ويعني بقوله: «إنْ أُوتيتم هذا فخذوه وإنْ لم تؤتوه فاحذروا»، يقول هؤلاء الباغُون السَّماعون للكذب: إنْ أفتاكم محمدٌ بالجلدِ والتحميمِ في صاحبنا، «فَخُذُوه»، يقول: فاقبلوهُ منه، وإنْ لم يُفْتِكُمْ بذلك وأفتاكم بالرجم، فاحذروا[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾

وهذا تسليةٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّه محمداً ﷺ من حزنِهِ على مسارعةِ الذين قَصَّ قصتهم من اليهود والمنافقين في هذه الآية. يقول له تعالى ذِكْرُهُ: لا يحزنك تسرُّعهم إلى جحودِ نبوَّتك، فإني قد حَتَمْتُ عليهم أنهم لا يتوبون من ضلالتهم، ولا يرجعون عن كُفْرِهم، للسابقِ من غضبي عليهم. وغير نافِعهم حزنُكَ على ما ترى من تَسَرُّعهم إلى ما جعلته سبباً لهلاكِهم واستحقاقِهم وَعِيدي.

ومعنى «الفتنة» في هذا الموضع: الضلالة عن قَصْدِ السبيل.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ يُردِ الله، يا محمدُ، مَرْجعه بضلالتِهِ عن سبيلِ

---

(١) انظر السيرة لابن هشام: ٢/٢١٤.

الهدى، فلنْ تملكَ له من الله استنقاذًا مما أرادَ الله به من الحيرةِ والضلالة، فلا تشعر نفسكَ الحزنَ على ما فاتكَ من اهتدائهِ للحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: لا يحزُنك الذين يسارعون في الكفرِ من اليهودِ الذين وصفتُ لك صِفتهم. وإنَّ مسارَعَتَهُم إلى ذلك، أنَّ الله قد أرادَ فتنتهم، وطَبَع على قلوبهم، ولا يهتدون أبداً. «أولئك الذين لم يُرِدِ الله أنْ يُطَهِّرَ قلوبهم»، يقول: هؤلاء الذين لم يرد الله أن يطهِّر من دَنَسِ الكفر ووَسخِ الشرك قُلوبَهم، بطهارةِ الإسلام ونظافةِ الإيمان، فيتوبوا، بَلْ أراد بهم الخِزْيَ في الدنيا وذلك الذلّ والهوان وفي الآخرة عذابُ جهنم خالدين فيها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: هؤلاء اليهودُ الذين وصفتُ لكَ، يا محمدُ، صِفَتهم، سَمَّاعونَ لِقيلِ الباطلِ والكذب، من قِيْلِ بعضِهم لبعضٍ: «محمدٌ كاذبٌ، ليس بنبيٍّ»، وقِيْلِ بعضِهم: «إنَّ حكم الزاني المحصن في التوراة الجلد والتحميم»، وغير ذلك من الأباطيلِ والإفكِ ويقبلون الرُّشَى فيأكلونها على كَذِبهم على الله وفريتهم، عليه.

وأصل «السحت»: كَلَبُ الجوع، يقال منه: «فلان مسحُوت المَعِدَة»، إذا كانَ أَكُولاً لا يُلْفَى أبداً إلا جائعاً، وإنما قيل للرشوة: «السحت»، تشبيهاً بذلك، كأن بالمسترشي من الشَّرهِ إلى أخْذِ ما يُعطاهُ من ذلك، مثل الذي

بالمسحوتِ المعدةِ من الشَّرَهِ إلى الطعام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «فإنْ جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرِضْ عنهم»، إنْ جاء هؤلاء القوم الآخرون الذين لم يأتوك بعد ـ وهم قومُ المرأة البغيَّةِ ـ محتكمينَ إليك، فاحكمْ بينهم إنْ شئتَ بالحقِّ الذي جعلَهُ الله حُكماً له فيمن فَعَلَ فِعْلَ المرأة البغيَّة منهم ـ أو أعرِضْ عنهم فدع الحُكْمَ بينهم إنْ شئتَ والخيارُ إليكَ في ذلك.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في حكم هذه الآية، هل هو ثابتٌ اليوم؟ وهل للحكام من الخيارِ في الحكم والنظرِ بين أهل الذمّة والعهد إذا احتكموا إليهم، مثلُ الذي جعلَ لنبيه ﷺ في هذه الآية، أم ذلك منسوخٌ؟

فقال بعضهم: ذلك ثابتٌ اليوم، لم ينسخه شيءٌ، وللحكام من الخيار في كُلِّ دهرٍ بهذه الآية، مثلُ ما جعلَه الله لرسولِهِ ﷺ.

وقال آخرون: بل التخييرُ منسوخٌ، وعلى الحاكمِ إذا احتكم إليه أهلُ الذمة أن يحكُمَ بينهم بالحق، وليس له ترك النَّظرِ بينهم.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول مَنْ قال: إنَّ حكم هذه الآية ثابتٌ لم ينسخ، وأنَّ للحكَّام من الخيارِ في الحكم بين أهل العهد إذا ارتفعوا إليهم فاحتكموا، وتركِ الحكم بينهم والنظر، مثل الذي جعله الله لرسولِهِ ﷺ من ذلك في هذه الآية.

المائدة: ٤٢

وإنما قلنا ذلك أوْلاهما بالصواب، لأنَّ القائلين إنَّ حكم هذه الآية منسوخ، زَعموا أنه نسخ بقوله: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [المائدة: ٤٩] وقد دَلَّلْنَا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام»: أنَّ النسخ لا يكون نسخاً، إلا ما كانَ نفياً لحكمٍ غَيْرِه بكلِّ معانيه، حتى لا يجوز اجتماع الحكم بالأمرين جميعاً على صِحّته بوجهٍ من الوجوه بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وإذْ كان ذلك كذلك وكان غير مستحيل في الكلام أن يقالَ: «وأن احكم بينهم بما أنزل الله»، ومعناه: وأنِ احكمْ بينهم بما أنزلَ الله إذا حكمتَ بينهم، باختيارك الحكم بينهم، إذا اخترتَ ذلك، ولم تختر الإعراضَ عنهم، إذ كان قد تقدَّم إعلامُ المَقُولِ لَهُ ذلك من قائلِه: إنَّ له الخيار في الحكم وترك الحكم. كان معلوماً بذلك أنْ لا دلالةَ في قوله: «وأن احكم بينهم بما أنزل الله»، أنه ناسخٌ قوله: «فإن جاؤوك فاحْكُمْ بينهم أو أَعْرِضْ عنهم وإن تُعْرِضْ عنهم فلن يضروك شيئاً وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط»، لما وصفنا من احتمالِ ذلك ما بَيَّنَّا، بل هو دليلٌ على مثل الذي دلَّ عليه قوله: «وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط».

وإذْ لم يكن في ظاهر التنزيلِ دليلٌ على نسخِ إحدى الآيتين الأخرى، ولا نفي أحدِ الأمريْنِ حُكْم الآخرِ ولم يكن عن رسولِ الله ﷺ خبرٌ يصحُّ بأنَّ أحدهما ناسخٌ صاحبَه - ولا من المسلمين على ذلك إجماعٌ - صَحَّ ما قلنا من أنَّ كِلاَ الأمرين يؤيِّد أحدهما صاحبه، ويوافق حكمُه حكمَه، ولا نسخَ في أحدهما للآخر.

وأما قوله: «وإن تُعرِضْ عنهم فلن يضروك شيئاً»، فإنَّ معناه: وإن تعرض يا محمد، عن المحتكمينَ إليك من أهلِ الكتاب، فتدعَ النظرَ بينهم فيما

احتكموا فيه إليك، فلا تحكم فيه بينهم. «فلن يضروك شيئاً»، يقول: فلن يَقْدِرُوا لك على ضُرٍّ في دِينٍ ولا دنيا، فَدَعِ النظرَ بينهم إذا اخترتَ تَرْكَ النظرِ بينهم.

وأما قوله: «وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط»، فإنَّ معناه: وإن اخترتَ الحكم والنَظَر، يا محمدُ، بين أهلِ العهدِ إذا أتوك. «فاحكم بينهم بالقسط»، وهو العدلُ، وذلك هو الحكمُ بما جعله الله حكماً في مثله على جميع خَلْقِه من أمةِ نبيِّنا ﷺ.

وأما قوله: «إن الله يحب المقسطين»، فمعناه: إنَّ الله يُحِبُّ العادلينَ في حكمهم بين الناس، القاضينَ بينهم بحكمِ الله الذي أنزله في كتابه وأمْرِه أنبياءَه صلوات الله عليهم.

يقال منه: «أقسط الحاكم في حكمه»، إذا عَدَلَ وقضى بالحق، «يُقْسِط إقساطاً» وأما «القَسْطُ»، فمعناه: الجور، ومنه قول الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ [الجن: ١٥]، يعني بذلك: الجائرينَ عن الحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ: وكيف يُحَكِّمُكَ هؤلاء اليهود، يا محمد، بينهم، فيرضونَ بك حكماً بينهم. «وعندهم التوراةُ»، التي أنزلتها على موسى، التي يقرُّون بها أنها حق، وأنها كتابي الذي أنزلتهُ إلى نبيّي، وأنَّ ما فيه من حكمٍ فمن حكمي، يعلمونَ ذلك لا يتناكرونه ولا يتدافعونه، ويعلمون أنَّ حُكْمي فيها على الزاني المحصن الرجم، وهم مع علمهم بذلك. «يَتَوَلَّوْنَ»، يقول:

يتركون الحكمَ به، بعد العلمِ بحكمي فيه، جراءةً عليَّ وعصياناً لي.

وهـذا، وإنْ كان من الله تعالى ذِكْرُهُ خطاباً لنبيه ﷺ، فإنه تقريعٌ منه لليهودِ الذين نزلت فيهم هذه الآية. يقول لهم تعالى ذِكْرُهُ: كيف تُقِرُّونَ، أيها اليهود، بحكم نبيِّي محمد ﷺ، مع جحودكم نبوته وتكذيبكم إياه، وأنتم تتركون حُكْمي الذي تُقِرُّونَ به أنه حَقٌّ عليكم واجبٌ، جاءكم به موسى من عندِ الله؟ يقول: فإذْ كنتم تتركون حكمي الذي جاءكم به موسى الذي تقرّون بنبوّته في كتابي، فأنتم بتركِ حكمي الذي يخبركم به نبيِّي محمدٌ أنه حُكْمي ـ أحْرَى، مع جحودكم نبوَّته.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ مخبراً عن حالِ هؤلاء اليهود الذين وصف صِفَتهم في هذه الآية عنـده، وحال نظرائِهم من الجائرينَ عن حُكْمهِ، الزائلينَ عن محجَّةِ الحق. «وما أولئك بالمؤمنين»، يقول: ليس مَنْ فَعَلَ هذا الفعل ـ أي: مَنْ تَوَلَّى عن حكم الله، الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه، في خلقه بالذي صدَّق الله ورسوله فأقرَّ بتوحيدِه ونبوّةِ نبيه ﷺ، لأنَّ ذلك ليس من فِعْلِ أهلِ الإيمان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟

يقول تعالى ذِكْرُهُ: إنا أنزلنا التوراة فيها بيانُ ما سألكَ هؤلاء اليهود عنه من حُكْمِ الـزانيين المحصنين. «ونورٌ»، يقول: فيها جَلَاء ما أظلمَ عليهم، وضياءُ ما التبسَ من الحكم. « يحكمُ بهـا النبيون الـذين أسلموا»، يقول: يحكمُ بحكمِ التوراةِ في ذلك، أي: فيما احتكموا إلى النبيِّ ﷺ فيه من أمر الزانيين: «النبيُّونَ الذين أسلموا»، وهم الذين أذْعَنُوا لحكمِ الله وأَقَرُّوا به.

وإنما عَنَى الله تعالى ذِكْرُهُ بذلك نبيّنا محمداً ﷺ، في حُكْمِهِ على الزانيين المحصنين من اليهود بالرجم، وفي تسويته بين دمِ قتلى النّضير وقريظة في القِصاص والدِّية، ومَنْ قبل محمد من الأنبياء يحكم بما فيها من حكم الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ويحكمُ بالتوراةِ وأحكامِها التي أنزل الله فيها في كل زمان ـ على ما أمر بالحكم به فيها ـ مع النبيينَ الذين أسلَمُوا. «الربانيون والأحبار».

و«الربانيون» جمع «رَبَّانيّ»، وهم العُلماء الحكماءُ البُصَراء بسياسةِ الناس، وتدبير أمورهم، والقيام بمصالحهم. و«الأحبار»، هم العلماء.

وأما «الأحبار»، فإنهم جمع «حَبْر»، وهم العالمُ المحكم للشرع، ومنه قيل لِكَعْب: «كعب الأحبار».

وأما قوله: «بما اسْتُحْفِظُوا من كتابِ الله»، فإن معناه: يحكم النبيون الذين أسلموا بحكمِ التوراة، والربانيون والأحبار ـ يعني العلماء ـ بما استُودِعُوا علمه من كتابِ الله الذي هو التوراة.

و«الباء» في قوله: «بما استحفظوا»، من صلة «الأحبار».

وأما قوله: «وكانوا عليه شهداء»، فإنه يعني: أنَّ الربانيين والأحبار بما استودِعُوا من كتاب الله، يحكمون بالتوراةِ مع النبيين الذين أسلموا للذين هادوا، وكانوا على حُكْمِ النبيين الذين أسلموا للذين هادوا شهداء أنهم قَضوا عليهم بكتابِ الله الذي أنزله على نَبِيِّهِ موسى وقضائه عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لعلماءِ اليهودِ وأحبارهم: لا تخشوا الناسَ في تنفيذ حكمي الذي حكمتُ به على عبادي، وإمضائه عليهم على ما أمرتُ، فإنهم لا يقدرون لكم على ضرٍّ ولا نفعٍ إلَّا بإذني، ولا تكتموا الرجمَ الذي جعلتهُ حُكماً في التوراة على الزانيين المحصنين، ولكن اخشوني دونَ كُلِّ أحدٍ من خَلْقِي، فإنَّ النفعَ والضرَ بيدي، وخافوا عقابي في كتمانكم ما استُحفِظتم من كتابي.

وأما قوله: «ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً»، يقول: ولا تأخذوا بتركِ الحُكْمِ بآياتِ كتابي الذي أنزلتهُ على موسى، أيها الأحبارُ، عِوَضاً خسِيساً وذلك هو «الثمنُ القليل».

وإنما أراد تعالى ذِكْرُهُ، نَهْيَهُمْ عن أكلِ السُّحْتِ على تحرِيفهم كتابَ الله، وتغييرهم حُكْمَهُ عما حكم به في الزانيين المحصنين، ، وغير ذلك من الأحكام التي بَدَّلُوها طلباً منهم للرشَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ كتم حُكمَ الله الذي أنزله في كتابه وجعله حَكَماً بين عباده، فأخفاهُ وحكَمَ بغيرِه، كحكمِ اليهودِ في الزانيين المحصنين بالتجبيةِ والتحميم، وكتمانهم الرجم، وكقضائِهم في بعضٍ قتلاهم بديةٍ كاملةٍ وفي بعضٍ بنصفِ الدية، وفي الأشراف بالقِصاص، وفي الأدنياء بالديةِ، وقد سوَّى

الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة. «فأولئك هم الكافرون»، يقول: هؤلاء الذين لم يَحْكُموا بما أنزلَ الله في كتابه، ولكن بَدَّلُوا وغَيَّرُوا حكمه، وكتموا الحقَّ الذي أنزله في كتابه. «هم الكافرون»، يقول: هم الذين سَتَروا الحَقَّ الذي كان عليهم كشفُه وتبيينهُ، وغطَّوهُ عن الناسِ، وأظهروا لهم غيره، وقضوا به، لسحتٍ أخذُوه منهم عليه.

وقد اختلف أهلُ التأويل في تأويل «الكفر» في هذا الموضع:

فقال بعضهم بنحوِ ما قُلْنا في ذلك، من أنه عَنَى به اليهودَ الذين حَرَّفوا كتابَ الله وبدَّلُوا حكمه.

وقال بعضهم: عَنَى بـ «الكافرين»، أهلَ الإسلام، وبـ «الظالمين» اليهود، وبـ «الفاسقين» النصارى.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: كفرٌ دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسقٌ دون فسق.

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآياتُ في أهلِ الكتاب، وهي مرادٌ بها جميعُ الناس، مسلموهم وكُفّارهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: ومَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ الله جاحداً به. فأما «الظلم» و«الفسق»، فهو للمُقِرِّ به.

وأوْلى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: نزلت هذه الآيات في كفّارِ أهلِ الكتابِ، لأنَّ ما قَبْلَها وما بَعْدَها من الآياتِ ففيهم نزلتْ، وهم المعنيُّونَ بها، وهذه الآياتُ سياقُ الخبرِ عنهم، فكونُها خبراً عنهم أوْلى.

فإنْ قال قائل: فإنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ قد عَمَّ بالخبرِ بذلك عن جميعِ مَنْ لم يَحْكُمْ بما أنزلَ الله، فكيف جعلته خاصًّا؟

قيل: إنَّ الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قومٍ كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابهِ جاحدينَ، فأخبر عنهم أنهم بتركِهم الحكمَ، على سبيلِ ما تركوه، كافرونَ. وكذلك القولُ في كُلِّ مَنْ لم يحكمْ بما أنزلَ الله جاحداً به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحودهِ حُكْمَ الله بعدَ عِلْمِه أنه أنزله في كتابه، نظير جحودهِ نبوَّة نبيِّه بعد عِلْمِهِ أنه نبيٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكتبنا على هؤلاء اليهود الذين يُحَكِّمونكَ، يا محمدُ، وعندهم التوراةُ فيها حكمُ الله.

ويعني بقوله: «وكتبنا»، وفَرَضْنَا عليهم فيها أنْ يحكموا في النَّفس إذا قتلت نفساً بغير حق. «بالنفس»، يعني: أنْ تُقْتَلَ النفسُ القاتلةُ بالنفسِ المقتولةِ، «والعين بالعين»، يقول: وفرضنا عليهم فيها أنْ يفقأوا العينَ التي فقأ صاحبها مِثْلَها من نفسٍ أخرَى بالعينِ المفقوءة ـ ويُجْدَع الأنفُ بالأنف ـ وتُقْطَع الأذنُ بالأذن ـ وتُقْلَع السنُّ بالسنّ ـ ويُقْتَصّ من الجارحِ غيره ظلماً للمجروح.

وهذا إخبارٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ عن اليهودِ وتعزية منه له عن كُفْرِ مَنْ كَفَرَ منهم به بعد إقرارهِ بنبوته، وإدباره عنه بعد إقباله ـ وتعريفٌ منه له جراءتهم قديماً وحديثاً على ربِّهم وعلى رُسُلِ ربِّهم، وتقدُّمهم على كتابِ الله بالتحريف والتبديل.

يقول تعالى ذِكْرُهُ له: وكيف يرضى هؤلاء اليهود، يا محمدُ، بحكمكَ،

إذْ جاؤوا يُحَكِّمـونكَ وعندهم التوراةُ التي يُقِرُّونَ بها أنها كتابي ووحيي إلى رسولي موسى ﷺ، فيها حُكْمِي بالرجمِ على الزُّنَاةِ المحصنين، وقضائي بينهم أنَّ مَنْ قتَلَ نفساً ظلماً فهو بها قَوَدٌ، ومن فقأ عيناً بغير حَقٍّ فعينه بها مفقوءة قِصَاصاً، ومَنْ جَدَعَ أنفاً فأنفهُ به مجدوع، ومَنْ قلع سنًّا فسنُّه بها مقلوعة، ومَنْ جَرَحَ غيره جرحاً فهو مقتصٌّ منه مثل الجرح الذي جرحه؟ - ثم هم مع الحكم الذي عندهم في التوراة من أحكامي، يتولون عنه ويتركون العملَ به، يقول: فهم بتركِ حكمكَ، وبسخطِ قضائكَ بينهم، أحْرَى وأولَى.

فهذا يستوي فيه أحرارُ المسلمينَ فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان في النفس وما دون النفس، ويستوي فيه العبيدُ رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ به: «فمن تصدق به فهو كفارة له».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك المجروحَ ووليَّ القتيل.

وقال آخرون: عَنَى بذلك الجارحَ. وقالوا: معنى الآية: فمن تَصَدَّقَ بما وَجَبَ له من قوَدٍ أو قصاصٍ على مَنْ وَجَبَ ذلك له عليه، فعفا عنه، فعفوهُ ذلك عن الجاني كفّارة لذنبِ الجاني المجرم، كما القِصاص منه كفَّارةٌ له. قالوا: فأما أجْر العافِي المتصدِّق، فَعَلى الله.

وأوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «فمن تصدّق به فهو كفارة له»، المجروح فلأن تكون «الهاء» في قوله: «له» عائدةً على «مَنْ»، أوْلى من أن تكون مِنْ ذِكْر مَنْ لم يجر له ذِكْرٌ إلَّا بالمعنى دون التصريح، وأحْرَى، إذِ الصدقةُ هي المُكَفِّرةُ ذنبَ صاحبها دونَ المتصدَّقِ عليه

في سائرِ الصدقات غير هذه، فالواجبُ أنْ يكون سبيلُ هذه سبيلَ غيرها من الصَّدقات.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ القِصاصَ إذْ كان يكفِّر ذنبَ صاحبِهِ المقتصّ منه الذي أتاه في قتل مَنْ قتله ظلماً، لقولِ النبيِّ ﷺ إذْ أخذَ البيعةَ على أصحابه: «أنْ لاتقتلوا ولا تزنُوا ولا تسرقوا»، ثم قال: «فمن فَعَل من ذلك شيئاً فأقيمَ عليه حَدُّهُ فهو كَفَّارته»[1] فالواجب أن يكونَ عفوُ العافي المجنيِّ عليه، أو ولي المقتول عنه نظيرَه، في أنَّ ذلك له كفارة. فإنَّ ذلك لو وجب أن يكون كذلك، لوجب أن يكون عفوُ المقذوفِ عن قاذفهِ بالزنا، وتَركه أخذه بالواجبِ له من الحدِّ وقد قذفه قاذِفُه وهو عفيفٌ مسلم مُحْصَن، كفَّارةً للقاذفِ من ذنبِهِ الذي ركبه، ومعصيته التي أتاها. وذلك ما لا نعلمُ قائلاً من أهلِ العلم يقوله.

فإذْ كان غير جائزٍ أن يكون المقذوف ـ الذي وصفنا أمره ـ أخذَ قاذفه بالواجب له من الحَدِّ كفارةً للقاذفِ من ذنبه الذي ركبه، كان كذلك غير جائزٍ أنْ يكون تركُ المجروحِ أخذَ الجارح بحقِّه من القصاص، كفارةً للجارح من ذنبه الذي ركبه.

فإنْ قال قائل: أَوَ ليسَ للمجروح عندك أخْذُ جارحه بديةِ جُرْحِه مكانَ القصاص؟

قيل له: بلى!

فإنْ قال: أفرأيتَ لو اختار الدِّيةَ ثم عفا عنها، أكانت له قِبلَه في الآخرةِ تَبعةٌ؟

---

(١) قطعة من حديث رواه المؤلف معلقاً غير مسند، وهو في الصحيحين: **البخاري** (٦٧٨٤) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت. وانظر طرقه الأخرى في فتح الباري: ١٢/٨٤.

قيل له: هذا كلامٌ عندنا محالٌ. وذلك أنه لا يكونُ عندنا مختاراً لديةٍ إلَّا وهو لها آخِذٌ. فأما العفوُ فإنما هو عَفْوٌ عن الدمِ ـ وقد دلَّلْنا على صحة ذلك في موضع غيرِ هذا، بما أغْنَى عن تكريرِهِ في هذا الموضع ـ إلا أنْ يكونَ مُراداً بذلك هِبَتُها لمن أُخِذَتْ منه بعد الأخذِ. مع أنَّ عفوه عن الديةِ بعد اختيارِهِ إياها لو صَحَّ، لم يكن في صحة ذلك ما يوجبُ أنْ يكون المعفوُّ له عنها بريئاً من عقوبةِ ذنبِهِ عند الله، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ أوعدَ قاتلَ المؤمنِ بما أوعدَهُ به إن لم يَتُبْ من ذنبِهِ، والديةُ مأخوذةٌ منه، أحَبَّ أم سخط. والتوبةُ من التائب إنما تكون توبةً إذا اختارها وأرادَها وآثرها على الإصرار.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك وإنْ كان كذلك، فقد يجب أن يكون له كفارةً، كما كان القصاص له كفارةً، فإنَّا إنما جعلنا القِصاص له كفارةً مع نَدَمِهِ وبَذْلِه نفسَه لأخذِ الحق منها تَنَصُّلاً من ذنبِهِ، بخبرِ النبيِّ ﷺ. فأما الدية إذا اختارها المجروحُ ثم عفا عنها، فلم يُقْضَ عليه بحدِّ ذنبه، فيكون مِمَّنْ دخلَ في حكم النبيِّ ﷺ وقوله: «فَمَنْ أُقيمَ عليه الحَدُّ فهو كفارته»(١).

وقد يجوز أنْ يكون القائلون إنه عَنَى بذلك الجارحَ، أرادوا المعنى الذي ذُكر عن عروة بن الزبير الذي أخبر به عبدالله بن كثير، عن مجاهد قال: إذا أصابَ رجلٌ رجلًا، ولا يعلم المُصابُ مَنْ أصابه، فاعترف له المصيبُ، فهو كفارةٌ للمُصيب. قال: وكان مجاهد يقول عند هذا: أصاب عروة بن الزبير عينَ إنسانٍ عند الركن فيما يستلمون، فقال له: يا هذا، أنا عروةُ بن الزبير، فإنْ كان بعينكَ بأسٌ فأنَا بها!

وإذا كان الأمرُ من الجارحِ على نحوِ ما كانَ من عروةَ من خطأ فعلٍ على غيرِ عَمْدٍ، ثم اعترفَ للذي أصابه بما أصابه، فعفا له المصابُ بذلك عن

(١) تقدم تخريجه.

حقِّه قِبَلَهُ، فلا تبعةَ له حينئذٍ قِبَلَ المُصيبِ في الدنيا ولا في الآخرة. لأنَّ الذي كان وجب له قبله مالٌ لا قِصاص، وقد أبرأَهُ منه: فإبراؤُه منه، كفَّارةٌ للمبرّأ من حَقِّهِ الذي كان له أخذه به، فلا طَلِبَةَ له بسببِ ذلك قِبَلَهُ في الدنيا ولا في الآخرة، ولا عقوبةَ تلزمهُ بها بما كانَ منه إلى مَنْ أصابه، لأنه لم يَتَعَمَّدْ إصابتَهُ بما أصابَهُ به، فيكون بفعله آثماً يستحقُّ به العقوبةَ من ربه. لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد وضع الجُناحَ عن عبادهِ فيما أخطأوا فيه ولم يتعمَّدُوه من أفعالِهم، فقال في كتابه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

و«التصدق»، في هذا الموضع، بالدم، العفو عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ ذِكْرُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَنْ لم يحكم بما أنزلَ الله في التوراةِ من قَوَدِ النفس القاتلة قِصاصاً بالنفسِ المقتولة ظلماً، ولم يفقأ عينَ الفاقئ بعين المفقوء ظلماً، قِصاصاً ممن أمَرَهُ الله به بذلك في كتابه، ولكنْ أقادَ من بعضٍ ولم يُقِدْ من بعضٍ، أو قتل في بعض اثنين بواحد، فإنَّ مَنْ يفعل ذلك من «الظالمين». يعني: مِمَّنْ جارَ عن حُكْمِ الله، ووضع فِعْلَهُ ما فعلَ من ذلك في غيرِ موضعهِ الذي جعله الله له موضعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عزَّ ذِكْرُه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ٤٦﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُهُ بقوله: «وقَفَّيْنا على آثارهم»، أتبعنا. يقول: أتبعنا عيسى بنَ مريم على آثارِ النبيين الذين أسلموا من قبلك، يا محمدُ، فبعثناه نبيًّا مُصَدِّقاً لكتابنا الذي أنزلناهُ إلى موسى من قبله أنَّهُ حَقٌّ، وأنَّ العملَ بما لم ينسخه الإنجيلُ منه فرضٌ واجب. «وآتيناهُ الإنجيل»، يقول: وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه «الإنجيل». «فيه هدى ونور»، يقول: في الإنجيل «هدىً»، وهو بيانُ ما جَهِلَهُ الناسُ من حُكْمِ الله في زمانه. «ونور»، يقول: وضياءٌ منْ عَمَى الجهالةِ. «ومصدقاً لما بين يديه»، يقول: أوحينا إليه ذلك وأنزلناهُ إليه بتصديقِ ما كانَ قَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي كان أنزلها على كُلِّ أمةٍ أُنزل إلى نبيِّها كتابٌ للعملِ بما أنزل إلى نبيهم في ذلك الكتاب، من تحليلِ ما حَلَّلَ، وتحريمِ ما حَرَّمَ. «وهدى وموعظة»، يقول: أنزلنا الإنجيلَ إلى عيسى مصدِّقاً للكتب التي قبله، وبيانـاً لحكم الله الـذي ارتضاهُ لعباده المتَّقين في زمان عيسى. «وموعظة»، لهم يقول: وزَجْراً لهم عَمَّا يكرهه الله إلى ما يحبُّه من الأعمالِ، وتنبيهاً لهم عليه.

و«المتقـون»، هم الذين خافوا الله وحَذِروا عِقابَهُ، فاتقوه بطاعته فيما أمرهم، وحذروه بتركِ ما نهاهم عن فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤٧﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «وليحكم أهلُ الإنجيل».

فقـرأتـه قَرَأَةُ الحجـازِ والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ بتسكين «اللام»، على وجهِ الأمرِ من الله لأهلِ الإنجيل: أنْ يحكموا بما أنزلَ الله فيه من أحكامه. وكأنَّ مَنْ قرأ ذلك كذلك، أراد: وآتيناهُ الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ

ومُصَدِّقاً لما بينَ يديه من التوراةِ، وأمرنا أهْلَهُ أنْ يحكموا بما أنزلَ الله فيه فيكون في الكلام محذوف، ترك استغناءً بما ذكر عما حُذِف.

وقرأ ذلك جماعةٌ من أهل الكوفة: ﴿وَلِيَحْكُمَ أهْلُ الإنْجِيلِ﴾ بكسر «اللام»، من «ليحكم»، بمعنى: كي يحكمَ أهلُ الإنجيل. وكأنَّ معنى مَنْ قرأ ذلك كذلكَ: وآتيناه الإنجيلَ فيه هدى ونورٌ ومُصَدِّقاً لما بين يديهِ من التوراة، كي يَحْكُمَ أهلُه بما فيه من حُكْمِ الله.

والذي نقول به في ذلك، أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، فبأيِّ ذلك قرأ قارئٌ فمصيبٌ فيه الصوابَ.

وذلك أن الله تعالى لم ينزل كتاباً على نبيٍ من أنبيائهِ إلاّ ليعمل بما فيه أهلُه الذين أُمِرُوا بالعملِ بما فيه، ولم ينزله عليهم إلاّ وقد أمرهم بالعمل بما فيه، فللعملِ بما فيه أنزله، وأمراً بالعملِ بما فيه أنزله[1]. فكذلك الإنجيلُ، إذ كان من كُتُبِ الله التي أنزلها على أنبيائه، فللعمل بما فيه أنزلَهُ على عيسى، وأمراً بالعملِ به أهلَه أنزله عليه. فسواءٌ قُرِىء ذلك على وَجْهِ الأمرِ بتسكين «اللام»، أو قُرِىءَ على وجه الخبر بكسرها، لاتفاق معنييهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ

وهذا خطابٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ. يقول تعالى ذِكْرُه: أنزلنا إليك، يامحمدُ، «الكتابَ»، وهو القرآنُ الذي أنزله عليه ويعني بقوله: «بالحق»، بالصدقِ ولا كَذِبَ فيه، ولا شَكَّ أنه من عند الله، «مصدقاً لما بين يديه من الكتاب»، يقول: أنزلناه بتصديقِ ماقَبْلَهُ من كُتُبِ الله التي أنزلها إلى

(١) ذكر ذلك ليبين تقارب معنى القراءتين.

أنبيائـه. «ومهيمناً عليه»، يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليكَ، يامحمدُ، مُصَدِّقاً للكتبِ قبله، وشهيداً عليها أنها حَقٌّ من عند الله، أميناً عليها، حافظاً لها.

وأصـلُ «الهيمنـة»، الحفظ والارتقاب. يقال، إذا رَقَب الرجلُ الشيءَ وحفظه وشَهِده: «قد هَيْمَن فلانٌ عليه، فهو يُهَيْمِنُ هيمنة، وهو عليه مهيمن».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ، أنِ يحكم بين المحتكمينَ إليه من أهلِ الكتاب وسائرِ أهلِ الملل بكتابه الذي أنزلهِ إليه، وهو القرآن الذي خصّه بشريعته. يقول تعالى ذِكْرُه: احكم، يامحمدُ، بين أهلِ الكتاب والمشركين بما أُنزل إليكَ من كتابي وأحكامي في كُلِّ ما احتكموا فيه إليك، من الحدود والجُرُوح والقَوَدِ والنفوس، فارْجُمِ الزاني المحصَن، واقتلِ النفسَ القاتلةَ بالنفسِ المقتولةِ ظُلْماً، وافقأ العينَ بالعينِ، واجدع الأنفَ بالأنفِ، فإني أنزلتُ إليك القرآن مصدّقاً في ذلك مابين يديه من الكتبِ، ومهيمناً عليه رقيباً، يقضي على ماقَبْلَهُ من سائرِ الكتب قبلَه، ولا تَتَّبِعْ أهواءَ هؤلاء اليهود ـ الذين يقـولـون: إنْ أُوتيتم الجلدَ في الـزاني المحصن دونَ الرجم، وقتلَ الوضيع بالشريفِ إذا قتله، وتركَ قَتْل الشريفِ بالوضيع إذا قتله، فَخُذُوهُ، وإنْ لم تُؤْتَوهُ فاحْذَرُوا[١] ـ عن الذي جاءكَ من عندِ الله من الحَقِّ، وهو كتابُ الله الذي أنزله إليك. يقول له: اعملْ بكتابي الذي أنزلته إليكَ إذا احتكموا إليك فاخترتَ

(١) قطعة من حديث البراء بن عازب الذي أخرجه مسلم في تغيير اليهود لحكم الزاني وتلاعبهم فيه (١٧٠٠).

الحُكْمَ عليهم، ولا تتركنَّ العملَ بذلك اتباعاً منكَ أهواءَهم، وإيثاراً لها على الحَقِّ الذي أنزلتهُ إليكَ في كتابي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لِكُلِّ قومٍ منكم جعلنا شرعةً.

و«الشرعةُ» هي «الشريعة» بعينها، تُجْمَعُ «الشِّرعةُ» «شِرَعاً»، «والشريعةُ» «شرائعَ». ولو جمعت «الشرعة» «شرائع»، كان صواباً، لأنَّ معناها ومعنى «الشريعة» واحدٌ، فيردّها عند الجمع إلى لفظِ نظيرها. وكُلُّ ماشرعت فيه من شيء فهو «شريعة». ومن ذلك قيل: لشريعةِ الماء «شريعة»، لأنه يُشْرع منها إلى الماء. ومنه سُمِّيَتْ شرائعُ الإسلام «شرائع»، لشروع أهله فيه. ومنه قيل للقوم إذا تساووا في الشيء: «هم شَرَعٌ»، سواءٌ.

وأما «المنهاج»، فإنَّ أصله: الطريقُ البَيِّنُ الواضحُ، يقال منه: «هو طريق نَهْجٌ، ومَنْهجٌ»، بيِّنٌ.

فمعنى الكلام: لكلِّ قومٍ منكم جعلنا طريقاً إلى الحَقِّ يَؤُمُّهُ، وسبيلاً واضحاً يعمل به.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «لكلٍّ جعلنا منكم».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك أهلَ المللِ المختلفة، أي: أنَّ الله جعل لكل مِلَّةٍ شريعةً ومنهاجاً.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك أمَّةَ محمدٍ ﷺ. وقالوا: إنما معنى الكلام: قد جعلنا الكتابَ الذي أنزلناه إلى نبينا محمدٍ ﷺ، أيها الناس، لكُلِّكم - أي لِكُلِّ مَنْ دخل في الإسلام وأقرَّ بمحمدٍ ﷺ أنه لي نبيٌّ - شِرْعةً ومنهاجاً.

وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: لِكُلِّ أهلِ ملة منكم أيها الأممُ، جعلنا شِرعةً ومنهاجاً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصواب، لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ولو كان عَنَى بقوله: «لكل جعلنا منكم»، أمّة محمد، وهم أمّة واحدةً، لم يكن لقوله: «ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة»، وقد فعل ذلك فجعلهم أمةً واحدة ـ معنىً مفهوم. ولكن معنى ذلك، على ماجَرَى به الخطابُ من اللهِ لنبيهِ محمدٍ ﷺ: أنه ذكر ماكتب على بني إسرائيل في التوراةِ، وتقدم إليهم بالعملِ بما فيها، ثم ذكر أنه قَفَّى بعيسى بنِ مريمَ على آثارِ الأنبياءِ قَبْلَهُ، وأنزل عليه الإنجيلَ، وأمر مَنْ بَعثه إليه بالعملِ بما فيه. ثم ذكر نبيَّنا محمداً ﷺ، وأخبره أنه أنزلَ إليه الكتابَ مصدِّقاً لما بين يديه من الكتاب، وأمره بالعملِ بما فيه، والحكم بما أنزل إليه فيه دونَ ما في سائرِ الكتب غيره ـ وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعةً غيرَ شرائع الأنبياء والأممِ قبلَهُ الذين قَصَّ عليه قصصَهُم، وإنْ كان دِيْنُهُ ودِيْنهم ـ في توحيدِ الله، والإقرارِ بما جاءهم به من عنده، والانتهاء إلى أمرِه ونهيه ـ واحداً، فهم مختلفُو الأحوالِ فيما شرع لكم واحد منهم ولأمته، فيما أحلَّ لهم وحرَّمَ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شاء ربكم لجعلَ شرائعكم واحدةً، ولم يجعل لكل أمة شريعةً ومنهاجاً غيرَ شرائع الأمم الأخر ومنهاجهم، فكنتم تكونون أمةً واحدةً لا تختلفُ شرائعكم ومنهاجكم، ولكنه تعالى ذِكْرُه يعلمُ ذلك، فخالفَ بين شرائِعكم ليخْتَبِرَكُم، فيعرف المطيعَ منكم من العاصي، والعاملَ بما أَمَرَهُ في الكتاب الذي أنْزله إلى نبيِّه ﷺ من المخالِفِ.

و«الابتلاء»، هو الاختبار.

وقوله: «فيما آتاكم»، يعني: فيما أنزلَ عليكم من الكتب.

فإنْ قال قائل: وكيف قال: «ليبلوكم فيما آتاكم»، ومَن المخاطبُ بذلك؟ وقد ذكرت أنّ المعنيَّ بقوله: «لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً»، نبيُّنا مع الأنبياء الذين مضوا قبله وأممِهم، والذين قبل نبيّنا ﷺ على حِدَةٍ؟

قيل: إنَّ الخطابَ وإنْ كان لنبينا ﷺ: فإنه قد أُريدَ به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم. ولكنَّ العربَ مِنْ شأنها إذا خاطبتْ إنساناً وضَمَّتْ إليه غائباً، فأرادت الخبرَ عنه، أن تغلِّبَ المخاطبَ، فيخرج الخبرُ عنهما على وجهِ الخطاب، فلذلك قال تعالى ذِكْرُه: «لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فبادروا، أيها الناسُ، إلى الصالحاتِ من الأعمالِ، والقُرَبِ إلى ربكم، بإدمانِ العمل بما في كتابكم الذي أنزله إلى نبيكم، فإنه إنما أنزله امتحاناً لكم وابتلاءً، ليتبينَ المحسنُ منكم من المسيءِ، فيجازي جميعكم على عمله جزاءَه عند مصيرِكم إليه، فإنَّ إليه مصيركم جميعاً، فيخبر كلَّ فريقٍ منكم بما كان يخالفُ فيه الفرقَ الأخرى، فيفْصل بينهم بفصلِ القضاء، وتُبينُ المحقَّ مجازاته إياهُ بجناتِهِ، من المسيءِ بعقابِهِ إياهُ بالنارِ، فيتبين حينئذٍ كل حزب عياناً، المحقّ منهم من المُبْطِل.

فإنْ قالَ قائلٌ: أو لم ينبئنا ربُّنا في الدنيا قبل مَرْجِعنَا إليه ما نحنُ فيه مختلفون؟

قيل: إنه بَيَّنَ ذلك في الدنيا بالرُّسُلِ والأدلةِ والحجج، دونَ الثوابِ والعقاب عياناً، فَمُصَدِّقٌ بذلكَ ومُكَذِّبٌ. وأما عند المرجعِ إليه، فإنه ينبئهم بذلك بالمجازاةِ التي لا يَشُكُّونَ معها في معرفة المُحِقِّ والمبطل، ولا يقدرون على إدخالِ اللبس معها على أنفسهم. فكذلك خبرُه تعالى ذكره أنه ينبئنا عند المرجعِ إليه بما كنَّا فيه نختلف في الدنيا. وإنما معنى ذلك: إلى الله مرجعكم جميعاً، فتعرفون المحقَّ حينئذٍ من المبطل منكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «وأنِ احكمْ بينهم بما أنزلَ الله»، وأنزلنا إليكَ، يامحمدُ، الكتابَ مُصَدِّقاً لما بين يديهِ من الكتابِ، وأنِ احكُمْ بينهم. فـ«أنْ» في موضعِ نصبٍ بـ«التنزيل».

ويعني بقوله: «بما أنزلَ الله»، بحكمِ اللهِ الذي أنزلَهُ إليكَ في كتابه.

وأما قوله: «ولا تتبع أهواءهم»، فإنه نهيٌ من الله نبيَّهُ محمداً ﷺ أنْ يتّبعَ أهواءَ اليهودِ الذين احتكموا إليه في قتيلهم وفاجِرَيْهِم، وأمرٌ منه له بلزومِ العمل بكتابهِ الذي أنزله إليه.

وقوله: «واحذرهم أن يفتِنوك عن بعضِ ما أنزل الله إليك»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واحذَرْ، يامحمدُ، هؤلاء اليهود الذين جاؤوك مُحْتكِمينَ إليك. «أن يفتنوك»، فيصدُّوك عن بعضِ ما أنزلَ الله إليكَ من حُكْمِ كتابه، فيحملوكَ على تَرْكِ العملِ به واتّباع أهوائهم.

وقوله: «فإنْ تَوَلَّوا فاعلمْ أنما يريدُ الله أن يُصِيبهم ببعض ذنوبهم»، يقول تعالى ذكره: فإنْ تَوَلَّى هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليكَ عنكَ، فتركوا العملَ بما حكمتَ به عليهم وقضيتَ فيهم. «فاعلمْ أنما يريدُ الله أنْ يُصيبهم ببعضِ ذنوبهم»، يقول: فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى بحكمكَ وقد قضيتَ بالحقِّ، إلَّا من أجلِ أنَّ اللهَ يريدُ أنْ يتعجَّلَ عقوبتهم في عاجلِ الدنيا ببعضِ ماقد سَلَفَ من ذنـوبهم. «وإن كثيراً من الناس لفاسقون»، يقول: وإنَّ كثيراً من اليهود. «لفاسقون»، يقول: لتارِكُو العمل بكتابِ الله، ولخارجونَ عن طاعتهِ إلى معصيته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ عَزَّ ذِكْـرُه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيبغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك، فلم يرضوا بحكمك، إذْ حكمتَ فيهم بالقسطِ. «حكم الجاهلية»، يعني: أحكامَ عبَدَةِ الأوثـانِ من أهـلِ الشـرك، وعندهم كتابُ الله فيه بيانُ حقيقةِ الحكم الذي حكمتَ به فيهم، وأنه الحقُّ الذي لا يجوزُ خِلافُه.

ثم قال تعالى ذِكْرُه موبِّخاً لهؤلاء الذين أبوا قَبُولَ حُكْمِ رسولِ الله ﷺ عليهم ولهم من اليهود، ومُسْتَجْهِلاً فِعْلَهم ذلك منهم ـ: ومَنْ هذا الذي هو أحسنُ حكمـاً، أيها اليهودُ، من اللهِ تعالى ذِكْرُه عند مَنْ كان يُوقِنُ بوحدانيةِ الله، ويقرُّ بربوبيته؟ يقول تعالى ذِكْرُه: أيُّ حُكْمٍ أحسنُ من حُكْمِ الله، إنْ كنتم موقنين أنَّ لكم ربًّا، وكنتم أهلَ توحيدٍ وإقرارٍ به؟

المائدة: ٥١

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾

إنَّ الله تعالى ذكره نهَى المؤمنين جميعاً أنْ يَتَّخِذُوا اليهودَ والنصارى أنصاراً وحلفاءَ على أهلِ الإيمان بالله ورسوله وغيرَهم، وأخبر أنه مَن اتخذهم نصيراً وحليفاً ووليًّا من دونِ الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزُّبِ على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأنَّ الله ورسوله منه بريئان.

ولا شكَّ أنَّ الآيةَ نزلتْ في منافقٍ كان يوالي يهوداً أو نصارى خوفاً على نفسه من دوائر الدهر، لأنَّ الآية التي بَعْدَ هذه تدلُّ على ذلك، وذلك قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ الآية.

وأما قوله: «بعضهم أولياء بعض»، فإنه عَنَى بذلك: أنَّ بعض اليهودِ أنصارُ بعضِهم على المؤمنين، ويدٌ واحدةٌ على جميعِهم وأنَّ النصارى كذلك، بعضهم أنصارُ بعضٍ على مَنْ خالف دِينَهم وملتهم مُعَرِّفاً بذلك عبادَهُ المؤمنينَ: أنَّ مَنْ كان لهم أو لبعضهم وليًّا، فإنما هو وليُّهم على مَنْ خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حَرْبٌ. فقال تعالى ذِكْرُه للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضاً بعضُكم أولياءُ بعضٍ، ولليهوديّ والنصراني حرباً كما هم لكم حَرْبٌ، وبعضهم لبعض أولياء، لأنَّ مَنْ والاهم فقد أظهرَ لأهلِ الإيمانِ الحربَ، ومنهم البراءة، وأبانَ قطع وَلَايتهم[1].

---

(١) كتب الشيخ سليمان حفيد الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب رسالة نفيسة في حكم موالاة أهل الإشراك، نشرتها دار عمار للنشر والتوزيع في عمان (سنة ١٩٩٠). راجعها تجد فائدة كبيرة إن شاء الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ عَزَّ ذِكْرُه: وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ

يعني تعالى ذكره بقوله: «ومَنْ يتولَّهم منكم فإنه منهم»، ومَنْ يتولَّ اليهودَ والنصارى دونَ المؤمنين، فإنه منهم. يقول: فإنَّ مَنْ تولاهم ونصرَهم على المؤمنين، فهو من أهلِ دِينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍّ أحداً إلا وهو به وبدينه وما هُوَ عليه رَاضٍ. وإذا رضيه ورضيَ دينَهُ، فقد عادى ما خالفه وسَخِطه، وصار حكمُه حُكمَه، ولذلك حَكَم مَنْ حكم من أهلِ العلم لنصارى بني تغلب في ذبائِحهم ونكاحِ نسائهم وغير ذلك من أمورهم، بأحكامِ نصَارَى بني إسرائيل، لموالاتِهم إياهم، ورِضَاهم بملَّتِهم، ونصرتهم لهم عليها، وإنْ كانت أنسابُهم لأنسابِهم مخالفة، وأصل دينهم لأصل دينهم مفارقاً.

وفي ذلك الدلالةُ الواضحة على صحّة ما نقولُ، من أنَّ كُلَّ مَنْ كان يدينُ بدينٍ فله حكمُ أهلِ ذلك الدين، كانت دينونَتُه به قَبْلَ مجيءِ الإسلام أو بَعْدَهُ. إلا أنْ يكون مسلماً من أهل ديننا انتقل إلى ملّة غيرها، فإنه لايُقَرُّ على مادانَ به فانتقلَ إليه، ولكنْ يُقْتَل لردَّتهِ عن الإسلامِ ومفارقتهِ دينَ الحَقِّ، إلا أن يرجعَ قبل القَتْل إلى الدينِ الحَقِّ وفسادِ ما خالفه من قولِ مَنْ زعم: أنه لا يحكم بحكم أهل الكتابين لمن دان بدينهم، إلا أنْ يكون إسرائيليًّا أو منتقلاً إلى دينهم من غيرهم قبلَ نزولِ الفرقان. فأما مَنْ دان بدينهم بعد نزولِ الفُرْقان، ممن لم يكن منهم، ممن خالف نسبُه نَسَبَهم وجِنْسُه جِنْسَهم، فإنَّ حكمه لحكمهم مخالفٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: إنَّ الله لا يوفِّقُ مَنْ وضع الولاية في غير موضعها، فوالى اليهودَ والنصارى ـ مع عدواتهم الله ورسولَهُ والمؤمنينَ ـ على

المؤمنينَ، وكان لهم ظهيراً ونصيراً، لأنَّ مَنْ تَولَّاهم فهو لله ولرسوله وللمؤمنين حَرْبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾

إنَّ ذلك من الله خَبَرٌ عن ناسٍ من المنافقين كانوا يوالون اليهودَ والنصارى ويغشُّون المؤمنينَ، ويقولون: نَخْشَى أنْ تدورَ دوائر ـ إما لليهود والنصارى، وإما لأهل الشرك من عبدة الأوثان، أو غيرهم ـ على أهلِ الإسلام، أو تنزل بهؤلاء المنافقين نازلةٌ، فيكون بنا إليهم حاجةٌ.

فتأويل الكلام إذاً: فترى، يامحمدُ، الذين في قلوبهم شكٌّ، ومرضُ إيمانٍ بنبوتِّكَ وتصديق ماجِئْتَهُمْ به من عند ربكَ. «يسارعون فيهم»، يعني في اليهود والنصارى ويعني بمسارعتهم فيهم: مسارعتهم في مُوالاتهم ومصانعتهم. «يقولون نخشى أنْ تصيبنا دائرةٌ»، يقول هؤلاء المنافقون: إنما نسارعُ في موالاةِ هؤلاء اليهودِ والنصارى، خوفاً من دائرةٍ تدورُ علينا من عَدُوِّنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ۝٥٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فعسى الله أن يأتي بالفتحِ أو أمرٍ من عنده»، فَلَعَلَّ الله أنْ يأتي بالفتح.

ثم اختلفوا في تأويلِ «الفتح» في هذا الموضع.

فقال بعضهم: عُني به ههنا، القضاء.

وقال آخرون: عُني به فَتْحُ مكة.

و«الفتـح» في، كلام العرب، هو القضاءُ، ومنه قول الله تعالى ذكره: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يجوز أن يكونَ ذلك القضاء الذي وعدَ الله نبيهُ محمداً ﷺ بقوله: «فعسى الله أن يأتي بالفتح» فتح مكة، لأنَّ ذلك كان من عظيمِ قضاءِ الله، وفَصْلِ حُكمهِ بين أهلِ الإيمانِ والكفرِ، ومقرِّراً عند أهل الكفر والنفاق، أن الله مُعْلي كَلِمَته ومُوهِنُ كيدِ الكافرين.

وقد يحتمل أنْ يكونَ «الأمر» الذي وَعَدَ اللهُ نبيهُ محمداً ﷺ أن يأتيَ به هو الجزية، ويحتمل أن يكون غيرها. غير أنه أيّ ذلك كانَ، فهو مما فيه إدالةُ المؤمنينَ على أهلِ الكفرِ بالله وبرسوله، ومما يسوءُ المنافقينَ ولا يسرُّهم. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد أخبر عنهم أنَّ ذلك الأمرَ إذا جاء، أَصْبَحُوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمينَ.

وأما قوله: «فيصبحوا على ما أَسَرُّوا في أنفسهم نادمين»، فإنه يعني هؤلاء المنافقينَ الذين كانوا يوالون اليهودَ والنصارى. يقول تعالى ذِكْرُه: لعلَّ الله أن يأتيَ بأمرٍ من عنده يُديلُ به المؤمنين على الكافرينَ من اليهود والنصارى وغيرهم من أهلِ الكفر، فيصبح هؤلاء المنافقونَ على ما أَسَرُّوا في أنفسهم من مخالَّةِ اليهودِ والنصارى ومودَّتِهم، وبُغْضَة المؤمنين ومُحَادّتهم، «نادمين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾

(يعني): فيصبحوا على ماأسَرُّوا في أنفسِهم نادمينَ، ويقولُ المؤمنون:

أهؤلاء الذين حَلَفوا لنا بالله جهد أيمانهم كَذِباً إنَّهُمْ لَمَعَنا؟

يقول الله تعالى ذكره، مُخْبِراً عن حالهم عنده بنفاقِهم وخُبْثِ أعمالهم. «حبطت أعمالهم»، يقول: ذهبت أعمالهم التي عملوها في الدنيا باطلاً لا ثوابَ لها ولا أجر، لأنهم عملوها على غيرِ يقينٍ منهم بأنها عليهم لله فرضٌ واجب، ولا على صِحّة إيمانٍ بالله ورسوله، وإنما كانوا يعملونها ليدفعوا المؤمنينَ بها عن أنفسِهم وأموالهم وذرارِيهم، فأحبط الله أجْرها، إذ لم تكن له. «فأصبحوا خاسرين»، يقول: فأصبح هؤلاء المنافقون، عند مجيء أمرِ الله بإدالةِ المؤمنين على أهلِ الكفر، قد وُكسُوا في شرائهم الدنيا بالآخرة، وخابت صفقتهم، وهَلَكوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ بالله وبرسوله: «يا أيها الذين آمنوا»، أي: صَدَّقُوا الله ورسوله، وأقَرُّوا بما جاءهم به نبيُّهم محمد ﷺ. «مَنْ يَرْتَدَّ منكم من دينه»، يقول: مَنْ يرجع منكم عن دينِهِ الحق الذي هو عليه اليوم، فيبدِّله ويغيره بدخوله في الكفرِ، إما في اليهودية أو النصرانية أو غيرِ ذلك من صنوفِ الكفر، فلن يَضُرَّ الله شيئاً، وسيأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه، يقول: فسوف يجيءُ الله بدلاً منهم، المؤمنين الذين لم يُبَدِّلُوا ولم يُغَيِّرُوا ولم يرتدوا، بقومٍ خير من الذين ارتدُّوا وبدَّلوا دينهم، يحبهم الله ويحبون الله.

وكان هذا الوعيدُ من الله لمن سَبَقَ في علمه أنه سيرتدُّ بعد وفاةِ نبيّه محمد ﷺ. وكذلك وعدُه مَنْ وعدَ من المؤمنين ماوعدَه في هذه الآية، لمن سَبَقَ له في علمه أنه لا يبدِّلُ ولا يغير دينه، ولا يرتدّ. فلما قَبَض الله نبيَّه ﷺ،

ارتد أقوامٌ من أهل الوبَرِ، وبعضُ أهل المَدَر، فأبدلَ اللهُ المؤمنين بخيرٍ منهم كما قال تعالى ذِكْرُه، ووفى للمؤمنينَ بوعدِه، وأنفذ فيمن ارتدَّ منهم وعيدَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «أذلة على المؤمنين»، أرِقَّاءَ عليهم، رحماءَ بهم.

ويعني بقوله: «أعِزَّةٍ على الكافرين»، أشِدَّاء عليهم، غُلَظاء بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «يجاهدون في سبيل الله»، هؤلاء المؤمنين الذين وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ أنْ يأتيهم بهم إن ارتدّ منهم مرتدٌّ، بدلاً منهم، يجاهدونَ في قتالِ أعداءِ الله على النحو الذي أمر الله بقتالهم، والوجه الذي أُذِنَ لهم به، ويجاهدون عدوَّهم. فذلك مجاهدتهم في سبيل الله. «ولا يخافون لومة لائم»، يقول: ولا يخافونَ في ذاتِ الله أحداً، ولا يصدُّهم عن العملِ بما أمرهم اللهُ به من قتالِ عدوهم، لومةُ لائم لهم في ذلك.

وأما قوله: «ذلك فضل الله»، فإنه يعني هذا النعتَ الذي نعتهم به تعالى ذكره ـ من أنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدونَ في سبيلِ الله ولا يخافون في الله لومة لائم ـ فضلُ الله الذي تَفَضَّلَ به عليهم، والله يؤتي فضله مَنْ يشاءُ مِنْ خَلْقِه مِنَّةً عليه وتطوّلاً. «والله واسع»، يقول: والله جواد بفضله على من جادَ به عليه. لا يخاف نَفاد خزائنهِ فتَتْلف في عطائه. «عليم»،

بموضع جُودِه وعطائِه، فلا يبذله إلا لمن استحقَّهُ، ولا يبذل لمن استحقه إلاّ على قَدْرِ المصلحة، لعلمه بموضعِ صلاحه له من موضع ضرِّهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

يعني تعـالى ذكره بقوله: «إنما وليكمُ اللهُ ورسوله والذين آمنوا»، ليس لكم، أيها المؤمنونَ، ناصرٌ إلا الله ورسوله، والمؤمنونَ الذين صِفَتُهم ماذَكَرَ تعـالى ذِكْـرُه. فأما اليهودُ والنصارى الذين أمركم الله أنْ تبَرَّأوا من وَلايتهم، ونهاكم أن تَتخِذُوا منهم أولياءَ، فليسوا لكم أولياء ولاأنُصَراءَ، بَلْ بعضُهم أولياءُ بعض، ولا تتخذوا منهم وليًّا ولا نصيراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾

وهذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ جميعاً الذين تبرأوا من حلفِ اليهود وخلعوهم رضًى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تَمَسَّكُوا بحلفهم وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتِهم ـ أنّ مَن وثَق بالله وتولّى الله ورسولَهُ والمؤمنينَ، ومَنْ كان على مِثْل حاله من أولياءِ الله من المؤمنين، لهم الغلبةُ والدوائرُ والدولةُ على مَنْ عاداهم وحادَّهم، لأنهم حزبُ الله، وحزبُ الله هم الغالبون، دونَ حزبِ الشيطان:

ويعني بقوله: «فإن حزب الله»، فإن أنصار الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به وبرسولِهِ محمدٍ ﷺ: «يا أيها الذين آمنوا»، أي: صَدَّقُوا الله ورسوله. «لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزواً ولعباً من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلكم»، يعني اليهودِ والنصارى الذين جاءتهم الرسلُ والأنبياءُ، وأنزلت عليهم الكتب من قبل بَعْثِ نبينا ﷺ، ومن قَبْلِ نزولِ كتابنا. «أولياء»، يقول: لاتتخذوهم، أيها المؤمنون، أنصاراً أو إخواناً أو حُلفاء، فإنهم لا يألُونَكُمْ خَبَالاً، وإنْ أظهروا لكم مودَّةً وصداقة.

وكان اتخاذُ هؤلاءِ اليهودِ الذين أخبر الله عنهم المؤمنينَ أنهم اتَّخَذُوا دِينَهم هُزُواً ولعباً بالدين على ماوَصَفَهم به رَبُّنَا تعالى ذِكْرُه، أن أحدهم كان يظهر للمؤمنين الإيمان وهو على كُفْرِهِ مقيمٌ، ثم يراجع الكفرَ بعد يسيرٍ من المدة بإظهارِ ذلك بلسانِه قولاً، بعد أن كان يُبدي بلسانه الإيمانَ قولاً وهو للكفرِ مستبطنٌ تَلَعُّباً بالدين واستهزاءً به، كما أخبر تعالى ذِكْرُه عن فِعْلِ بعضِهم ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون * ٱللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

وأمّا «الكفار» الذين ذكرهم الله تعالى ذِكْرُه في قوله: «من الذين أُوتوا الكتابَ من قبلكم والكفار أولياء»، فإنهم المشركون من عَبَدَةِ الأوثان. نهى الله المؤمنينَ أن يتخذوا من أهلِ الكتاب ومن عَبَدَةِ الأوثان وسائر أهل الكفر، أولياءَ دون المؤمنين.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته جماعةٌ من أهلِ الحجاز والبصرة والكوفة: ﴿وَالْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ﴾، بخفض «الكفار»، بمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، ومن الكفارِ، أولياءَ.

وكذلك ذلك في قراءة أبيٍّ بن كعب فيما بلغنا: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلْكُفَّارِ أَوْلِيَاءَ﴾.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والكوفة: ﴿وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾، بالنصب، بمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً والكفارَ عطفاً بـ«الكفار» على «الذين اتخذوا».

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان متفقتا المعنى، صحيحتا المخرجِ، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القَرَأَةِ، فبأي ذلك قرأ القارئُ فقد أصابَ. لأنَّ النهيَ عن اتخاذ وليٍّ من الكفار، نهيٌ عن اتخاذ جميعهم أولياء. والنهي عن اتخاذ جميعهم أولياء، نهيٌ عن اتخاذِ بعضِهم وليًّا. وذلك أنه غير مشكل على أحدٍ من أهلِ الإسلام أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إذا حرَّمَ اتخاذ وليٍّ من المشركينَ على المؤمنين، أنه لم يُبِحْ لهم اتخاذَ جميعِهم أولياءَ ـ ولا إذا حرَّم اتخاذ جميعِهم أولياءَ، أنه لم يخصص إباحةَ اتخاذِ بعضِهم وليًّا، فيجب من أجلِ إشكالِ ذلك عليهم، طلبُ الدليلِ على أَوْلى القراءتين في ذلك بالصواب. وإذ كان ذلك كذلك، فسواء قرأ القارىء بالخفض أو بالنصب، لما ذِكَرْنَا من العلة.

وأما قوله: «واتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين»، فإنه يعني: وخافوا الله، أيها المؤمنون، في هؤلاء الذين اتخذوا دِينَكُم هُزُواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب ومن الكفار، أن تتخذوهم أولياءَ ونُصَراء، وارهبوا عقوبتَهُ في فعلِ ذلكَ إنْ فعلتموه

بعد تقدُّمهِ إليكم بالنهي عنه، إنْ كنتم تؤمنونَ باللهِ وتُصَدِّقُونَهُ على وعيدهِ على معصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا أذَّنَ مؤذنكم، أيها المؤمنونَ، بالصلاةِ، سَخِرَ من دعوتِكُم إليها هؤلاءِ الكفارُ من اليهودِ والنصارى والمشركين، ولعبوا من ذلك. «ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»، يعني تعالى ذكره بقوله: «ذلك»، فِعْلهم الذي يفعلونه، وهو هزؤهم ولعبهم من الدعاءِ إلى الصلاةِ، وإنما يفعلونه بجهلِهِم بربِّهم، وأنهم لا يعقلون ما لهم في إجابتهم إنْ أجابوا إلى الصلاة، وما عليهم في استهزائِهم ولعبهم بالدعوة إليها، ولو عَقَلوا مَا لِمَنْ فَعَلَ ذلك منهم عند الله من العقابِ، مافعلوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لأهلِ الكتاب من اليهودِ والنصارى: ياأهلَ الكتاب، هل تكرهون منا أو تجدون علينا في شيء إذ تستهزئون بديننا، وإذْ أنتم إذا نادينا إلى الصلاة اتخذتُمْ نِدَاءَنَا ذلك هزواً ولعباً. «إلّا أن آمنا بالله»، يقول: إلّا أنْ صَدَّقْنَا وأقْرَرْنَا باللهِ فوحَّدْنَاهُ، وبما أنزل إلينا من عندِ الله من الكتاب، وما أنزل إلى أنبياء الله من الكُتُبِ من قبل كتابنا. «وأنَّ أكثرَكُمْ فاسقونَ»، يقول: وإلا أنَّ أكثرَكُمْ مخالفونَ أمرَ الله، خارجونَ عن طاعتهِ، تكذبون عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء الذين اتخذوا دينَكُمْ هُزُواً ولعباً من الذين أُوتُوا الكتاب من قبلكم والكفار. «هل أنبئكم»، يامعشرَ أهلِ الكتاب، بِشَرٍّ من ثوابِ ماتنقِمُونَ منا من إيماننا بالله وما أنزل إلينا من كتابِ الله، وما أنزل من قبلنا من كتبه؟

وأما معنى قوله: «مَنْ لعنه الله»، فإنه يعني: مَنْ أبعدَهُ الله وأسْحَقهُ من رحمته. «وغضب عليه وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازير»، يقول: وغضب عليه، وجعل منهم المُسوخَ القردة والخنازير، غضباً منه عليهم وسخطاً، فعجَّلَ لهم الخزيَ والنكال في الدنيا.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾

(يعني): قُلْ هل أنبئكُم بشرٍ من ذلك مثوبةً عند الله، مَنْ لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير، ومَن عبدالطاغوت.

وأما قوله: «أولئك شر مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل»، فإنه يعني بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين ذكرهم تعالى ذِكْرُه، وهم الذين وصفَ صفتهم فقال: «مَنْ لَعَنَهُ الله وغضبَ عليه وجعلَ منهم القردةَ والخنازيرَ وعَبَدَالطاغوت»، وكل ذلك من صفة اليهود من بني إسرائيل.

يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين هذه صفتهم. «شَرٌّ مكاناً»، في عاجل

الدنيا والآخرة عند الله ممن نَقَمتم عليهم، يامعشرَ اليهود، إيمانَهم بالله، وبما أنزل إليهم من عند الله من الكتاب، وبما أنزل إلى مَنْ قبلهم من الأنبياء. «وأضَلُّ عن سواء السبيل»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأنتم مع ذلك، أيها اليهود، أشَدُّ أخذاً على غير الطريق القويم، وأجورُ عن سبيلِ الرشدِ والقَصْدِ منهم.

وهذا من لَحْنِ الكلام[1]. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما قصد بهذا الخبر إخبارَ اليهود الذين وَصَفَ صِفَتهم في الآيات قبل هذه، بقبيحِ فِعالهم وذميمِ أخلاقهم، واستيجابهم سخطه بكثرةِ ذنوبهم ومعاصيهم، حتى مُسِخَ بعضُهم قردةً وبعضهم خنازير، خطاباً منه لهم بذلك، تعريضاً بالجميل من الخطاب، ولَحَن لهم بما عَرَفوا معناه من الكلامِ بأحسنِ اللحن، وعلَّم نبيهُ ﷺ من الأدب أحسنَهُ فقال له: قُلْ لهم، يامحمدُ، أهؤلاء المؤمنون بالله وبكتبه الذين تستهزئون منهم، شرٌّ أم مَنْ لَعَنَهُ الله؟ وهو يعني المقولَ ذلك لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جاءكم، أيها المؤمنونَ، هؤلاء المنافقونَ من اليهودِ قالوا لكم: «آمنا»، أي صَدَّقْنَا بما جاء به نبيكم محمد ﷺ واتبعناهُ على دينه، وهم مُقيمونَ على كفرهم وضلالتهم، قد دخلوا عليكم بكفرهم الذي يعتقدونه بقلوبهم ويُضمرونَهُ في صدورهم، وهم يُبْدونَ كَذِباً التصديقَ لكم بألسنتهم. «وقد خرجوا به»، يقول: وقد خرجوا بالكفرِ من عندِكم كما دخلوا به عليكم، لم يرجعوا بمجيئهم إليكُمْ عن كُفْرِهم وضلالَتِهم، يظنون أن ذلك من فِعْلِهم يَخْفَى على الله، جهلًا منهم بالله. «والله أعلم بما كانوا يكتمون»،

(١) اللحن هنا بمعنى التعريض والإيماء، عدولاً عن تصريح القول، وللحن معان مختلفة كما هو معروف.

يقول: والله أعلمُ بما كانوا ـ عند قولهم لكم بألسنتهم: «آمنا بالله وبمحمد وصدّقنا بما جاء به» ـ يكتمونَ منهم، بما يُضْمِرُونَهُ من الكفرِ، بأنفسهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

تأويل ذلك: أنَّ هؤلاء اليهود الذين وصَفَهُم في هذه الآيات بما وصفهم به تعالى ذِكْرُه، يسارعُ كثيرٌ منهم في معاصي الله وخلاف أمره، ويتعدَّون حدودَه التي حدَّ لهم فيما أحلَّ لهم وحرَّمَ عليهم، في أكلهم «السُّحْتَ»، وذلك الرشوة التي يأخذونها من الناسِ على الحكم بخلافِ حُكْمِ الله فيهم.

يقول الله تعالى ذكره: «لبئس ماكانوا يعملون»، يقول: أقسم لبَئس العملُ ما كان هؤلاء اليهود يعملونَ، في مسارعتهم في الإثمِ والعدوان، وأكْلِهم السُّحْتَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هلاَّ يَنْهى هؤلاء الذين يُسارعونَ في الإثمِ والعدوان وأكلِ الرشى في الحكم، من اليهودِ من بني إسرائيل، ربانيوهم وهم أئمتهم المؤمنونَ، وساستهم العلماءُ بسياستهم وأحبارهم، وهم علماؤهم وقوادهم. «عن قولهم الإثم» يعني: عن قولِ الكذبِ والزور، وذلك أنهم كانوا يحكمونَ فيهم بغيرِ حكمِ الله، ويكتبونَ كتباً بأيديهم ثم يقولون: «هذا من حُكْمِ الله، وهذا من كتبه». يقول الله: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وأما قوله: «وأكلهم السحت»، فإنه يعني به الرشوةَ التي كانوا يأخذونها على حُكْمِهم بغيرِ كتابِ الله لمن حَكَمُوا له به.

«لبئس ما كانـوا يصنعون»، وهذا قَسَمٌ من الله أقسَمَ به، يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم: لبئسَ الصنيعُ كان يصنع هؤلاء الربانيونَ والأحبارُ، في تركهم نهيَ الذين يُسارعونَ منهم في الإثمِ والعدوانِ وأكلِ السحتِ، عما كانوا يفعلون من ذلك.

وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشدّ توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن جراْةِ اليهودِ على رَبِّهم، ووصفهم إياه بمـا ليس من صفته، توبيخاً لهم بذلك، وتعريفاً منه نبيَّه ﷺ قديمَ جَهْلِهم واغترارِهم به، وإنكارهم جميعَ جميلِ أياديهِ عندهم، وكثرة صَفْحِهِ عنهم وعفوه عن عظيمِ إجرامهم. واحتجاجاً لنبيه محمدٍ ﷺ بأنه له نبيٌّ مبعوثٌ ورسولٌ مُرْسَلٌ: أنْ كانت هذه الأنباءُ التي أنبأهم بها كانت من خفيِّ علومهم ومكنونها التي لا يعلمها إلّا أحبارهم وعلماؤهم دون غيرهم من اليهود، فضلاً عن الأمةِ الأميَّةِ من العربِ الذين لم يقرأوا كتاباً، ولا وَعَوْا من علومِ أهلِ الكتابِ علماً، فأطلع الله على ذلك نبيهُ محمداً ﷺ، ليقرِّرَ عندهم صدقه، ويقطع بذلك حجتهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقالت اليهود»، من بني إسرائيل. «يد الله مغلولة»، يعنون: أنَّ خيرَ الله مُمْسَكٌ وعطاءه محبوسٌ عن الاتساع عليهم، كما قال تعالى

ذِكْرُه في تأديب نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وإنما وصف تعالى ذِكْرُه «اليد» بذلك، والمعنى العَطاء، لأنَّ عطاءَ الناسِ وبذلَ معروفهم الغالبَ بأيديهم. فجرى استعمال الناس في وصفِ بعضِهم بعضاً، إذا وصفوه بجودٍ وكرمٍ، أو ببخلٍ وشحٍّ وضيق، بإضافةِ ما كان من ذلك من صفةِ الموصوفِ إلى يديه، ومثل ذلك من كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن يُحْصى. فخاطبهم اللهُ بما يَتعارفونه ويتحاورونه بينهم في كلامهم فقال: «وقالتِ اليهودُ يَدُ الله مغلولة»، يعني بذلك: أنهم قالوا: إنَّ الله يبخلُ علينا، ويمنعنا فَضْلَهُ فلا يُفْضِل، كالمغلولةِ يدهُ الذي لا يقدر أنْ يبسطَها بعطاءٍ ولا بذلِ معروف، تَعَالى اللهُ عَمَّا قالوا، أعداءَ الله! فقال الله مكذِّبَهم ومخبِرَهم بسخَطه عليهم: «غُلَّتْ أيديهم»، يقول: أمسكت أيديهم عن الخيراتِ، وقُبِضتْ عن الانبساطِ بالعطيات. «ولُعِنُوا بما قالوا»، وأُبْعِدُوا من رحمة الله وفضله بالذي قالوا من الكفر، وافتروا على اللهِ ووصفُوهُ به من الكذبِ والإفكِ. «بَلْ يداه مبسوطتان»، يقول: بَلْ يداهُ مبسوطتانِ بالبذل والإعطاء وأرزاقِ عباده وأقواتِ خلقه، غيرُ مغلولتين ولا مقبوضتين. «ينفقُ كيف يشاء»، يقول: يعطي هذا، ويمنعُ هذا فيقتِّر عليه.

وأما قوله: «ينفق كيف يشاء»، يقول: يرزق كيف يشاء.

واختلف أهلُ الجَدَلِ[1] في تأويل قوله: بَلْ يداهُ مبسوطتان».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك: نِعْمتاهُ. وقال: ذلك بمعنى: «يَدُ اللهِ على خَلْقِه»، وذلك نِعَمُهُ عليهمْ. وقال: إنَّ العربَ تقول: «لك عندي يَدٌ»، يعنون بذلك: نعمة.

---

(١) يعني: علماء الكلام.

وقال آخرون منهم: عَنَى بذلك القوة. وقالوا: ذلك نظير قولِ الله تعالى ذكره: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي ٱلْأَيْدِي﴾ [ص: ٤٥].

وقال آخرون منهم: بل «يده»، مُلْكُه. وقال: معنى قوله: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»، مُلْكُهُ وخزائنه.

وقالوا: وذلك كقولِ العربِ للمملوك: «هو مِلْكُ يمينِه»، و«فلانٌ بيدِه عُقدةُ نكاحِ فلانة»، أي يملكُ ذلك، وكقولِ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾، [المجادلة: ١٢].

وقال آخرون منهم: بل «يد الله» صِفَةٌ من صفاتِه، هي يَدٌ، غيرَ أنها ليست بجارحةٍ كجوارحِ بني آدم.

قالوا: وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن خُصُوصِهِ آدمَ بما خَصَّهُ به من خَلْقِهِ إياه بيده.

قالوا: ولو كان معنى «اليد»، النعمة، أو القوة، أو الملك، ما كان لخصوصِه آدمَ بذلك وجهٌ مفهوم، إذ كان جميع خَلْقِه مخلوقينَ بِقُدْرَتِه، ومشيئتُهُ في خلقه نعمةٌ، وهو لجميعهم مالك.

قالوا: وإذ كان تعالى ذِكْرُه قد خَصَّ آدمَ بذِكْرِهِ خلقَه إياه بيدِهِ دونَ غيرِهِ من عباده، كان معلوماً أنه إنما خَصَّهُ بذلك لمعنى به فَارَقَ غيرَهُ من سائرِ الخَلْق.

قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، بطل قولُ مَنْ قال: معنى «اليد» من الله، القوة والنعمة أو الملك، في هذا الموضع.

قالوا: وأحرى أنَّ ذلك لو كانَ كما قالَ الزاعمونَ أنَّ: «يد الله» في قوله: «وقالت اليهود يد الله مغلولة»، هي نعمتُه، لقيل: «بل يده مبسوطة»، ولم يقل: «بل يداه»، لأن نعمة الله لا تُحْصَى كثرةً. وبذلك جاءَ التنزيلُ، يقول الله

تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤/ والنحل: ١٨].

قالوا: ولو كانت نعمتين، كانتا محصاتين.

قالوا: فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ النعمتين بمعنى النعمِ الكثيرةِ، فذلك منه خطأً، وذلك أنَّ العربَ قد تخرج الجميعَ بلفظِ الواحد لأداء الواحد عن جميعِ جنسه، وذلك كقول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، [الحجر: ٢٦] وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ [الفرقان: ٥٥]، قال: فلم يُرَدْ بـ «الإنسان» و«الكافر» في هذه الأماكن إنسـانٌ بعينه، ولا كافرٌ مُشَارٌ إليه حاضر، بل عَنَى به جميعَ الإنسِ وجميعَ الكفارِ، ولكن الواحد أدَّى عن جنسه، كما تقولُ العربُ: «ما أكثرَ الدِرْهَمَ في أيدي الناس»، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾، معناه: وكان الذين كفروا.

قالوا: فأما إذا ثَنَّى الاسمَ، فلا يؤدي عن الجنس، ولا يؤدّي إلا عن اثنين بأعيانِهما دونَ الجميعِ ودونَ غيرِهما.

قالـوا: وخطأ في كلام العرب أن يقال: «ما أكثرَ الدرهمينِ في أيدي الناس»، بمعنى: ما أكثر الدراهم في أيديهم.

قالوا: وذلك أن الدرهم إذا ثُنِّيَ لا يؤدي في كلامها إلَّا عن اثنين بأعيانهما.

قالـوا: وغيرُ محـالٍ: «مـا أكثـر الدرهمَ في أيدي الناس»، و«ما أكثر الدراهم في أيديهم»، لأن الواحد يؤدي عن الجميع.

قالوا: ففي قول الله تعالى: «بل يداه مبسوطتان»، مع إعلامهِ عبادَهُ أنَّ نِعَمَهُ لا تُحْصَى، مع ماوصفنا من أنه غيرُ معقولٍ في كلام العرب أنَّ اثنين يُؤَدِّيانِ عن الجميع ـ ماينبىءُ عن خطأ قولِ مَنْ قال: معنى «اليد»، في هذا

الموضع، النعمة، وصحةِ قولِ مَنْ قال: إن «يد الله»، هي له صِفَةٌ.

قالوا: وبذلك تظاهرتِ الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وقال به العلماء وأهل التأويل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: إنَّ هذا الذي أطلعناكَ عليه من خفيِّ أمورِ هؤلاءِ اليهودِ، مما لا يعلمُه إلا علماؤهم وأحبارهم، احتجاجاً عليهم لصحةِ نبوتك، وقطعاً لِعُذْرِ قائلٍ منهم أنْ يقول: «ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير»: «وليزيدن كثيراً منهم ما أنـزل إليك من ربـك طغيانـاً وكفراً». يعني بـ «الطغيان»: الغلو في إنكـار ماقد عَلِمُوا صِحَّتَهُ من نبوةِ محمدٍ ﷺ والتمادي في ذلك. «وكفـراً»، يقـول: ويزيدهم مع غُلُوِّهم في إنكارِ ذلك، جحودَهم عظمةَ الله ووصفهم إياه بغيرِ صفته، بأنْ يَنْسبُوه إلى البُخْلِ، ويقولوا: «يَدُ الله مغلولة». وإنمـا أَعْلَمَ تعالى ذِكْرُه نبيَّهُ ﷺ أنهم أهلُ عُتُوٍّ وتمرُّدٍ على ربهم، وأنهم لا يُذْعِنُونَ لحقٍّ وإنْ عَلِمُوا صحته، ولكنهم يعاندونه، يُسَلِّي بذلك نبيه محمداً ﷺ عن الموجِدة بهم في ذهابهم عن الله، وتكذيبهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وألقينا بينهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة»، بين اليهود والنصارى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كلما جمع أمرهم على شيءٍ فاستقامَ واستوى، فأرادوا مناهضةَ مَنْ ناوأَهُمْ، شَتَّتَهُ اللهُ عليهم وأفسده، لسوءِ فِعالهم وخُبْثِ نياتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته، ويكذبونَ رُسُلَهُ، ويخالفونَ أَمْرَهُ ونهيه، وذلك سعيُهم فيها بالفساد. «والله لا يحب المفسدين»، يقول: والله لا يُحِبُّ مَنْ كان عامِلًا بمعاصيه في أرضه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولو أنَّ أهلَ الكتاب»، وهُمُ اليهودُ والنصارى. «آمنوا» باللهِ وبرسولهِ محمدٍ ﷺ، فصدَّقُوه واتبعوهُ وما أنزل عليه. «واتقوا» مانَهاهم اللهُ عنه فاجتنبوه. «لكفَّرنا عنهم سيئاتهم»، يقول: مَحَوْنَا عنهم ذُنوبَهم فَغَطَّيْنا عليها، ولم نَفْضَحهم بها. «ولأدخلناهم جناتِ النعيم»، يقول: ولأدخلناهم بساتِينَ ينعَمُونَ فيها في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولو أنهم أقامُوا التوراةَ والإنجيلَ»، ولو أنهم عَمِلُوا بما في التوراة والإنجيل «وما أُنزلَ إليهم من ربهم»، يقول: وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقانِ الذي جاءهم به محمدٌ ﷺ.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يُقيمونَ التوراةَ والإنجيل وما أُنزلَ إلى محمدٍ ﷺ، مع اختلافِ هذه الكتب، ونسخِ بعضِها بعضاً؟

قيل: إنها وإنْ كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متَّفِقة في الأمرِ بالإيمان برُسُل الله، والتصديقِ بما جاءتْ به من عند الله. فمعنى إقامتهم التوراةَ والإنجيل وما أُنزلَ إلى محمدٍ ﷺ: تصديقُهُم بما فيها، والعملُ بما هي متفقة فيه، وبكلِّ واحدٍ منها في الحين الذي فرض العمل به.

وأمـا معنى قوله: «لأكَلُوا من فوقِهم ومن تحتِ أرجلهم»، فإنه يعني: لأنزلَ الله عليهم من السماءِ قَطْرَها، فأنبتتْ لهم به الأرضُ حَبَّها ونباتَها، فأخرج ثمارَها.

وأما قوله: «ومن تحت أرجلهم»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: لأكلوا من بركةِ ماتحتَ أقدامِهم من الأرضِ، وذلك ماتُخْرِجُه الأرضُ من حَبِّها ونباتها وثمارِها وسائرِ ما يُؤكَلُ مما تخرجه الأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝٦٦﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «منهم أمةٌ»، منهم جماعةٌ. «مقتصدة»، يقول: مقتصدة في القولِ في عيسى بن مريم، قائلةٌ فيه الحقَّ أنه رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، لا غاليةٌ قائلةٌ: إنه ابنُ الله، تعالى الله عما قالوا

من ذلك، ولا مقصرة قائلةً: هو لغير رِشْدَة. «وكثير منهم»، يعني: من بني إسرائيل من أهلِ الكتابِ اليهودِ والنصارى. «ساء ما يعملون»، يقول: كثير منهم سيّئ عملهم، وذلك أنهم يكفرونَ بالله، فتكذب النصارى بمحمدٍ ﷺ، وتزعمُ أنّ المسيحَ ابن الله وتكذِّب اليهود بعيسى وبمحمدٍ صلى الله عليهما. فقال الله تعالى فيهم ذامًّا لهم: «ساء ما يعملون»، في ذلك من فعلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾

وهـذا أمـر من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّهُ محمداً ﷺ، بإبلاغِ هؤلاءِ اليهودِ والنصارى من أهلِ الكتابين الذين قَصَّ تعالى ذِكْرُه قصَصهم في هذه السورة، وذكـرَ فيهـا معـايبهم وخُبْثَ أديانهم، واجتـراءَهم على رَبِّهم، وتـوثُّبهم على أنبيائِهم، وتبديلَهم كتابَهُ، وتحريفَهم إياه، ورداءةَ مطاعِمهم ومآكلهم ـ وسائرِ المشركينَ غيرِهم، ما انزل عليه فيهم من معايبهم، والإزراءِ عليهم، والتقصيرِ بهم، والتهجينِ لهم، وما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن لا يُشْعر نفسَه حَذَراً منهم أنْ يُصيبوه في نفسهِ بمكروهِ ما قامَ فيهم بأمرِ الله، ولا جَزعاً من كثرةِ عددهم وقلّةِ عَدَدِ مَنْ معه، وأن لا يتّقي أحداً في ذاتِ الله، فإنَّ الله تعالى ذِكْرُه كافيه كُلَّ أحدٍ من خَلْقِه، ودافعٌ عنه مكروهَ كل مَنْ يبغي مكروهه. وأعلمه تعالى ذِكْرُه أنه إنْ قصَّر عن إبلاغِ شيءٍ مما أنزل إليه إليهم، فهو في تركه تبليغَ ذلك ـ وإنْ قَلَّ ما لم يبلِّغ منه ـ فهو في عظيم ما ركب بذلك من الذَّنْب بمنزلته لو لم يبلِّغ من تنزيله شيئاً.

ويعني بقوله: «والله يعصمكَ من الناس»، يَمْنَعُكَ من أنْ ينالوكَ بسوءٍ.

وأما قوله: «إن الله لا يهدي القوم الكافرين»، فإنه يعني: إنَّ الله لا يوفِّقُ للرُّشْد مَنْ حاد عن سبيلِ الحقِّ، وجارَ عن قَصْدِ السبيل، وجَحَدَ ماجئته به من عند الله، ولم يَنْتَهِ إلى أمرِ اللهِ وطاعته فيما فَرَضَ عليه وأوجبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ بإبلاغِ اليهود والنصارى الذين كانوا بين ظهرانَيْ مُهاجَره. يقول تعالى ذِكْرُه له: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء اليهود والنصارى. «ياأهلَ الكتاب»، التوراة والإنجيل . «لستم على شيء»، مما تَدَّعُونَ أنكم عليه مما جاءكم به موسى ﷺ، معشرَ اليهود، ولا مِمَّا جاءكم به عيسى، معشرَ النصارى. «حتى تُقِيمُوا التوراةَ والإنجيل وما أُنزِلَ إليكم من ربكم»، مما جاءكم به محمد ﷺ من الفرقانِ، فتعملوا بذلك كله، وتؤمنوا بما فيه من الإيمانِ بمحمدٍ ﷺ وتصديقه، وتُقِرُّوا بأنَّ كل ذلك من عند الله، فلا تكذِّبوا بشيءٍ منه، ولا تُفرِّقوا بين رسلِ الله فتؤمنوا ببعضٍ وتكفروا ببعضٍ، فإنَّ الكفر بواحدٍ من ذلك كفرٌ بجميعهِ، لأنَّ كُتبَ اللهِ يُصَدِّقُ بعضها بعضاً، فمن كذَّب ببعضِها فقد كَذَّبَ بجميعها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً»، وأقسم: لَيَزِيْدَنَّ كثيراً من هؤلاء اليهودِ والنصارى الذين قَصَّ قَصَصهم في هذه الآياتِ، الكتابُ الذي أنزلتهُ إليك، يامحمد. «طغياناً»،

يقول: تجاوزاً وغلوًّا في التكذيبِ لكَ، على ماكانوا عليه لكَ من ذلك قبلَ نزولِ الفرقان «وكفراً»، يقول: وجحوداً لنبوتك.

وأما قوله: «فلا تأْسَ على القومِ الكافرينَ»، يعني بقوله: «فلا تأسى»، فلا تَحْزَنْ.

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه: لا تحزن، يامحمدُ، على تكذيبِ هؤلاء الكفار من اليهودِ والنصارى من بني إسرائيل لكَ، فإنَّ مثلَ ذلك منهم عادةٌ وخُلُقٌ في أنبيائهم، فكيفَ فِيكَ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْره: إنَّ الذين صَدَّقُوا الله ورسوله، وهم أهلُ الإسلام. «والذين هادوا»، وهم اليهود. «والصابئون»، وقد بيَّنَّا أمرهم. «والنصارى مَنْ آمن منهم باللهِ واليومِ الآخر»، فَصَدَّقَ بالبعثِ بعد المماتِ. «وعمل»، من العمل. «صالحاً»، لمعادهِ. «فلا خوفٌ عليهم»، فيما قَدِموا عليه من أهوالِ القيامة. «ولا هم يحزنون»، على ماخَلَّفُوا وراءهم من الدنيا وعيشها، بعد معاينتهم ما أكرمهم الله به من جزيلِ ثوابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم: لقد أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ على الإخلاصِ في توحيدنا، والعملِ بماأمرناهم به، والانتهاءِ عما نَهَيْنَاهم عنه - وأرسلنا إليهم بذلك رُسُلًا، ووعدناهم على ألسُنِ رُسُلِنَا إليهم على العملِ بطاعتنا الجزيلَ من الثواب، وأوعدناهم على العملِ بمعصيتنا الشديدَ من العقابِ كلما جاءهم رسولٌ لنا بما لا تشتهيه نفوسهم ولا يوافق محبَّتهم، كَذَّبُوا منهم فريقاً، ويقتلون منهم فريقاً، نقضاً لميثاقنا الذي أخذناهُ عليهم، وجرأةً علينا وعلى خلافِ أمرنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ٧١﴾

يقول تعالى: وظَنَّ هؤلاء الإسرائيليون الذين وَصَفَ تعالى ذِكْرُه صِفتهم: أنه أخذ مِيثَاقَهم: وأنه أرسلَ إليهم رسلًا، وأنهم كانوا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تَهْوى أنفسُهم كَذَّبوا فريقاً وقتلوا فريقاً - أنْ لا يكونَ من الله لهم ابتلاءٌ واختبارٌ بالشدائدِ من العقوباتِ بما كانوا يفعلون. «فَعَمُوا وصَمُّوا»، يقول: فَعَمُوا عن الحَقِّ والوفاءِ بالميثاقِ الذي أخذتهُ عليهم، من إخلاصِ عبادتي، والانتهاء إلى أمري ونهيِي، والعمل بطاعتي، بحسبانهم ذلك وظَنِّهم. «وصموا» عنه ثم تبتُ عليهم. يقول: ثم هَدَيْتُهم بلطفٍ مني لهم حتى أَنَابُوا ورجَعُوا عما كانوا عليه من معـاصيَّ وخلاف أمري والعمل بما أكرهُهُ منهم، إلى العملِ بما أحبه، والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي. «ثم عَمُوا وصموا كثيرٌ منهم»، يقول: ثم عموا أيضاً عن الحَقِّ والوفاءِ بميثاقي الذي أخذتهُ عليهم: من العملِ بطاعتي، والانتهاء إلى أمري، واجتناب معاصيَّ. «وصموا كثير منهم»، يقول: عميَ كثيرٌ من هؤلاء الذين كنتُ أخذتُ ميثاقَهم من بني إسرائيل، باتباع رسلي والعمل بما أنزلتُ إليهم من كتبي عن الحق وصموا، بعد تَوْبتي عليهم، واستنقاذي

إياهم من الهلكَةِ. «والله بصيرٌ بما يعملون»، يقول «بصير»، فيرى أعمالَهم خيرَها وشرَّها، فيجازِيهم يومَ القيامة بجميعها، إنْ خيراً فخيراً، وإن شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن بعضِ ما فَتَن به الإسرائيليينَ الذين أخبرَ عنهم أنهم حسبوا أنْ لا تكونَ فتنةٌ. يقول تعالى ذِكْرُه: فكان مما ابتليتُهم واختبرتُهم به، فنقضوا فيه ميثاقي، وغيَّروا عهدي الذي كنتُ أخذته عليهم بأنْ لا يعبدوا سواي، ولا يتخذوا ربًّا غيري، وأنْ يُوحِّدُوني، وينتهوا إلى طاعتي - عبدي عيسى بن مريم، فإني خلقتُه، وأجريتُ على يدهِ نحوَ الذي أجريتُ على يدِ كثيرٍ من رسلي، فقالوا كفراً منهم: «هو الله».

وهذا قولُ اليعقوبيَّةِ من النصارى عليهم غَضَبُ الله.

يقول الله تعالى ذِكْرُه: فلما اختبرتُهم وابتليتُهم بما ابتليتهم به، أشْركوا بي، وقالوا لِخَلْقٍ من خَلْقي، وعبدٍ مثلهم من عبيدي، وبشرنحوهم معروفٍ نسبه وأصله، مولود من البشر، يدعوهم إلى توحيدي، ويأمرهم بعبادتي وطاعتي، ويقرّ لهم بأني ربه وربهم، وينهاهم عن أنْ يُشْرِكُوا بي شيئاً: «هو إلههم»، جهلًا منهم بالله وكفراً به، ولا ينبغي لله أنْ يكون والداً ولا مولوداً.

ويعني بقوله: «وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربَّكم»، يقول: اجعلوا العبادةَ والتذلُّلَ للذي له يَذِلُّ كُلُّ شيءٍ، وله يخضعُ كُلُّ موجود. «ربيّ وربكم»، يقول: مالكي ومالككم، وسيدي وسيدكم، الذي خلقني

وإياكم. «إنه مَنْ يُشْرِكْ بالله فقد حَرَّمَ الله عليه الجنة»، أنْ يسكنها في الآخرة. «ومأواه النار»، يقول: ومرجعه ومكانه - الذي يأوي إليه ويصير في مَعادِه، مَنْ جعلَ لله شريكاً في عبادته - نارُ جهنم. «وما للظالمين»، يقول: وليس لِمَنْ فعلَ غير ما أباحَ الله له، وعَبَدَ غيرَ الذي له عبادةُ الخَلْقِ. «من أنصار»، ينصرونه يومَ القيامةِ من الله، فينقذونه منه إذا أورده جهنم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن فريقٍ آخرَ من الإسرائيليينَ الذين وَصَفَ صِفَتهم في الآيات قبل: أنه لما ابتلاهم بعد حِسْبَانهم أنهم لا يُبْتَلُونَ ولا يُفْتَنُونَ، قالوا كفراً بربهم وشركاً: «الله ثالثُ ثلاثة».

وهذا قولٌ كان عليه جماهيرُ النصارى قبل افتراقِ اليعقوبيةِ والملكيةِ والنَّسطورية. كانوا فيما بلغنا يقولون: «الإلهُ القديم جوهرٌ واحد يعم ثلاثة أقانيم: أباً والداً غيرَ مولودٍ، وابناً مولوداً غير والدٍ، وزوجاً متتبِّعة بينهما».

يقول الله تعالى ذِكْرُه، مُكَذِّباً لهم فيما قالُوا من ذلك: «وما مِنْ إلهٍ إلّا إله واحد»، يقول: مالكم معبودٌ، أيها الناسُ، إلا معبودٌ واحد، وهو الذي ليس بوالد لشيء ولا مولود، بَلْ هو خالقُ كل والد ومولود. «وإنْ لم ينتهوا عما يقولون»، يقول: إنْ لم ينتهِ قائلُو هذه المقالةِ عما يقولون من قولهم: «الله ثالث ثلاثة». «لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُوا منهم عذابٌ أليم»، يقول: ليمسَّنَّ الذين يقولون هذه المقالة، والذين يقولون المقالة الأخرى: «هو المسيح بن مريم»، لأنَّ الفريقين كلاهما كَفَرَةٌ مشركون، فلذلك رجع في الوعيد بالعذاب إلى

العمـوم، ولم يقل: «ليمسنَّهم عذابٌ أليم»، لأنَّ ذلك لو قيل كذلك، صار الوعيدُ من الله تعالى ذِكْرُه خاصًا لقائلِ القولِ الثاني، وهم القائلون: «الله ثالثُ ثلاثة»، ولم يدخل فيهم القائلون: «المسيح هو الله». فَعَمَّ بالوعيدِ تعالى ذِكْـرُه كُلَّ كافـرٍ، ليعلم المخـاطبونَ بهذه الآياتِ أنَّ وعيدَ اللهِ قد شملَ كلا الفريقين من بني إسرائيل، ومَنْ كان من الكفار على مِثْلِ الذي هُمْ عليه.

فإنْ قال قائل: وإنْ كان الأمر على ماوصفت، فعلى مَنْ عادت «الهاء والميم» اللتان في قوله: «منهم»؟

قيل: على بني إسرائيل.

فتـأويلُ الكـلام، إذْ كان الأمـرُ على ماوصفنـا: وإنْ لم ينتـه هؤلاء الإسـرائيليون عَمَّـا يقـولونَ في الله من عظيمِ القولِ، ليمسنَّ الذين يقولون منهم: «إن المسيح هو الله»، والذين يقولون: «إن الله ثالث ثلاثة»، وكل كافرٍ سَلَكَ سبيلهم - عذابٌ أليم، بكفرهم بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفلا يرجع هذانِ الفريقانِ الكافرانِ القائل أحدهما: «إن الله هو المسيح بن مريم»، والآخر القائل: «إنَّ الله ثالث ثلاثة» عما قالا من ذلك؛ ويَتُوبانِ مما قالا ونَطَقَا به من كفرهما، ويسألان رَبَّهما المغفرةَ مما قالا «والله غفـور»، لذنـوبِ التـائبينَ من خَلْقِـه، المنيبينَ إلى طاعتـه بعـد معصيتهم. «رحيم» بهم، في قبوله توبتَهم ومراجعتهم إلى مايحبُّ مِمَّا يكره، فيصفح بذلك من فِعْلِهم عما سلَف من أجرامهم قبل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾

وهـذا خَبـرٌ من الله تعالى ذِكْرُه، احتجاجاً لنبيِّه محمدٍ ﷺ على فِرَقِ النصارى في قولهم في المسيح.

يقول: مكذِّباً لليعقوبية في قِيلهم: «هو الله» والآخرين في قِيلهم: «هو ابن الله»: ليس القولُ كما قال هؤلاء الكفرةُ في المسيح، ولكنه ابنُ مريمَ ولدته ولادةَ الأمهاتِ أبناءَهن، وذلك من صِفَةِ البشر لا مِنْ صِفَةِ خالقِ البشر، وإنما هو لله رسولٌ كسائرِ رُسُلِه الذين كانوا قبلَه فمضوا وخَلَوْا، أجرى على يدهِ ما شاءَ أنْ يجريه عليها من الآياتِ والعِبر، حجةً له على صدقه، وعلى أنه لله رسولٌ إلى مَنْ أرسله إليه من خَلْقِه، كما أجرى على أيدي مَنْ قَبْلَهُ من الرُّسُلِ من الآياتِ والعِبر، حجةً لهم على حقيقةِ صِدْقِهم في أنهم لله رسلٌ. «وأمه صِدِّيقةٌ»، يقول تعالى ذِكْرُه وأمّ المسيح صِدِّيقةٌ.

وقوله: «كانا يأكلان الطعام»، خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن المسيح وأمّه: أنهما كانا أهلَ حاجةٍ إلى ما يَغْذُوهما وتقومُ به أبدانهما من المطاعمِ والمشاربِ كسائرِ البشرِ من بني آدم، فإنَّ مَنْ كان كذلك، فغيرُ كائنٍ إلهاً، لأنَّ المحتاجَ إلى الغذاء قِوَامه بغيرِه. وفي قوامهِ بغيرهِ وحاجته إلى مايقيمه، دليلٌ واضحٌ على عجزه. والعاجزُ لا يكونُ إلا مربوباً لا ربًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظر، يامحمدُ، كيف نبينُ لهؤلاء

الكَفَرةِ من اليهود والنصارى. «الآيات»، وهي الأدلَّةُ، والأعلام والحُججُ على بُطُولِ مايقولـونَ في أنبياء الله، وفي فِرْيَتِهم على الله، وادِّعـائهم له ولداً، وشهادتهم لبعضِ خَلْقهِ بأنه لهم ربٌّ وإله، ثم لا يرتدعون عن كذبهم وباطلِ قيلهم، ولا ينزجرونَ عن فِرْيَتِهم على ربِّهم وعظيم جهلهم، مع ورودِ الحججِ القاطعةِ عذرَهم عليهم. يقول تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمدٍ ﷺ: «ثم انظر»، يامحمدُ «أنَّى يؤفكون»، يقول: ثم انظر، مع تبييننا لهم آياتنا على بُطول قولهم، أيَّ وجهٍ يُصرَفون عن بياننا الذي نبيِّنُهُ لهم؟ وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحق يضلُّون؟

والعربُ تقولُ لكل مصروفٍ عن شيءٍ: «هو مأفُوكٌ عنه». يقال: «قد أَفَكت فلاناً عن كذا»، أي: صرفته عنه، «فأنا آفِكه أفْكاً، وهو مأفوك». و«قد أُفِكت الأرضُ»، إذا صُرِفَ عنها المطرُ[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾

وهذا أيضاً احتجاجٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ على النصارى القائلينَ في المسيح ماوَصَفَ من قِيلهم فيه قَبْلُ.

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لمحمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء الكفرةِ من النصارى، الزاعمينَ أنَّ المسيحَ ربهم، والقائلينَ إنَّ الله ثالث ثلاثة ـ أتعبدون سوى الله الـذي يملك ضركم ونفعكم، وهـو الـذي خلقكم ورزقكم، وهـو يحييكم ويميتكم شيئاً لا يملكُ لكم ضرًّا ولا نفعاً؟ يخبرهم تعالى ذكره أنَّ المسيحَ الذي زعم مَنْ زعم من النصارى أنه إلهٌ، والذي زعم من زعم منهم

(١) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/١٧٤ ـ ١٧٥.

أنه لله ابنٌ، لايملكُ لهم ضرًّا يدفعهُ عنهم إنْ أحلَّهُ الله بهم، ولا نفعاً يجلبه إليهم إنْ لم يَقْضِه الله لهم. يقول تعالى ذكره: فكيف يكون ربًّا وإلهاً مَنْ كانت هذه صِفَته؟ بل الربُّ المعبودُ: الذي بيده كُلُّ شيءٍ، والقادرُ على كُلِّ شيءٍ. فإياهُ فاعبدُوا وأخلِصُوا له العبادةَ، دونَ غيرِه من العجزَةِ الذين لا ينفعونكم ولا يضرون.

وأما قوله: «والله هو السميع العليم»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: «والله هو السميع»، لاستغفارِهم لو استغفروه من قيلِهم ما أخبرَ عنهم أنهم يقولونه في المسيح، ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه. «العليم»، بتوبتهم لو تابوا منه، وبغيرِ ذلك من أمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾

وهذا خطابٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ. يقول تعالى ذِكْرُه: «قُـلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء الغاليةِ من النصارى في المسيح «ياأهلَ الكتاب»، يعني بـ«الكتاب»، الإنجيل «لاتَغْلُوا في دِينكم»، يقول: لا تفرِطوا في القول فيما تَدِينُونَ به من أمرِ المسيح، فتجاوزوا فيه الحقَّ إلى الباطلِ، فتقولوا فيه: «هو الله»، أو: «هو ابنه»، ولكن قولوا: «هو عبدُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه». «ولا تَتَّبِعُوا أهواءَ قومٍ قد ضَلُّوا من قَبْلُ وأضلوا كثيراً»، يقول: ولا تتبعوا أيضاً في المسيح أهواءَ اليهودِ الذين قد ضلوا قَبْلَكُم عن سبيلِ الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا: «هو لغير رَشْدة»، وتبهتوا أمَّه كما بَهَتُوها بالفِرْيَةِ وهي صِدِّيقة، «وأضلوا كثيراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وأضل هؤلاء اليهود

كثيراً من النـاس، فحـادوا بهم عن طريقِ الحق، وحملوهم على الكفرِ بالله والتكذيبِ بالمسيح. «وضَلُّوا عن سواءِ السبيل»، يقول: وضَلَّ هؤلاء اليهود عن قَصْدِ الطريقِ، وركبوا غير محجَّة الحق.

وإنما يعني تعالى ذِكْرُه بذلك، كُفْرَهم باللهِ، وتكذيبَهم رُسُلَهُ: عيسى ومحمداً ﷺ، وذهابَهم عن الإيمانِ وبُعْدَهُم منه. وذلك كان ضلالهم الذي وصَفَهُم اللهُ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، قُلْ لهؤلاء النصارى الذين وصفَ تعالى ذِكْرُه صِفَتَهم: لاتَغْلُوا فتقولوا في المسيح غيرَ الحَقِّ، ولا تقولوا فيه ما قالتِ اليهودُ الذين قد لعنهم الله على لسانِ أنبيائهِ ورسلهِ، داود وعيسى بن مريم.

فتأويل الكلام إذًا: لَعَنَ اللهُ الذين كفروا ـ من اليهود ـ بالله على لسانِ داودَ وعيسى بن مريم، ولُعِنَ والله آباؤهم على لسان داودَ وعيسى بن مريم، بما عصوا الله فخالفوا أمره. «وكانوا يعتدون»، يقول: وكانوا يتجاوزون حدودَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩﴾

تأويل الكلام: كانوا لا ينتهون عن مُنْكَرٍ أتَوْهُ. «لبئسَ ما كانوا يفعلون».

وهذا قَسَمٌ من الله تعالى ذِكْرُه يقول: أقسم: لَبِئْسَ الفعلُ كانوا يفعلون، في تركِهم الانتهاءَ عن معاصي الله تعالى ذِكْرُه، وركوب محارمه، وقتل أنبياءِ الله ورسله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ترى»، يامحمدُ، كثيراً من بني إسرائيل. «يتولَّون الذين كفروا»، يقول: يتولَّوْنَ المشركينَ من عَبَدةِ الأوثانِ، ويعادون أولياءَ اللهِ ورسله. «لبئس ماقدمت لهم أنفسهم»، يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم: لبئسَ الشيءُ الـذي قَدَّمَتْ لهم أنفسُهم أمـامهم إلى معادِهم في الآخرة. «أنْ سَخِطَ الله عليهم»، يقول: قَدَّمَتْ لهم أنفسُهم سخطَ اللهِ عليهم بما فعلوا.

«وفي العذاب هم خالدون»، يقول: وفي عذابِ الله يوم القيامة. «هم خالدون»، دائمٌ مُقامهم ومُكثهم فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ ۞

يقـول تعـالى ذِكْرُه: ولو كان هؤلاء الذين يتولَّونَ الذين كفروا من بني إسـرائيل «يؤمنـون بالله والنبي»، يقـول: يُصَدِّقونَ الله ويُقِرُّونَ به ويوحِّدُونَهُ، ويصدقون نبيَّه محمداً ﷺ بأنه لله نبيٌّ مبعوث، ورسولٌ مرسل. «وما أُنزلَ إليه»، يقـول: ويُقِرُّونَ بما أُنزلَ إلى محمدٍ ﷺ من عند الله من آيِ الفرقان. «ما اتخـذوهم أولياء»، يقـول: ما اتَّخَذُوهـم أصحاباً وأنصاراً من دونِ المؤمنين.

«ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون»، يقول: ولكن كثيراً منهم أهل خروج عن طاعةِ الله إلى معصيتهِ، وأهلُ استحلالٍ لما حرَّم الله عليهم من القول والفعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لَتَجِدَنَّ، يامحمدُ، أشدَّ الناسِ عداوةً للذين صَدَّقُوكَ واتَّبعوكَ وصَدَّقُوا بما جِئْتَهم به من أهلِ الإسلام. «اليهودَ والذين أشركوا»، يعني: عَبَدَةَ الأوثانِ الذين اتخذوا الأوثانَ آلهةً يعبدونها من دونِ الله. «ولتجدن أقربَهم مودةً للذين آمنوا»، يقول: ولتجدن أقربَ الناس مودةً ومحبة.

«وللذين آمنوا» يقول: للذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ محمداً ﷺ «الذين قالوا إنَّا نصارى ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون»، عن قبولِ الحق واتباعهِ والإذعانِ به.

وأما قوله: تعالى: «ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهباناً»، فإنه يقول: قَرُبت مودَّة هؤلاء الذين وَصَفَ الله صِفَتَهُم للمؤمنينَ، من أجلِ أنَّ منهم قسيسين ورهباناً.

و«القِسِّيسُونَ» جمع «قسيس». وقد يجمع «القسيس»، «قسوساً»، لأن «القَسّ» و«القسيس»، بمعنًى واحد.

وأما «الرهبان»، فإنه يكون واحداً وجمعاً. فأما إذا كان جمعاً، فإنَّ واحدهم يكون «راهباً»، ويكون «الراهب»، حينئذٍ «فاعلاً» من قولِ القائلِ:

«رَهب الله فلان»، بمعنى خَافَهُ، «يرهبه رَهَباً ورَهْباً»، ثم يجمع «الراهب»، «رهبان» مثل «راكب» و«ركبان» و«فارس» و«فرسان».

(وتأويل ذلك): إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن النفرِ الذين أثنى عليهم من النصارى بقربِ مَودَّتِهم لأهلِ الإيمان بالله ورسوله، أنَّ ذلك إنما كان منهم لأنَّ منهم أهلَ اجتهادٍ في العبادة، وترهُّب في الدياراتِ والصوامعِ، وأنَّ منهم علماء بكتبهم وأهلَ تلاوةٍ لها، فهم لا يبعدون من المؤمنين لتواضعهم للحقِّ إذا عَرَفُوهُ، ولا يستكبرونَ عن قَبُولِه إذا تَبَيَّنُوه، لأنهم أهلُ دِينٍ واجتهادٍ فيه، ونصيحة لأنفسهم في ذاتِ الله، وليسوا كاليهود الذين قد دَرِبُوا بقتلِ الأنبياءِ والرسلِ، ومعاندةِ الله في أمرِهِ ونهيه، وتحريفِ تنزيلِهِ الذي أنزله في كتبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا سمع هؤلاء الذين قالوا: «إنا نَصَارى» الذين وصفتُ لكَ، يامحمدُ، صِفتَهم أنك تجدهم أقرب الناسِ مودةً للذين آمنوا ما أنزل إليك من الكتابِ يُتْلى «ترى أعينهم تفيض من الدمع».

و«فيض العين من الدمع»، امتلاؤُهَا منه، ثم سَيَلاَنُه منها، كفيضِ النهر من الماء، وفيضِ الإناء، وذلك سيلانه عن شدةِ امتلائه.

وقوله: «مما عَرَفُوا من الحقِّ»، يقول: فيض دموعهم، لمعرفتهم بأنَّ الذي يُتْلَى عليهم من كتابِ الله الذي أنزله إلى رسول الله حقٌّ.

ويعني بقوله تعالى ذِكْرُه: «يقولون ربنا آمنا»، أنهم يقولون: ياربنا، صَدَّقْنَا لما سمعنا ما أنزلتَهُ إلى نَبِيِّكَ محمدٍ ﷺ من كتابكَ، وأقْرَرْنَا به أنه من

عندكَ، وأنه الحقُّ لا شكَ فيه.

وأما قوله: «فاكتبنا مع الشاهدين»، يقول: فاجعلنا مع الشاهدين، وأثْبِتْنَا معهم في عِدَادِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾

وهذا خبرٌ من اللهِ تعالى ذِكْرُه عن هؤلاءِ القومِ الذين وصَف صِفَتهم في هذه الآياتِ، أنهم إذا سمعوا ما أنزلَ إلى رسولِه محمدٍ ﷺ من كتابِه، آمنوا به وصَدَّقُوا كتابَ الله، وقالوا: «ما لنا لانؤمنُ بالله»، يقول: لانُقِرُّ بوحدانيةِ الله. «وما جاءَنا من الحق»، يقول: وما جاءنا من عند الله من كتابه وآيِ تنزيلِه، ونحن نطمَعُ بإيماننا بذلك أنْ يُدْخِلَنا ربُّنا مع القومِ الصالحين.

يعني بـ «القوم الصالحين»، المؤمنينَ بالله، المطيعينَ له، الذين استحقُّوا من اللهِ الجنةَ بطاعتِهم إياهُ.

وإنما معنى ذلك: ونحن نطمعُ أنْ يُدْخِلَنا ربُّنا مع أهلِ طاعتهِ مداخِلَهم من جنتهِ يوم القيامة، ويلحق منازلَنا بمنازلهم، ودرجاتنا بدرجاتهم في جنَّاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجزاهم الله بقولهم: «رَبَّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمنُ بالله وما جاءَنا من الحقِّ ونطمع أنْ يدخلَنا ربُّنا مع القوم الصالحين». «جناتٍ تجري من تحتها الأنهار»، يعني: بساتين تجري من تحتِ أشجارِها الأنهار. «خالدينَ فيها»، يقول: دائماً فيها مُكْثُهم، لا يخرجون منها

ولا يُحَوَّلُونَ عنها. «وذلك جزاء المحسنين»، يقول: وهذا الذي جَزَيتُ هؤلاء القائلينَ بما وصفتُ عنهم من قِيلهم على ما قالوا، من الجناتِ التي هم فيها خالدون، جزاءُ كل محسنٍ في قِيله وفِعله.

و«إحسان المحسن» في ذلك، أنْ يوحِّدَ الله توحيداً خالصاً محضاً لا شِرْكَ فيه، ويقرّ بأنبياءِ اللهِ وما جاءتْ به من عندِ الله من الكتب، ويؤدِّي فرائضَه، ويجتنب معاصيه. فذلك كمالُ إحسانِ المحسنينَ الذين قالَ اللهُ تعالى ذِكْرُه: «جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وأما الذين جَحَدوا توحيدَ الله، وأنكروا نبوّةَ محمدٍ ﷺ، وكذبوا بآياتِ كتابه، فإنَّ أولئك «أصحابُ الجحيم». يقول: هم سُكَّانُهَا واللابثونَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأقَرُّوا بما جاءهم به نبيهُّم ﷺ أنه حَقٌّ من عندِ الله. «لاتُحَرِّمُوا طيباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم»، يعني: بـ«الطيبات»، اللذيذات التي تشتهيها النفوسُ، وتميلُ إليها القلوبُ، فتمنعوها إيَّاها، كالذي فعله القِسِّيسُونَ والرُّهبان، فحرَّموا على أنفسِهم النساءَ والمطاعمَ الطيِّبة، والمشاربَ اللذيذة، وحبَس في الصَّوامع بعضُهم أنفسَهم، وساحَ في الأرض بعضهم. يقول تعالى ذِكْرُه: فلا تفعلوا أيُّها المؤمنون، كما فعلَ أولئك،

ولا تعتدُوا حَدَّ اللهِ الذي حَدَّ لكم فيما أَحَلَّ لكم وفيما حَرَّمَ عليكم، فتجاوزوا حَدَّهُ الذي حَدَّهُ، فتخالفوا بذلك طاعتَهُ، فإنَّ الله لا يحبُّ من اعتدى حَدَّهُ الذي حَدَّهُ لِخَلْقِه، فيما أَحَلَّ لهم وحرَّم عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، لهؤلاء المؤمنين الذين نهَاهم أنْ يُحَرِّمُوا طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لهم: كُلُوا، أيها المؤمنون، من رِزْقِ الله الذي رَزقكم وأحله لكم، حلالاً طيِّباً.

وأما قوله: «واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون»، فإنه يقول: وخَافُوا، أيها المؤمنون، أنْ تعتدوا في حدودهِ، فتُحِلُّوا ماحُرِّم عليكم، وتُحَرِّموا ما أُحِلَّ لكم، واحذروه في ذلك أن تُخَالِفُوهُ، فينزل بكم سَخَطُه، أو تستوجبوا به عقوبته. «الذي أنتم به مؤمنون»، يقول: الذي أنتم بوحدانيَّتِهِ مُقِرُّونَ، وبربُوبيته مصدِّقون.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، للذين كانوا حرَّموا على أنفسهم الطيِّبات من أصحابِ رسول الله ﷺ، وكانوا حَرَّمُوا ذلك بأيمانٍ حَلَفوا بها، فنهاهم عن تحرِيمها وقال لهم: لا يُؤاخذكم ربُّكم باللغو في أيمانكم.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قرأة الحجاز وبعض البَصْريين: ﴿ولَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾، بتشديد «القاف»، بمعنى: وَكَّدْتُمُ الأيمانَ وردّدتموها.

وقرأه قَرَأةُ الكوفيين: ﴿بِمَا عَقَدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾، بتخفيف «القاف»، بمعنى: أَوْجَبْتُموها على أنفسكم، وعَزَمَتْ عليها قلوبكم.

وأَوْلى القراءتين بالصواب في ذلك، قراءةُ مَنْ قرأ بتخفيف «القاف».

وذلك أنَّ العربَ لا تكادُ تستعمل «فعَّلت» في الكلام، إلا فيما يكون فيه تردُّدٌ مرةً بعد مرةٍ، مثل قولهم: «شدَّدتُ على فلان في كذا»، إذا كُرِّر عليه الشدّة مرة بعد أخرى. فإذا أرادوا الخبرَ عن فِعْلِ مرّةٍ واحدةٍ قيل: «شدَدَت عليه»، بالتخفيف.

وقد أجمع الجميعُ لا خِلافَ بينهم: أنَّ اليمينَ التي تجبُ بالحِنْثِ فيها الكفارةُ، تلزم بالحنث في حلف مرةٍ واحدة، وإنْ لم يكرّرها الحالفُ مرات. وكان معلوماً بذلك أنَّ الله مؤاخِذٌ الحالفَ العاقدَ قلبَه على حلفه، وإن لم يكرِّره ولم يردِّدْه.

وإذا كان ذلك كذلك، لم يكن لتشديدِ «القاف» من «عقّدتم»، وجهٌ مفهومٌ.

فتأويلُ الكلام إذاً: لا يؤاخذكُمُ اللهُ، أيها المؤمنونَ، من أيمانكم بما لَغَوْتُم فيه، ولكن يؤاخذكم بما أَوْجَبْتُموه على أنفسِكم منها، وعَقَدَت عليه قلوبكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ

المائدة: ٨٩

اختلف أهلُ التأويلِ في «الهاء» التي في قوله: «فكفارته»، على ماهي عائدة، ومن ذكر ما؟

فقال بعضهم: هي عائدة على «ما» التي في قوله: «بما عقدتم الأيمان».

فمعنى الكلام على هذا التأويل: «لا يؤاخذكمُ اللهُ باللغوِ في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتمُ الأيمانَ»، فكفارةُ ما عقدتُمْ منها إطعامُ عَشَرة مساكين.

وقال آخرون: «الهاء» في قوله: «فكفارته»، عائدةٌ على «اللغو»، وهي كناية عنه. قالوا: وإنما معنى الكلام: لا يؤاخذكُم اللهُ باللغوِ في أيمانكم إذا كَفَّرْتُموهُ، ولكن يؤاخذكم إذا عقدتم الأيمان، فأقمتم على المُضِيِّ عليه بتركِ الحِنْث والكفارةِ فيه. والإقامةُ على المضيِّ عليه، غير جائزةٍ لكم. فكفارةُ اللغو منها إذا حَنَثْتُمْ فيه، إطعامُ عشرة مساكين.

والذي هو أوْلى عندي بالصوابِ في ذلك، أنْ تكونَ «الهاء» في قوله: «فكفارته» عائدةً على «ما» التي في قوله: «بما عقدتم الأيمان»، لما قَدَّمْنَا فيما مضى قَبْلُ: أنَّ مَنْ لزمته في يمينه كفَّارةٌ وأُوخِذَ بها، غيرُ جائز أن يقال لمن قد أُوخِذَ: «لايؤاخذه الله باللغو». وفي قوله تعالى: «لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، دليلٌ واضحٌ أنه لا يكونُ مُؤَاخَذاً بوجهٍ من الوجوه، مَنْ أخبرنا تعالى ذِكْرُه أنه غيرُ مؤاخذِه.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنه إنما عَنَى تعالى ذِكْرُه بقوله: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، بالعقوبةِ عليها في الآخرة إذا حنثْتُم وكفَّرتم - إلا أنه لا يؤاخذهم بها في الدنيا بتكفير - فإنَّ إخبارَ الله تعالى ذِكْرُه وأمرَه ونهيَه في كتابه، على الظاهرِ العامِّ عندنا، بما قد دللنا على صحّةِ القولِ به في غيرِ هذا الموضعِ، فأغنى

عن إعادته ـ دونَ الباطنِ العامِّ الذي لا دلالةَ على خصوصهِ في عقلٍ ولا خبر. ولا دلالةَ من عقلٍ ولا خبرٍ أنه عَنى تعالى ذِكْرُه بقوله: «لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»، بعضَ معاني المؤاخذةَ دونَ جَميعها.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان مَنْ لَزِمَتْهُ كفّارةٌ في يمينٍ حنث فيها مؤاخذٍ بها بعقوبةٍ في ماله عاجلة، كان معلوماً أنه غيرُ الذي أخبرنا تعالى ذِكْرُه أنه لا يؤاخذه بها.

وإذْ كان الصحيح من التأويل في ذلك ما قلنا بالذي عليه دللنا، فمعنى الكلام إذاً: لا يؤاخذُكُم اللهُ، أيها الناسُ، بلغوٍ من القولِ والأيمان، إذا لم تَتَعَمَّدُوا بها معصيةَ الله تعالى ذِكْرُه ولا خِلافَ أمره، ولم تقصدوا بها إثماً، ولكن يؤاخذكم بما تعمَّدتم به الإِثمَ، وأوجبتموه على أنفسِكُم، وعزمتْ عليه قلوبُكم، ويكفر ذلك عنكم، فيغطِّي على سيّء ما كانَ منكم من كذبٍ وزُورِ قولٍ، ويمحوه عنكم فلا يتبعكم به ربكم. «إطعامُ عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «من أوسط ماتطعمونَ أهليكم»، من أَعْدَلِهِ.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «من أوسط ما تطعمون أهليكم».

فقال بعضهم: معناه: من أوْسَطِ مايُطعم من أجناسِ الطعامِ الذي يقتاته أهلُ بلدِ المُكَفِّرِ، أهالِيهم.

ثم اختلف قائلو ذلك في مبلغه.

فقال بعضهم: مبلغُ ذلك، نصفُ صاعٍ من حنطة، أو صاعٌ من سائرِ الحبوبِ غيرها.

وقال آخرون: بل مبلغُ ذلك من كُلِّ شيءٍ من الحبوب، مُدٌّ واحد.

وقال آخرون: بل ذلك غَداء وعشاء.

وقال آخرون: إنما عَنَى بقوله: «من أوْسَطِ ماتطعمون أهليكم»، من أوسطِ مايطعم المكفِّرُ أهلَهُ. قال: إن كان ممن يشبعُ أهلَهُ، أشبعَ المساكينَ العشرة. وإن كان مِمَّنْ لا يُشْبِعُهم لعجزهِ عن ذلك، أطعمَ المساكينَ على قَدْرِ ما يفعلُ من ذلك بأهلِه في عسره ويُسره.

وأولى الأقوال في تأويل قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم» عندنا، قولُ مَنْ قال: «من أوسط ماتطعمون أهليكم في القِلَّه والكثرة». وذلك أنَّ أحكامَ رسولِ الله ﷺ في الكفارات كلِّها بذلك وردت. وذلك كَحُكْمِه ﷺ في كفارة الحلق من الأذى بفَـرَقٍ[1] من طعامٍ بين ستة مساكين، لِكُلِّ مسكينٍ نصف صاع[2]، وكحُكْمِـه في كفارة الوطء في شهرِ رمضان بخمسةَ عشرَ صاعاً بين ستين مسكيناً، لِكُلِّ مسكينٍ رُبْع صاع[3]. ولا يُعْرف له ﷺ شيء من الكفارات، أمرٌ بإطعام خبز وإدام، ولا بغداء وعشاء.

فإذْ كان ذلك كذلك، وكانت كفارةُ اليمين إحدى الكفارات التي تلزمُ مَنْ لَزِمَتْهُ، كان سبيلُها سبيلَ ماتولَّى الحكم فيه ﷺ: من أنَّ الواجبَ على مُكَفِّرها من الطعامِ، مُقَدّراً للمساكين العشرة محدوداً بكيل، دون جَمْعِهم على غداءٍ أو عشاءٍ مخبوزٍ مأدوم، إذ كانت سنَّتُه ﷺ في سائر الكفارات كذلك.

---

(١) الفَرَق: مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً.

(٢) البخاري (١٨١٥) و(١٨١٦).

(٣) انظر البيهقي: ٢١/٤ - ٢٢٨.

فإذْ كان صحيحاً ما قلنا بما به استشهدنا، فَبَيِّنٌ أنَّ تأويلَ الكلام: ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان، فكفارتُه إطعامُ عشرة مساكين من أعدلِ إطعامِكم أهْلِيكُم، وأن «ما» التي في قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم»، بمعنى المصدر، لا بمعنى الأسماء.

وإذا كان ذلك كذلك، فأعدلُ أقواتِ الموسِّع على أهله مُدَّانِ، وذلك نصف صاعٍ في ربُعه إدامه، وذلك أعلى ماحكم به النبيُّ ﷺ في كفارة في إطعام مساكين. وأعدلُ أقواتِ المقتِّرِ على أهله، مُدٌّ، وذلك ربع صاع، وهو أدنى ماحكم به في كفارة في إطعام مساكين.

وأما الذين رأوا إطعامَ المساكين في كفارةِ اليمينِ، الخبزَ واللحمَ وما ذكرنا عنهم قَبْلُ، والذين رأوا أن يغدّوا أو يعشوا، فإنهم ذهبوا إلى تأويل قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم»، من أوسط الطعام الذي تطعمونه أهليكم، فجعلوا «ما» التي في قوله: «من أوسط ماتطعمون أهليكم»، اسماً لا مصدراً، فأوجبوا على المكفِّر إطعامَ المساكينَ من أعدلِ مايُطعم أهله من الأغذية. وذلك مذهبٌ، لولا ماذكرنا من سننِ رسولِ الله ﷺ في الكفارات غيرها، التي يجب إلحاقُ أشكالها بها، وأنَّ كفارةَ اليمينِ لها نظيرةٌ وشبيهةٌ يجبُ إلحاقها بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ كِسْوَتُهُمْ

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: فكفارةُ ماعقدتم من الأيمان: إطعامُ عشرة مساكين، أو كسوتهم. يقول: إما أنْ تطعموهم أو تكسوهم. والخيار في ذلك إلى المكفِّر.

واختلف أهلُ التأْوِيلِ في «الكسوة» التي عَنَى الله تعالى ذِكْرُه بقوله: «أو كسوتهم».

فقال بعضهم: عَنى بذلك: كسوةَ ثوبٍ واحد.

وقال بعضهم: عَنَى بذلك: الكسوةَ، ثوبين ثوبين.

وقال آخرون: بل عنى بذلك كسوتهم «ثوب جامع»، كالملحفة والكساء، والشيء الذي يصلحُ لِلّبسِ والنومِ.

وقال آخرون: عنى بذلك: كسوةَ إزارٍ ورداءٍ وقميص.

وقال آخرون: كل ما كسا فيجزىء، والآية على عمومها.

وأوْلى الأقوال في ذلك عندنا بالصحة وأشبهها بتأويلِ القرآن، قولُ مَنْ قال: عَنَى بقوله: «أو كسوتهم»، ماوقع عليه اسمُ كسوة، مما يكونُ ثوباً فصاعداً لأن مادونَ الثوبِ، لا خِلافَ بين جميعِ الحُجَّةِ أنه ليس مما دخلَ في حكمِ الآية، فكان مادونَ قدر ذلك، خارجاً من أن يكون الله تعالى عَنَاهُ، بالنقلِ المستفيضِ. والثوبُ وما فوقه داخلٌ في حكم الآية، إذْ لم يأتِ من الله تعالى ذِكْرُه وحيٌ، ولا من رسولِهِ ﷺ خَبَرٌ، ولم يكن من الأمةِ إجماعٌ بأنه غير داخلٍ في حكمها. وغير جائز إخراج ما كان ظاهرُ الآية محتملَهُ من حكمِ الآية، إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. ولا حجةَ بذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أو فكّ عبدٍ من أسرِ العبودةِ وذلِّها.

فإنْ قال قائلٌ: أفَكُلّ الرقابِ معنيٌّ بذلك أو بعضه؟

قيل: بل معنيٌّ بذلك كل رقبةٍ كانت سليمةً من الإقعادِ[1]، والعمىَ والخرسِ، وقَطْعِ اليدينِ أو شَلَلِهما، والجنون المطبق، ونظائر ذلك. فإنَّ مَنْ كان به ذلك أو شيء منه من الرقابِ، فلا خلافَ بين الجميعِ من الحُجَّةِ أنه لا يجزىءُ في كفارة اليمين. فكان معلوماً بذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يعنه بالتحريرِ في هذه الآية. فأما الصغيرُ والكبيرُ والمسلمُ والكافرُ، فإنهم مَعْنِيُّونَ به.

والمكفِّر مخيَّرٌ في تكفير يمينه التي حنث فيها بإحدى هذه الحالات الثلاث التي سماها الله في كتابه، وذلك: إطعام عشرة مساكين من أوسطِ مايطعم أهله، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة - بإجماعٍ من الجميعِ، لا خلافَ بينهم في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «فمن لم يجد»، لكفارةِ يمينِه التي لزمه تكفيرُها من الطعامِ والكسوةِ والرقابِ مايُكَفِّرُهَا به على مافرَضْنَا عليه وأوجبناه في كتابِنا وعلى لسانِ رسولنا محمدٍ ﷺ. «فصيامُ ثلاثة أيام»، يقول: فعليه صيامُ ثلاثةِ أيام.

ثم اختلف أهلُ العلم في معنى قوله: «فمن لم يجد»، ومتى يستحقُّ الحانثُ في يمينِه الذي قد لَزِمَتْهُ الكَفَّارةُ، اسم «غير واجد»، حتى يكونَ ممن له الصيام في ذلك.

فقال بعضهم: إذا لم يكن للحانثِ في وقتِ تكفيرِهِ عن يمينه إلا قَدْر

---

(١) الإقعاد: الداء الذي يُقْعِد فيحيل بينه وبين المشي.

قُوتِهِ وقوت عياله يومَه وليلته، فإنَّ له أنْ يكفر بالصيام . فإنْ كان عنده في ذلك الـوقت قوتـه وقوت عيالِهِ يومه وليلته، ومنَ الفضلِ مايطعمُ عشرةَ مساكين أو مايَكْسُوهم، لَزِمَهُ التكفيرُ بالإطعامِ أو الكسوةِ، ولم يجزه الصيامُ حينئذٍ. وممن قال ذلك الشافعي.

وقال آخرون: جائزٌ لمن لم يَكُنْ عنده مائتا درهم أنْ يصومَ، وهو ممن لا يجد.

وقال آخرون: جائزٌ لمن لم يَكُنْ عنده فَضْلٌ عن رأسِ مالهِ يتصرفُ به لمعـاشـهِ مايكفرُ به بالإطعامِ، أنْ يصومَ إلاَّ أن يكون له كفاية، ومن المال مايتصرفُ به لمعاشهِ، ومن الفضلِ عن ذلك مايكفِّرُ به عن يمينه. وهذا قولٌ كان يقوله بعضُ متأخري المُتَفَقِّهة.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ مَنْ لم يكنْ عنده في حالِ حنْثهِ في يمينه إلا قَدْر قوتهِ وقوت عياله يومه وليلته، لا فضلَ له عن ذلك، يصوم ثلاثة أيام، وهو ممن دخلَ في جملة مَنْ لا يجد مايطعم أو يكسو أو يعتق. وإنْ كان عنده في ذلك الوقت من الفضلِ عن قوتهِ وقوتِ عياله يومَه وليلته، ما يطعمُ أو يكسو عشرةَ مساكين، أو يعتق رقبة، فلا يجزيه حيئنذٍ الصوم، لأنَّ إحدى الحالاتِ الثلاث حينئذٍ من إطعامٍ أو كسوةٍ أو عتقٍ، حَقٌّ قد أوجبه الله تعالى ذِكْرُه في ماله وجوبَ الدين. وقد قامت الحُجَّةُ بأنَّ المفلسَ إذا فَرَّقَ ماله بين غرمائه: أنه لا يترك ذلك اليومَ إلاّ ما لابُدَّ له من قوتهِ وقوتِ عياله يومَه وليلته. فكذلك حُكْمُ المُعْدمِ بالدَّيْنِ الذي أوجبه الله تعالى ذِكْرُه في ماله بسببِ الكفارةِ التي لزمت ماله.

واختلف أهلُ العلم في صفة الصومِ الذي أوجبه اللهُ في كفارة اليمين.

فقال بعضهم: صفته أن يكون مواصلاً بين الأيامِ الثلاثة غير مُفَرِّقها.

وقال آخرون: جائزٌ لمن صامَهُنَّ أنْ يصومَهُنَّ كيف شاء، مجتمعاتٍ ومفترقات.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه أوجب على مَنْ لَزِمَتْهُ كفَّارةُ يمينٍ، إذا لم يجد إلى تكفيرها بالإطعام أو الكسوة أو العتقِ سبيلاً، أنْ يُكَفِّرَهَا بصيامِ ثلاثةِ أيام، ولم يشرطْ في ذلك متتابعة. فكيفما صامَهُنَّ المكفِّرُ مفرَّقة ومتتابعة، أجزأه. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما أوجبَ عليه صيامَ ثلاثةِ أيام، فكيفما أتى بصومهنّ أجزأ.

فأما ماروي عن أبيٍّ وابنِ مسعود من قراءتهما: ﴿فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مُتَتَابِعَاتٍ﴾، فذلك خلافُ مافي مصاحفنا. وغيرُ جائزٍ لنا أن نشهدَ لشيءٍ ليس في مصاحفنا من الكلام أنه من كتابِ الله. غيرَ أني أختارُ للصائمِ في كفَّارة اليمين أن يُتَابع بين الأيام الثلاثة، ولا يفرِّق. لأنه لا خلافَ بين الجميعِ أنه إذا فعلَ ذلك فقد أجزأ ذلك عنه من كَفَّارتهِ، وهم في غير ذلك مختلفون. فَفِعْلُ مالا يُخْتلفُ في جوازه، أحبُّ إليَّ، وإنْ كان الآخرُ جائزاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٨٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، هذا الذي ذكرتُ لكم أنه كفارةُ أيمانِكم، من إطعامِ العشرةِ المساكين، أو كِسْوتهم، أو تحرير الرقبة، وصيام الثلاثة الأيام إذا لم تجدوا من ذلك شيئاً ـ هو كفارةُ أيمانِكم التي عقدتموها إذا حلفتم ـ واحفظوا، أيها الذين آمنوا أيمانَكُم أنْ تحنثوا فيها، ثم تُضِيعُوا الكفارةَ فيها بما وصفتُه لكم. «كذلك يبينُ اللهُ لكم آياته»، كما بَيَّنَ لكم كفارةَ

أيمانكم، كذلك يبينُ الله لكم جميعَ آياته - يعني أعلامَ دِينه فيوضِّحها لكم - لئلا يقولَ المضيعُ المفرِّطُ فيما ألزمه الله: «لم أعلَمْ حُكْمَ الله في ذلك!». «لعلكم تشكرون»، يقول: لتشكروا الله على هدايتِه إياكم وتوفيقِه لكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠﴾

وهذا بيانٌ من اللهِ تعالى ذِكْرُه للذين حَرَّمُوا على أنفسِهم النساءَ والنومَ واللحمَ من أصحاب النبيِّ ﷺ، تشبُّهاً منهم بالقسِّيسينَ والرهبان، فأنزل الله فيهم على نبيِّه ﷺ كتابَه يَنْهاهم عن ذلك فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَاأَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾، [المائدة: ٨٧]. فنهاهم بذلك عن تحريمِ ما أحلَّ اللهُ لهم من الطيبات. ثم قال: ولا تعتدوا أيضاً في حدودي، فَتُحِلُّوا ماحرَّمتُ عليكم، فإنَّ ذلك لكم غير جائزٍ، كما غيرُ جائزٍ لكم تحريم ماحلَّلتُ، وإنيّ لا أحبُّ المعتدينَ. ثم أخبرهم عن الذي حَرَّمَ عليهم مما إذا استحلُّوه وتَقَدَّموا عليه، كانوا من المعتدينَ في حدودِه - فقال لهم: ياأيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسولَهُ، إنَّ الخمرَ التي تشربونها، والميسِرَ الذي تَتَياسرونه، والأنصابَ التي تذبحُون عندها، والأزلامَ التي تَسْتَقْسِمُونَ بها. «رِجْسٌ»، يقول: إثمٌ ونَتْنٌ سَخِطَهُ الله وكَرِهَهُ لكم. «من عملِ الشيطان»، يقول: شربُكُم الخمرَ، وقماركم على الجُزُرِ، وذبحكم للأنصابِ، واستقسامُكم بالأزلام، من تزيينِ الشيطانِ لكم، ودعائِه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي نَدَبَكُم إليها ربُّكم، ولا مما يرضاهُ لكم، بل هو مما يسخطه لكم. «فاجتنبوه»، يقول: فاتركوه وارفضُوه ولا تعملوه. «لعلَّكم تفلحون»، يقول: لكي تنجَحُوا فتدركوا الفلاحَ عند ربكم بترككم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما يُريدُ لكم الشيطانُ شربَ الخمر والمياسرةَ بالقِدَاح، ويحسِّنُ ذلك لكم، إرادةً منه أن يُوقعَ بينكم العَداوَة والبغضاءَ في شربكم الخمرَ ومياسرتكم بالقِداحِ، ليعادي بعضُكم بعضاً، ويبغِّض بعضَكم إلى بعضٍ، فيشتِّتَ أمركم بعد تأليفِ الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأُخوَّةِ الإسلام. «ويصدَّكم عن ذِكْرِ الله»، يقول: ويصرفكم بغَلَبَةِ هذه الخمرِ بسكرها إياكم عليكم، وباشتغالكم بهذا الميسر، عن ذِكْرِ الله الذي به صلاحُ دنياكم وآخرتكم. «وعن الصلاةِ»، التي فرضها عليكم ربكم. «فهل أنتم منتهون»، يقول: فهل أنتم مُنْتَهُونَ عن شربِ هذه، والمياسرة بهذا، وعاملونَ بما أمركم به ربُّكم من أداءِ مافَرض عليكم من الصلاةِ لأوقاتها، ولزوم ذِكْرِه الذي به نُنْجِحُ طلباتكم في عاجلِ دنياكم وآخرتكم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجْسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه». وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول»، في اجتنابكم ذلك، واتباعكم أمْرَهُ فيما أمركم به من الانزجارِ عما زجَركم عنه من هذه المعاني التي بيَّنها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالِفوا الشيطانَ في أمره إيَّاكم بمعصيةِ الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكمُ العداوةَ والبغضاءَ بينكم بالخمرِ والميسرِ. «واحذروا»، يقول: واتَّقُوا الله وراقبوه أنْ يَرَاكُم عندَ مانَهَاكُم عنه من

هذه الأمور التي حَرَّمَها عليكم في هذه الآية وغيرها، أو يفقِدَكُمْ عندَ ما أمركم به، فتُوبِقُوا أنفسَكُم وتهلكوها. «فإن توليتم»، يقول: فإنْ أنتم لم تَعْمَلُوا بما أمرنـاكم به، وتنتهـوا عما نَهيناكُمْ عنه، ورجعتم مُدْبِرينَ عما أنتم عليه من الإيمانِ والتصديقِ بالله وبرسوله، واتبَاعِ ماجاءكم به نبيكم. «فاعلموا أنَّما على رسولنا البلاغُ المبين»، يقول: فاعلموا أنه ليس على مَنْ أرسلناهُ إليكم بالنِّذارة غير إبلاغِكم الرسالةَ التي أُرسلَ بها إليكم، مبينةً لكم بياناً يُوضِّح لكم سبيلَ الحقِّ، والـطريقَ الذي أُمِرْتُمْ أنْ تسلكُوه. وأما العقاب على التولية والانتقام بالمعصية، فعلى المُرْسَل إليه دونَ الرُّسُلِ.

وهذا من الله تعالى وعيدٌ لمن تولَّى عن أمرِهِ ونهيه. يقول لهم تعالى ذِكْرُه: فإنْ تولَّيْتُمْ عن أمرِي ونهيي، فتوقَّعُوا عِقابي، واحذَرُوا سَخَطي.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للقوم الذين قالوا ـ إذْ أنزلَ اللهُ تحريمَ الخمرِ بقوله: «إنما الخمرُ والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عملِ الشيطان فاجتنبوه»: كيفَ بمن هَلَكَ من إخوانِنا وهم يشربونها؟ وبِنَا وقد كُنَّا نَشْرَبُهَا؟ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات منكم حرجٌ فيما شربوا من ذلك، في الحال التي لم يكن الله تعـالى حَرَّمَـهُ عليهم. «إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات»، يقول: إذا ما اتَّقَى اللهَ الأحياءُ منهم فخافوه، وراقبوه في اجتنابهم ماحَرَّمَ عليهم منـه، وصَـدَّقُـوا اللهَ ورسولَهُ فيما أمراهم ونهياهم، فأطاعوهما في ذلك كله. «وعملوا الصالحات»، يقول: واكتسبوا من الأعمالِ مايرضاهُ الله في ذلك مما

كلفهم بذلك ربُّهم. «ثم اتقوا وآمنوا»، يقول: ثم خَافُوا اللهَ وراقبوهُ باجتنابهم محارِمَهُ بعد ذلك التكليفِ أيضاً، فثبتوا على اتِّقَاءِ الله في ذلك والإيمانِ به، ولم يغيِّرُوا ولم يبـدِّلُوا. «ثم اتقوا وأحسنوا»، يقول: ثم خافوا الله، فدعاهم خوفُهم اللهَ إلى الإحسانِ، وذلك «الإحسان»، هو العملُ بما لم يَفْرِضْهُ عليهم من الأعمالِ، ولكنه نوافلُ تَقَرَّبُوا بها إلى رَبِّهم طلبَ رِضاه، وهرباً من عقابه. «والله يحب المحسنين»، يقول: والله يحب المتقرِّبينَ إليه بنوافلِ الأعمال التي يرضاها.

فالاتقاء الأوّل: هو الاتقاء بتلقِّي أمرِ الله بالقَبُولِ والتصديقِ، والدينونةِ به والعمل.

والاتقاء الثاني: الاتقاءُ بالثباتِ على التصديقِ، وتركِ التبديلِ والتغييرِ.

والاتقاء الثالث: هو الاتقاء بالإحسان، والتقرُّب بنوافلِ الأعمال.

فإنْ قال قائلٌ: ما الدليلُ على أنَّ «الاتقاء» الثالث، هو الاتقاءُ بالنوافل، دونَ أنْ يكون ذلك بالفرائضِ؟

قيل: إنه تعالى ذِكْرُه قد أخبر عن وضعه الجناحَ عن شاربي الخمرِ التي شربوها قبل تحريمهِ إيَّاها، إذا هم اتقوا الله في شربها بعد تحريمِها، وصَدَّقُوا الله ورسوله في تحريمها، وعَمِلُوا الصالحاتِ من الفرائضِ. ولا وجهَ لتكرير ذلك وقد مضى ذكرهُ في آيةٍ واحدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله. «ليبلونَّكُمُ الله بشيءٍ

من الصيد»، يقول: ليختبرنَّكُم الله. «بشيءٍ من الصيد»، يعني: ببعض الصيد.

وإنما أخبرهم تعالى ذِكْرُه أنه يَبْلُوهم بشيءٍ، لأنه لم يَبْلُهُمْ بصيدِ البحر، وإنما ابتلاهم بصيد البرِّ، فالابتلاءُ ببعض لا بجميع.

وقوله: «تناله أيديكم»، فإنه يعني: إما باليدِ، كالبيض والفراخ ـ وإما بإصابةِ النَّبْلِ والرماحِ، وذلك كالحُمُرِ والبقرِ والظباءِ، فيمتحنكم به في حالِ إحرامكم بعمرتكم أو بحجّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: ليختبرنكم الله، أيها المؤمنونَ، ببعض الصيد في حالِ إحرامكم، كي يعلم أهلَ طاعةِ الله والإيمان به، والمنتهين إلى حدوده وأمره ونهيه، ومَنْ الذي يخاف الله فَيَتَّقِي مانهاهُ عنه، ويجتنبه خوف عقابه «بالغيب»، بمعنى: في الدنيا، بحيث لا يراه.

فتأويلُ الكلام إذاً: ليعلم أولياء الله مَنْ يخافُ الله فيتقي محارمَهُ التي حَرَّمَها عليه من الصيدِ وغيره، بحيث لا يراهُ ولا يُعاينه.

وأما قوله: «فمن اعتدى بعد ذلك»، فإنه يعني: فَمَنْ تجاوزَ حَدَّ الله الذي حَدَّهُ له، بعد ابتلائهِ بتحريمِ الصيدِ عليه وهو حرام، فاستحلَّ ماحَرَّمَ الله عليه منه بأخذِه وقتله. «فله عذابٌ»، من الله. «أليم»، يعني: مؤلمٌ موجعٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذين صَدَّقُوا اللهَ ورسوله. «لاتقتلوا الصيدَ»، الذي بينتُ لكم، وهو صيد البرِّ دونَ صيدِ البحر. «وأنتم حُرُم»، يقول: وأنتم مُحْرِمُونَ بحجٍ أو عمرة.

وقـوله: «ومَنْ قتله منكم متعمداً»، فإنَّ هذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه عبادَهُ حكمَ القاتلِ من المحرمين الصيدَ الذي نهاه عن قتله متعمداً.

ثم اختلف أهل التأويل في صفة «العَمْد» الذي أوجب الله على صاحبه به الكفارةَ والجزاءَ في قتله الصيد.

فقال بعضهم: هو العمد لقتلِ الصيد، مع نسيانِ قاتِلِه إحرامَه في حالِ قتله. وقال: إنَّ قتله وهو ذاكر إحرامه متعمداً قتله، فلا حُكْمَ عليه، وأمره إلى الله. قالوا: وهذا أجلُّ أمراً من أن يحكم عليه، أو يكونَ له كفارة.

وقال آخرون: بل ذلك هو العمد من المحرِم لقتلِ الصيد، ذاكراً لحُرْمه.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذِكْرُه حَرَّمَ قَتْلَ صيدِ البَرِّ على كُلِّ مُحْرِمٍ في حال إحرامِهِ مادامَ حراماً بقوله: «يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد». ثم بَيَّنَ حُكْمَ مَنْ قتل ماقتل من ذلك في حالِ إحرامِهِ متعمـداً لقتلِهِ، ولم يخصصْ به المتعمِّـد قتلَه في حال نسيانـهِ إحرامَهُ، ولا المخطىءَ في قتلِهِ في حال ذِكْرِهِ إحرامَهُ، بل عَمَّ في التنزيل بإيجابِ الجزاء، كُلَّ قاتلِ صيدٍ في حال إحرامِهِ مُتَعَمِّداً. وغير جائزٍ إحالةُ ظاهرِ التنزيلِ إلى باطنٍ من التأويلِ لا دلالةَ عليه من نصِّ كتابٍ، ولا خبرٍ لرسولِ الله ﷺ، ولا إجماعٍ من الأمة. ولا دلالةَ من بعض هذه الوجوه.

فإذْ كان ذلك كذلك، فسواءٌ كانَ قاتل الصيدِ من المحرمينَ عامداً قتلَه ذاكراً لإحرامِهِ، أو عامداً قتله ناسياً لإحرامِهِ، أو قاصداً غيره فقتله ذاكراً لإحرامه ـ في أنَّ على جميعِهم من الجزاء ما قال رَبُّنَا تعالى ذِكْرُه، وهو: مِثْلُ ماقتلَ

من النَّعَمِ يحكمُ به ذوا عدلٍ من المسلمين، أو كفارةٌ طعامُ مساكين، أو عَدْلُ ذلك صياماً.

وأما قوله: «فجزاءٌ مثلُ ماقتل من النعم»، فإنه يقول: وعليه كِفاءٌ وبَدَلٌ، يعني بذلك جزاء الصيد المقتولِ. يقول تعالى ذِكْرُه: فعلى قاتلِ الصيدِ جزاءُ الصيدِ المقتولِ، مثل ماقتل من النعم.

ثم اختلف أهلُ العلم في صفة «الجزاء»، وكيف يجزي قاتلُ الصيد من المحرمين ماقتلَ مِثْلَهُ من النَّعَم.

فقال بعضهم: ينظر إلى أشبه الأشياء به شَبَهاً من النعم، فيجزيهِ به، ويهديهِ إلى الكعبة.

وقال آخرون: بل يُقَوَّمُ الصيدُ المقتول قيمتَه من الدراهم، ثم يشتري القاتلُ بقيمته نِدًّا من النعم، ثم يهديه إلى الكعبة.

وأوْلى القولين في تأويل الآية قول من قال: إنَّ المقتول من الصيد يُجْزَى بمثْلِه من النَّعم، كما قال الله تعالى ذِكْرُه: «فجزاءٌ مِثْلُ ماقتلَ من النعم». وغيرُ جائزٍ أنْ يكونَ مثل الذي قتل من الصيد دراهم، وقد قال الله تعالى: «من النعم»، لأن الدراهم ليست من النعم في شيء.

فإنْ قال قائلٌ: فإنَّ الدراهمَ وإنْ لم تكن مِثْلاً للمقتول من الصيد، فإنه يشتري بها المِثْلَ من النعم، فيهديه القاتل، فيكون بفعله ذلك كذلك جازياً بما قتل من الصيد مثلاً من النعم!

قيل له: أفرأيتَ إنْ كان المقتول من الصيد صغيراً أو معيباً، ولا يُصابُ بقيمته، من النَّعم إلاَّ كبيراً، أو سليماً ـ أو كان المقتولُ من الصيد كبيراً أو سليماً، ولا يُصابُ بقيمته من النعم إلا صغيراً أو معيباً ـ أيجوزُ له أنْ يشتريَ

بقيمته خلافَهُ وخِلافَ صفته فيهديه، أم لا يجوز ذلك له، وهو لا يجد إلّاً خلافه؟

فإنْ زعم أنه لا يجوزُ له أن يشتري بقيمته إلّاً مثله، ترك قوله في ذلك. لأنّ أهلَ هذهِ المقالةِ يزعمون أنه لا يجوز له أن يشتري بقيمة ذلك فيهديه، إلّا ما يجـوز في الضحـايا. وإذا أجاز شراءَ مِثْل المقتولِ من الصيد بقيمته وإهداءها وقد يكون المقتول صغيراً معيباً، أجاز في الهدي مالا يجوز في الأضاحي.

وإنْ زعمَ أنه لا يجوزُ أن يشتري بقيمته فيهديه إلّا مايجوزُ في الضحايا، أوضحَ بذلكَ من قولِهِ الخلافَ لظاهرِ التنزيل. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه، أوجبَ على قاتلِ الصيدِ من المُحْرِمينَ عمداً، المِثْلَ من النَّعَمِ إذا وجده. وقد زعمَ قائلُ هذه المقالة أنه لا يجبُ عليه المِثْلُ من النعم، وهو إلى ذلك واجدٌ سبيلاً.

ويقالُ لقائلِ ذلك: أرأيتَ إنْ قال قائل آخر: «ما على قاتل مالا تبلُغ من الصيد قيمتُه مايصاب به من النَّعم مايجوز في الأضاحي، من إطعامٍ ولا صيام. لأنَّ الله تعـالى إنمـا خَيَّرَ قاتلَ الصيدِ من المحرمين في أحد الثلاثة الأشياء التي سماها في كتابه، فإذا لم يكن له إلى واحدٍ من ذلك سبيلٌ، سَقَطَ عنه فَرْضُ الآخرَيْنِ. لأنَّ الخيار إنما كان له، وله إلى الثلاثةِ سبيلٌ. فإذا لم يكن له إلى بعض ذلك سبيلٌ، بطل فَرْضُ الجزاء عنه، لأنه ليس ممن عُني بالآية - نظيرَ الذي قلت أنت: «إنه إذا لم يكن المقتولُ من الصيد تبلغُ قيمته مايصاب من النعم مما يجوزُ في الضحايا، فقد سقطَ فرضُ الجزاءِ بالمِثْلِ من النَّعَمِ عنه، وإنما عليه الجزاءُ بالإطعامِ أو الصيام»، هل بينكَ وبينَهُ فرقٌ من أصلٍ أو نظيرٍ؟ فلن يقول في أحدهما قولاً إلّا أُلزمَ في الآخر مثله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يحكم بذلك الجزاء الذي هو مِثْلُ المقتولِ من الصيد من النعم عَدْلانِ منكم. يعني: فقيهـان عالمـان من أهـلِ الدينِ والفضل. «هَدْياً»، يقول: يقضي بالجزاء ذوا عدل، أيْ يُهْدَى فيبلغ الكعبةَ. و«الهاء» في قوله: «يحكم به»، عائدة على «الجزاء».

ووجه حُكْمِ العَدْلَين إذا أرادا أنْ يحكما بمثلِ المقتولِ من الصيد من النَّعَمِ على القاتل: أن يَنْظُرَا إلى المقتولِ ويَسْتَوْصِفَاهُ، فإنْ ذُكِرَ أنه أصابَ ظبياً صغيراً، حَكَمَا عليه من ولـدِ الضـأن بنـظيرِ ذلك الذي قتله في السن والجسم. فإنْ كان الذي أصاب من ذلك كبيراً، حكما عليه من الضأنِ بكبيرٍ. وإنْ كان الذي أصابَ حمارَ وَحْشٍ، حكما عليه ببقرةٍ. إنْ كان الذي أصاب كبيراً، فكبيراً من البقر، وإن كان صغيراً فصغيراً. وإنْ كان المقتولُ ذكراً فَمِثْلُه من ذكورِ البقر. وإنْ كان أنثى فمثله من البقر أنثى. ثم كذلك ذلك، ينظران إلى أشْبَهِ الأشياءِ بالمقتولِ من الصيد شبهاً من النعم، فيحكمانِ عليه به، كما قال تعالى ذِكْرُه.

وقـال آخـرون: بل ينـظر العَدْلان إلى الصيدِ المقتول، فيقوِّمانه قيمته دراهمَ، ثم يأمـران القـاتـلَ أنْ يشتـري بذلـك من النعم هَدْياً. فالحـاكمان يحكمان، في قول هؤلاء، بالقيمة. وإنما يحتاجُ إليهما لتقويمِ الصيدِ قيمتَه في الموضع الذي أصابه فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْكَفَّـٰرَةٌ طَعَـامُ مَسَـٰكِينَ

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: «أو كفارة طعام مساكين».

فقال بعضهم: معنى ذلك: أنَّ القاتلَ وهو مُحْرِمٌ صيداً عمداً، لا يخلو من وجـوبِ بعضِ هذه الأشياء الثـلاثة التي ذكر الله تعالى ذِكْرُه: من مِثْلِ

المقتولِ هدياً بالغَ الكعبة، أو طعامُ مساكينَ كفارةً لما فعل، أو عدلُ ذلك صياماً ـ إلّا أنه مخيَّرٌ في أيِّ ذلك شاء فعل، وأنه بأيِّها كان كَفَّرَ فقد أدَّى الواجبَ عليه. وإنما ذلك إعلامٌ من الله تعالى ذكره عبادَهُ أنَّ قاتلَ ذلك كما وصف، لن يخرُجَ حكمُه من إحدى الخلالِ الثلاثة. قالوا: فحكمه إنْ كان على المِثْلِ قادراً، أن يحكم عليه بمثل المقتول من النعم، لا يجزيه غيرُ ذلك مادام للمِثْلِ واجداً. قالوا: فإن لم يكن له واجداً، أو لم يكن للمقتول مِثْلٌ من النعم، فكفارتُه حينئذٍ إطعامُ مساكين.

وقال آخرون: معنى ذلك: أنَّ للقاتل صيداً عمداً وهو محرم، الخيارُ بين إحدى الكفاراتِ الثلاث، وهي: الجزاءُ بمثله من النعم، والطعام، والصوم. قالوا: وإنما تأويلُ قوله: «فجزاءٌ مثلُ ماقتلَ من النعم أو كفارةٌ طعامُ مساكينَ أو عَدْلُ ذلك صياماً»، فعليه أن يَجْزي بمثله من النعم، أو يُكَفِّر بإطعامِ مساكين، أو بعدل الطعام من الصيام.

واختلفَ القائلون بتخييرِ قاتلِ الصيد من المحرمين بين الأشياء الثلاثة، في صفةِ اللازمِ له من التكفير بالإطعام والصوم، إذا اختار الكَفَّارة بأحدهما دونَ الهدي.

فقال بعضهم: إذا اختار التكفيرَ بذلك، فإنَّ الواجبَ عليه أن يقوِّم المثلَ من النعم طعاماً، ثم يصوم مكان كُلِّ مُدٍّ يوماً.

وقال آخرون: بل الواجبُ عليه إذا أراد التكفيرَ بالإطعامِ أو الصومِ، أنْ يقوِّمَ الصيدَ المقتولَ طعاماً، ثم الصدقةَ بالطعام إنْ اختار الصدقة. وإنْ اختار الصومَ صام.

ثم اختلفوا أيضاً في الصوم.

فقال بعضهم: يصوم لكل مُدٍّ يوماً.

وقال آخرون: يصومُ مكانَ كُلِّ نصفِ صاعٍ يوماً.

وقال آخرون: يصوم مكان كُلِّ صاع يوماً.

وقال آخرون: لا معنى لتكفيرِ بالإطعامِ، لأنَّ مَنْ وجدَ سبيلاً إلى التكفير بالإطعام، فهو واجدٌ إلى الجزاءِ بالمِثْلِ من النَّعَمِ سبيلاً. ومَنْ وَجَدَ إلى الجزاءِ بالمثل من النعم سبيلاً، لم يجزه التكفيرُ بغيرِهِ. قالوا: وإنما ذَكَر الله تعالى ذِكْرُه الكفَّارةَ بالإطعامِ في هذا الموضع، ليدلَّ على صِفَةِ التكفيرِ بالصوم لا أنه جعلَ التكفيرَ بالإطعامِ إحدى الكفَّاراتِ التي يكفر بها قتل الصيد. وقد ذكرنا تأويلَ ذلك فيما مضى قَبْلُ.

وأوْلى الأقـوال بالصوابِ عندي في قول الله تعالى ذِكْرُه: «فجزاءٌ مِثْلُ ماقتلَ من النعم»، أنْ يكون مُراداً به: فعلى قاتلِهِ متعمِّداً مِثْلُ الذي قتل من النعم ـ لا القيمة، إن اختار أنْ يجزيه بالمِثْلِ من النعم. وذلك أن القيمةَ إنما هي من الدنانير أو الدراهم. والدراهمُ أو الدنانير ليست للصيدِ بمِثْلٍ، والله تعالى ذِكْرُه إنما أوجبَ الجزاءَ مِثْلاً من النعم.

وأوْلى الأقوال بالصواب عندي في قوله: «أو كفَّارةٌ طعامُ مساكينَ أو عدلُ ذلـك صياماً»، أنْ يكون تخييراً، وأن يكون للقاتلِ الخيارُ في تكفيرِهِ بقتلهِ الصيدَ وهو مُحْرِمٌ بأيِّ هذه الكفارات الثلاثِ شاء. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، جعلَ ما أوجبَ في قتلِ الصيد من الجزاءِ والكفَّارةِ عقوبةً لفعله، وتكفيراً لذنبه، في إتلافه ما أتلفَ من الصيدِ الذي كان حراماً عليه إتلافُه في حالِ إحرامِهِ، وقد كان حلالاً له قَبْلُ حالَ إحرامه، كما جعل الفِدْيةَ من صيامٍ أو صدقةٍ أو نُسُكٍ في حلقِ الشعر الذي حلقه المحرمُ في حال إحرامه، وقد كان له حلالاً قَبْلَ حال إحرامه عقوبةً لفعله، وتكفيراً لذنبه، في حلق الشعر الذي حلقه المحرم في حال إحرامه، وقد كان له حَلْقُه قبل حال إحرامه، ثم مُنِعَ من حلقهِ في حال إحرامه، نظيرَ الصيد. ثم جعل عليه إنْ حلقه جزاءً من حلقِه إياه. فأجمعَ

الجميعُ على أنه في حلقه إياه إذا حلقه من أذاته، مخيَّرٌ في تكفيره فِعْلَهُ ذلك بأيِّ الكفاراتِ الثلاثِ شاء، فمثله فيما ناله قاتلُ الصيد من المحرمين، وأنه مخيَّرٌ في تكفيره قتلَه الصيدَ بأيِّ الكفاراتِ الثلاثِ شاء، لا فرقَ بين ذلك.

ومَنْ أبى ما قلنا فيه، قيل له: حَكَمَ الله تعالى ذِكْرُه على قاتلِ الصيدِ بالمِثْلِ من النعم، أو كفارة طعام مساكين، أو عدله صياماً ـ كما حكم على الحالق بفديةٍ من صيامٍ أو صدقةٍ أو نُسُكٍ، فزعمتَ أنَّ أحدهما مخيَّرٌ في تكفير ماجعل منه عِوَضٌ بأيِّ الثلاثِ شاء، وأنكرتَ أن يكونَ ذلك للآخر، فهل بينك وبين مَنْ عكس عليك الأمر في ذلك ـ فجعل الخيارَ فيه حيث أبيتَ، وأبى حيث جعلته له ـ فرقٌ من أصلٍ أو نظير؟ فلن يقولَ في أحدهما قولاً إلَّا ألزم في الآخر مثله.

ثم اختلفوا في صفة التقويم إذا أراد التكفيرَ بالإطعام.

فقال بعضهم: يُقَوَّمُ الصيد قيمةَ الموضعِ الذي أصابه فيه.

وقال آخرون: بل يقوَّم ذلك بسعرِ الأرضِ التي يكفِّرُ فيها.

والصواب من القول في ذلك عندنا، أنَّ قاتلَ الصيد إذا جزاه بمِثْلِه من النَّعم، فإنما يَجْزِيه بنظيره في خَلْقِه وقَدْرِه في جسمه، من أقربِ الأشياء به شَبَهاً من الأنعام. فإنْ جَزاهُ بالإطعامِ، قَوَّمَهُ قيمتَهُ بموضعِهِ الذي أصابَهُ فيه، لأنه هنالك وَجَبَ عليه التكفيرُ بالإطعام. ثم إنْ شاء أطعم بالموضعِ الذي أصابه فيه، وإنْ شاء بمكة وإن شاء بغير ذلك من المواضعِ حيث شاء، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه؛ إنما شَرَط بلوغَ الكعبةِ بالهديِ في قتلِ الصيدِ دون غيرِه من جزائِهِ، فللجازي بغير الهدي أن يجزيه بالإطعامِ والصومِ حيث شاء من الأرض.

فأما الهدي، فإنَّ مَنْ جَزَى به ماقتل من الصيد، فلن يُجْزِئَهُ من كفارةِ

ماقتَلَ من ذلكَ إلاَّ أن يبلغه الكعبة كما قال تعالى ذِكْرُه، وينحره أو يذبحه ويتصدق به على مساكينِ الحَرَمِ - وعَنَى بالكعبة في هذا الموضع، الحَرَمَ كله.

ولمن قَدَّمَ بهديهِ الواجبَ من جزاء الصيد، أنْ ينحره في كُلِّ وقتٍ شاء، قبل يوم النحر وبعده، ويطعمه. وكذلك إنْ كَفَّرَ بإطعام، فله أنْ يكفر به متى أَحَبَّ وحيثُ أَحَبَّ. وإنْ كَفَّرَ بالصوم فكذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْعَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: أو على قاتل الصيد محرِماً، عدلُ الصَّيدِ المقتولِ من الصيام. وذلك أن يقوّم الصيد حيًّا غير مقتولٍ قيمته من الطعام بالموضعِ الذي قتله فيه المحرم، ثم يصوم مكان كُلِّ مُدٍّ يوماً. وذلك أنَّ النبي ﷺ عَدَلَ المُدَّ من الطعامِ بصومِ يومٍ في كفَّارة المُوَاقِع في شهر رَمَضان[1].

فإنْ قال قائل: فَهَلاَّ جعلتَ مكانَ كُلِّ صاعٍ في جزاءِ الصيد، صومَ يوم، قياساً على حكم النبيِّ ﷺ في نظيره، وذلك حكمه على كَعْب بن عُجْرة إذ أمره أن يطعم إنْ كفَّر بالإطعام فَرَقاً[2] من طعام، وذلك ثلاثة آصُعٍ[3] بين ستّة مساكين[4]. إنْ كفر بالصيام أنْ يصومَ ثلاثة أيام، فجعل الأيام الثلاثة في الصوم عَدْلاً من إطعامِ ثلاثةِ آصع، فإنَّ ذلك بالكفارة في جزاءِ الصيد، أشبهُ من الكفارة في قتلِ الصيد بكفَّارة المُواقع امرأتَهُ في شهر رمضان؟.

---

(١) تقدم تخريج ذلك، وانظر البيهقي: ٤/٢٢١.

(٢) في المطبوع: «فَرْقاً» بتسكين الراء، وهو جائز عند المحدثين، لكن كلام العرب بالفتح، وهو مكيال معروف بالمدينة، وهو ستة عشر رطلاً.

(٣) جمع صاع.

(٤) البخاري (١٨١٥) و(١٨١٦)، وقد تقدم ذكره.

قيل: إنَّ «القياس»، إنما هو رَدُّ الفروع المختلَفِ فيها، إلى نظائرِها من الأصولِ المُجْمَعِ عليها. ولا خلافَ بين الجميعِ من الحُجَّةِ أنه لا يجزىء مُكَفِّراً كَفَّرَ في قتلِ الصيدِ بالصومِ، أنْ يعدِلَ صومَ يومٍ بصاعِ طعامٍ. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان غير جائزٍ خلافها فيما حدَّثتْ به من الدين مجمعةً عليه، صَحَّ بذلك أنَّ حكم معادلةِ الصوم الطعامَ في قتل الصيد، مخالف حكم معادلته إيَّاه في كَفَّارةِ الحَلْقِ، إذْ كان غير جائز ردّ أصْلٍ على أصلٍ قياساً. وإنما يجوزُ أن يقاسَ الفرعُ على الأصل.

وسواء قال قائل: «هلَّا رددتَ حُكْمَ الصومِ في كفارة قتلِ الصيد، على حكمه في حَلْقِ الأذى فيما يُعْدل به من الطعام»؟ - وآخر قال: «هلاَّ رددتَ حُكْمَ الصومِ في الحلق، على حكمه في كفارةِ قتل الصيد فيما يُعدلُ به من الطعام، فتُوجب عليه مكان كُلِّ مُدٍّ أو مكان كل نصفِ صاعٍ صومَ يوم»؟

وقد بَيَّنا فيما مضى قَبْلُ أنَّ «العَدْل» في كلامِ العرب بالفتح، هو قَدْرُ الشيء من غير جنسهِ، وأن «العِدْل»، هو قدره من جنسه.

وقد كان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العرب يقول: «العدل» مصدر من قول القائل: «عَدَلت هذا بهذا عَدْلاً حسناً». قال: «والعَدْل» أيضاً بالفتح المِثْلُ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ

يقول: فألزمتُه الكفارةَ التي ألزمتُه إياها، لأُذِيقَهُ عقوبةَ ذنبه. ، بإلزامهِ الغرامةَ والعملَ ببدنه مما يتعبه ويشق عليه.

وقد بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه بقوله: «ليذوقَ وبالَ أمره»، أنَّ الكفاراتِ اللازمةَ الأموالَ والأبْدَانَ، عقوباتٌ منه لخَلْقِه، وإنْ كانت تمحيصاً لهم، وكفارةً لذُنُوبهم التي كفَّروها بها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ﴾

يقـول جَلَّ مِنْ قائـلٍ لعبـادِهِ المؤمنينَ به وبرسولِهِ ﷺ: عفا الله، أيها المؤمنونَ، عمَّا سَلَفَ منكم في جاهليتكم، من إصابتِكم الصيدَ وأنتم حُرُم، وقتلِكُموه، فلا يؤاخذكُمْ بما كانَ منكم في ذلك قبل تحريمهِ إياهُ عليكم، ولا يلزمكم له كفارة في مالٍ ولا نفس. ولكن مَنْ عاد منكم لقتلهِ وهو مُحْرِمٌ، بعد تحـريمـهِ بالمعنى الـذي كان يَقْتُله في حال كفره، وقبلَ تحريمه عليه، من استحلاله قتلَه، فينتقم الله منه.

وقد يحتمل أنْ يكون معناه: مَنْ عاد لقتله بعد تحريمه في الإسلام، فينتقم الله منه في الآخرة. فأما في الدنيا، فإنَّ عليه من الجزاءِ والكفَّارةِ فيها مابيَّنتُ.

فإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ الكفارةَ مزيلةٌ العقابَ، ولو كانت الكفارةُ لازمةً له في الدنيا، لبطلَ العقابُ في الآخرة، فقد ظَنَّ خطأً. وذلك أنَّ الله عَزَّ وجلَّ أنْ يُخـالفَ بين عقوباتِ معاصيه بما شاءَ وأَحَبَّ، فيزيد في عقوبته على بعض معاصيهِ مما ينقصُ من بعضٍ، ويَنْقصُ من بعضٍ مما يزيدُ في بعض، كالذي فعـل من ذلك في مخالفته بين عقوبته الزانيَ البكْرَ والزانيَ الثيِّبَ المحصن، وبين سارق ربع دينار وبين سارق أقلَّ من ذلك. فكذلك خالف بين عقوبته قاتلَ الصيدِ من المحرمين عمداً ابتداءً، وبين عقوبتهِ عَوْداً بعدَ بدءٍ. فأوجبَ على البادىء المِثْلَ من النَّعم، أو الكفارةَ بالإطعامِ أو العدلَ من الصيام، وجعلَ ذلك عقوبةَ جُرْمه بقوله: «ليذوقَ وبالَ أمره»، وجعل على العائد بعد البدء، وزاده من عقوبته ماأخبر عبادَه أنه فاعلٌ به من الانتقام، تغليظاً منه عَزَّ وجَلَّ للعودِ بعد البدء. ولو كانت عقوباته على الأشياء متفقةً، لوجَبَ أنْ لا يكون حَدٌّ في شيءٍ، مخالفاً حداً في غيرهِ، ولا عقابٌ في الآخرةِ، أغلظ من عقابٍ.

وذلك خلاف ماجاء به مُحْكَمُ الفرقان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾

يقول عَزَّ وجَلَّ: والله منيعٌ في سلطانه، لا يقهره قاهرٌ، ولا يمنعه من الانتقـام ممن انتقم منه، ولا من عقوبةِ مَنْ أراد عقوبته، مانعٌ. لأنَّ الخَلْقَ خلقه، والأمرَ أمره، له العزة والمَنَعة.

وأما قوله: «ذو انتقام»، فإنه يعني به معاقبتَه لِمَنْ عَصَاهُ على معصيته إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: «أُحِلَّ لكم»، أيها المؤمنون، «صيدُ البحر» ـ وهو ماصِيدَ طريًّا.

وعَنَى بـ «البحر»، في هذا الموضع، الأنهار كلها. والعربُ تسمي الأنهار «بحاراً»، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

فتأويل الكلام: أُحِلَّ لكم، أيها المؤمنون، طريّ سمك الأنهار الذي صدتُموه في حالِ حِلِّكُم وحَرَمِكم، وما لم تصيدوه من طعامه الذي قتله ثم رَمى به إلى ساحله.

واختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «وطعامه».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك: ماقذف به إلى ساحله ميتاً، نحو الذي قلنا في ذلك.

وقال آخرون: عَنَى بقوله: «وطعامه»، المليح من السمك، فيكون تأويلُ

الكلام على ذلك من تأويلهم: أحل لكم سمك البحر ومَليحه في كُلِّ حالٍ، في حالِ إحلالِكم وإحرامِكم.

وقال آخرون: «طعامه»، مافيه.

وأوْلى هذه الأقـوالِ بالصواب عندنا، قولُ مَنْ قال: «طعامه»، ماقذفه البحر، أوحَسَر عنه فوُجِدَ ميتاً على ساحله. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه ذكر قبله صيدَ الذي يصاد، فقال: «أُحِلَّ لكم صيد البحر»، فالذي يجبُ أن يعطف عليه في المفهـوم مالم يُصَدْ منه، فقال: أُحِلَّ لكم ماصدتموه من البحر، وما لم تصيدوه منه.

وأما «المليح»، فإنه ما كان منه مُلِّح بعد الاصطيادِ، فقد دخل في جملة قوله: «أُحِلَّ لكم صيدُ البحر»، فلا وجه لتكريره، إذْ لا فائدةَ فيه، وقد أعلم عبادَه تعالى ذِكْرُه: إحلالَه ماصِيدَ من البحر بقوله: «أُحِلَّ لكم صيد البحر». فلا فائدةَ أنْ يقالَ لهم بعد ذلك: «ومليحه الذي صِيْدَ حلالٌ لكم»، لأنَّ ماصِيدَ منه فقد بُيِّن تحليلُه، طريًّا كان أو مليحاً، بقوله: «أُحل لكم صيدُ البحر» والله يتعالى عن أنْ يخاطِبَ عبادَهُ بما لا يفيدهم به فائدة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «متاعاً لكم»، منفعةً لمن كان منكم مقيماً أو حاضراً في بلده، يستمتعُ بأكله وينتفع به. «وللسيارة»، يقول: ومنفعةً أيضاً ومتعةً للسائرين من أرضٍ إلى أرض، ومسافرينَ يتزوَّدُونَهُ في سفرهم مليحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَادُمْتُمْ حُرُمًا

يعني تعالى ذِكْرُه: وحَرَّمَ الله عليكم، أيها المؤمنونَ، صيدَ البَرِّ. «مادمتم

حرماً»، يقول: ماكنتم مُحْرِمينَ، لم تحِلُّوا من إحرامكم.

ثم اختلف أهـلُ العلم في المعنى الذي عَنى الله تعالى ذِكْرُه بقوله: «وحُرِّم عليكم صيدُ البر».

فقـال بعضهم: عَنَى بذلـك أنـه حرَّم علينا كل معاني صيد البر: من اصطياد، وأكلٍ، وقتلٍ، وبيعٍ، وشراء، وإمساكٍ، وتملُّك.

وقال آخرون: إنما عَنَى الله تعالى ذِكْرُه بقوله: «وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرمـاً»، ما استحـدَث المحـرم صيدَه في حال إحـرامهِ أو ذبحهِ، أو استُحْدِث له ذلك في تلك الحال. فأما ماذَبْحُه حلالٌ وللحلالِ، فلا بأسَ بأكلهِ للمُحْرِم. وكذلك ما كان في ملْكِه قبل حال إحرامه، فغير مُحَرَّمٍ عليه إمساكه.

وقال آخرون: إنما عَنَى اللهُ تعالى بقوله: «وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرماً»، وحرم عليكم اصطياده. قالوا: فأما شراؤه من مالكٍ يملكه وذبحه وأكله، بعد أن يكون مِلكه إياهُ على غيرِ وجهِ الاصطيادِ له، وبيعه وشراؤه جائزٌ. قالوا: والنهيُ من الله تعالى ذِكْرُه، عن صيدِهِ في حالِ الإحرامِ دونَ سائرِ المعاني.

والصوابُ في ذلك من القولِ عندنا أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه، عَمَّ تحريمَ كُلِّ معاني صيد البرِّ على المحرم في حال إحرامه، من غير أن يخصَّ من ذلك شيئاً دونَ شيء. فكلُّ معاني الصيدِ حرامٌ على المُحْرِمِ مادامَ حراماً، بيعُه وشراؤُه واصطيادُه وقتله، وغير ذلك من معانيه، إلاّ أنْ يجده مذبوحاً قد ذبحه حلال لحلال، فيحلُّ له حينئذٍ أكله.

واختلفوا في صفة الصيدِ الذي عَنَى الله تعالى بالتحريمِ في قوله: «وحُرِّمَ عليكم صيدُ البر مادمتم حرماً».

فقال بعضهم: «صيد البر»، كُلُّ ما كان يعيش في البَرِّ والبحر، وإنما «صيد البحر»، ما كان يعيشُ في الماء دون البَرِّ ويأوي إليه.

وقال بعضهم: صيد البر ما كان كونه في البرّ أكثر من كونه في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وهذا تقدُّمٌ من الله تعالى ذِكْرُه إلى خَلْقِه بالحَذَرِ من عقابِه على معاصيه.

يقول تعالى ذِكْرُه: واخشوا الله، أيها الناسُ، واحذروه بطاعتِه فيما أمركم به من فرائضِه، وفيما نهاكم عنه في هذهِ الآياتِ التي أنزلها على نبيكم ﷺ، من النهي عن الخمرِ والميسرِ والأنصابِ والأزلام، وعن إصابةِ صيدِ البرِّ وقتلهِ في حال إحرامكم وفي غيرها، فإنَّ لله مصيرَكم ومرجعَكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياهُ، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: صَيَّرَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرام قواماً للناسِ الذين لا قِوَام لهم من رئيسٍ يحجزُ قَوِيُّهُم عن ضَعِيفهم، ومُسِيئُهُمْ عن محسنهم، وظالمهم عن مظلومهم. «والشهر الحرام والهدي والقلائد»، فحجز بكلِّ واحدٍ من ذلك بعضهم عن بعض، إذْ لم يكن لهم قيامٌ غيره، وجعلها معالمَ لدينهم، ومصالح أمورهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، تصييرَه الكعبةَ البيتَ الحرام قياماً للناسِ والشهرَ الحرام والهديَ والقلائد. يقول تعالى ذِكْرُه: صيرتُ لكم، أيها الناسُ، ذلك قياماً، كي تعلموا أنَّ مَنْ أحدثَ لكم لمصالحِ دُنياكم ما أحدثَ، مِمَّا به قوامكم، علماً منه بمنافِعكم ومضارِّكُم، أنه كذلك يعلمُ جميعَ ما في السمواتِ وما في الأرضِ مما فيه صلاحُ عاجِلِكم وآجِلكم، ولتعلَمُوا أنه بكلِّ شيءٍ «عليم»، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أمورِكم وأعمالكم، وهو مُحْصِيها عليكم، حتى يجازي المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ منكم بإساءته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: اعلموا، أيها النّاسُ، أنَّ ربكم الذي يعلمُ مافي السمواتِ وما في الأرضِ، ولا يَخْفَى عليه شيءٌ من سرائرِ أعمالكم وعلانيتها، وهو يُحْصِيها عليكم ليجازيكم بها، شديد عقابُه [على] من عصاه وتمرَّد عليه، على معصيته إياه ـ وهو غفورٌ لذنوبِ مَنْ أطاعه وأنابَ إليه، فساترٌ عليه، وتاركٌ فضيحته بها ـ رحيمٌ به أن يعاقبه على ماسَلَفَ من ذنوبه بعد إنابتِهِ وتوبته منها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه تهديدٌ لعبادِه ووعيدٌ. يقول تعالى ذِكْرُه: ليس على رسولنا الذي أرسلناهُ إليكم، أيها النّاسُ، بإنذارِكم عقابَنا بين يدي عذابٍ شديد، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حُجَجِكُم ـ إلّا أن يؤدي إليكم رسالتنا، ثم إلينا الثوابُ على الطاعة، وعلينا العقابُ على المعصية. «والله يعلم ماتُبْدُونَ

وما تَكتمون»، يقول: وغيرُ خفيٍّ علينا المطيعُ منكم، القابلُ رسالَتنا، العاملُ بمـا أمـرته بالعمل به ـ من المُعَاصي الآبي رسالَتنا، التاركُ العمل بما أمرتُه بالعمل به، لأنّا نعلمُ ماعمله العاملُ منكم فأظهره بجوارحه ونطق به بلسانه. «وما تكتمون»، يعني: وما تُخْفُونَهُ في أنفسكم من إيمانٍ وكفر، أو يقينٍ وشك ونفاق.

يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ كان كذلك، لا يَخْفَى عليه شيءٌ من ضمائرِ الصـدور، وظواهر أعمال النفوس، مما في السمواتِ وما في الأرض، وبيده الثوابُ والعقاب ـ فحقيق أن يُتَّقى، وأن يطاع فلا يُعْصَى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ، قُلْ يامحمدُ: لا يعتدلُ الرديءُ والجيدُ، والصالحُ والطالح، والمطيعُ والعاصي. «ولو أعجبكَ كثرةُ الخبيث»، يقول: لا يعتدل العاصي والمطيعُ للهِ عند اللهِ، ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم، لأنَّ أهلَ طاعةِ الله هم المفلحونَ الفائزونَ بثوابِ الله يومَ القيامةِ وإنْ قَلُّوا، دونَ أهلِ معصيته ـ وإنَّ أهلَ معاصيهِ هم الأخسرونَ الخائبون وإنْ كثروا.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: فلا تَعْجَبَنَّ من كثرةِ مَنْ يعصِي الله فيُمْهِلهُ ولا يعاجِلهُ بالعقوبةِ، فإنَّ العُقْبَى الصالحة لأهلِ طاعةِ الله عنده دونهم.

وهذا الكلام وإنْ كان مخرجه مخرجَ الخطابِ لرسولِ الله ﷺ، فالمراد به بعض أتباعه، يدلُّ على ذلك قوله: «فاتَّقُوا الله ياأولي الألبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واتقوا الله بطاعتِهِ فيما أمركم ونهاكم، واحذُروا أنْ يستحوذَ عليكم الشيطانُ بإعجابِكم كثرة الخبيث، فتصيروا منهم. «ياأولي الألباب»، يعني بذلك أهلَ العقولِ والحِجى الذين عَقلُوا عن اللهِ آياته، وعرفوا مواقعَ حُجَجِه. «لعلكم تفلحون»، يقول: اتقوا الله لِتُفْلِحُوا، أي: كي تَنْجَحُوا في طلبكم ماعنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾

ذُكِرَ أنَّ هذه الآية أُنزلتْ على رسولِ الله ﷺ بسببِ مسائلَ كان يسألها إياه أقوامٌ، امتحاناً له أحياناً، واستهزاءً أحياناً. فيقولُ له بعضُهم: «مَنْ أبي»؟ ويقول له بعضُهم إذا ضَلَّتْ ناقتهُ: «أين ناقتي؟ فقال لهم تعالى ذِكْرُه: لا تسألوا عن أشياءَ من ذلـك كمسـألـة عبدالله بن حُذافة إياه مَنْ أبوه[1] «إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ»، يقول: إنْ أبدينا لكم حقيقةَ ما تسألونَ عنه، ساءكم إبداؤُها وإظهارها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ۝١٠١﴾

---

(١) انظر البخاري (٤٦٢١) و(٤٦٢٢)، ومسلم (٢٣٥٩)، وراجع تهذيب الكمال: ٤١٢/١٤.

يقول تعالى ذِكْرُه لِلَّذينَ نَهاهم من أصحابِ رسولِ الله ﷺ عن مسألةِ رسولِ الله ﷺ عَمَّا نَهاهم عن مسألتهم إياهُ عنه، من فرائضَ لم يفرضها الله عليهم، وتحليل أمورٍ لم يحلّلها لهم، وتحريم أشياء لم يحرِّمها عليهم قبلَ نزولِ القرآنِ بذلك: أيها المؤمنونَ السائلون عما سألوا عنه رسولي مما لم أُنَزِّلْ به كتاباً ولا وحياً، لا تسألوا عنه، فإنكم إنْ أظهرَ ذلك لكم تبيانٌ بوحيٍ وتنزيل ساءكم لأنَّ التنزيلَ بذلك إذا جاءكم إنما يجيئكم بما فيه امتحانُكم واختباركم، إما بإيجابِ عملٍ عليكم ولزومِ فرضٍ لكم، وفي ذلك عليكم مَشَقَّةٌ ولزومُ مؤونةٍ وكلفة ـ وإما بتحريم ما لو لم يأتكم بتحريمهِ وحيٌ، كنتم من التقدمِ عليه في فُسْحةٍ وسعَة ـ وإما بتحليلِ ماتعتقدون تحريمَهُ، وفي ذلك لكم مساءةٌ لنقلكم عما كنتم ترونه حقًّا إلى ماكنتم ترونَهُ باطلاً، ولكنكم إنْ سألتم عنها بعد نزولِ القرآنِ بها، وبعد ابتدائِكم ببيانِ أمرها في كتابي إلى رسولي إليكم، ليسَّرَ عليكم ما أنزلتهُ إليه من بيانِ كتابي، وتأويل تنزيلي ووحيي.

وأما قوله: «عفا الله عنها»، فإنه يعني به: عَفَا اللهُ لكم عن مسألتكم عن الأشياءِ التي سألتم عنها رسولَ الله ﷺ، الذي كَرِه الله لكم مسألتكم إياهُ عنها إنْ يؤاخـذَكُمْ بها، أو يعاقِبَكُمْ عليها، إذْ عرف منها توبتكم وإنابتكم. «والله غفورٌ»، يقول: والله ساترٌ ذنوبَ مَنْ تابَ منها، فتاركٌ أنْ يفضحَهُ في الآخرة. «حليم» ذُو أنَـاةٍ عن أنْ يعـاقبه بها، لِتَغَمُّدِهِ التائبَ منها برحمتهِ، وعفوه عن عقوبته عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْره: قد سألَ الآيات قومٌ من قَبْلِكم، فلما آتاهمُوها الله

أصبحوا بها جاحدينَ، مُنْكِرينَ أنْ تكونَ دلالةً على حقيقة ما احتُجَّ بها عليهم، وبرهاناً على صِحَّةِ ماجُعلت برهاناً على تصحيحه ـ كقومِ صالح الذين سألوا الآيَةَ، فلما جاءتهمُ الناقةُ آيةً عَقَرُوهَا ـ وكالذين سألوا عيسى مائدةً تنزلُ عليهم من السماء، فلما أُعْطُوها كَفَرُوا بها، وما أشبه ذلك.

فَحَذَّرَ الله تعالى المؤمنين بنبيه ﷺ أنْ يسلكوا سبيلَ مَنْ قَبْلَهُمْ من الأممِ التي هَلكتْ بكفرهم بآياتِ الله لما جاءتهم عند مَسْأَلَتِهُموها، فقال لهم: لاتسألوا الآيات، ولا تبحثوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ، فقد سأَلَ الآياتِ مِنْ قبلكم قومٌ، فلما أُوتُوها أصبحوا بها كافرينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَاجَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ

يقول تعالى ذِكْرُه: ما بَحَرَ اللهُ بحيرةً، ولا سيَّبَ سائبةً، ولا وَصَلَ وصيلةً، ولا حَمَى حامياً ولكنكم الذين فعلتم ذلك، أيها الكفرةُ، فحرَّمتُموه افتراءً على ربكم.

و«البحيرة» «الفعيلة» من قولِ القائل: «بَحَرْت أُذنَ هذه الناقةِ»، إذا شَقَّها، «أبحرُها بحراً»، والناقة «مبحورة».

وأما «السائبة»، فإنها المُسَيَّبة المُخَلَّاة. وكانت الجاهلية يفعل ذلك أحدُهم ببعضِ مواشيهِ، فيحرِّمُ الانتفاعَ به على نفسه، كما كان بعضُ أهلِ الإسلام يعتق عبدَهُ سائبةً، فلا ينتفعُ به ولا بولائه.

وأما «الوصيلة»، فإنَّ الأنثى من نَعَمهم في الجاهلية كانت إذا أَتْأَمَتْ بطناً بذكرٍ وأنثى، قيل: «قد وصلت الأنثى أخاها»، بدفعِهَا عنه الذَّبْحَ، فَسَمَّوْهَا «وَصيلة».

وأما «الحامي»، فإنه الفحل من النَّعَمِ يُحْمَى ظهرُه من الركوبِ والانتفاع، بسبب تتابُعِ أولادٍ تحدُث من فِحْلته.

وهذه أمورٌ كانت في الجاهلية فأبطلها الإسلامُ، فلا نعرف قوماً يعملون بها اليوم.

فإذْ كان ذلك كذلك ـ وكانَ ما كانت الجاهليةُ تعملُ به لا يوصلُ إلى علمه ـ إذْ لم يكن له في الإسلام اليومَ أثرٌ، ولا في الشرك، نعرفه ـ إلا بخبر، وكانت الأخبارُ عَمَّا كانوا يفعلون من ذلك مختلفة، فالصوابُ من القولِ في ذلك أن يقال: أما معاني هذه الأسماء فما بَيَّنَّا في ابتداءِ القولِ في تأويلِ هذه الآية، وأما كيفيةُ عملِ القوم في ذلك، فما لا عِلْمَ لنا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

إنَّ المَعْنِيِّينَ بقوله: «ولكن الذينَ كفروا يفترونَ على الله الكذبَ»، الذين بحروا البحائرَ، وسَيَّبُوا السوائبَ، ووصلوا الوصائلَ، وحموا الحوامي، مثل عمرو ابن لحي وأشكالِهِ مِمَّنْ سَنَّ لأهلِ الشرك السننَ الرديئةَ، وغيَّرَ دِينَ الله دِينَ الحقِّ، وأضافوا إلى الله تعالى ذِكْرُه: أنه هو الذي حَرَّمَ ماحَرَّمُوا، وأحلَّ ما أَحَلُّوا، افتراءً على الله الكذبَ وهم يعلمون، واختلاقاً عليه الإفكَ وهم يفهمون، فَكَذَّبهم اللهُ تعالى ذِكْرُه في قِيلهم ذلك، وإضافتهم إليه ما أضافوا من تحليلِ ما أَحَلُّوا وتحريمِ ماحَرَّمُوا، فقال تعالى ذِكْرُه: ماجعلتُ من بحيرةٍ ولا سائبةٍ، ولكن الكُفَّارَ هم الذين يفعلونَ ذلك، ويفترونَ على الله الكذب.

وإنَّ المعنيين بقوله: «وأكثرهم لا يعقلون»، هُمْ أتباعُ مَنْ سَنَّ لهم هذه

السُّنَنَ من جَهَلَةِ المشركين، فهم لا شك أنهم أكثر من الذين سَنُّوا ذلك لهم، فوصفَهُم الله تعالى بأنهم لا يعقلون، لأنهم لم يكونوا يعقلون أنَّ الذين سنوا لهم تلك السننَ وأخبروهم أنها من عندِ الله، كَذَبةٌ في أخبارهم، أفَكَةٌ، بل ظنوا أنهم فيما يقولون مُحِقُّون، وفي أخبارهم صادقون. وإنما معنى الكلام: وأكثرهم لا يعقلون أنَّ ذلك التحريم الذي حرَّمه هؤلاء المشركون وأضافوه إلى الله تعالى ذِكْرُه كذب وباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا قِيلَ لهؤلاء الذين يبحرون البحائرَ ويُسَيِّبونَ السوائبَ؟ الذين لا يعقلون أنهم بإضافتهم تحريمَ ذلك إلى الله تعالى ذِكْرُه يفترونَ على الله الكَذِبَ: تعالوا إلى تنزيلِ الله وآيِ كتابِهِ وإلى رسولِهِ، ليتبيَّنَ لكم كَذِبُ قِيلكم فيما تُضِيفُونَهُ إلى الله تعالى ذِكْرُه من تحريمكم ما تُحَرِّمونَ من هذهِ الأشياء ـ أجابوا مَنْ دَعَاهم إلى ذلك بأنْ يقولوا: حَسْبُنَا ماوجدنا عليه مَنْ قَبْلَنَا آباءنَا يعملون به، ويقولون: «نحنُ لهم تَبَعٌ وهم لنا أئمةٌ وقادة، قد اكتفينا بما أخذنا عنهم، ورضينا بما كانوا عليه من تحريمٍ وتحليل»، قال الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: أَوَ لَوْ كان آباءنا هؤلاء القائلينَ هذه المقالة لا يعلمونَ شيئاً؟ يقول: لم يكونوا يعلمون أنَّ مايُضيفونه إلى الله تعالى ذِكْرُه من تحريمِ البحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامِ، كذبٌ وفريةٌ على الله، لا حقيقة لذلك ولا صحة، لأنهم كانوا أتباعَ المفترينَ الذين ابتدأوا تحريمَ ذلك، افتراءً على الله بقِيلِهم ماكانوا يقولون من إضافَتِهم إلى الله تعالى ذِكْرُه مايُضِيفُونَ ـ

ولا كانوا فيما هُمْ به عاملونَ من ذلك على استقامةٍ وصواب، بل كانوا على ضلالة وخطأ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يا أيها الذينَ آمنوا عليكم أَنْفُسَكُمْ فأصلِحُوهَا، واعملوا في خلاصِهَا من عقابِ الله تعالى ذِكْرُه، وانظروا لها فيما يُقرِّبُهَا من رَبِّها. فإنه «لايضركم مَنْ ضَلَّ»، يقول: لا يضركم مَنْ كفر وسلك غيرَ سبيلِ الحق، إذا أنتم اهتديتم وآمنتم بربكم، وأطعتموه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فحرمتم حرامَهُ وحَلَّلْتُمْ حلالَهُ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم معناه: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، إذا أمرتُم بالمعروفِ ونهيتم عن المنكرِ فلم يُقبل منكم.

وقال آخرون: معنى ذلك أنَّ العبدَ إذا عملَ بطاعةِ الله لم يضره مَنْ ضَلَّ بعده وهلك.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، فاعملوا بطاعةِ الله. «لا يضركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم»، فأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر.

وقال آخرون: بل معنى هذه الآية: لا يَضُرُّكُمْ مَنْ حَادَ عن قَصْدِ السبيلِ وكَفَرَ بالله من أهلِ الكتاب.

وقال آخرون: عَنَى بذلك كُلَّ مَنْ ضَلَّ عن دِينِ الله الحق.

وأَوْلى هذه الأقوالِ وأصحّ التأويلات عندنا بتأويلِ هذه الآية، مارُويَ عن أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه فيها، وهو: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، الزَمُوا العملَ بطاعةِ الله وبما أمركم به، وانتهوا عما نَهاكُمْ الله عنه. «لا يضركم مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتم»، يقول: فإنه لا يضركم ضلالُ مَنْ ضَلَّ إذا أنتم لَزِمْتُم العملَ بطاعةِ الله، وأدّيتم فيمن ضَلَّ من الناسِ ما ألزمكم اللهُ به فيه، من فرض الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يركبه أو يحاول ركوبه، والأخذ على يديه إذا رامَ ظُلْماً لمسلمٍ أو مُعَاهَدٍ ومنعه منه فأبى النزوعَ عن ذلك، ولا ضيرَ عليكم في تماديه في غيِّه وضلاله، إذا أنتم اهتديتم وأدَّيتم حَقَّ الله تعالى ذِكْرُه فيه.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات في ذلك بالصواب، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمرَ المؤمنين أنْ يقوموا بالقسطِ، ويتعاونوا على البر والتقوى. ومن القيامِ بالقسط، الأخذُ على يدي الظالم. ومن التعاونِ على البر والتقوى، الأمرُ بالمعروف. وهذا مع ما تظاهرتْ به الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ من أمرِهِ بالأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر. ولو كان للناسِ تركُ ذلك، لم يكن للأمرِ به معنىً، إلا في الحالِ التي رخَّص فيه رسولُ الله ﷺ تركَ ذلك، وهي حالُ العجز عن القيامِ به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخصاً له تركه، إذا قام حينئذٍ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه.

وإذا كان ماوصفنا من التأويلِ بالآية أولى، فبيِّنٌ أنه قد دخل في معنى قوله: «إذا اهتديتم»، ما قاله (بعضهم) من أنَّ ذلك: «إذا أمرتم بالمعروفِ ونهيتم عن المنكر».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به من عبادِه: اعملوا، أيها المؤمنون، بما أمرتُكم به، وانتهوا عما نَهيتُكم عنه، ومُرُوا أهلَ الزَّيغِ والضلالِ ومَنْ حاد عن سبيلي بالمعروف، وانهوهم عن المنكر. فإنْ قبلوا، فلهم ولكم، وإنْ تمادَوْا في غيِّهم وضلالهم، فإنَّ إليَّ مرجع جميعكم ومصيركم في الآخرة ومصيرهم، وأنا العالمُ بما يعملُ جميعُكم من خيرٍ وشر، فأخبرُ هناك كُلَّ فريقٍ منكم بما كان يعملُه في الـدنيا، ثم أُجـازِيه على عملِه الـذي قَدِمَ به عليَّ جزاءه حَسبَ استحقاقِه، فإنه لا يخفى عليَّ عملُ عاملٍ منكم من ذكرٍ أو أنثى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به: «يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينِكم»، يقول: ليشهد بينكم. «إذا حضرَ أحدَكُمُ الموتُ حين الوصيةِ»، يقول: وقت الوصية. «اثنان ذوا عَدْلٍ منكم»، يقول: ذوا رشْدٍ وعقلٍ وحجىً من المسلمين.

واختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «ذوا عدلٍ منكم».

فقال بعضهم: عَنَى به: من أهلِ مِلَّتكم.

وقال آخرون: عَنَى بذلك: ذوا عدلٍ من حَيِّ الموصِي.

واخْتلفوا في صفة «الاثنين» اللَّذَيْن ذكرهما اللهُ في هذه الآية، ماهيَ، وما هما؟

فقال بعضهم: هما شاهدانِ يشهدانِ على وصيةِ الموصي.

وقال آخرون: هما وصيَّان.

وتأويل الذين زعموا أنهما شاهدان. قولَه: «شهادةُ بينكم»، ليشهدْ شاهدانِ ذوا عَدْلٍ منكم على وصيتكم.

وتأويل الذين قالوا: «هما وصيان لا شاهدان» قولَه: «شهادة بينكم»، بمعنى الحضور والشهود لما يُوصِيهما به المريضُ، من قولك: «شهدتُ وصيةَ فلان»، بمعنى حَضَرْتُه.

وأوْلى التأويلين بقوله: «اثنان ذوا عدل منكم»، تأويلُ مَنْ تأوَّلَهُ بمعنى أنهما من أهلِ الملة، دونَ مَنْ تأوَّلَهُ أنهما من حَيٍّ الموصي.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، عَمَّ المؤمنينَ بخطابهم بذلك في قوله: «يا أيها الذين آمنوا شهادةُ بينِكم إذا حضرَ أحدكمُ الموتُ حين الوصيةِ اثنان ذوا عَدْلٍ منكم» فغيرُ جائزٍ أنْ يصرفَ ماعَمَّهُ اللهُ تعالى ذِكْرُه إلى الخصوصِ إلا بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها. وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكونَ العائدُ من ذكره على العموم، كما كان ذكرهم ابتداءً على العموم.

وأوْلى المعنيين بقوله: «شهادةُ بينكم» اليمينُ، لا «الشهادة» التي يقومُ بها مَنْ عنده شهادة لغيره، لمن هي عنده، على مَن هي عليه عند الحكام. لأنَّا لا نعلمُ للهِ تعالى ذِكْرُه حُكْماً يجبُ فيه على الشاهدِ اليمينُ، فيكون جائزاً صرفُ «الشهادة» في هذا الموضع، إلى «الشهادة» التي يقومُ بها بعضُ الناس عندَ الحكامِ والأئمة.

وفي حكم الآية في هذه، اليمينَ على ذوي العدلِ ـ وعلى مَنْ قام مقامهم، باليمينِ بقوله: «تَحْبِسُونَهما من بعدِ الصلاةِ فيقسمانِ بالله» ـ أوضحُ الدليلِ على صِحَّةِ ماقُلْنا في ذلك، من أنَّ «الشهادة» فيه: الأيمان، دونَ الشهادةِ التي يُقْضَى بها للمشهودِ له على المشهودِ عليه ـ وفسادِ ما خالفه.

فإنْ قال قائلٌ: فهل وجدتَ في حكم الله تعالى ذِكْرُه يميناً تجبُ على المدَّعى، فتوجه قولكَ في الشهادة في هذا الموضع إلى الصحة؟

فإن قلتَ: «لا»، تَبيَّنَ فسادُ تأويلكَ ذلك على ما تأوَّلتَ، لأنه يجب على هذا التأويل أن يكون المقسمان في قوله: «فإنْ عُثِرَ على أنهما استحقا إثماً فآخرانِ يقومان مقامهما من الذين استحقَّ عليهم الأوْلَيان فيقسمانِ بالله لشهادَتُنَا أحقُّ من شهادتهما»، هما المدعيين.

وإنْ قلت: «بلى»، قِيلَ لك: وفي أيِّ حُكْمٍ لله تعالى ذِكْرُه وجدتَ ذلك؟

قيل: وجدنا ذلك في أكثر المعاني. وذلك في حكم الرجلِ يدَّعي قِبلَ رجلٍ مالاً فيقرّ به المُدَّعَى عليه قبَله ذلك، ويدّعي قضاءه. فيكون القولُ قول ربِّ الدَّيْنِ ـ والرجل يعرّف في يد الرجلِ السلعةَ، فيزعم المعرّف في يده أنه اشتراها من المُدَّعِي، أو أنَّ المدعي وَهَبَها له، وما أشبه ذلك مما يكثر إحصاؤه. وعلى هذا الوجه أوجبَ الله تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع اليمين على المدعيين اللذين عثرا على الخائنين فيما خانا فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين: ليشهد بينكم إذا حَضَرَ أحدكُمُ الموتُ، عَدْلانِ من المسلمين، أو آخرانِ من غيرِ المسلمين.

وقد اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «أو آخران من غيرِكم».

فقال بعضهم: معناه: أو آخرانِ من غيرِ أهلِ مِلَّتِكم، نحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أو آخرانِ من غير حَيِّكُم وعَشِيرتكم.

وأولى التأويلين في ذلك عندنا بالصواب، تأويلُ مَنْ تأوّله: أو آخرانِ من غيرِ أهـلِ الإسلام. وذلك أنَّ الله تعالى عرَّف عبادَهُ المؤمنينَ عند الوصيةِ، شهادة اثنين من عدولِ المؤمنين، أو اثنين من غيرِ المؤمنينَ. ولا وجهَ لأنْ يُقالَ في الكـلام صِفة شهادةِ مؤمِنَيْنِ منكم، أو رَجُلَيْنِ من غيرِ عشيرتِكم، وإنما يقال: صفةُ شهادةِ رجلين من عشيرتِكم أو من غير عشيرتِكم - أو رجلينِ من المؤمنينَ أو من غيرِ المؤمنين.

فإذْ كان لا وجـهَ لذلك في الكلام، فغيرُ جائزٍ صرفُ معنى كلامِ الله تعالى ذِكْرُه إلا إلى أحسنِ وجوهِهِ.

وقد دللنا قَبْلُ على أنَّ قوله تعالى: «ذوا عدلٍ منكم»، إنما هو من أهلِ دِينكم وملتكم، بما فيه كفايةٌ لمن وُفِّقَ لفهمه.

وإذ صَحَّ ذلـك بما دللنا عليه، فمعلومٌ أن معنى قوله: «أو آخران من غيركم»، إنمـا هو: أو آخـرانِ من غيرِ أهـلِ دِينكم وملتكم. وإذْ كان ذلك كذلك، فسواء كان الآخرانِ اللذان من غيرِ أهلِ ديننا، يهوديينِ كانا أو نصرانيين أو مجوسيين أو عابَدي وثَنٍ، أو على أيِّ دِينٍ كانا. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه لم يخصص آخرين من أهلِ ملةٍ بعينها دونَ ملة، بعد أنْ يكونا من غيرِ أهلِ الإسلام.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

يقول تعالى ذكره للمؤمنين: صِفةُ شهادةِ بينكم إذا حضر أحدكمُ الموتُ

وقتَ الوصية، أنْ يشهدَ اثنانِ ذوا عدلٍ منكم، أيها المؤمنونَ، أو رجلانِ آخران من غيرِ أهلِ ملتكم، إنْ أنتم سافرتم ذاهبينَ وراجعينَ في الأرض.

«فأصابتكم مصيبةُ الموت»، يقول: فنزلَ بكم الموتُ.

ووجَّه أكثرُ أهلِ التأويلِ هذا الموضع إلى معنى التعقيبِ دون التخيير، وقالوا: معناه: شهادةُ بينِكم إذا حضرَ أحدَكُم الموتُ حين الوصية، اثنان ذوا عدلٍ منكم إنْ وُجِدَا، فإنْ لم يُوجَدَا فآخرانِ من غيركم ـ وإنما فعلَ ذلك مَنْ فَعَلَهُ، لأنه وجَّه معنى «الشهادة» في قوله: «شهادة بينكم»، إلى معنى الشهادة التي تُوجِبُ للقوم قيامَ صاحبها عند الحاكم، أو يُبطلها.

ووجَّه ذلك آخرون إلى معنى التخيير، وقالوا: إنما عَنَى بالشهادة في هذا الموضع، الأيمانَ على الوصية التي أوصى إليهما، وائتمانَ الميتِ إياهما على ما ائتَمَنَهُمَا عليه من مالٍ ليؤدِّياهُ إلى ورثته بعد وفاته، إنْ ارتيبَ بهما. قالوا: وقد يَتَّمِنُ الرجلُ على مالهِ مَنْ رآه موضعاً للأمانةِ من مؤمنٍ وكافرٍ في السفر والحضر. وقد ذكرنا الروايةَ عن بعضِ مَنْ قال هذا القولَ فيما مضى، وسنذكر بقيته إن شاء الله تعالى بعد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنين به وبرسوله: شهادة بينكم إذا حضرَ أحدكمُ الموتُ، إنْ شهد اثنان ذوا عَدْلٍ منكم، أو كان أوصى إليهما ـ أو آخران من غيركم إن كنتم في سفرٍ فحضرَتْكُم المنيَّةُ، فأوصيتم إليهما، ودفعتم إليهما ما كانَ معكم من مالٍ وتركةٍ لورثتكم. فإذا أنتم أوصيتم إليهما ودفعتم إليهما ما كان معكم من مالٍ، فأصابتكم مصيبةُ الموت، فأدَّيه إلى وَرَثِتِكُم ما أتَمَنْتُموهما

وادَّعوا عليهما خيانةً خاناها ما اتُّمِنَا عليه، فإنَّ الحكم فيهما حينئذٍ أنْ تحبسوهما. ـ يقول: تستوقفونهما بعد الصلاة. وفي الكلام محذوف اجتزىء بدلالة ماظهرَ منه على ماحذف، وهو: «فأصابتكم مصيبةُ الموتِ، وقد أسندتم وَصِيَّتكم إليهما، ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال»، فإنكم تحبسونهما من بعدِ الصلاة. فيقسمانِ بالله إن ارتبتم»، يقول: فيحلفانِ باللهِ إن اتَّهَمْتُموهما بخيانة فيما اثْتُمِنَّا عليه من تغييرِ وصية أوصى إليهما بها أو تبديلها، و«الارتيابُ»، هو الاتهامُ. «لا نشتري به ثمناً»، يقول: يحلفانِ بالله لا نشتري بأيماننا بالله ثمناً، يقول: لا نحلفُ كاذبينَ على عِوَضٍ نأخذهُ عليه، وعلى مالٍ نذهبُ به، أو لحقٍّ نجحده لهؤلاء القومِ الذين أوصى إلينا وَلِيُّهم وميِّتهم.

«ولو كان ذا قربى»، يقول: يقسمانِ بالله لا نطلبُ بأقسامنا بالله عِوَضاً فنكذب فيها لأحدٍ، ولو كان الذي نقسم به له ذا قرابةٍ منا.

واختلفوا في «الصلاة» التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية، فقال: «تحبسونهما من بعد الصلاة».

فقال بعضهم: هي صلاة العصر.

وقال آخرون: بل يستحلفان بعد صلاةِ أهلِ دِينهما وملتهما.

وأوْلى القولين في ذلك بالصوابِ عندنا، قولُ مَنْ قال: «تحبسونهما من بعد صلاة العصر». لأنَّ الله تعالى عرَّف «الصلاة» في هذا الموضع بإدخال «الألف واللام» فيها، ولا تدخلهما العربُ إلّا في معروف، إما في جنس، أو في واحدٍ معهودٍ معروفٍ عند المتخاطبين. فإذ كان كذلك، وكانت «الصلاة» في هذا الموضع مُجمعاً على أنه لم يُعْنَ بها جميع الصلواتِ، لم يَجُزْ أنْ يكونَ مُراداً بها صلاة المستحلَفِ من اليهودِ والنصارى، لأنَّ لهم صلوات ليست واحدة، فيكون معلوماً أنها المعنيَّة بذلك. فإذْ كان ذلك كذلك، صَحَّ أنها صلاةٌ

بعينها من صلواتِ المسلمين. وإذ كان ذلك كذلك، وكان النبي ﷺ صحيحاً عنه أنه إذْ لاعَنَ بين العَجْلانيين، لاعَن بينهما بعد العصرِ دونَ غيره من الصلوات[1] كان معلوماً أنَّ التي عنيت بقوله: «تحبسونهما من بعد الصلاة»، هي الصلاةُ التي كان رسولُ الله ﷺ يتخيَّرها لاستحلافِ مَنْ أراد تغليظَ اليمينِ عليه. هذا ماعندَ أهلِ الكُفر بالله من تعظيم ذلك الوقت، وذلك لقربه من غروب الشمس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ١٠٦﴾

يعني: ولا نكتمُ شهادةَ الله، وإنْ كان (صاحبها) بعيداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فإن عُثِر»، فإن اطُّلعَ منهما أو ظهر.

وأما قوله: «على أنهما استحقا إثماً»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: فإن اطلع من الوصيين اللذين ذكرَ الله أمرهما في هذه الآية ـ بعد حَلْفِهِمَا باللهِ لا نشتري بأيماننا ثمناً ولو كان ذا قُربى، ولا نكتمُ شهادةَ الله. «على أنهما استحقا إثماً»، يقول: على أنهما استوجبا بأيمانهما التي حلفا بها إثماً، وذلك أن يطلع على أنهما كانا كاذِبَيْنِ في أيمانِهما بالله ماخُنَّا ولابدَّلْنَا ولا غيَّرْنَا. فإنْ وُجِدَا قد خانا من مالِ الميتِ شيئاً، أو غيَّرا وصيَّتَهُ، أو بدّلا، فأثِمَا بذلك من حَلْفِهما بربهما.

(١) انظر البيهقي: ٧/٣٩٨.

المائدة: ١٠٧

«فآخران يقومان مقامهما»، يقول، يقوم حينئذٍ مقامهما من ورثةِ الميت، الأوليان الموصَى إليهما.

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي له حَكَم اللهُ تعالى ذِكْرُه على الشاهدين بالأيمان فنقلها إلى الآخرين، بعد أنْ عُثِرَ عليهما أنهما استحقا إثماً.

فقال بعضهم: إنما ألزمهما اليمين، إذا ارتيبَ في شهادتهما على الميت في وصيته أنه أوصى بغيرِ الذي يجوزُ في حُكْمِ الإسلام. وذلك أن يشهد أنه أوصى بمالِه كله، أو أوصى أن يُفَضِّلَ بعض ولده ببعض ماله.

وقال آخرون: بل إنما ألزم الشاهدان اليمين، لأنهما ادَّعيا أنه أوصى لهما ببعضِ المال. وإنما ينقل إلى الآخرين من أجلِ ذلك، إذا ارتابوا بدعواهما.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ الشاهدين أُلْزِمَا اليمينَ في ذلك باتهام ورثةِ الميتِ إياهما فيما دَفَعَ إليهما الميتُ من ماله، ودعواهم قِبَلَهُمَا خيانةَ مالٍ معلومِ المبلغ، ونقلت بعد إلى الورثة عند ظهورِ الريبةِ التي كانت من الورثةِ فيهما، وصحة التهمة عليهما بشهادةِ شاهدٍ عليهما أو على أحدهما، فيحلف الوارث حينئذٍ مع شهادةِ الشاهد عليهما، أو على أحدهما، إنما صحح دعواه إذْ حُقِّق حقه - أو: الإقرار يكون من الشهود ببعض ما ادَّعى عليهما الوارثُ أو بجميعه، ثم دعواهما في الذي أقرَّا به من مالِ الميت مالا يقبل فيه دعواهما إلا ببينة، ثم لايكون لهما على دعواهما تلك بيِّنة، فينقل حينئذٍ اليمين إلى أولياء الميت.

وإنما قلنا ذلك أوْلى الأقوالِ في ذلك بالصحة، لأنَّا لا نعلمُ من أحكامِ الإسلام حكماً يجبُ فيه اليمين على الشهود، ارتيبَ بشهادَتِهما أو لم يُرْتَبْ بها، فيكون الحكم في هذه الشهادة نظيراً لذلك - ولا - إذ لم نجد ذلك

كذلك ـ صحَّ بخبرٍ عن الرسولِ ﷺ، ولا بإجماع من الأمة. لأنَّ استحلافَ الشهـودِ في هذا الموضع من حُكْمِ الله تعالى ذِكْرُه، فيكون أصلاً مُسَلَّماً. والقول إذا خرج من أن يكون أصلاً أو نظيراً لأصلٍ فيما تنازعتْ فيه الأمةُ، كان واضحاً فسادُه.

وإذا فَسَدَ هذا القولُ بما ذكرنا، فالقولُ بأن الشاهدين استحلفا من أجل أنهما ادَّعيا على الميتِ وصيةً لهما بمالٍ من ماله، أفسد[1] من أجلِ أنَّ أهلَ العلمِ لا خِلافَ بينهم في أنَّ مِنْ حكم الله تعالى ذِكْرُه أنَّ مُدَّعِياً لو ادَّعى في مالِ ميتٍ وصيةً، أنَّ القولَ قولُ ورثةِ المدعى في ماله الوصية مع أيمانهم، دونَ قولِ مدعي ذلك مع يمينه، وذلك إذا لم يكن للمدعي بينة. وقد جعل الله تعالى اليمينَ في هذه الآيةِ على الشهود إذا ارتيبَ بهما، وإنما نُقِلَ الأيمانُ عنهم إلى أولياءِ الميتِ، إذا عثر على أنَّ الشهودَ استحقوا إثماً في أيمانهم. فمعلومٌ بذلـك فسادُ قولِ مَنْ قال: «ألزم اليمينَ الشهودُ، لدعواهم لأنفسِهم وصيةً أوصى بها لهم الميت من ماله».

على أنَّ ما قلنا في ذلك عن أهلِ التأويلِ هو التأويلُ الذي وردت به الأخبارُ عن بعضِ أصحابِ رسول الله ﷺ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قَضَى به حين نزلت هذه الآية، بين الذي نزلت فيهم وبسببهم[2].

---

(١) يعني: أفسد من القول السابق.

(٢) ساق الطبري حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قصة تميم الداري وعدي بن بَدَّا في الشهادة (١٢٩٦٦) و(١٢٩٦٧) و(١٢٩٦٨) بأسانيد فيها مقال. ورواه البخاري في صحيحه معلقاً (٢٧٨٠)، وفي تاريخه الكبير (١/الترجمة ٦٧٦)، وإنما علقه، والله أعلم، لكون إسناده عنده فيه نظر بسبب محمد بن أبي القاسم الطويل، كما في تهذيب الكمال للمزي: ٣٠٦/٢٦، ورواه أبو داود (٣٦٠٦)، والترمذي (٣٠٦٠) وقال: حسن غريب

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «من الذين استحق عليهم الأوليان».

فقرأ ذلك قَرَأَةُ الحجازِ والعراق والشام: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُحِقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَانِ﴾، بضم «التاء».

وروي عن عليٍّ، وأبيّ بن كعب، والحسن البصري أنهم قرأوا ذلك: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾، بفتح «التاء».

وأَوْلى القراءتين بالصواب في قوله: «من الذين استحق عليهم»، قراءة من قرأ بضم «التـاء»، لإجماعِ الحُجَّةِ من القراءةِ عليه، مع مشايعةِ عامةِ أهلِ التأويلِ على صحة تأويله، وذلك إجماعُ عامتهم على أنَّ تأويله: فآخران من أهلِ الميتِ، الذين استحق المؤتمنان على مالِ الميت الإثم فيهم، يقومان مقام المستحقِّي الإثم فيهما، بخيانتهما ما خانَا من مالِ الميت.

وأحسب أن الذين قرأوا ذلك بفتح «التاء»، أرادوا أنْ يُوجِّهُوا تأويلَه إلى: «فـآخران يقومان مقامهما»، مقامَ المؤتمنين اللذين عُثِر على خيانتهما في القَسم، و«الاستحقاق به عليهما»، دعواهما قِبَلهما ـ من «الذين استحقَّ» على المؤتمنين على المالِ على خيانتهما القيامَ مقامهما في القَسَم والاستحقاق، الأوليان بالميتِ.

وكذلك كانت قراءة من رُويت هذه القراءةُ عنه، فقرأ ذلك: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾ بفتح «التاء» و«الأوليان»، على معنى: الأوليان بالميتِ ومالِهِ.

وذلـك مذهبٌ صحيحٌ، وقـراءةٌ غير مدفـوعـة صحّتهـا، غير أنَّا نختارُ الأخرى، لإجماع الحجةِ من القَرَأَةِ عليها، مع موافقتها التأويلِ الذي ذكرْنا عن الصحابة والتابعين.

وأمـا قولـه: «عليهم» في هذا الموضع، فإنَّ معناها: فيهم، كما قال تعـالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، [البقرة: ١٠٢]، يعني: في ملك سليمـان، وكمـا قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طـه: ٧١]. فـ «في» توضع موضع «على»، و«على» في موضع «في»، كل واحدة منهما تعاقب صاحبتها في الكلام.

وأما قوله: «الأوليان»، فإنَّ معناه عندنا: الأوْلى بالميتِ من المقسمين الأولين فالأولى. وقد يحتمل أن يكون معناه: الأولى باليمين منهما فالأولى ـ ثم حذف «منهما»، والعربُ تفعل ذلك فتقولُ: «فلان أفضل»، وهي تريدُ: «أفضل منك»، وذلك إذا وضع «أفعل» موضع الخبر. وإنْ وقع موقع الاسم و أدخلت فيه «الألف واللام»، فعلوا ذلك أيضاً، إذا كان جواباً لكلام قد مضى، فقالوا: «هذا الأفضل، وهذا الأشرف»، يريدون: هو الأشرفُ منك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيقسم الآخران اللذان يقومان مقامَ اللذين عثر على أنهما استحقا إثماً بخيانتهما مالَ الميت، الأوْليان باليمين والميِّت من الخائنين: «لشهـادتنـا أحقُّ من شهـادتهما»، يقول: لأَيْمانُنَا أحقُّ من أيمانِ المُقْسِمَين المستحقَّين الإثم، وأيمانِهما الكاذبة ـ في أنَّهما قد خانا في كذا وكذا من مالِ مَيِّتنا، وكذا في أيمانِهما التي حلفا بها. «وما اعتدينا»، يقول: وما تجاوزنا الحقَّ في أيماننا.

«إنـا إذا لمن الظالمين» يقول: إنَّا إنْ كُنَّا اعتدينا في أيماننا، فحلفنا مُبْطِلينَ فيها كاذبين، «لَمِنَ الظالمين»، يقول: لَمِنْ عِدَادِ مَنْ يأخذ ما ليسَ له

أخذُه، ويقتطع بأيمانهِ الفاجرةِ أموالَ الناس

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك»، هذا الذي قلتُ لكم في أمر الأوصياء - إذا ارتبتم في أمرهم، واتهمتموهم بخيانةٍ لمالِ مَنْ أوصى إليهم، من حَبْسِهم بعدَ الصلاةِ، واستحلافِكُمْ إيَّاهم على ما ادَّعى قِبَلهم أولياءُ الميت. «أدنى» لهم «أنْ يأتوا بالشهادة على وجهها»، يقول: هذا الفعل، إذا فعلتم بهم، أقربُ لهم أن يَصْدُقُوا في أيمانهم، ولا يكتموا، ويُقِرُّوا بالحق ولا يخونوا. «أو يخافوا أنْ تُرَدَّ أيمانٌ بعد أيمانهم»، يقول: أو يخاف هؤلاء الأوصياءُ إنْ عثر عليهم أنهم استحقُّوا إثماً في أيمانهم بالله، أنْ تُرَدَّ أيمانُهم على أولياءِ الميتِ، بعد أيمانهم التي عُثِر عليها أنها كذبٌ، فيستحقُّوا بها ما ادَّعوا قِبَلهم من حقوقهم، فيصدقوا حينئذٍ في أيمانهم وشهادتهم، مخافةَ الفضيحةِ على أنفسهم، وحذَراً أنْ يستحقَّ عليهم ما خانُوا فيه أولياءَ الميِّتِ وورثته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: وخَافُوا اللهَ، أيها الناسُ، وراقبوه في أيمانكم أنْ تحلفوا بها كاذبةً، وأن تُذْهبوا بها مالَ مَنْ يَحْرم عليكم ماله، وأن تخونوا من اتَّمَنَكُم. «واسمعوا»، يقول: اسمعوا ما يُقالُ لكم وما تُوعَظُونَ به، فاعملوا به، وانتهوا إليه. «والله لا يهدي القوم الفاسقين»، يقول: والله لا يوفِّق مَنْ فَسَق عن أمر ربِّه، فخالفه وأطاع الشيطانَ وعصى ربَّه.

ثم اختلف أهلُ العلم في حكم هاتين الآيتين، هل هو منسوخٌ، أو هو مُحْكَمٌ ثابت؟

فقال بعضهم: هو منسوخ.

وقال جماعة: هي محكمةٌ وليست بمنسوخة. وقد ذكرنا قولَ أكثرهم فيما مضى.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنَّ حُكْمَ الآية غيرُ منسوخ. وذلك أنَّ من حكمِ الله تعالى ذِكْرُه الذي عليه أهلُ الإسلام، من لدن بعث الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ إلى يومنا هذا، أنَّ مَنِ ادُّعي عليه دَعْوى ممَّا يملكه بنو آدم، أنَّ المدَّعَى عليه لا يبرئه مما ادُّعي عليه إلا اليمينُ، إذا لم يكن للمدَّعِي بيّنةٌ تصححُ دَعواه ـ وأنه إن اعترف في يَدِ المدَّعى عليه سلعةً له، فادَّعَى أنها له دونَ الذي في يده، فقال الذي هيَ في يدِهِ: «بل هي لي، اشتريتها من هذا المدَّعي»، أنَّ القولَ قول مَنْ زَعَم الذي هي في يده أنه اشتراها منه، دونَ مَنْ هي في يده مع يمينه، إذا لم يكن للذي هي في يده بَيِّنَةٌ تحققُ به دعواه الشراءَ منه.

فإذا كان ذلـك حكم الله الذي لا خِلافَ فيه بين أهل العلم، وكانت الآيتـان اللتان ذكر الله تعالى ذِكْرُه فيهما أمرَ وصية الموصِي إلى عَدْلين من المسلمين، أو إلى آخرين من غيرهم، إنما ألزَم النبي ﷺ، فيما ذكر عنه، الوصيَّين اليمينَ حين ادَّعَى عليهما الورثةُ ما ادَّعوا، ثم لم يلزم المدَّعَى عليهما شيئاً إذ حلفا، حتى اعترفتِ الورثةُ في أيديهما ما اعترفُوا من الجامِ أو الإبريق أو غيرِ ذلك من أموالهم؛ فزعما أنهما اشترياه من ميتهم، فحينئذٍ ألزم النبيُّ ﷺ ورثَةَ الميِّتِ اليمينَ، لأنَّ الوصيين تحوَّلاَ مُدَّعِيين بدعواهما ما وَجَدا في أيديهمـا من مالِ الميِّت أنـه لهمـا، اشتريَا ذلك منه، فصارَا مُقِرَّيْنِ بالمال

للميِّت، مدَّعيين منه الشراءَ، فاحتاجا حينئذٍ إلى بيِّنةٍ تصحِّحُ دعواهما، وصارتْ ورثة الميتِ ربَّ السلعة، أوْلى باليمين منهما. فذلك قوله تعالى ذِكْرُه: «فإن عُثِرَ على أنهما استحقا إثماً فآخران يقومانِ مقامهما من الذين استحق عليهم الأوْليانِ فيقسمان بالله لَشهادَتُنا أَحَقُّ من شهادتهما»، الآية.

فإذْ كان تأويل ذلك كذلك، فلا وجه لدعوَى مُدَّعٍ أنَّ هذه الآية منسوخةٌ، لأنه غير جائز أن يُقْضَى على حُكمٍ من أحكامِ الله تعالى ذِكْرُه أنه منسوخ، إلا بخبَرٍ يقطعُ العذرَ: إمَّا من عند الله، أو من عندِ رسولِه ﷺ، أو بورودِ النَّقل المستفيض بذلك، فأمَّا ولا خبرَ بذلك، ولا يدفع صحته عقل، فغير جائز أنْ يُقْضَى عليه بأنه منسوخ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واتقوا الله، أيها الناسُ. واسمعوا وَعْظه إياكم وتذكيرَه لكم، واحذروا يَوْم يَجْمع الله الرسل ـ ثم حذف «واحذروا»، واكتفى بقوله: «واتقوا الله واسمعوا»، عن إظهاره.

وأما قوله: «ماذا أُجبتم»، فإنه يعني به: ما الذي أجابتكم به أممكم، حين دعوتموهم إلى توحيدي، والإقرار بي، والعمل بطاعتي، والانتهاء عن معصيتي؟ «قالوا لا عِلْمَ لنا».

ومعناه: لا عِلْمَ لنا، إلّا علم أنت أعلم به مِنَّا»، لأنه تعالى ذِكْرُه أخبر عنهم أنهم قالوا: «لا علم لنا إنَّك أنتَ علامُ الغيوب: أي: إنك لايَخْفَى عليكَ ما عندنا من علمٍ ذلك ولا غيره من خفيِّ العلومِ وجَلِيِّها. فإنما نَفى القومُ أنْ

يكون لهم بما سُئِلُوا عنه من ذلك علم لا يعلمه هو تعالى ذِكْرُه ـ لا أنَّهم نَفَوا أن يكونوا عَلِمُوا ماشاهدُوا. وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك، وهو تعالى ذِكْرُه يخبر عنهم أنَّهم يُخْبرون بما أجابتهم به الأمم، وأنهم يسْتشهدون على تبليغهم الرسالةَ شهداء، فقال تعالى ذِكْرُه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾

معنى الكلام: «إذْ قال الله»، حين قال. «ياعيسى بن مريم اذكر نعمتي عليكَ وعلى والدتكَ إذْ أيدتك بروحِ القدس»، يقول: ياعيسى اذكر أياديَّ عندك وعند والدتك، إذ قوَّيتُكَ برُوح القُدس وأَعَنْتُكَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مخبراً عن قيله، لعيسى: «اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتُك بروح القدس»، في حالِ تكليمكَ الناسَ في المهدِ وكهلاً.

وإنما هذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه: أنه أيده بروحِ القدس صغيراً في المهد، وكهلاً كبيراً ـ فردّ «الكهل» على قوله: «في المهد»، لأنَّ معنى ذلك: صغيراً، كما قال تعالى ذكره: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾، [يونس: ١٢].

وقوله: «وإذْ علمتكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ»، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك «إذ علمتك الكتاب»، وهو الخطّ. «والحكمة»، وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلتُه إليكَ، وهو الإنجيلُ. «وإذْ تَخْلُقُ من الطينِ كهيئه الطير»، يقول: كصورةِ الطير. «بإذني». يعني بقوله: «تخلق» تعملُ وتصلح ـ «من الـطين كهيئة الطير بإذني»، يقول: بعوني على ذلك، وعلمٍ منّي به. «فتنفـخُ فيها»، يقول: فتنفخُ في الهيئة، فتكون الهيئةُ والصورةُ طيراً بإذني. «وتبرىءُ الأكمه»، يقول: وتشفي «الأكمهَ»، وهو الأعمى الذي لا يبصرُ شيئاً، المطموس البصر. «والأبرص بإذني».

وقوله: «وإذ كففتُ بني إسرائيلَ عنكَ إذْ جئتهم بالبينات»، يقول: واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفّي عنكَ بني إسرائيل إذْ كففتهم عنك، وقد هموا بقتلك. «إذ جئتهم بالبينات»، يقول: إذ جئتهم بالأدِلة والأعلامِ المعجزة على نبوّتك، وحقيقة ما أرسلتكَ به إليهم. «فقال الذين كفروا منهم»، يقولُ تعالى ذِكْرُه: فقال الذين جَحَدُوا نبوَّتكَ وكَذَّبوكَ من بني إسرائيل. «إنْ هذا إلا سحر مبين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

(يعني): وإذْ ألقيتُ إلى الحـواريين أنْ صَدِّقُـوا بي وبرسولي عيسى، فقـالوا: «آمنا»، أي: صدقنا بما أمرتنا أن نؤمنَ ياربنا. «واشهدْ» علينا «بأننا

مسلمون»، يقول: واشهدْ علينا بأننا خاضِعُونَ لكَ بالذّلةِ، سامعونَ مطيعُون لأمرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واذكر، ياعيسى، أيضاً نعمتي عليك، إذ أوحيتُ إلى الحواريين أنْ آمنوا بي وبرسولي، إذْ قالوا لعيسى بن مريم هل يستطيعُ رَبُّكَ أنْ يُنَزِّلَ علينا مائدة من السماء ـ فـ «إذ»، الثانية من صلة «أوحيتُ».

وأما قوله: «قال اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين»، فإنه يعني: قال عيسى للحواريّين القائلين له: «هل يستطيع رَبُّكَ أن ينزّل علينا مائدةً من السماء» ـ راقبوا الله، أيها القومُ، وخافوه، أن يَنْزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإنَّ الله لا يعجزه شيءٌ أراده. وفي شَكِّكم في قدرةِ الله على إنزالِ مائدةٍ من السماء، كفرٌ به، فاتقوا الله أن يُنْزِلَ بكم نِقْمَتَهُ. «إنْ كنتم مؤمنين»، يقول: إن كنتم مصدقي على ما أتوعَّدُكُمْ به من عقوبةِ الله إياكم على قولكم: «هل يستطيعُ ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء»؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بذلك: قال الحواريونُ مُجيبي عيسى على قولِهِ لهم: «اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين»، في قولكم لي: «هل يستطيعُ ربك أن ينزل علينا

مائدةً من السماء» -: إنا إنما قلنا ذلك، وسألناك أن تسألَ لنا رَبَّكَ لنأكلَ من المائدة، فنعلم يقيناً قدرته على كل شيء. «وتطمئن قلوبنا»، يقول: وتسكن قلوبنـا، وتستقـرّ على وحدانيته وقدرته على كل ماشاء وأراد. «ونعلم أنْ قد صدقتنا»، ونعلم أنك لم تَكْذِبْنَا في خبركَ أنكَ للهِ رسولٌ مُرْسَلٌ ونبيٌّ مبعوثٌ. «ونكون عليها»، يقول: ونكون على المائدةِ. «من الشاهدين»، يقول: ممن يشهد أنَّ الله أنزلها حجةً لنفسهِ علينا في توحيده وقدرته على ماشاء، ولك على صدقكَ في نبوّتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن نبيه عيسى ﷺ، أنه أجابَ القومَ إلى ماسألوه من مسألةِ ربه مائدةً تنزلُ عليهم من السماء.

وقوله: «تكونُ لنا عيداً» معناه: تكون لنا عيداً، نعبدُ رَبَّنا في اليومِ الذي تنزلُ فيه، ونصلي له فيه، كما يعبد الناس في أعيادهم»، لأنَّ المعروفَ من كلام الناس المستعمل بينهم في «العيد»، ماذكرنا.

وأمـا قوله: «لأوَّلِنَا وآخِرِنا»، فإنَّ الأولى من تأويله بالصواب، قولُ مَنْ قال: «تأويله: للأحياءِ منا اليومَ، ومَنْ يجيءُ بعدنا منا».

وأمـا قوله: «وآيةً منك»، فإنَّ معناه: وعلامةً وحجةً منك يارب، على عبـادكَ في وحدانيتك، وفي صدقي على أنِّي رسولٌ إليهم بما أرسلتني به. «وارزقنا وأنت خير الرازقين»، وأعطنا من عَطائِكَ، فإنك يارب خيرُ مَنْ يُعطي، وأجودُ من تفضَّل، لأنه لا يدخلُ عطاءه مَنٌّ ولا نكَد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ١١٥﴾

وهـذا جوابٌ من الله تعـالى ذِكْرُه القومَ فيما سألوا نبيَّهم عيسى مسألةَ ربهم، من إنـزالِه مائدةً عليهم. فقال تعالى ذِكْرُه: إني مُنَزِّلُها عليكم، أيها الحواريونَ، فَمُطْعِمُكُمُوهَا. «فمن يكفرْ بَعْدُ منكم»، يقول: فمن يجحد بعدَ إنزالها عليكم، وإطعامِيكُمُوها ـ منكم رسالتي إليه، وينكر نبوة نبيِّي عيسى ﷺ، ويخـالفْ طاعتي فيمـا أمـرتُه ونهيته. «فإني أُعذِّبُهُ عذاباً لا أعذبه أحداً من العـالمين»، من عالمي زمـانـه. ففعل القوم، فجحدوا وكفروا بعد ما أُنزلتْ عليهم، فيما ذُكِرَ لنا، فَعُذِّبُوا، فيما بَلَغنا، بأنْ مُسِخُوا قِردةً وخنازير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾

تأويل الكلام: «أأَنْتَ قلتَ للناس اتخذوني وأمي إلهين»، أي: معبودين تعبدونهما من دون الله. قال عيسى: تنزيهاً لك يارب وتعظيماً أنْ أفعلَ ذلك أو أتكلم به. «ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليسَ لي بحق»، يقول: ليس لي أن أقولَ ذلك، لأني عبدٌ مخلوق، وأمي أَمَةٌ لكَ، وكيف يكونُ للعبدِ والأمةِ ادّعاء ربوبية؟. «إنْ كنتُ قلته فقد عَلِمْتَهُ»، يقول: إنك لا يَخْفَى عليك شيءٌ، وأنتَ عالم أني لم أَقُلْ ذلكَ ولم آمرهُم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُخْبِراً عن نبيه عيسى ﷺ: أنه يبرأُ إليه مما قالتْ فيه وفي أمه الكَفَرَةُ من النصارى، أنْ يكونَ دعاهم إليه أو أمرهم به، فقال: «سبحانكَ مايكونُ لي أنْ أقولَ ما ليس لي بحق إنْ كنتُ قلته فقد علمته». ثم قال: «تعلمُ مافي نفسي»، يقول: إنك يارب، لا يَخْفَى عليكَ ما أضمرتْهُ نفسي مما لم أنطقْ به ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما قد نطقتُ به وأظهرته بجوارحي؟ يقول: لو كنتُ قد قلتُ للناس: «اتخذوني وأميَ إلهين من دون الله»، كنت قد علمته، لأنكَ تعلمُ ضمائرَ النفوسِ مما لم تنطقْ به، فكيف بما قد نطقتْ به؟ «ولا أعلم ما في نفسك»، يقول: ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تُطْلِعني عليه، لأني إنما أعلمُ من الأشياء ما أَعْلَمْتَنِيه. «إنكَ أنتَ عَلَّامُ الغيوب»، يقول: إنك أنت العالم بخفيَّاتِ الأمورِ التي لا يطلعُ عليها سِواكَ، ولا يعلمها غيرك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قول عيسى، يقول: ماقلتُ لهم إلا الذي أمرتني به من القولِ أنْ أقوله لهم، وهو أن قلت لهم: «اعبدوا الله ربي وربكم». «وكنتُ عليهم شهيداً مادمتُ فيهم»، يقول: وكنتُ على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم. «فلما تَوفَّيتني»، يقول: فلمـا قَبَضْتَنِي إليكَ. «كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم»، يقول: كنت أنت الحفيظَ عليهم دوني، لأني إنما شهدتُ من أعمالهم ماعملوه وأنا بين أظهرهم.

وفي هذا تبيانُ أنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما عَرَّفَهُ أفعالَ القومِ ومقالتهم بعد ماقَبَضَهُ إليه وتوفاه بقوله: «أأنتَ قلتَ للناس اتخذوني وأمِّيَ إلهينِ من دون الله».

«وأنتَ على كُلِّ شيءٍ شهيد» يقول: وأنتَ تشهدُ على كل شيءٍ، لأنه لا يَخْفَى عليك شيءٌ. وأما أنا، فإنما شهدتُ بعض الأشياءَ، وذلك ما عاينتُ وأنا مقيمٌ بين أظهرِ القوم، فإنما أنا أشهدُ على ذلك الذي عاينتُ ورأيتُ وشهدت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى ذكره: إنْ تُعَذِّبْ هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، بإماتتك إياهم عليها. «فإنهم عبادُكَ»، مُستسلمونَ لك، لا يمتنعونَ مما أردتَ بهم، ولا يدفعون عن أنفسهم ضرًّا ولا أمراً تنالهم به. «وإنْ تغفرْ لهم»، بهدايتكَ إياهم إلى التوبة منها، فتستر عليهم. «فإنك أنتَ العزيز»، في انتقامه ممن أرادَ الانتقامَ منه، لا يقدرُ أحدٌ يدفعه عنه. «الحكيم»، في هدايته مَنْ هَدَى من خَلْقِه إلى التوبة، وتوفيقه مَنْ وفَّق منهم لسبيلِ النجاة من العقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: «هذا يومُ ينفع الصادقين». فقرأ ذلك بعض أهل الحجاز والمدينة: ﴿هٰذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، بنصب «يوم».

وقرأه بعضُ أهلِ الحجازِ وبعضُ أهل المدينة، وعامة قَرأَةِ أهلِ العراق: ﴿هٰـذَا يَوْم يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، برفع «يوم». فمن رفعه رفعه بـ«هذا»، وجعل «يوم» اسماً، وإن كانت إضافته غير محضة، لأنه قد صار كالمنعوت.

وكأن من قرأ هذا هكذا رفعاً، وجَّه الكلامَ إلى أنه من قِيلِ اللهِ يومَ القيامة.

وأما النصب في ذلك، فإنه يتوجه من وجهين:

أحـدهمـا: أن إضافة «يوم» ما لم تكن إلى اسم، تجعله نصباً، لأن الإضافة غير محضة. وإنما تكون الإضافة محضة، إذا أضيف إلى اسم صحيح ونظير «اليوم» في ذلك: «الحِين» و«الزمان»، وما أشبههما من الأزمنة.

والوجه الآخر: أن يكون مراداً بالكلام: هذا الأمر وهذا الشأن، يومَ ينفع الصـادقين ـ فيكون «اليوم» حينئذٍ منصوباً على الوقتِ والصفة، بمعنى: هذا الأمر في يوم ينفع الصادقينْ صدقهم.

وأوْلى القراءتين في ذلك عندي بالصواب: ﴿هٰذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾، بنصب «اليوم»، على أنه منصوب على الوقت والصفة. لأنَّ معنى الكلام: إنّ الله جَلَّ وتعالى ذِكْرُه، أجاب عيسى حين قال: «سبحانكَ مايكونُ لي أنْ أقولَ ما ليسَ لي بحقٍ إنْ كنتُ قلتـهُ فقد عَلِمْتَه»، إلى قوله· «فإنكَ أنتَ العزيز الحكيم»، فقال له عز وجل: هذا القولُ النافعُ ـ أو هذا الصدق النافع ـ يوم ينفعُ الصادقينَ صِدْقُهم. فـ«اليوم» وقت القول والصدق النافع.

فإن قال قائل: فما موضع «هذا»؟

قيل: رفع.

فإن قال: فأين رَافعه؟

قيل: مضمر. وكأنه قال: قال الله عز وجل: هذا، هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.

فتأويلُ الكلامِ، إذْ كان الأمر على ماوصفنا لما بينا: قال الله لعيسى: هذا القولُ النافعُ في يوم ينفع الصادقينَ في الدنيا صِدْقُهم ذلك، في الآخرة عند الله. «لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار»، يقول: للصادقين في الدنيا، جنات تجري من تحتها الأنهارُ في الآخرة، ثواباً لهم من الله عز وجل على ما كان من صِدْقِهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه، فوفوا به لله، فوفى الله عَزَّ وجل لهم ما وَعَدَهُم من ثوابه. «خالدين فيها أبداً»، يقول: باقين في الجنات التي أعطاهُمُوها. «أبداً»، دائماً، لهم فيها نعيمٌ لا ينتقل عنهم ولا يزول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾



يقول تعالى ذِكْرُه: رَضيَ اللهُ عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه، من العملِ بطاعتهِ واجتنابِ معاصيه. «ورضوا عنه»، يقول: ورَضُوا هم عن الله تعالى ذِكْرُه في وفائه لهم بما وَعَدَهم على طاعتِهم إياه فيما أمَرَهُم ونَهاهم، من جزيلِ ثوابِهِ. «ذلك الفوز العظيم»، يقول: هذا الذي أعطاهم اللهُ من الجناتِ التي تجري من تحتها الأنهارُ، خالدينَ فيها مرضيًّا عنهم وراضينَ عن رَبِّهم، هو الظفرُ العظيمُ بالطَّلبة، وإدراك الحاجةِ التي كانوا يطلبونها في الدنيا، ولها كانوا يعملونَ فيها، فنالُوا ماطَلَبُوا، وأدركوا ما أمَّلُوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ١٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيها النصارى، «لله ملكُ السمواتِ والأرض»، يقول: له سلطانُ السموات والأرض. «وما فيهن»، دون عيسى الذي تزعمون أنه إلهكم، ودونَ أمه، ودونَ جميعِ مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض، فإنَّ السمواتِ والأرض خَلْقٌ من خَلْقِه وما فيهن، وعيسى وأمُّه من بعض ذلك بالحلول والانتقال، يدلَّان بكونهما في المكان الذي هما فيه بالحلول فيه والانتقال، أنهما عبدان مملوكان لِمَنْ له ملكُ السموات والأرض وما فيهن. ينبِّههم وجميعَ خَلْقِه على موضعِ حُجَّتِه عليهم، ليدَّبروه ويعتبروه فيعقلوا عنه.
«وهو على كل شيءٍ قدير»، يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي له ملكُ السموات والأرض وما فيهن، قادرٌ على إفنائهن وعلى إهلاكهن، وإهلاكِ عيسى وأمهِ ومَنْ في الأرض جميعاً كما ابتدأ خَلْقَهُم، لا يعجزه ذلك ولا شيء أراده، لأنَّ قُدْرته القدرةُ التي لا تشبهها قدرة، وسلطانه السلطان الذي لا يشبهه سلطان ولا مملكة.

تفسير سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ[1]

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «الحمدُ لله»، الحمدُ الكاملُ لله وحده لا شريكَ له دونَ جميعِ الأندادِ والآلهةِ، ودونَ ماسواهُ مما تعبدهُ كَفَرةُ خَلْقِه من الأوثانِ والأصنام.

وهذا كلامٌ مخرجه مَخرجُ الخبرِ، يُنْحَى به نحو الأمر. يقول: أَخْلِصُوا الحمدَ والشكرَ لِلَّذي خَلَقَكم، أيها الناسُ، وخلقَ السمواتِ والأرضَ، ولا تشركوا معه في ذلك أحداً أو شيئاً، فإنه المستوجبُ عليكم الحمدَ بأياديه عندكم ونعمه عليكم، لا مَنْ تعبدونه من دونِه، وتجعلونه له شريكاً من خَلْقِه.

---

(١) ذكر الزجاج أن أكثر سورة الأنعام احتجاج على مشركي العرب، على مَنْ كَذَّبَ بالبعث والنشور (معاني القرآن: ٢/٢٢٧).

وذكر صاحب «الظلال» أن موضوعها الذي تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة بكل مقوماتها وبكل مكوناتها... إنها تطوف بالنفس البشرية في ملكوت السموات والأرض تلحظ فيها الظلمات والنور وترقب الشمس والقمر والنجوم، وتسرح في الجنات المعروشات وغير المعروشات، والمياه الهاطلة عليها والجارية فيها. وتقف على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية. ثم تسبح بها في ظلمات البر والبحر، وأسرار الغيب والنفس، والحي يخرج من الميت، والميت يخرج من الحي، والحبة المستكنّة في ظلمات الأرض، والنطفة المستكنة في ظلمات الرحم. ثم تموجُ بالجن والإنس، والطير والوحش، والأولين والآخرين، والموتى والأحياء... إنه الحشدُ الكوني الذي يزحم أقطار النفس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الحمد لله الذي خلق السموات والأرض، وأظلم الليلَ، وأنارَ النَّهار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾



يقول تعالى ذِكْرُه، مُعَجِّباً خَلْقه المؤمنينَ من كفَرَةِ عبادِهِ، ومحتجًّا على الكافرين: إنَّ الإله الذي يجبُ عليكم، أيها الناسُ، حَمْدُه، هو الذي خلَقَ السموات والأرض، الذي جعل منهما معايشَكم وأقواتكم، وأقواتَ أنعامكم التي بها حياتكُم. فمن السمواتِ ينزلُ عليكمُ الغيثُ، وفيها تجري الشمسُ والقمرُ باعتِقابٍ واختلافٍ لمصالحكم. ومن الأرضِ ينبُتُ الحَبُّ الذي به غذاؤكم، والثمارُ التي فيها ملاذُّكم، مع غير ذلك من الأمور التي فيها مصالحكم ومنافعكم بها ـ والذينَ يَجْحَدُونَ نعمةَ الله عليهم بما أنعمَ به عليهم مِنْ خَلْقِ ذلكَ لهم ولكم، أيها الناسُ. «بربهم»، الذي فعلَ ذلك وأحدثه. «يعدلون»، يجعلونَ له شَريكاً في عبادَتِهم إياهُ، فيعبدونَ معه الآلهةَ والأندادَ والأصنامَ والأوثانَ، وليس منها شيءٌ شَرِكَهُ في خَلْقِ شيءٍ من ذلك، ولا في إنعامه عليهم بما أنعمَ به عليهم، بَلْ هو المنفردُ بذلك كله، وهم يشركون في عبادتهم إيَّاهُ غيرَهُ. فسبحانَ الله ما أبلغها من حُجَّةٍ، وأوجزها من عِظَةٍ، لمن فَكَّرَ فيها بعقلٍ، وتَدَبَّرها بفهم!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «هو الذي خلقكم من طين»، أنَّ الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ، وأظلمَ ليلهما وأنارَ نهارهما، ثم كَفَرَ به مع إنعامه عليهم الكافرونَ، وعَدَلُوا به مَنْ لا ينفعهم ولا يضرُّهم، هو الذي خلقكم، أيها الناس، من طين. وإنما يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: أنَّ الناس ولَدُ مَنْ خَلَقَهُ من طينٍ، فأخرج ذلك مخرجَ الخطابِ لهم، إذ كانوا وَلَده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾

معناه: ثم قضى أجلَ الحياةِ الدنيا. «وأجلٌ مسمى عنده»، وهو أجل البَعْث عنده لأنه تعالى ذِكْرُه نبَّه خلقَه على موضع حُجَّته عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناسُ، إنَّ الذي يعدِلُ به كفارُكم الآلهةَ والأندادَ، هو الذي خلقكم فابتدَأَكُم وأنشأكم من طينٍ، فجعلكم صُوراً أجساماً أحياءً، بعد إذْ كنتم طِيناً جماداً، ثم قضى آجالَ حياتِكم لفنائِكم ومماتِكم، ليعيدكم تراباً وطيناً كالذي كنتم قبل أنْ ينشئكم ويخلقكم ـ وأجل مسمىً عندَهُ لإعادتِكُمْ أحياءً وأجساماً كالذي كُنْتُمْ قَبْلَ مماتِكم. وذلك نظير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، [البقرة: ٢٨].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم أنتم تَشكُّون في قُدْرَةِ مَنْ قَدَر على خَلْقِ السمواتِ والأرض، وإظلامِ الليل وإنارةِ النهار، وخَلَقَكُمْ من طينٍ حتى صَيَّركم بالهيئةِ التي أنتم بها ـ على إنشائهِ إياكم من بعد مماتكم وفنائكم، وإيجاده إيَّاكم بعد عدمكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى ذكره: إنَّ الذي له الألوهةُ التي لا تنبغي لغيره، المستحقَّ عليكم إخلاصَ الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناسُ، الذي يعدِل به كُفَّارُكم مَن سواه، هو الله الذي هو في السموات وفي الأرض يعلم سِرَّكم وجَهْرَكم، فلا يخفى عليه شيء. يقول: فربكم الذي يستحقُّ عليكم الحمدَ، ويجبُ عليكم إخلاصُ العبادةِ له، هُوَ هذا الذي صِفَتُه ـ لا مَنْ لا يقدرُ لكم على ضُرٍّ ولا نفعٍ، ولا يعملُ شيئاً، ولا يدفعُ عن نفسه سُوءًا أُريدَ بها.

وأمـا قوله: «ويعلم ماتكسبون»، يقول: ويعلمُ ما تَعمَلُونَ وتَجْرَحُونَ، فَيُحْصِي ذلك عليكم ليجازيكم به عندَ معادِكم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدِلون أوثانهم وآلهتهم. «آية من آيات ربهم»، يقول: حجّةٌ وعلامةٌ ودلالة من حُججِ رَبِّهم ودلالاتِه وأعلامِه على وحدانيته، وحقيقةِ نبوتكَ، يامحمدُ، وصِدْق ما أَتيتَهُمْ به من عنـدي. «إلا كانُوا عنها مُعرضينَ»، يقول: إلا أعرضوا عنها، يعني عن الآية، فَصَدُّوا عن قَبُولها، والإقرار بما شهدتْ على حقيقتهِ ودلَّتْ على صحتهِ، جهلاً منهم بالله، واغتراراً بحلمِهِ عنهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فقد كَذَّبَ هؤلاء العادلونَ بالله، الحقَّ لما جاءهم، وذلك «الحق»، هو محمدٌ ﷺ: كَذَّبُوا به، وجحدوا نُبُوَّتَهُ لما جاءهم. قالَ الله لهم مُتَوَعِّداً على تكذيبهم إياهُ وجُحُودِهم نبوَّتَهُ: سوف يأتي المكذِّبينَ بك، يامحمدُ، من قومِكَ وغيرهم. «أنْباءُ ما كانوا به يستهزئون»، يقول: سوف يأتيهم أخبارُ استهزائِهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلَّتي التي آتيتهم. ثم وفى لهم بوعيده لمّا تمادَوا في غيِّهم، وعتَوْا على رَبِّهم، فقتلتهم يوم بدرٍ بالسَّيف.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ألم يرَ هؤلاء المُكذِّبُونَ بآياتي، الجاحدونَ نبوّتَكَ، كثرةَ مَنْ أهلكتُ من قَبْلِهم من القُرون ـ وهم الأمم ـ الذين وطَّأتُ لهم البلادَ والأرضَ توطئةً لم أوطِّئْهَا لهم، وأعطيتهم فيها ما لم أُعْطِهم؟ أمطرتْ فأخرجتْ لهم الأشجارُ ثمارَهَا، وأعطتهم الأرضُ رَيْعَ نَباتها، وجابوا صخورَ جبالها، ودَرَّتْ عليهم السماءُ بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيونُ المياه بينابيعها بإذني، فغمَطُوا نعمةَ ربهم، وعصوا رسولَ خالِقهم، وخالفوا أمرَ بارئهم، وبغَوْا حتى حَقَّ عليهم قَوْلي، فأخذتُهم بما اجترحوا من ذُنوبِهم،

وعاقبتهم بما اكتسبتْ أيديهم، وأهلكتُ بعضَهم بالرَّجفةِ، وبعضهم بالصَّيْحَةِ، وغير ذلك من أنواعِ العذاب.

ومعنى قولـه: «وأرسلنـا السماء عليهم مدراراً»، المطرَ. ويعني بقوله: «مدراراً»، غزيرة دائمةً. «وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين»، يقول: وأحْدَثْنا من بعد الذين أهلكناهم قرناً آخرينَ، فابتدأنَا سِواهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾

وهذا إخبارٌ من الله تعالى ذِكْرُه نبيَّه محمداً ﷺ، عن هؤلاء القوم الذين يعـدلـون بربِّهم الأوثانَ والآلهةَ والأصنامَ. يقول تعالى ذِكْرُه: وكيف يتفقهونَ الآياتِ، أم كيف يستدلُّون على بُطْلان ماهُمْ عليه مُقيمونَ من الكفرِ بالله وجحودِ نبوتكَ، بحججِ اللهِ وآياتهِ وأدلته، وهم لعنادهم الحقَّ وبعدِهم من الرشد، لو أنزلتُ عليكَ، يامحمدُ، الوحيَ الذي أنزلته عليك مع رسولي، في قِرْطاسٍ يُعَـاينـونَـهُ ويمسُّـونـه بأيديهم، وينظرون إليه ويقرأونه منه، مُعَلَّقاً بين السماءِ والأرضِ، بحقيقةِ ما تَدْعُوهم إليه، وصحَّةِ ما تأتيهم به من توحيدِي وتنزيلي، لقال الذين يَعْدِلُون بي غيري فيشركون في توحيدي سواي: «إنْ هذا إلّا سحرٌ مبينٌ»، أي: ماهذا الذي جِئْتَنَا به إلّا سِحْرٌ سحرتَ به أعيننا، ليست له حقيقةٌ ولا صحة. «مبين»، يقول: مبين لمن تَدَبَّرَهُ وتأمَّله أنه سحرٌ لا حقيقةَ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال هؤلاء المُكَذِّبُونَ بآياتي، العادلونَ بي الأندادَ والآلهةَ، يامحمدُ، لك، لو دعوتهم إلى توحيدي والإقرار بربوبيتي، وإذا أتيتهم من الآياتِ والعبر بما أتيتَهُمْ به، واحتججتَ عليهم بما احتججت عليهم مما قطعتَ به عُذْرَهم: هَلاَّ نُزِّلَ عليكَ ملكٌ من السماء في صورته، يُصَدِّقُكَ على ماجِئْتَنَا به، ويشهد لك بحقيقة ماتدَّعي من أنَّ الله أرسلكَ إلينا! كما قال تعالى ذِكْرُه مخبراً عن المشركين في قِيلهم لنبيِّ الله ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ٧]، «ولو أنزلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثم لا يُنْظَرُون»، يقول: ولو أنزلنا مَلَكاً على مَا سَأَلُوا، ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي، لجاءهم العذابُ عاجلاً غيرَ آجل، ولم يُنْظروا فيؤخَّروا بالعقوبةِ مراجعةَ التوبةِ، كما فعلت بمن قبلهم من الأمم التي سألت الآيات، ثم كفرت بعد مجيئها، مِنْ تعجيلِ النقمة، وترك الإنظار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو جعلنا رسولَنا إلى هؤلاء العادلينَ بي، القائلين: لولا أنزل على محمَّدٍ ﷺ مَلَكٌ بتصديقه ـ ملكاً ينزلُ عليهم من السماء، يشهدُ بتصديقِ محمدٍ ﷺ، ويأمرهم باتباعه. «لجعلناه رجلاً»، يقول: لجعلناهُ في صورةِ رجلٍ من البشر، لأنهم لا يقدرون أنْ يروا المَلَك في صورته. يقول: وإذْ كان ذلك كذلك، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكاً أو بشراً، إذْ كنتُ إذا أنزلتُ عليهم مَلَكاً إنما أُنزِلُهُ بصورةِ إنسيٍّ، وحججي في كِلْتَا الحالتين عليهم ثابتةٌ: بأنكَ صادقٌ، وأنَّ ما جِئْتَهم به حَقٌّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وللبسنا عليهم»: ولو أنزلنا مَلَكاً من السماء مُصَدِّقاً لك، يامحمدُ، شاهداً لك عند هؤلاء العادلينَ بي، الجاحدينَ آياتِك على حقيقةِ نبوّتك، فجعلناه في صورةِ رجلٍ من بني آدم، إذ كانوا لا يُطيقون رؤيةَ الملك بصورتِه التي خلقتُه بها ـ التبس عليهم أمرهُ، فلم يَدْرُوا أَمَلَكٌ هو أمْ إنسيٌّ! فلم يُوقِنُوا به أنَّه ملك، ولم يُصَدِّقُوا به، وقالوا: «ليس هذا ملكاً»! وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقةِ أمرك، وصحة برهانك وشاهدك على نبوّتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمدٍ ﷺ، مسلِّياً عنه بوعيده المستهزئينَ به عقوبةَ ما يَلْقَى منهم من أذى الاستهزاءِ به، والاستخفاف في ذاتِ الله: هَوِّنْ عليكَ، يامحمدُ، ما أنتَ لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفِّينَ بحقكَ فيَّ وفي طاعتي، وامضِ لما أمرتُكَ به من الدُّعاء إلى توحيدي والإقرارِ بي والإذعانِ لطاعتي، فإنهم إنْ تمادوا في غيِّهم، وأصَرُّوا على المقامِ على كُفْرِهم، نَسْلُكْ بهم سبيلَ أسلافِهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيلِ النقمةِ لهم، وحلول المَثُلاتِ بهم. فقد استهزأتْ أُمَمٌ من قبلك برُسُلٍ أرسلتهم إليهم بمثلِ الذي أرسلتكَ به إلى قومكَ، وفعلوا مِثْلَ ما فعلَ قومُكَ بك. «فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون»، يعني بقوله: «فحاق»، فنزلَ وأحاطَ بالذين هَزِئُوا من رُسُلِهم. «ما كانوا به يستهزئون»، يقول: العذابُ الذي كانوا يهزأون به، وينكرون أنْ يكونَ واقعاً بهم على ما أنْذَرَتْهُمْ رُسُلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء العادلين بيَ الأوثانَ والأندادَ، المكذِّبينَ بكَ، الجاحدينَ حقيقةَ ما جِئْتُهُمْ به من عندي «سيروا في الأرض»، يقول: جُولُوا في بلاد المكذِّبين رُسُلَهم، الجاحدينَ آياتي مِنْ قبلهم من ضُرَبائهم وأشكالِهم من الناسِ. «ثم انظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين»، يقول: ثم انظروا كيف أعقَبَهُمْ تكذيبُهم ذلك، الهلاكَ والعطبَ وخزيَ الدنيا وعارَها، وما حَلَّ بهم من سَخَطِ اللهِ عليهم، من البوارِ وخَرابِ الديار وعُفُوِّ الآثار. فاعتبروا به، إنْ لم تَنْهَكُمْ حُلُومكم، ولم تزجركم حُججُ الله عليكم، عمَّا أنتم عليه مُقيمونَ من التكذيب، فاحذروا مِثْلَ مصارعهم، واتقوا أنْ يحلَّ بكم مثلُ الذي حَلَّ بهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يامحمدُ، لهؤلاء العادلين بربهم. «لمن مافي السموات والأرض»، يقول: لمن مُلْكُ ما في السموات والأرض؟ ثم أخبرهم أنَّ ذلك لله الذي استعبدَ كُلَّ شيءٍ، وقَهَرَ كُلَّ شيءٍ بملكه وسلطانه ـ لا للأوثانِ والأندادِ، ولا لِمَا يعبدونَهُ ويَتَّخِذُونَهُ إلهاً من الأصنامِ التي لا تملكُ لأنفسها نفعاً ولا تدفعُ عنها ضُرًّا.

وقوله: «كتب على نفسه الرحمة»، يقول: قَضَى أنَّه بعبادهِ رحيمٌ، لا يعجلُ عليهم بالعقوبةِ، ويقبلُ منهم الإنابةَ والتوبةَ.

وهذا من الله تعالى ذِكْرُه استعطافٌ للمُعْرِضينَ عنه إلى الإقبالِ إليه بالتوبة.

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء العادلينَ بي، الجاحدينَ نبوَّتَك، يامحمدُ، إنْ تابوا وأنابوا قبلتُ توبتهم، وإني قد قضيتُ في خَلْقي أنَّ رحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

وهذه «اللام» التي في قوله: «ليجمعنكم»، لامُ قَسَم.

ومعنى الكلام: لَيَجْمَعَنَّكُم اللهُ، أيها العادلونَ باللهِ، ليوم القيامة الذي لا ريبَ فيه، لينتقم منكم بكفركم به.

وأما تأويل قوله: «لا ريبَ فيه»، فإنه: لا شَكَّ فيه. يقول: في أنَّ الله يجمعكم إلى يوم القيامة، فيحشركم إليه جميعاً، ثم يؤتي كُلَّ عاملٍ منكم أجرَ ما عمل من حسن أو سيىء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «الذين خسروا أنفسهم»، العادلينَ به الأوثانَ والأصنامَ. يقول تعالى ذِكْرُه: لَيَجْمَعَنَّ اللهُ. «الذين خسروا أنفسهم»، يقول: الذين أهلكُوا أنفسَهُم وغَبَنُوها بادِّعائِهم لله النِّدَّ والعَدِيلَ، فأوْبَقُوها باستِيجَابِهم سَخَطَ الله وأليمَ عقابِهِ في المعاد.

وقوله: «فهم لا يؤمنون»، يقول: «فهم»، لإهلاكِهم أنفسَهُم وغَبْنهم إياها حَظَّها. «لا يؤمنون»، أي لا يُوحِّدُونَ الله، ولا يصدِّقُونَ بوعدِهِ ووعيدِه، ولا يُقِرُّون بنبوةِ محمدٍ ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا يؤمنُ هؤلاء العادلونَ بالله الأوثانَ، فَيُخْلِصُوا له التوحيدَ، ويُفْرِدوا له الطاعةَ، ويُقِرُّوا بالألوهيةِ، جهلاً. «وله ماسَكَنَ في الليلِ والنهار»، يقول: وله ملكُ كُلِّ شيءٍ، لأنه لا شيءَ من خَلْقِ الله إلا وهو ساكنٌ في الليل والنهار. فمعلومٌ بذلك أنَّ معناه ماوصفنا. «وهو السميع»، يقول: وهو السميعُ مايقولُ هؤلاءِ المشركونَ فيه، من ادِّعائِهم له شريكاً، وما يقول غيرهم من خَلْقِه. «العليم»، بما يُضْمِرُونَهُ في أنفسهم، وما يُظْهِرونَهُ بجوارِحِهم، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلـك، فهو يُحْصِيه عليهم، ليوفِّي كُلَّ إنسان ثوابَ ما اكتسبَ، وجزاءَ ما عَمِلَ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء المشركينَ العـادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، والمُنْكِرينَ عليك إخلاصَ التوحيدِ لربِّكَ، الداعينَ إلى عبادةِ الآلهةِ والأوثانِ: أشيئاً غيرَ الله تعالى ذِكْرُه: «أَتَّخِذُ وليًّا»، أستنصرهُ وأستعينُه على النوائبِ والحوادث.

ويعني بقوله: «فاطر السموات والأرض»، مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما.

وأما قوله: «وهو يطعم ولا يطعم»، فإنه يعني: وهو يَرْزُقُ خَلْقَهُ ولا يُرْزَقُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، للذين يَدْعُونكَ إلى اتخاذِ الآلهةِ أولياءَ من دونِ الله، ويَحُثُّونَكَ على عبادتها: أغيرَ الله فاطر السموات والأرض، وهو يرزقني وغيري ولا يرزقه أحد، أتَّخذُ وليًّا هو له عبدٌ مملوكٌ وخَلْقٌ مخلوق؟ وقُلْ لهم أيضاً: إني أمرني ربي: «أنْ أكونَ أول مَنْ أسلم» يقول: أوَّل مَنْ خضع له بالعبودية، وتَذَلَّلَ لأمرِهِ ونهيِه، وانقاد له من أهل دهري وزماني. «ولا تكونَنَّ من المشركين»، يقول: وقل: وقيل لي: لا تكونَنَّ من المشركينَ بالله، الذين يجعلون الآلهةَ والأنداد شركاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركينَ العادلينَ بالله، الذين يَدْعُونَكَ إلى عبادةِ أوثانهم: إنّ ربي نَهاني عن عبادةِ شيءٍ سواه. «وإني أخافُ إنْ عصيتُ ربي»، فعبدتها. «عذابَ يوم عظيم»، يعني: عذاب يوم القيامة. ووصفه تعالى بـ«العظم» لِعِظَمِ هَوْلِهِ، وفظاعةِ شأنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾

اختلف القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ الحجازِ والمدينة والبصرة: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾، بضم «الياء» وفتح «الراء»، بمعنى: مَنْ يُصرف عنه العذابُ يومئذٍ.

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفة: ﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ﴾، بفتح «الياء» وكسر «الراء»، بمعنى: مَنْ يصرف الله عنه العذاب يومئذٍ.

وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي، قراءة مَنْ قرأه: ﴿يَصْرِفْ عَنْهُ﴾، بفتح «الياء» وكسر «الراء»، لدلالة قوله: «فقد رحمه» على صحة ذلك، وأنَّ القراءة فيه بتسميةِ فاعله. ولو كانت القراءة في قوله: «من يصرف»، على وجه ما لم يُسَمَّ فاعلُه، كان الوجه في قوله: «فقد رحمه» أن يقال: «فقد رُحِم» غير مسمى فاعله. وفي تسمية الفاعل في قوله: «فقد رحمه»، دليلٌ بَيِّنٌ على أن ذلك كذلك في قوله: «من يَصرف عنه».

وإذ كان ذلك هو الوجه الأَوْلَى بالقراءة، فتأويل الكلام: مَنْ يصرف عنه من خَلْقِه يومئذٍ عذابه فقد رحمه. «وذلك هو الفوز المبين»، ويعني بقوله: «وذلك»، وصرفُ اللهِ عنه العذابَ يومَ القيامة، ورحمتُه إياه. «الفوز»، أي: النجاةُ من الهلكة، والظفر بالطلبة. «المبين»، يعني الذي بَيَّنَ لِمَنْ رآهُ أنه الظَّفَرُ بالحاجةِ وإدراك الطَّلِبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يامحمد، إنْ يُصِبْكَ اللهُ. «بِضُرٍّ»، يقول: بشدةٍ في دنياكَ، وشظَفٍ في عيشك وضِيقٍ فيه فلن يكشف ذلكَ عنك إلّا الله الذي أمركَ أنْ تكون أوّلَ مَنْ أسلم لأمرهِ ونهيهِ، وأذعنَ له من أهلِ زمانك، دونَ ما يَدْعُوكَ العادلونَ به إلى عبادتهِ من الأوثانِ والأصنامِ، ودونَ كُلِّ شيءٍ سواها من خلقه. «وإنْ يمسسك بخير»، يقول: وإنْ يُصِبْكَ بخيرٍ، أي: برخاءٍ في عيشٍ، وسَعَةٍ في الرزق، وكثرةٍ في المال، فتقرّ أنه أصابكَ بذلك. «فهو على كل شيء قدير»، يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي أصابكَ بذلك، فهو على كل شيء قدير، هو القادرُ على نَفْعِكَ وضرِّكَ، وهو على كُلِّ شيءٍ يريده قادرٌ، لا يعجزه شيءٌ يريده، ولا يمتنع منه شيءٌ طَلَبَهُ، ليس كالآلهةِ الذليلةِ المَهينة التي لا تقدرُ على اجتلابِ نَفْعٍ على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضُرٍّ عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذِكْرُه: فكيف تعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتُقِرُّ لمن كان بيده الضُّرُّ والنفعُ، والثوابُ والعقابُ، وله القدرةُ الكاملة، والعزة الظاهرة؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ



يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وهو»، نفسَه، يقول: والله الظاهرُ فوقَ عبادهِ ـ ويعني بقوله: «القاهر»، المُذَلِّلُ المُسْتَعْبِدُ خَلْقَهُ، العالي عليهم. وإنما قال: «فوق عباده»، لأنه وَصَفَ نفسه تعالى ذِكْرُه بقهرِهِ إياهم. ومن صِفَةِ كُلِّ قاهرٍ شيئاً، أنْ يكونَ مُسْتعلياً عليه.

فمعنى الكلام إذاً: والله الغالبُ عبادَه المُذَلِّلهم، العالي عليهم بتذليلهِ لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقَهم بقهرِهِ إياهم، وهم دونَهُ. «وهو الحكيم»،

يقـول: واللهُ الحكيمُ في عُلُوِّهِ على عبـاده، وقهرِهِ إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره. «الخبير»، بمصـالـح الأشياء ومضارِّها، الذي لا يَخْفَى عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقعُ في تدبيره خَلَلٌ، ولا يدخلُ حُكْمَهُ دَخلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ يامحمد، لهؤلاءِ المشركينَ الذين يُكذِّبونَ ويجحدون نبوتَّك من قومك: أيُّ شيءٍ أعظمُ شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم بأنَّ أكبرَ الأشياء شهادة: «الله»، الذي لا يجوز أنْ يقعَ في شهادته مايجوزُ أنْ يقعَ في شهادة غيره من خَلْقِه من السهو والخطأ، والغلط والكذب. ثم قُلْ لهم: إنَّ الذي هو أكبر الأشياء شهادة، شهيدٌ بيني وبينكم، بالمُحِقِّ منا من المُبْطِلِ، والرشيدِ منا في فِعْلِه وقولِهِ من السفيه، وقد رضينا به حَكَماً بيننا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المشركين الذين يكذبونك: «الله شهيدٌ بيني وبينكم». «وأُوحِيَ إليَّ هذا القرآنُ لأُنذركم به» عقابَه، وأُنذر به مَنْ بَلَغه من سائرِ الناس غيركم ـ إنْ لم يَنْتَهِ إلى العملِ بما فيه، وتحليل حلاله وتحريم حرامه، والإيمان بجميعه ـ نزولَ نقمةِ اللهِ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً﴾

أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المشركينَ، الجاحدينَ نبوتَّكَ، العادلينَ بالله، ربًّا غيره: «أئنكم»، أيها المشركونَ. «لَتشهدونَ أنَّ مع الله آلهةً أخرى»، يقول: تشهدون أنَّ مَعَهُ معبوداتٍ غيره من الأوثان والأصنام.

وقال: «أُخْرَى»، ولم يقل «أخَر»، و«الآلهة» جمع، لأنَّ الجموع يلحقها، التـأنيثُ، كما قال تعالى ﴿فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى﴾ [طه: ٥١]، ولم يقل: «الأُوَل» ولا «الأوَّلين».

ثم قال لنبيِّه محمد ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ. «لا أشهدُ»، بما تشهدونَ: أنَّ مع اللهِ آلهةً أخرى، بل أجْحَدُ ذلك وأُنكِرهُ. «قُلْ إنما هُوَ إلهٌ واحد»، يقول: إنما هو معبودٌ واحد، لا شريكَ له فيما يستوجبُ على خَلْقِه من العبادة. «وإنني بريء ممـا تشركون»، يقول: قل: وإنني بريءٌ من كُلِّ شريكٍ تَدْعُونه لله، وتُضِيفونه إلى شركته، وتعبدونَهُ معه، لا أعبدُ سِوى الله شيئاً، ولا أدعو غيرَهُ إلهاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذين «آتيناهُمُ الكتابَ»، التوراة والإنجيل ـ يعرفون أنَّما هُوَ إلهٌ واحد ـ، لا جماعة الآلهة، وأنَّ محمداً نبيٌّ مبعوث. «كما يعرفون أبناءهم».

ويعني بقـولـه: «خَسِـرُوا أنفسهم»، أَهْلَكُـوهـا وألقوها في نارِ جهنم،

بإنكـارِهم محمداً أنه لله رسولٌ مُرسَلٌ، وهم بحقيقةِ ذلك عارفون. «فهم لا يؤمنون»، يقول: فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون.

وقد قيل: إنَّ معنى «خسارتهم أنفسهم»، أنَّ كُلَّ عبدٍ له منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار. فإذا كان يوم القيامة، جعلَ الله لأهلِ الجنة منازلَ أهلِ النار في الجنـة، وجعـل لأهـل النـار منازلَ أهل الجنة في النار، فذلك خسرانُ الخاسرين منهم، لبيعِهم منازِلَهم من الجنةِ بمنازلِ أهلِ الجنة من النار، بما فَرَطَ منهم في الدنيا من معصيتهم الله، وظُلْمِهم أنفُسَهم، وذلك معنى قولِ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، [المؤمنون: ١١].

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أشَدُّ اعتداءً، وأخطأُ فِعْلاً، وأخطلُ قولاً. «ممن افترى على الله كذباً»، يعني: مِمَّن اختلقَ على الله قِيلَ باطلٍ، واخترقَ من نفسهِ عليه كَذِباً، فزعم أنَّ له شريكاً من خَلْقِه، وإلهاً يعبد من دونه ـ كما قاله المشركون من عَبَدَةِ الأوثان ـ أو ادَّعى له ولداً أو صاحبةً، كما قالته النصارى. «أو كذب بآياته»، يقول: أو كَذَّبَ بحججه وأعلامه وأدلتِهِ التي أعطاها رسلَهُ على حقيقةِ نبوتهم، كَذَّبَتْ بها اليهود. «إنه لا يفلح الظالمون»، يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطلَ، ولا يُدْرِكُونَ البقاءَ في الجنان، والمفترونَ عليه الكَذِبَ، والجاحدون بنبوة أنبيائه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ

﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء المفترينَ على الله كَذِباً، والمُكَذِّبينَ بآياته، لا يُفلحونَ اليومَ في الدنيا، ولا يومَ نحشرهم جميعاً ـ يعني: ولا في الآخرة.

ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ماظَهر عما حذف.

وتأويلُ الكلام: إنه لا يفلحُ الظالمونَ اليومَ في الدنيا، «ويومَ نحشرهم جميعاً»، فقوله: «ويوم نحشرهم»، مردودٌ على المراد في الكلام. لأنه وإنْ كان محذوفاً منه، فكأنه فيه، لمعرفةِ السامعين بمعناه. «ثم نقولُ للذين أشركوا أين شركـاؤكم»، يقول: ثم نقول، إذا حشرنا هؤلاء المفترينَ على اللهِ الكذبَ، بادِّعائهم له في سلطانه شريكاً، والمُكَذِّبينَ بآياته ورسله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة. «أين شركاؤُكُم الذين كنتم تزعمون»، أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذباً، وتدعونهم من دونه أرباباً؟ فَأْتُوا بهم إنْ كنتم صادقين!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم لم يكن قولهم إذْ قلنا لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون»؟ـ إجابةً منهم لنا عن سؤالِنا إيَّاهُمْ ذلكَ، إذْ فَتَنَّاهُمْ فاختبرناهم، «إلّا أن قالوا والله رَبِّنا ماكنا مشركين»، كَذباً منهم في أيمانهم على قِيلهم ذلك.

ثم اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته جماعة من قَرَأَةِ المدينة والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ﴾ بالتاء، بالنصب، بمعنى: لم يكن اختبارَناهُم إلّا قِيلُهم: «والله رَبِّنا

ما كنا مشركين» ـ غير أنهم يقرأون «تكن» بالتاء على التأنيث. وإنْ كانت للقولِ لا للفتنةِ، لمجاورته الفتنة، وهي خبرٌ. وذلك عند أهلِ العربيةِ شاذٌ غير فصيحٍ في الكلام.

وقرأ ذلك جماعة من قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿ثُمَّ لَمْ يَكُنْ﴾ بالياء، ﴿فِتْنَتَهُمْ﴾ بالنصب، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، بنحو المعنى الذي قصده الآخرون الذين ذكرنا قراءتهم. غيرَ أنهم ذكَّروا «يكون» لتذكير «أن».

وهذه القراءة عندنا أوْلى القراءتين بالصواب، لأن «أنْ» أثبت في المعرفة من «الفتنة»[1].

واختلفَ أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ثم لم تكن فتنتهم».

فقال بعضهم: معناه ثم لم يكن قَوْلُهم.

وقال آخرون: معنى ذلك: مَعْذِرَتُهم.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: معناه: ثم لم يكن قِيلُهم عند فِتنتنا إياهم، اعتذاراً مما سَلَفَ منهم من الشركِ بالله. «إلا أنْ قالوا والله رَبِّنا ما كنا مشركين»، فَوُضِعت «الفتنةُ» موضعَ «القول»، لمعرفةِ السامعينَ معنى الكلام.

وإنما «الفتنة»، الاختبارُ والابتلاء. ولكن لما كان الجوابُ من القومِ غيرَ واقع هنالك إلا عند الاختبار، وضعت «الفتنة» التي هي الاختبار، موضع الخبر عن جوابهم ومعذرتهم.

واختلفت القَرَأَةُ أيضاً في قراءة قوله: «والله رَبِّنا ما كُنَّا مشركين».

---

(١) أغفل المؤلف قراءة الرفع في «فتنتهم» وهي قراءتنا في مصحفنا، قراءة حفص.

فقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ المدينة وبعض الكوفيين والبصريين: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا﴾، خفضاً، على أنَّ «الربَّ» نَعْتٌ لله.

وقرأ ذلك جماعة من التابعين: ﴿وَاللهِ رَبَّنَا﴾، بالنصب، بمعنى: والله يارَبَّنَا. وهي قراءةُ عامة قَرَأَةِ أهلِ الكوفة[1].

وأَوْلى القراءتين عندي بالصواب في ذلك، قراءةُ من قرأ: ﴿وَاللهِ رَبَّنَا﴾، بنصب «الـرب»، بمعنى: يارَبَّنا ذلك أنَّ هذا جوابٌ من المسئولينَ المَقُولِ لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون»؟ وكان من جوابِ القومِ لربهم: والله يارَبَّنا ما كُنَّا مشركين ـ فَنَفَوْا أن يكونوا قالوا ذلك في الدنيا.

يقول الله تعالى ذِكْرُه لمحمدٍ ﷺ: ﴿ٱنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَاكَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ويعني بقوله: «ما كنا مشركين»، ما كُنَّا ندعو لكَ شريكاً، ولا ندعو سِواكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظر، يامحمدُ، فاعلَمْ، كيف كذَب هؤلاء المشركون العادِلُونَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ، في الآخرة عند لقاء الله ـ على أنفسِهم بقِيلِهم: «والله ياربنا ما كنا مشركين»، واستعملوا هنالك الأخلاقَ التي كانوا بها يتخلَّقُونَ في الدنيا، من الكذب والفرية.

---

(١) انظر (معاني القرآن للفراء: ١/٣٣٠). وقال الزجاج: ويجوز نصبه على أعني، أعني ربَّنا وأذكرُ ربَّنا (معاني القرآن: ٢/٢٣٦).

ومعنى «النظر» في هذا الموضع، النظر بالقلب، لا النظر بالبصر. وإنما معناه: تبين فاعلم كيف كَذَبُوا في الآخرة.

وقال: «كذبوا»، ومعناه: يكذبون، لأنه لَمَّا كانَ الخبرُ قد مضى في الآية قبلها، صار كالشيء الذي قد كانَ ووُجِدَ.

«وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، يقول: وفَارقَهم الأندادُ والأصنامُ، وتبرأوا منها، فسلكُوا غيرَ سبيلها، لأنها هلكت، وأعيد الذين كانوا يعبدونها اجتراءً، ثم أخذوا بما كانوا يفترونه من قِيلهم فيها على الله، وعبادتهم إياها، وإشراكِهم إيَّاها في سلطانِ الله، فَضَلَّتْ عنهم، وعُوقِبَ عَابِدُوها بِفِرْيتِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنْ هؤلاءِ العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ من قومك، يامحمدُ. «من يستمع إليك»، يقول: من يستمع القرآنَ منكَ، ويستمع ماتدعوهُ إليه من توحيدِ رَبِّكَ، وأمرِهِ ونهيِهِ، ولا يفقه ماتقولُ ولا يُوعِيه قلبُه، ولا يَتَدَبَّرُهُ، ولا يُصْغِي له سمعه، ليتفقهه فيفهم حُجَجَ الله عليه في تنزيلهِ الذي أنزله عليك، إنما يسمعُ صوتكَ وقراءتك وكلامكَ، ولا يعقلُ عنكَ ماتقولُ، لأنَّ الله قد جعل على قلبهِ «أكنَّةً».

وهي جمع «كنان»، وهو الغطاء، مثل: «سِنان»، «وأسِنَّة».

«وفي آذانهم وقراً»، يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل في آذانهم ثِقلاً وصَمَماً عن فَهْمِ ما تتلو عليهم، والإصغاءِ لِمَا تَدْعُوهم إليه.

والعربُ تفتح «الواو» من «الوَقْر» في الأذن، وهو الثِقلُ فيها ـ وتكسرها في الحمل فتقول: «هو وِقْرُ الدابة».

وقال تعالى ذِكْرُه: «وجعلنا على قلوبهم أكنةً أنْ يفقهوه»، بمعنى: أن لا يفقهوه، كما قال ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا، لأن «الكنَّ» إنما جُعِلَ على القلب، لئلاَّ يُفَقِّهُهُ، لا ليفقهه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ هؤلاء العادلونَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، الذين جعلت على قلوبهم أكِنَّةً أنْ يفقهوا عنكَ مايسمعونَ منك. «كل آية»، يقول: كُلَّ حجةٍ وعلامة تدلُّ أهلَ الحِجَى والفهم على توحيدِ الله وصِدْقِ قولكَ وحقيقةِ نبوتكَ. «لا يؤمنوا بها»، يقول: لا يُصَدِّقُونَ بها، ولا يُقِرُّونَ بأنها دالّة على ماهي عليه دالة. «حتى إذا جاؤوك يجادلونك»، يقول: حتى إذا صاروا إليكَ بعد معاينتهم الآيات الدالة على حقيقةِ ما جِئْتَهُمْ به. «يجادلونك»، يقول: يخاصمونك. «يقول الذين كفروا»، يعني بذلك: الذين جَحَدُوا آيات الله وأنكروا حقيقتها، يقولون لنبيِّ الله ﷺ إذا سمعوا حججَ الله التي احتجَّ بها عليهم، وبيانَه الذي بَيَّنه لهم. «إنْ هذا إلا أساطير الأوّلين»، أي: ماهذا إلا أساطير الأوّلين.

و«الأساطير» جمع «إسْطارة» و«أسطُورة» مثل «أفكوهة» و«أضحوكة»، وجائز أن يكون الواحد «أسطارًا»[1] مثل «أبيات»، و«أبابيت»، و«أقوال وأقاويل»،

(١) جمع سطر.

من قول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، [الطور: ٢]. من: «سَطَرَ يَسْطُرُ سَطْراً».

فإذْ كان من هذا: فإنَّ تأويله: ماهذا إلّا ما كتبه الأوَّلون.

وقد ذكر عن ابن عباس وغيره أنهم كانوا يَتأوَّلُونه بهذا التأويل، ويقولون: معناه: إنْ هذا إلّا أحاديثُ الأوّلين.

وكان بعضُ أهلِ العلمِ ـ وهو أبو عبيدة معمر بن المثنى ـ بكلامِ العربِ يقول: «الإسطارةُ» لغةٌ، ومجازُها مجازُ الترَّهات[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٢٦﴾

(يعني): وإنْ يَرَ هؤلاء المشركون، يامحمدُ، كُلَّ آيةٍ لا يؤمنوا بها، حتى إذا جاؤوكَ يجادلـونك يقولون: «إن هذا الذي جئتنا به إلّا أحاديث الأوّلين وأخبارهم»! وهم يَنْهونَ عن استماعِ التنزيلِ، ويَنْأَوْنَ عنكَ فيبعدونَ منكَ ومن اتباعك. «وإن يهلكون إلّا أنفسهم»، يقول: وما يهلكونَ بصدِّهِم عن سبيلِ الله، وإعراضِهم عن تنزيلِهِ، وكفرهم بربهم ـ إلّا أنفسهم لا غيرها، وذلك أنهم يكسِبُونهـا بفعلهم ذلـك، سَخَطَ الله وأليمَ عقـابِهِ، وما لا قِبَلَ لها به. «وما يشعرون»، يقول: وما يَدْرُونَ ما هُمْ مُكْسِبُوها من الهلاكِ والعطبِ بفعلهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٢٧﴾

---

(١) مجاز القرآن: ١/١٨٩.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيّه محمدٍ ﷺ: «ولو ترى»، يامحمدُ، هؤلاء العادلين بربهم الأصنامَ والأوثانَ، الجاحدينَ نُبُوَّتَكَ، الذين وصفتُ لكَ صِفَتَهم «إذ وُقِفوا»، يقول: إذ حُبِسُوا «على النار»، يعني: في النار ـ فوضعت «على» موضع «في» كما قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، [البقرة: ١٠٢]، بمعنى: في ملك سليمان.

وقيل: «ولو تَرَى إذْ وُقِفُوا»، ومعناه: إذا وقفوا ـ لما وصفنا قَبْلُ فيما مضى: أنَّ العربَ قد تضع «إذ» مكان «إذا»، «وإذا» مكان «إذ».

وقيل: «وقفوا»، ولم يُقَل: «أُوقِفوا»، لأنَّ ذلك هو الفصيحُ من كلامِ العرب. يقال: «وقَفتُ الدابة وغيرها»، بغير ألف، إذا حبستها. وكذلك: «وقفت الأرضَ»، إذا جعلتها صدقةً حَبيساً، بغير ألف.

«فقالوا ياليتنا نُرَدُّ»، يقول: فقالَ هؤلاء المشركونَ بربِّهم، إذ حُبِسُوا في النار: «ياليتنا نردُّ»، إلى الدنيا حتى نتوبَ ونراجعَ طاعة الله. «ولا نُكَذِّبَ بآياتِ ربنا»، يقول: ولا نكذّب بحججِ رَبِّنَا ولا نجحدها. «ونكون من المؤمنين»، يقول: ونكون من المُصَدِّقين بالله وحججِهِ ورسله، مُتَّبعي أمره ونهيه.

واختلفت القَرَأةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأةِ الحجاز والمدينة والعراقيين: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، بمعنى: ياليتنا نُرَدُّ، ولسنا نُكَذِّبُ بآياتِ ربنا، ولكنّا نكونُ من المؤمنين.

وقرأ ذلك بعضُ قَرَأةِ الكوفة: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، بمعنى: ياليتنا نرد، وأن لا نكذب بآياتِ ربنا، ونكونَ من المؤمنين.

والقراءة التي لا أختار غيرها في ذلك: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالرفع في كليهما، بمعنى: ياليتنا نُرَدُّ، ولسنا نُكَذِّبُ بآياتِ ربِّنا إنْ رددنا، ولكنا نكون من المؤمنين ـ على وجهِ الخبرِ منهم عَمَّا يفعلونَ إنْ هم رُدُّوا إلى الدنيا، لا على التمنِّي منهم أنْ لا يُكَذِّبُوا بآياتِ ربهم ويكونوا من المؤمنين. لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه قد أخبر عنهم أنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه، وأنهم كَذَبَةٌ في قِيلهم ذلك. ولو كان قِيلهم ذلك على وجهِ التمني، لاستحالَ تكذيبُهم فيه، لأنَّ التمني لا يُكَذَّبُ، وإنما يكون التصديقُ والتكذيبُ في الأخبار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ما بهؤلاءِ العادلينَ بربِّهم، الجاحدينَ نبوتكَ، يامحمدُ، في قِيلهم إذا وُقِفُوا على النار: «ياليتنا نردُّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين» ـ الأسَى والندمُ على تركِ الإيمانِ بالله والتصديقِ بكَ، لكن بهم الإشفاق مما هو نازلٌ بهم من عقابِ الله وأليمِ عذابه، على معاصِيهم التي كانوا يُخْفُونَها عن أعينِ الناسِ ويسترونها منهم، فأبداها اللهُ منهم يومَ القيامةِ وأظْهَرَها على رؤوسِ الأشهاد، ففضَحَهُم بها، ثم جازاهم بها جزاءَهم.

يقول: بل بَدَا لهم ما كانوا يُخْفُونَ من أعمالِهم السيئة التي كانوا يُخفونها من قبلِ ذلك في الدنيا، فَظَهَرتْ. «ولو رُدُّوا»، يقول: ولو رُدُّوا إلى الدنيا فَأُمْهِلُوا. «لعادوا لما نُهُوا عنه»، يقول: لرجعوا إلى مِثْلِ العملِ الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبلَ ذلك، من جحودِ آياتِ الله، والكفر به، والعملِ بما يُسْخِطُ عليهم ربَّهم. «وإنهم لكاذبون»، في قِيلهم: «لو رُدِدْنَا لم نُكَذِّبْ بآياتِ

رَبِّنَا وكنا من المؤمنين»، لأنهم قالوه حين قالوه خَشْيَةَ العذاب، لا إيماناً بالله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء المشركينَ، العادلينَ به الأوثانَ والأصنامَ، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبرِ عنهم.

يقول تعالى ذِكْرُه: «وقالوا إنْ هي إلّا حياتُنَا الدنيا»، يخبرُ عنهم أنهم ينكرون أنَّ الله يُحيي خَلْقَهُ بعد أن يُميتهم، ويقولون: «لا حياةَ بعد المماتِ، ولا بعثَ ولا نشـورَ بعدَ الفناء». فهم بجحودِهم ذلك، وإنكارِهم ثوابَ الله وعقابَهُ في الدار الآخرة، لا يُبَالُونَ ما أَتَوْا وما ركبوا من إثمٍ ومعصيةٍ، لأنهم لا يَرْجُونَ ثواباً على إيمانٍ بالله وتصديقٍ برسوله وعملٍ صالح بعد موت، ولا يخافون عقاباً على كُفْرِهم بالله وبرسوله وسيِّىءٍ من عملٍ يَعْمَلُونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «لو ترى»، يامحمدُ، هؤلاء القائلين: ماهي إلا حياتُنا الدنيا وما نحنُ بمبعوثين. «إذْ وُقِفُوا»، يوم القيامة، أي: حُبِسُوا. «على رَبِّهم»، يعني على حُكْمِ الله وقضـائه فيهم. «قال أليس هذا بالحَقِّ»، يقول: فقيل لهم: أليس هذا البعثُ والنشرُ بعد المماتِ الذي كنتم تُنْكِرُونَهُ في الدنيا، حقًّا؟ فأجابوا، فقالوا: بَلَى والله إنه لَحَقٌّ. «قال فذوقوا العذاب»، يقول: فقال الله تعالى ذِكْرُه لهم: فَذُوقُوا العذابَ الذي كنتم به في الدنيا تكذبون. «بما كنتم

تكفرون»، يقول: بتكذِيبكم به وجَحْدِكُموه الذي كان منكم في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله»، قد هَلَكَ ووكِسَ، في بيعِهم الإيمانَ بالكفرِ. «الذين كذبوا بلقاء الله»، يعني: الذينَ أنكروا البعثَ بعد المماتِ، والثوابَ والعقابَ، والجنةَ والنارَ، من مشركي قريش ومَنْ سَلَكَ سبيلهم في ذلك. «حتى إذا جاءَتهم الساعة»، يقول: حتى إذا جاءتهم السَّاعةُ الَّتي يَبْعث اللهُ فيها الموتى من قبورهم.

وإنما أدخلت «الألف واللام» في «الساعة»، لأنها معروفة المعنى عند المخاطبينَ بها، وأنها مقصود بها قصدُ الساعة التي وصفت.

ويعني بقوله: «بغتة»، فجأةً، من غيرِ عِلْمِ مَنْ تَفْجَؤُه بوقتِ مفاجأتها إيَّاهُ.

«قالوا يا حَسْرتَنا على مافَرَّطْنَا فيها»، يقول تعالى ذِكْرُه: وُكِسَ الذين كذبوا بلقاءِ اللهِ ببيعِهم منازِلَهم من الجنةِ بمنازل مَنِ اشتروا منازله من أهلِ الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعةُ بغتةً قالوا إذا عَايَنُوا ما باعوا وما اشتروا، وتبيَّنُوا خسارةَ صفقةِ بَيْعِهم التي سَلَفَتْ منهم في الدنيا، تَنَدُّماً وتَلَهُّفاً على عظيمِ الغَبْن الذي غبنوه أنفسهم، وجليلِ الخسرانِ الذي لا خسرانَ أجَلَّ منه. «ياحسرتنا على مافرطنا فيها»، يقول: يانَدَامتنا على ما ضَيَّعْنا فيها، يعني: صفقتهم تلك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذكره: وهؤلاء الذين كذَّبوا بلقاء الله، «يحملون أوزارهم على ظهورهم». وقوله: «وهم» من ذكرهم. «يحملون أوزارهم»، يقول: آثامهم وذنوبهم.

وأما قوله تعالى ذِكْرُه: «ألَا ساءَ ما يزرون»، فإنه يعني: ألا سَاء الوزر الذي يزرون - أي: الإثم الذي يأثمونه بربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وهـذا تكـذيبٌ من الله تعالى ذِكْرُه هؤلاء الكفارَ المُنْكِرينَ البعثَ بعد المماتِ في قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

يقول تعالى ذكره، مكذباً لهم في قِيلهم ذلك: «ما الحياةُ الدنيا»، أيها الناسُ. «إلَّا لعب ولهو»، يقول: ما باغي لذاتِ الحياة التي أدْنيتُ لكم وقرَّبتُ منكم في داركم هذه، ونعيمها وسرورها فيها، والمتلذذُ بها[1]، والمنافسُ عليها إلا في لعب ولهـو، لأنهـا عمـا قليل تزولُ عن المستمتـع بها والمتلذذِ فيها

---

(١) سياق الجملة: «مـا باغي لذات الحياة... ونعيمهـا وسرورها» بالعطف ثم قوله: «فيها» سياقه: «ما باغي لذات الحياة... فيها»، وقوله بعد: «والمتلذذ بها» مرفوع معطوف على قوله: «ما باغي لذات الحياة».

بملاذِّها، أو تأتيه الأيامُ بفجائِعها وصُرُوفِها، فَتمرُّ عليه وتكدُر، كاللاعبِ اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندماً، ويُورثه منه تَرَحاً.

يقول: لا تغتروا، أيها الناسُ، بها، فإنَّ المُغْتَرَّ بها عَمَّا قليلٍ يندم. «وللدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون»، يقول: ولَلْعَمَلُ بطاعتِه، والاستعدادُ للدارِ الآخرةِ بالصالحِ من الأعمالِ التي تَبقى منافعُها لأهلها، ويدوم سرورُ أهلها فيها، خيرٌ من الدار التي تفنى وشيكاً، فلا يبقى لِعُمَّالِها فيها سرورٌ، ولا يدومُ لهم فيها نعيمٌ. «للذين يتقون»، يقول: للذين يخشونَ الله فيتقونه بطاعتِه واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى رضاه. «أفلا تعقلون»، يقول: أفلا يعقلُ هؤلاء المُكَذِّبُونَ بالبعثِ حقيقةَ مانُخْبِرهُم به، من أنَّ الحياةَ الدنيا لَعِبٌ ولهوٌ، وهم يرونَ مَنْ يُخْتَرمُ منهم، ومَنْ يهلكُ فيموت، ومَنْ تنوبه فيها النوائبُ وتصيبهُ المصائبُ وتفجعه الفجائعُ. ففي ذلك لِمَنْ عَقَلَ مُدَّكَرٌ ومُزْدَجَرٌ عن الركونِ إليها، واستعبادِ النفس لها ـ ودليلٌ واضحٌ على أنَّ لها مُدَبِّراً ومصرفاً يلزم الخلقَ إخلاصُ العبادةِ له، بغيرِ إشراكِ شيءٍ سواه معه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قد نعلم»، يامحمدُ، إنه ليحزنك الذي يقولُ المشركونَ، وذلك قولهم له: إنه كذّاب. «فإنهم لا يكذبونك».

وأما قوله: «ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ الله يجحدون»، فإنه يقول: ولكنَّ المشركينَ بالله، بحججِ الله وآيِ كتابِهِ ورسولِه يجحدون، فيُنْكِرُونَ صِحَّة ذلك كُلِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وهذا تسليةٌ من الله تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، وتعزيةٌ له عَمَّا ناله من المساءةِ بتكذيبِ قومِه إيَّاهُ على ما جاءَهُمْ به من الحَقِّ من عندِ الله.

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ يُكذبكَ، يامحمدُ، هؤلاء المشركونَ من قومكَ، فيجحدوا نبوَّتَكَ، ويُنكِرُوا آيات الله أنَّها من عنده، فلا يَحْزُنْكَ ذلك، واصبرْ على تَكذِيبِهم إياكَ وما تَلْقَى منهم من المكروه في ذاتِ الله، حتى يأتيَ نصرُ الله، فقد كُذِّبَتْ رُسُلٌ من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالُوهم بمكروهٍ، فصبروا على تكذيبِ قومِهم إياهم، ولم يثْنِهم ذلكَ من المُضِيِّ لأمرِ الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم. «ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ الله»، يقول: ولا مُغَيِّرَ لكلماتِ الله، و«كلماته» تعالى ذِكْرُه: ما أنزل الله إلى نبيه محمدٍ ﷺ، مِنْ وعدِهِ إياه النصرَ على مَنْ خَالفه وضَادَّهُ، والظفرَ على مَنْ تولَّى عنه وأدبر. «ولقد جاءكَ من نبأ المُرسلينَ»، يقول: ولقد جاءك، يامحمدُ، من خَبرِ مَنْ كان قبلك من الرسلِ، وخبر أممهم وما صنعتُ بهم ـ حين جَحَدُوا آياتي وتمادَوا في غيِّهم وضلالهم ـ أنباءُ ـ وترك ذكر «أنباء»، لدلالة «مِنْ» عليها. يقول تعالى ذِكْرُه: فانتظرْ أنتَ أيضاً من النُّصْرَةِ والظفرِ مِثْلَ الذي كان مِنِّي فيمن كانَ قَبْلَكَ من الرسلِ إذْ كَذَّبهم قومُهم، واقْتَدِ بهم في صبرهم على ما لَقُوا من قومهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ

أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ كان عَظُمَ عليكَ، يامحمدُ، إعراض هؤلاء المشركين عنكَ، وانصرافهم عن تصديقكَ فيما جِئْتَهُمْ به من الحقِّ الذي بعثتُك به، فَشَقَّ ذلكَ عليكَ، ولم تصبرْ لمكروهِ ما ينالكَ منهم. «فإنِ استطعتَ أنْ تبتغيَ نفقاً في الأرض»، يقول: فإن استطعت أن تَتَّخِذَ سَرَباً في الأرض مثلَ نَافِقاء اليَرْبُوع، وهي أحد جِحَرَته فتذهب فيه. «أو سُلَّماً في السماء»، يقول: أو مصعداً تصعدُ فيه، كالدَّرَج وما أشبهها. «فتأتيهم بآية»، منها ـ يعني بعلامةٍ وبرهانٍ على صِحَّةِ قولكَ، الذي أتيتُكَ ـ فافعل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذينَ يُكَذِّبُونَكَ من هؤلاء الكفار، يامحمدُ، فيحزنك تكذيبُهم إياكَ، لو أشاء أنْ أجمعهم على استقامةٍ من الدِّين، وصوابٍ من محجةِ الإسلام، حتى تكونَ كلمةُ جميعكم واحدة، ومِلَّتكم وملتهم واحدة، لجمعتُهم على ذلك، ولم يكن بعيداً عليَّ، لأني القادرُ على ذلك بلطفي، ولكني لم أفعلْ ذلك لسابقِ عِلْمي في خَلْقي، ونافذِ قضائي فيهم من قَبْل أن أخلقهم وأصور أجسامَهُم. «فلا تكونَنَّ»، يامحمدُ، «من الجاهلينَ»، يقول: فلا تكونن مِمَّنْ لا يعلم أنَّ الله لو شاءَ لجمعَ على الهدى جميعَ خَلْقِه بلُطْفِه، وأنَّ مَنْ يكفر به من خَلْقِه إنما يكفر به لسابقِ عِلْمِ الله فيه، ونافذِ قضائه بأنه كائنٌ من الكافرينَ به اختياراً لا اضطراراً، فإنكَ إذا علمتَ صحَّةَ ذلك، لم يكبر عليك إعراضُ مَنْ أعرضَ من المشركينَ عَمَّا تَدْعُوه إليه من الحق، وتكذيبُ مَنْ كذَّبكَ منهم.

وفي هذا الخبر من الله تعالى ذِكْرُه، الدلالةُ الواضحةُ على خطأ ما قالَ أهلُ التَّفْويض من القدرية(1)، المنكِرُونَ أنْ يكون عند الله لطائف لمن شاءَ توفيقه من خَلْقِه، يلطفُ بها له حتى يهتديَ للحقِّ فينقادَ له، وينيبَ إلى الرشاد فيذعن به ويؤثره على الضلالِ والكفرِ بالله. وذلك أنه تعالى ذِكْرُه أخبر أنه لو شاءَ الهدايةَ لجميع مَنْ كَفَرَ به، حتى يجتمعُوا على الهدى، فعلَ. ولا شك أنه لو فَعَلَ ذلك بهم، كانوا مهتدينَ لا ضُلَّالاً. وهم لو كانوا مهتدين، كان لا شك أنَّ كونهم مهتدين كان خيراً لهم. وفي تَرْكِه تعالى ذِكْرُه أنْ يجمَعَهُمْ على الهدى، تَرْكٌ منه أنْ يفعل بهم في دِينهم بعض ماهو خيرٌ لهم فيه، مما هو قادرٌ على فِعْلِه بهم، وقد ترك فعله بهم. وفي تركه فعله ذلك بهم، أوضحُ الدليلِ أنه لم يُعْطِهم كُلَّ الأسبابِ التي بها يصلون إلى الهداية، ويتسبَّبُونَ بها إلى الإيمان.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ٣٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: لا يكبُرنَّ عليكَ إعراضُ هؤلاء المعرضينَ عنك، وعن الاستجابةِ لدعائكَ إذا دَعَوْتَهُم إلى توحيدِ رَبِّهم والإقرار بنبوّتكَ، فإنه لا يستجيبُ لدعائكَ إلى ماتدعوهُ إليه من ذلك، إلّا الذين فتحَ اللهُ أسماعَهم للإصغاءِ إلى الحَقِّ، وسَهَّل لهم اتباعَ الرُّشد، دونَ مَنْ ختم الله على سمعِهِ، فلا يفقه من دعائِكَ إياهُ إلى اللهِ وإلى اتباعِ الحق إلا ما تَفْقَهُ

(١) أهل التفويض: هم الذين يقولون: إن الأمر فوض إلى الإنسان فإرادته كافية في إيجاد فعله، طاعة أو معصية، وهو خالق لأفعاله، والاختيار بيده.
والقدرية: هم نُفاة القدر.

الأنعامُ من أصواتِ رُعاتها، فهم كما وَصَفَهم به الله تعالى ذِكْرُه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونْ﴾ [البقرة: ١٧١]. «والموتى يبعثهم الله»، يقول: والكفارُ يبعثهم الله مع الموتى، فجعلهم تعالى ذِكْرُه في عِدَادِ الموتى الذين لا يسمعونَ صوتاً، ولا يعقلونَ دُعاءً، ولا يفقهون قولًا، إذْ كانوا لا يتدبرون حُججَ الله، ولا يعتبرونَ آياتهِ، ولا يتذكرون فينزجرون عما هُمْ عليه من تكذيبِ رُسلِ الله وخلافهم.

وأما قوله: «ثم إليه يرجعون»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: ثم إلى الله يرجع المؤمنونَ الذين استجابُوا للهِ والرسولِ، والكفارُ الذين يحولُ الله بينهم وبين أنْ يفقهوا عنكَ شيئاً، فيثيب هذا المؤمن على ما سَلَفَ من صالحِ عملهِ في الدنيا بما وَعَدَ أهلَ الإيمانِ به من الثواب، ويعاقب هذا الكافرَ بما أوعدَ أهلَ الكفرِ به من العقاب، لا يظلمُ أحداً منهم مِثْقالَ ذرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالَ هؤلاء العادلونَ بربِّهم، المعرِضُونَ عن آياته: «لولا نُزِّلَ عليه آيةٌ من ربه»، يقول: قالوا: هَلَّا نزل على محمد آية من ربه؟

و«الآية»، العلامة.

وذلك أنهم قالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨]. قال الله تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لقائلي هذه المقالة لكَ: «إنَّ الله قادرٌ على أنْ يُنَزِّلَ آيةً»، يعني: حُجَّةً على مايُريدونَ ويسألون. «ولكن أكثرهم لا يعلمون»، يقول: ولكن أكثرَ الذين يقولون ذلك

فيسألونك آيةً، لا يعلمونَ ما عليهم في الآيةِ إنْ نزَّلها من البلاءِ، ولا يَدْرُونَ ماوجه تركِ إنـزالِ ذلك عليكَ. ولو عَلِمُوا السببَ الذي من أجله لم أنزلها عليكَ، لم يقولوا ذلك، ولم يَسْأَلُوكَهُ، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمونَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المعرضينَ عنك، المُكَذِّبينَ بآياتِ الله: أيها القومُ، لا تَحْسَبُنَّ الله غافلاً عَمَّا تعملون، أو أنه غير مُجازيكم على ماتكسبون! وكيف يَغْفُلُ عن أعمالِكم، أو يترك مُجازاتكُم عليها، وهو غيرُ غافلٍ عن عملِ شيءٍ دَبَّ على الأرض صغيرٍ أو كبيرٍ، ولا عملِ طائرٍ طارَ بجناحيهِ في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناساً مجنَّسة وأصنافاً مصنفة، تعرفُ كما تعرفون، وتتصرفُ فيما سُخِّرَتْ له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عَمِلَتْ من عملٍ لها وعليها، ومُثْبَت كُلُّ ذلك من أعمالها في أُمِّ الكتابِ، ثم إنه تعالى ذِكْـرُه مُميتُهـا ثم مُنْشِرُها ومجازيها يومَ القيامةِ جزاءَ أعمالها. يقول: فالرب الذي لم يُضَيِّعْ حِفْظَ أعمالِ البهائمِ والدوابِّ في الأرض، والطير في الهواء، حتى حَفِظَ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أُمِّ الكتابِ، وحشرها ثم جازاها على ما سَلَفَ منها في دار البلاء، أحْرَى أنْ لا يُضيعَ أعمالَكُمْ، ولا يُفَرِّطَ في حِفْظِ أفعـالكم التي تجترحونها، أيها الناسُ، حتى يحشركم فيجازيكم على جميعها، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشرًّا، إذْ كان قد خَصَّكُم من نِعَمِهِ، وبَسَطَ عليكم من فضلهِ، ما لم يعمَّ به غيركم في الدنيا، وكنتم بشكرهِ أحقَّ، وبمعرفةِ واجبـهِ عليكم أوْلى، لِمَا أعطاكم من العقلِ الذي به بين الأشياء تُمَيِّزُونَ،

والفَهْمِ الذي لم يُعْطِه البهائمَ والطيرَ، الذي به بين مَصَالِحكم ومَضَارِّكُمْ تُفَرِّقُونَ.

وأما قوله: «ما فَرَّطْنَا في الكتابِ من شيءٍ»، فإنَّ معناه: ما ضَيَّعْنَا إثباتَ شيء منه.

وأما قوله: «ثم إلى رَبِّهم يُحشَرونَ»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في معنى «حشرهم»، الذي عناه الله تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع.

فقال بعضهم: «حشرها»، موتها.

وقال آخرون: «الحشر» في هذا الموضع، يعني به الجمع لبعثِ الساعة وقيامِ القيامة.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبر أنَّ كُلَّ دابة وطائرٍ محشورٌ إليه. وجائزٌ أنْ يكونَ معنيًّا بذلك حشر القيامة. وجائز أن يكون معنيّاً به حشر الموت، وجائز أن يكون معنيًّا به الحشران جميعاً، ولا دلالةَ في ظاهر التنزيل، ولا في خبرٍ عن الرسولِ ﷺ أيُّ ذلك المُرَادُ بقوله: «ثم إلى رَبِّهم يُحشرون»، إذْ كان «الحشر»، في كلامِ العربِ الجمع، من ذلك قولُ الله تعالى ذِكْرُه: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩]، يعني: مجموعة. فإذْ كان الجمع هو «الحشر»، وكان الله تعالى ذِكْرُه جامعاً خلْقَهُ إليه يومَ القيامة، وجامعهم بالموت، كان أصوبُ القولِ في ذلك أنْ يُعَمَّ بمعنى الآيةَ ما عَمَّهُ الله بظاهرها ـ وأن يقال: كل دابة وكل طائر محشورٌ إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة، إذْ كان الله تعالى ذِكْرُه قد عَمَّ بقوله: : «ثم إلى ربهم يحشرون»، ولم يخصص به حَشْراً دونَ حَشْرٍ.

فإنْ قالَ قائلٌ: فما وجهُ قولِه: «ولا طائر يطير بجناحيه»؟ وهل يطيرُ الطائرُ إلا بجناحيهِ؟ فما في الخبرِ عن طيرانهِ بالجناحينِ من الفائدةِ؟

قيل: قد قدَّمْنَا القولَ فيما مضى أنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أنزلَ هذا الكتابَ بلسانِ قوم، وبلغاتِهم وما يتعارفُونَهُ بينهم ويستعملونه في مَنْطِقِهم خاطبهم. فإذْ كان مِنْ كلامِهم إذا أرادوا المبالغةَ في الكلامِ أنْ يقولوا: «كلمتُ فلاناً بفمي»، و«مشيتُ إليه برجلي»، و«ضربته بيدي»، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامِهم، ويستعملونه في خطابهم، ومن ذلك قوله تعالى ذكره: ﴿«إنَّ هٰذَا أَخِي لَه تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً «أُنْثَى»﴾[1] [سورة ص: ٢٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَـٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين كَذَّبُوا بحججِ اللهِ وأعلامهِ وأدلته. «صُمٌّ»، عن سماعِ الحقِّ. «بُكْمٌ»، عن القِيلِ به. «في الظلمات»، يعني: في ظُلْمَةِ الكفرِ حائراً فيها، يقول: هو مرتطمٌ في ظُلُمَاتِ الكفر، لا يُبصرُ آياتِ الله فيعتبر بها، ويعلم أنَّ الذي خلقه وأنشأه فَدَبَّرَهُ وأحكم تدبيره، وقَدَّرَهُ أحسنَ تقدير، وأعطاه القوةَ، وصَحَّحَ له آلةَ جسمهِ ـ لم يَخْلُقْهُ عَبَثاً، ولم يتركه سُدًى، ولم يُعْطِهِ ما أعطاهُ من الآلاتِ إلَّا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دونَ معصيته وما يسخطه. فهو لحيرته في ظلماتِ الكفر، وتردُّدِه في غَمَراتها، غافلٌ عمَّا الله قد أثبتَ له في أمِّ الكتاب، وما هُوَ به فاعلٌ يوم يُحْشَرُ إليه مع سائرِ الأمم. ثم

---

(١) استند الطبري رحمه الله على قراءة عبدالله بن مسعود بإضافة كلمة «أنثى» وذلك على سبيل توكيد العرب الكلمة، كقولهم: «هذا رجلٌ ذَكَرٌ» ولا يكادون يفعلون ذلك إلا في المؤنث والمذكر الذي تذكيرهُ وتأنيثه في نفسه، كالمرأة والرجل والناقة. وهذه زيادة تفسيرية من ابن مسعود.

أخبر تعالى ذِكْرُه أنه المُضِلُّ مَنْ يشاء إضلالَهُ من خَلْقِه عن الإيمانِ إلى الكفرِ، والهادي إلى الصراطِ المستقيمِ منهم مَنْ أَحَبَّ هدايته، فموفِّقه بفضلِه وَطوْله للإيمانِ به، وتركِ الكفرِ به وبرسلِه وما جاءتْ به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خَلْقِه أحدٌ إلا مَنْ سَبَقَ له في أمِّ الكتاب السعادة، ولا يَضِلُّ منهم أحدٌ إلا مَنْ سبق له فيها الشقاء، وأنَّ بيده الخيرَ كلَّه، وإليه الفضلُ كله، له الخَلْقُ والأمر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠﴾

تأويلُ الكلام: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بالله الأوثانَ والأصنامَ: أخبروني، إنْ جاءكم، أيها القومُ، عذابُ الله كالذي جاء من قبلكم من الأمم الذين هَلَكَ بعضُهم بالرجفةِ، وبعضهم بالصاعقة ـ أو جاءتكم الساعةُ التي تُنشرونَ فيها من قبورِكم، وتُبعثونَ لموقفِ القيامةِ، أغيرَ الله هناك تَدْعُونَ لكشفِ مانزل بكم من البلاءِ، أو إلى غيرِه من آلهتِكم تَفزعونَ لِيُنَجِّيكُمْ مما نزلَ بكم من عظيمِ البلاء؟. «إنْ كنتم صادقين»، يقول: إنْ كنتم مُحِقِّينَ في دَعْوَاكُم وزعمكم أنَّ آلهتكم التي تدعونها من دونِ الله تنفع أو تضر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُكَذِّباً لهؤلاء العادلينَ به الأوثان: ما أنتم، أيها المشركونَ باللهِ الآلهةَ والأندادَ، إنْ أتاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعةُ، بمستجيرينَ بشيءٍ غير الله في حالِ شِدَّةِ الهولِ النازل بكم من آلهةٍ ووثنٍ وصنم، بل تَدْعُونَ هناك رَبَّكم الذي خَلَقَكم، وبه تستغيثونَ، وإليه تفزعونَ،

دونَ كُلِّ شيءٍ غيره. «فيكشفُ ما تدعـون إليه»، يقـول: فيفـرِّج عنكم عند استغاثَتِكُمْ به وتَضَرُّعِكُمْ إليه، عظيمَ البلاء النازلِ بكم إنْ شاء أن يفرج ذلك عنكم، لأنه القادرُ على كُلِّ شيءٍ، ومالكُ كل شيء، دونَ ما تدعونه إلهاً من الأوثان والأصنام. «وتنسون ما تُشْرِكُونَ»، يقول: وتنسون حين يأتيكم عذابُ الله أو تأتيكم الساعةُ بأهوالها، ماتشركونه مع الله في عبادتِكُمْ إياهُ، فتجعلونه له ندًّا من وثنٍ وصَنم، وغير ذلك مما تعبدونَهُ مِنْ دونه وتدعونه إلهاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعالَى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ـ مُتَوعِّداً لهؤلاء العادلينَ به الأصنامَ ـ ومحذِّرَهُمْ أنْ يسلكَ بهم إنْ هُمْ تمـادَوْا في ضلالهم سبيلَ مَنْ سلك سبيلَهُمْ من الأممِ قَبْلَهُمْ، في تعجيلِ الله عقوبته لهم في الدنيا ـ ومخبراً نبيَّهُ عن سنته في الذين خَلَوْا قبلهم من الأممِ على منهـاجهم من تكـذيبِ الرسل ـ: «لقد أرسلنا»، يامحمـدُ، «إلى أمم»، يعني: إلى جمـاعاتٍ وقرون. «مِنْ قَبْلِكَ فأخذناهم بالبـأسـاء»، يقـول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذَّبُوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحناهم بالابتـلاء. «بـالبـأسـاء»، وهي شِدَّةُ الفقرِ والضيق في المعيشة. «والضراء»، وهي الأسقامُ والعلل العارضة في الأجسام.

وقـولـه: «لعلهم يتضـرعـون» يقـول: فعلنـا ذلك بهم ليتضَرَّعُوا إليَّ، ويُخْلِصُـوا لي العبـادة، ويُفْـرِدُوا رغبتهم إليَّ دون غيري، بالتذللِ منهم لي بالطاعة، والاستكانة منهم إليَّ بالإنابة.

وفي الكـلام محذوفٌ قد استغني بما دلَّ عليه الظاهر من إظهاره دون قولـه: «ولقـد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم»، وإنما كان سبب أخذِه

إياهم، تَكْذِيبهم الرسلَ وخلافهم أمرَهُ ـ لا إرسال الرسل إليهم. وإذْ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنَّ معنى الكلام: «ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك» رسلاً فكذبوهم، «فأخذناهم بالبأساء».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٤٣﴾

وهذا أيضاً من الكلامِ الذي فيه متروك استغني بدلالة الظاهر عن ذِكْرِ ماترُك. وذلك أنه تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن الأممِ التي كَذَّبَتْ رُسُلَهَا أنه أخذهم بالبأساءِ والضراء ليتضرعوا له، ثم قال: «فلولا إذْ جاءهم بأسنا تضرعوا»، ولم يخبر عَمَّا كان منهم من الفعلِ عند أخذهِ إياهم بالبأساء والضراء. ومعنى الكلام: «ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون»، فلم يتضرعوا، «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا».

ومعنى: «فلولا»، في هذا الموضع، فَهَلَّا. والعرب إذا أوْلَتْ «لولا» اسماً مرفوعاً، جعلت مابعدها خبراً، وتلقتها بالأمر، فقالت: «لولا أخوك لزرتك» و«لولا أبوك لضربتك»، وإذا أوْلتها فعلاً، أو لم تُولها اسماً، جعلوها استفهاماً فقالوا: «لولا جئتنا فنكرمك» و«لولا زرت أخاك فنزورك»، بمعنى: «هلاّ»، كما قال تعالى ذِكْرُه: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون: ١٠]. وكذلك تفعل بـ «لَوْمَا» مثل فِعْلِهَا بـ «لولا».

فتأويلُ الكلام إذاً: فَهَلَّا إذْ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رُسُلَها، الذينَ لم يتضرعوا عند أخذِنَاهُمْ بالبأساءِ والضراء. «تضرعوا»، فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف رَبُّهم عنهم بأسَهُ، وهو عذابه.

«ولكنْ قَسَتْ قلوبهم،» يقـول: ولكنْ أقـامـوا على تكذِيبهم رُسُلَهُم، وأصَرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمرِ رَبِّهم، استهانةً بعقابِ الله، واستخفافاً بعـذابه، وقساوةَ قلبٍ منهم. «وزَيَّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون»، يقول: وحَسَّنَ لهمُ الشيطانُ ما كانوا يعملون من الأعمالِ التي يكرهها الله ويسخطها منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني تعالى ذكره بقوله: «فلما نَسُوا ما ذُكِّرُوا به»، فلما تَرَكُوا العملَ بما أمرناهم به على ألسنِ رُسُلِنَا.

«فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيء»، يقول: بَدَّلْنَا مكانَ البأساءِ الرخاءَ والسعةَ في العيش، ومكانَ الضرَّاءِ الصِحَّةَ والسلامةَ في الأبدانِ والأجسام، استدراجاً مِنَّا لهم.

فإنْ قال لنـا قائلٌ: وكيف قيل: «فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيء»، وقد علمتَ أنَّ بابَ الرحمةِ وبابَ التوبةِ لم يُفْتَحَا لهم، ولم تُفْتَحْ لهم أبواب أُخَرُ غيرهما كثيرة؟

قيل: إنَّ معنى ذلك على غيرِ الوجهِ الذي ظننتَ من معناه، وإنما معنى ذلك: فتحنا عليهم، استدراجاً مِنَّا لهم، أبوابَ كُلّ ما كُنَّا سَدَدْنَا عليهم بابَهُ، عند أخذِنا إياهم بالبأساءِ والضراءِ ليتضرعوا، إذْ لم يتضرعوا وتركوا أمرَ الله تعالى

ذِكْرُه، لأنَّ آخر هذا الكلام مردودٌ على أوله. وذلك كما قال تعالى ذِكْرُه في موضعٍ آخر من كتابه: ﴿وما أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ* ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾، [الأعراف: ٩٤، ٩٥]، ففتح الله على القومِ الذين ذكر في هذه الآية أنهم نَسُوا ماذكرهم، بقوله: «فلما نَسُوا ماذُكِّرُوا به فتحنا عليهم أبوابَ كُلِّ شيءٍ»، هو تبديله لهم مكانَ السيئةِ التي كانوا فيها حال امتحانهِ إياهم، من ضيقِ العيشِ إلى الرخاءِ والسعة، ومن الضُرِّ في الأجسام إلى الصحةِ والعافية، وهو «فتح أبواب كل شيء» كان أغلق بابه عليهم، مما جرى ذِكْرُه قبل قوله: «فتحنا عليهم أبواب كل شيء»، فَرَدَّ قوله: «فتحنا عليهم أبواب كل شيء» عليه.

ويعني تعالى بقوله: «حتى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا»، يقول: حتى إذا فَرِحَ هؤلاء المكذِّبُونَ رسلَهم بفتْحِنَا عليهم أبوابَ السَّعة في المعيشة، والصحة في الأجسام.

ويعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أخذناهم بغتة»، أتيناهم بالعذاب فجأة، وهم غارُّون لا يشعرون أنَّ ذلك كائن، ولا هو بهم حالٌّ.

وأما قوله: «فإذا هم مُبْلِسُونَ»، فإنهم هالكونَ، منقطعة حُجَجهم، نادمون على ما سَلَفَ منهم من تكذِيبهم رُسُلَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فَقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا»، فاستُؤصِلَ القومُ الذين عَتَوا على رَبِّهم، وكَذَّبُوا رسلَهُ، وخالفوا أمره، عن آخرِهم، فلم

يُتْرَكْ منهم أحدٌ إلا أُهلكَ بغتةً إذْ جاءهم عذابُ الله.

«والحمدُ لله رَبِّ العالمين»، يقول: والثناءُ الكاملُ التام. «لله رب العالمين»، على إنعامهِ على رُسُلِه وأهلِ طاعتهِ، بإظهارِ حججهم على مَنْ خالفهم من أهلِ الكفرِ، وتحقيق عِداتِهم ما وَعدهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسلَهُ من نِقمِ الله وعاجلِ عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بي الأوثانَ والأصنامَ، المكذبينَ بك: أرأيتم، أيها المشركونَ بالله غيرَه، إنْ أصَمَّكم اللهُ فذهبَ بأسماعِكم، وأعماكم فذهبَ بأبصارِكم، وختمَ على قلوبكم فطبعَ عليها، حتى لا تفقهوا قولاً، ولا تُبْصِرُوا حجةً، ولا تفهموا مفهوماً، أيّ إلهٍ غير الله الذي له عبادةُ كُلِّ عابد. «يأتيكم به» يقول: يَرُدُّ عليكم ماذهب الله به منكم من الأسماعِ والأبصارِ والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة رَبِّكم الذي يقدرُ على ذهابه بذلك منكم، وعلى رَدِّهِ عليكم إذا شاء؟

وهذا من الله تعالى ذِكْرُهُ، تعليم نبيِّه الحجةَ على المشركينَ به، يقولُ له: قُلْ لهم: إنَّ الذين تعبدونهم من دونِ الله لا يملكونَ لكم ضرًّا ولا نفعاً، وإنما يستحق العبادةَ عليكم مَنْ كان بيدهِ الضرُّ والنفعُ، والقبضُ والبسطُ، القادرُ على كُلِّ ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدرُ على شيء.

ثم قال تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «انظر كيف نُصَرِّفُ الآياتِ»،

يقول: انظر كيف نتابعُ عليهم الحججَ، ونضربُ لهم الأمثال والعِبَرَ، ليعتبروا ويذكروا فَيُنِيبُوا. «ثم هم يَصْدِفُون»، يقول: ثم هُمْ مع متابعتنا عليهم الحججَ، وتنبيهنا إياهم بالعبرِ، عن الادِّكارِ والاعتبارِ يُعْرِضون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ، المكذبينَ بأنك لي رسولٌ إليهم: أخبروني. «إنْ أتاكم عذابُ الله»، وعقابه على ما تُشْرِكُونَ به ما تشركون من الأوثانِ والأندادِ، وتكذيبكم إيايَ بعد الذي قد عاينتم من البرهانِ على حقيقة قولي. «بغتة»، يقول: فجأة على غِرَّةٍ[1] لا تشعرون. «أو جهرة»، يقول: أو أتاكم عذابُ الله وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه. «هل يهلكُ إلا القومُ الظالمون»، يقول: هل يُهْلِكُ الله منا ومنكم إلَّا مَنْ كان يعبدُ غيرَ مَنْ يستحقُّ علينا العبادةَ، ويترك عبادةَ من يستحق علينا العبادة؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وما نرسلُ رُسُلَنَا إلَّا ببشارةِ أهلِ الطاعةِ لنا بالجنةِ والفوز المبين يومَ القيامة، جزاءً مِنَّا لهم على طاعتنا ـ وبإنذارِ مَنْ عصانا وخالف أمرنا، عقوبتنا إياهُ على معصيتنا يومَ القيامة، جزاءً منا على معصيتنا، لنعذر إليه فيهلك إنْ هلكَ عن بَيِّنةٍ. «فمن آمن وأصلح»، يقول: فمن صَدَّقَ مَنْ أرسلنا إليه من رسلنا إنذارَهُمْ إياهُ، وقَبِلَ منهم ما جاؤوه به من عندِ الله، وعملَ صالحاً

(١) الغِرة بالكسر: الغفلة. والغارُّ: الغافل. واغترَّ الرجل، واغتر بالشيء: خُدعَ به.

في الدنيا. «فلا خوفٌ عليهم»، عند قدومِهم على ربهم، من عقابهِ وعذابهِ الذي أعدَّهُ الله لأعدائه وأهلِ معاصيه. «ولا هم يحزنون»، عند ذلك على ما خَلَّفُوا وراءَهم في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ۝٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وأما الذين كَذَّبُوا بمن أرسلنا إليه من رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ودافعوا حجتنا، فإنهم يباشرهم عذابُنا وعقابنا، على تكذِيبهم ما كَذَّبُوا به من حججنا. «بما كانوا يفسقون»، يقول: بما كانوا يُكَذِّبُون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ لهؤلاء المنكرين نُبُوَّتَكَ: لستُ أقولُ لكم إنِّي الربُّ الذي له خزائنُ السمواتِ والأرض، فأعلم غيوبَ الأشياءِ الخَفيَّةِ التي لا يعلمها إلا الربُّ الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ، فتكذِّبُوني فيما أقولُ من ذلك، لأنه لا ينبغي أنْ يكون ربًّا إلا مَنْ ملك كُلَّ شيءٍ، وبيده كُلُّ شيءٍ، ومَنْ لا يخفى عليه خافيةٌ، وذلك هو اللهُ الذي لا إله غيرهُ. «ولا أقول لكم إني ملك»، لأنه لا ينبغي لملك أنْ يكونَ ظاهراً بصورتِهِ لأبصارِ البشرِ في الدنيا، فتجحدوا ما أقولُ لكم من ذلك. «إنْ أتَّبعُ إلّا ما يُوحَى إليَّ»، يقول قُلْ لهم: ما أتبع فيما أقولُ لكم وأدعوكم إليه، إلّا وحي الله الذي يوحيه إليَّ، وتنزيله الذي ينزله

عليَّ، فأمضي لوحيهِ وأئتمر لأمرهِ، وقد أتيتكم بالحججِ القاطعةِ من الله عُذْرَكُم على صِحَّةِ قولي في ذلك، وليس الذي أقولُ من ذلك بمنكرٍ في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجودِ البرهانِ على حقيقته هو الحكمةُ البالغة، فما وجهُ إنكارِكم ذلك؟

وذلك تنبيهٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّه ﷺ على موضعِ حُجَّتهِ على منكري نبوّته من مشركي قومه.

«قل هل يستوي الأعمى والبصير»، يقول تعالى ذِكْرُهُ: قُلْ، يامحمدُ، لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق، والبصير به. «والأعمى»، هو الكافرُ الذي قد عَميَ عن حجج الله فلا يتبيَّنها فيتبعها. «والبصير»، المؤمن الذي قد أبصرَ آيات الله وحججه، فاقتدى بها واستضاء بضيائها. «أفلا تتفكرون»، يقولُ لهؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتِ الله: أفلا تتفكرون فيما أحتجُّ عليكم به، أيها القومُ، من هذه الحججِ، فتعلموا صحةَ ما أقولُ وأدعوكم إليه، من فسادِ ما أنتم عليه مُقيمونَ من إشراكِ الأوثانِ والأندادِ بالله رَبِّكم، وتكذيبكم إيايَ مع ظهورِ حججِ صِدْقي لأعينكم، فَتَدَعُوا ما أنتمْ عليه من الكفرِ مقيمون، إلى ما أدعوكم إليه من الإيمانِ الذي به تفوزون؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: وأنذِرْ، يامحمدُ، بالقرآنِ الذي أنزلناهُ إليكَ، القومَ الذين يخافونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهم، علماً منهم بأنَّ ذلك كائنٌ، فهم مُصَدِّقونَ بوعدِ الله ووعيده، عاملونَ بما يُرْضِي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذُهم في مَعَادِهم من عذابِ الله. «ليس لهم من دونه وليٌّ»، أي ليس

لهم من عذابِ الله إنْ عَذَّبهم، «وليٌّ»، ينصرهم فيستنقذهم منه. «ولا شفيعٌ»، يشفعُ لهم عند الله تعالى ذِكْرُهُ فيخلصهم من عقابه. «لعلهم يتقون»، يقول: أنذرهم كي يَتَّقُوا اللهَ في أنفسِهم، فيطيعوا رَبَّهم، ويعملُوا لمعادِهم، ويَحْذَرُوا سَخطهُ باجتنابِ معاصيه.

وقيل: «وأنـذر به الـذين يخافون أن يحشروا»، ومعناه، يعلمون أنهم يُحشـرونَ، فوضعت «المخـافة» موضعَ «العلم»، لأنَّ خوفهم كان من أجلِ عِلْمِهم بوقوعِ ذلك ووجوده من غير شَكٍّ منهم في ذلك.

وهذا أمرٌ من الله تعالى ذِكْرُهُ نبيَّه محمداً ﷺ بتعليمِ أصحابهِ ما أنزل الله إليه من وحيهِ، وتذكيرهم، والإقبال عليهم بالإنذار ـ وصدَّ عنه المشركونَ به، بعدَ الإعذارِ إليهم، وبعد إقامةِ الحجةِ عليهم، حتى يكونَ اللهُ هو الحاكمُ في أمرهم بما يشاءُ من الحكمِ فيهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

ذُكِـرَ أنَّ هذه الآية نزلت على رسـولِ الله ﷺ، في سببِ جماعةٍ من ضعفاءِ المسلمينَ، قال المشركون له: لو طردتَ هؤلاء عنكَ لغشيناكَ وحَضَرْنَا مجلسكَ!

واختلف أهلُ التأويل في الدعاء الذي كان هؤلاء الرَّهط، الذين نهى اللهُ نبيَّهُ ﷺ عن طردِهم، يدعونَ رَبَّهم به.

فقال بعضهم: هي الصلواتُ الخمس.

وقال آخرون: هي الصلاة، ولكنَّ القومَ لم يسألوا رسولَ الله ﷺ طردَ هؤلاء الضعفاءِ عن مجلسهِ، ولا تأخيرهم عن مجلسهِ، وإنما سألوه تأخيرَهُمْ عن الصفِّ الأولِ، حتى يكونوا وراءَهُمْ في الصفِّ.

وقال آخرون: بل معنى «دعائهم» كان، ذِكْرُهم الله تعالى ذِكْرُهُ.

وقال آخرون: بل كان ذلك، تَعَلُّمهم القرآنَ وقراءته.

وقال آخرون: بل عَنَى بدعائهم رَبَّهم، عبادَتَهُمْ إياهُ.

والصواب من القول في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُهُ نهى نبيهُ محمداً ﷺ أنْ يطرُدَ قوماً كانوا يدعون رَبَّهم بالغَداةِ والعشيِّ، و«الدعاء لله»، يكون بذكرهِ وتمجيدهِ والثناءِ عليه قولاً وكلاماً ـ وقد يكونُ بالعملِ له بالجوارحِ الأعمالَ التي كان عليهم فرضها، وغيرها من النوافلِ التي تُرْضِي عن العاملِ له عابدَهُ بما هو عاملٌ له. وقد يجوز أنْ يكونَ القومُ كانوا جامعينَ هذه المعاني كلها، فوصفهم اللهُ بذلك بأنهم يَدْعُونَهُ بالغداةِ والعشيِّ، لأنَّ اللهَ قد سَمَّى «العبادَةَ»، «دعاءً»، فقال تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُم ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، [غافر: ٦٠]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصٍّ من الدعاء.

ولا قولَ أوْلى بذلك بالصحة، من وَصْفِ القومِ بما وصفهم اللهُ به: من أنهم كانوا يدعون رَبَّهم بالغَداةِ والعشي، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم، ولا يخصُّون منها بشيءٍ دون شيء.

فتأويلُ الكلام إذاً: يامحمد، أنذر بالقرآنِ الذي أنزلتهُ إليكَ، الذين يعلمونَ أنهم إلى رَبِّهم محشورون ـ فهم من خوفِ ورودِهم على الله الذي لا شفيعَ لهم من دونهِ ولا نصير، في العملِ له دائبونَ ـ إذْ أعْرضَ عن إنذارِكَ

واستماع ما أنزل الله عليكَ المكذِّبُونَ باللهِ واليومِ الآخر من قومك، استكباراً على اللهِ ـ ولا تَطْردهم ولا تُقْصِهم، فتكـونَ ممن وَضَـعَ الإقصـاءَ في غير موضعهِ، فأقصى وطرد مَنْ لم يَكُنْ له طردُه وإقصاؤه، وقَرَّبَ مَنْ لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه، فإنَّ الذين نهيتُك عن طردهم هم الذين يَدْعُونَ رَبَّهم فيسألونَهُ عفوه ومغفرته بصالحِ أعمالِهم، وأداءِ ما ألزمهم من فرائضهِ، ونوافلِ تَطوّعِهم، وذِكْرهم إياهُ بألسنتهم بالغداة والعشيِّ، يلتمسونَ بذلك القُرْبَةَ إلى الله، والدنوَّ من رِضَاهُ. «ما عليكَ من حسابِهم من شيءٍ»، يقول: ما عليكَ من حسابِ ما رزقتهم من الرزق من شيءٍ وما عليهم من حسابِ ما رزقتكَ من الرزق من شيء. «فتطردهم»، حذارَ محاسبتي إياك بما خَوَّلتهم في الدنيا من الرزق.

وقوله: «فتطردهم»، جوابٌ لقوله: «ما عليكَ من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء».

وقوله: «فتكون من الظالمين» جوابٌ لقوله: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ۝٥٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وكذلك فَتَنَّا بعضَهم ببعض»، وكذلك اختبرنا وابتلينا.

وإنما فتنةُ الله تعالى ذِكْرُهُ بعضَ خَلْقِه ببعضٍ، مخالفتهُ بينهم فيما قَسَمَ لهم من الأرزاقِ والأخلاق، فجعل بعضاً غنيًّا وبعضاً فقيراً، وبعضاً قويًّا، وبعضاً ضعيفاً، فأحوجَ بعضَهم إلى بعضٍ، اختباراً منه لهم بذلك.

وأما قوله: «ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا»، يقول تعالى: اختبرنا الناسَ بالغنى والفقر، والعزِّ والذلِّ، والقوةِ والضعفِ، والهدى والضلال، كي يقــول مَنْ أضلَّهُ الله وأعمـاهُ عن سبيلِ الحق، لِلَّذِينَ هَدَاهُمُ الله ووفَّقهم: «أهؤلاء مَنَّ الله عليهم»، بالهدى والرشد، وهم فقراءُ ضعفاء أذلاء. «مِنْ بيننا»، ونحنُ أغنياءُ أقوياء؟ استهزاءً بهم، ومعاداةً للإسلام وأهله.

يقول تعالى ذِكْرُهُ: «أليس الله بأعلم بالشاكرين»، وهذا منه تعالى ذِكْرُهُ إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أنْ يكونَ الله هَدَى أهلَ المسكنةِ والضعفِ للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء ـ وتقريرٌ لهم: أنا أعلمُ بمَنْ كان من خَلْقي شاكراً نعمتي، مِمَّنْ هو لها كافرٌ. فَمَنِّي على مَنْ مَنَنْتُ عليه منهم بالهدايةِ، جزاء شكرهِ إيايَ على نعمتي، وتخذيلي مَنْ خذلتُ منهم عن سبيلِ الرشاد، عقوبة كُفْرانهِ إياي نعمتي، لا لغنى الغنيِّ منهم ولا لفقرِ الفقيرِ، لأنَّ الثوابَ والعقابَ لا يستحقُّهُ أحدٌ إلا جزاءً على عملهِ الذي اكتسبه، لا على غِناه وفقره، لأنَّ الغنى والفقرَ والعجزَ والقوةَ ليس من أفعالِ خَلْقي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥٤﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذين عَنَى الله تعالى ذِكْرُهُ بهذه الآية.

فقال بعضهم: عَنَى بها الذين نهى الله نبيَّه عن طردهم.

وقال آخرون: عَنَى بها قوماً استفتوا النبيَّ ﷺ في ذنوبٍ أصابوها عظامٍ، فلم يُؤْيِسْهُم الله من التوبة.

وقال آخرون: بل عُني بها قومٌ من المؤمنين كانوا أشاروا على النبيِّ ﷺ بطرد القومِ الذين نهاهُ الله عن طردهم، فكان ذلك منهم خطيئة، فغفرها الله لهم وعفا عنهم، وأمرَ نبيَّهُ ﷺ إذا أتوه أنْ يُبَشِّرَهُمْ بأنْ قد غَفَرَ لهم خطيئتهم التي سَلَفَتْ منهم بمشورتهم على النبيِّ ﷺ بطردِ القومِ الذين أشاروا عليه بطردهم.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بتأويل الآية، قولُ مَنْ قال: المعنيُّون بقَوله: «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فَقُلْ سلامٌ عليكم»، غيرُ الذين نَهَى اللهُ النبيَّ ﷺ عن طرِدهم. لأنَّ قوله: «وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا»، خبرٌ مستأنَفٌ بعد تقضِّي الخبرِ عن الذين نهَى اللهُ نبيَّهُ ﷺ عن طردهم. ولو كانوا هم، لقيل: «وإذا جاؤوك فقل سلامٌ عليكم». وفي ابتداء الله الخبرَ عن قصةِ هؤلاء، وتَرْكِهِ وَصْلَ الكلامِ بالخبر عن الأولين، ما ينبىءُ عن أنهم غيرُهم.

فتأويلُ الكلام إذاً ـ إذْ كان الأمر على ما وصفنا ـ: وإذا جاءكَ، يامحمدُ، القومُ الذين يصدِّقُونَ بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، فَيُقِرُّونَ بذلك قولاً وعملاً، مُسْتَرْشِدِيكَ عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم، هل لهم منها توبةٌ، فلا تُؤيِسْهُمْ منها، وقُلْ لهم: «سلام عليكم»، أمَنَةُ اللهِ لكم من ذنوبِكم، أنْ يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها. «كتبَ رَبُّكم على نفسهِ الرحمةَ»، يقول: قضى ربكم الرحمةَ بخلقِه. «أنه مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تابَ من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم».

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامةُ قَرَأةِ المدنيين: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً﴾، فيجعلون «أنَّ»

منصوبةً على الترجمة بها عن «الرحمة» ـ ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، على ائتنافِ «إنه» بعد «الفاء» فيكسرونها، ويجعلونها أداةً لا موضع لها، بمعنى: فهو له غفور رحيم ـ أو: فله المغفرة والرحمة[1].

وقرأهما بعض الكوفيين بفتح «الألف» منهما جميعاً، بمعنى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ ثم ترجم بقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾، عن الرحمة، ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فيعطف بـ «أَنَّهُ» الثانية على «أنه» الأولى، ويجعلهما اسمين منصوبين.

وقرأ ذلك بعض المكيين وعامةُ قَرَأَةِ أهلِ العراقِ من الكوفة والبصرة: بكسر «الألف» من «إنه» و«إنه» على الابتداء، وعلى أنهما أداتان لا موضعَ لهما.

وأَوْلى القراءات في ذلك عندي بالصوابِ، قراءةُ مَنْ قرأهما بالكسر: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ﴾، على ابتداءِ الكلامِ، وأنَّ الخبرَ قد انتهى عند قولِه: «كتب ربكم على نفسه الرحمة»، ثم استؤنِفَ الخبرُ عمَّا هو فاعلٌ تعالى ذِكْرُهُ بِمَنْ عَمِلَ سوءاً بجهالة ثم تابَ وأصلحَ منه.

ومعنى قوله: «إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة»، إنه مَن اقترفَ منكم ذنباً فجهل باقترافه إياه، ثم تابَ وأصلحَ. «فإنه غفورٌ»، لذنبِهِ إذا تابَ وأنابَ، وراجع العمل بطاعةِ الله، وتركَ العودَ إلى مِثْلِه، مع الندمِ على ما فَرَطَ منه. «رحيمٌ»، بالتائبِ أن يعاقبه على ذَنْبِه بعد توبتِهِ منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٢٣٦.

يعني تعالى ذِكْرُهُ بقوله: «وكذلك نُفَصِّلُ الآيات»، وكما فصلنا لكَ في هذه السورةِ من ابتدائِها وفاتحتها، يامحمدُ، إلى هذا الموضع، حُجَّتَنا على المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ، وأدلتَنا، وميَّزناها لك وبَيَّناها، كذلك نفصِّلُ لك أعلامنا وأدلتنا في كل حقّ يُنْكِرُه أهلُ الباطل من سائرِ أهلِ المللِ غيرهم، فَنُبَيِّنُهَا لكَ، حتى يبين حقُّه من باطلهِ، وصحيحهُ من سقيمهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء المشركينَ بربِّهم من قومِكَ، العادلينَ به الأوثانَ والأندادَ، الذين يدعونَك إلى موافقَتِهم على دِينهم وعبادةِ الأوثان: إنَّ الله نهاني أنْ أعبدَ الذين تدعون من دونه، فلن أتبعكم على ماتدعونني إليه من ذلك، ولا أوافقكم عليه، ولا أعطيكم محبّتكم وهواكم فيه. وإنْ فعلتُ ذلك، فقد تركتُ محجَّةَ الحق، وسلكتُ على غيرِ الهدى، فصرتُ ضالاً مثلكم على غير استقامة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم، الداعينَ لكَ إلى الإشراكِ بربِّكَ. «إنّي على بَيِّنةٍ من ربي»، أي إني على بيانٍ قد تَبَيَّنْتُهُ، وبرهانٍ قد وضحَ لي. «من ربي»، يقول: من توحيدي، وما أنا عليه

من إخلاصِ عُبُودَتِه من غير إشراكِ شيءٍ به.

«وكذبتم به» يقول: وكذبتم أنتم بربكم. و«الهاء» في قوله «به» من ذكر الربِّ جَلَّ وعَزَّ «ما عندي ما تستعجلون به»، يقول: ما الذي تستعجلون من نِقمِ الله وعذابه بيدي، ولا أنا على ذلك بقادرٍ. وذلك أنهم قالوا حين بعثَ اللهُ نبيَّه محمداً ﷺ بتوحيده، فدعاهم إلى الله، وأخبرهم أنه رسولُه إليهم: ﴿هَلْ هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]. وقالوا للقرآن: هو أضغاثُ أحلام. وقال بعضهم: بل هو اختلاقٌ اختلقَهُ. وقال آخرون: بل محمدٌ شاعرٌ، فليأْتِنا بآيةٍ كما أُرسِلَ الأولونَ ـ فقال اللهُ لنبيهِ ﷺ: أجِبْهُمْ بأنَّ الآياتِ بيدِ الله لا بيدكَ، وإنما أنتَ رسولٌ، وليس عليكَ إلا البلاغ لما أرسلتَ به، وأنَّ الله يقضي الحقَّ فيهم وفيك، ويفصلُ به بينك وبينهم، فيتبين المُحِقُّ منكم والمُبْطِلُ. «وهو خيرُ الفاصلين»، أي: وهو خير مَنْ بَيَّنَ ومَيَّزَ بين المحق والمبطل وأعدلهم، لأنه لا يقعُ في حُكْمِه وقضائه حَيْفٌ إلى أحدٍ لوسيلةٍ له إليه ولا لقرابةٍ ولا مناسبة، ولا في قضائه جَوْرٌ، لأنه لا يأخذُ الرشوةَ في الأحكامِ فيجور، فهو أعدلُ الحكام وخيرُ الفاصلين.

واختلفت القَرَأةُ في قراءة قوله: «يَقُصُّ الحق».

فقرأ عامةُ قرأةِ الحجازِ والمدينةِ وبعض قرأةِ أهلِ الكوفة والبصرة: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إلا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾، بالصاد، بمعنى «القصص»، وتأَوَّلُوا في ذلك قولَ الله تعالى ذِكْرُهُ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، [يوسف: ٣].

وقرأ ذلك جماعة من قرأة الكوفة والبصرة: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إلا للهِ يَقْضِي الْحَقَّ﴾ بالضاد، من «القضاء»، بمعنى الحكم والفصل بالقَضَاء، واعتبروا صحة ذلك بقوله: «وهو خير الفاصلين»، وأنَّ «الفصل» بين المختلفين إنما يكونُ بالقضاء لا بالقَصَص.

وهذه القراءة عندنا أوْلى القراءتَين بالصواب، لما ذكرنا لأهلِها من العلّة.

فمعنى الكلام إذاً: ما الحكم فيما تستعجلونه به، أيها المشركونَ، من عذابِ الله وفيما بيني وبينكم، إلّا لله الذي لا يجورُ في حكمه، وبيده الخَلْقُ والأمر، يقضي الحَقَّ بيني وبينكم، وهو خيرُ الفاصلين بيننا بقضائهِ وحُكْمه.

القَوْلُ فِي تَأْويل قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يامحمد، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الآلهةَ والأوثانَ، المُكَذِّبيكَ فيما جِئْتَهُمْ به، السائِليكَ أنْ تأتيهم بآيةٍ استعجالاً منهم بالعذاب: لو أنَّ بيدي ما تستعجلونَ به من العذابِ. «لقضي الأمر بيني وبينكم»، ففصل ذلك أسرع الفصل، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه، ولكن ذلك بيد الله، الذي هو أعلمُ بوقتِ إرسالهِ على الظالمين، الذين يضعونَ عبادتهم التي لا تنبغي أنْ تكونَ إلّا لله في غيرِ موضعها، فيعبدون من دونهِ الآلهةَ والأصنامَ، وهو أعلمُ بوقتِ الانتقامِ منهم، وحالِ القضاء بيني وبينهم.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾

يقول: وعند الله مفاتحُ الغيب.

و«المفاتح» جمع «مِفْتَح»، يقال فيه: «مِفْتح» و«مِفْتَاح». فَمَنْ قال: «مِفْتَح»، جمعه «مفاتح»، ومَنْ قال: «مفتاح»، جمعه «مفاتيح».

ويعني بقوله: «وعنده مفاتح الغيب»، خزائنُ الغيبِ.

فتأويل الكلام إذاً: واللهُ أعلمُ بالظالمينَ من خَلْقِه، وما هُمْ مستحقُّوه وما هو بهم صانعٌ، فإنَّ عنده عِلْم ما غاب علمه عن خَلْقِه فلم يَطَّلِعُوا عليه ولم يُدْرِكُوه، ولن يعلموه ولن يدركوه. «ويعلم ما في البر والبحر»، يقول: وعنده عِلْمُ ما لم يغب أيضاً عنكم، لأنَّ ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين، يعلمُه العبادُ. فكأنَّ معنى الكلام: وعند الله عِلْم ما غابَ عنكم، أيها الناسُ، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثرَ بعلمِه نفسَهُ، ويعلمُ أيضاً مع ذلك جميعَ ما يعلمه جميعُكم، لا يَخْفى عليه شيءٌ، لأنه لا شيءَ إلا ما يخفى عن الناس أو مالا يخفى عليهم. فأخبر تعالى ذِكْرُه أن عنده علم كُلِّ شيءٍ كانَ ويكونُ، وما هو كائنٌ مما لم يكن بَعْدُ، وذلك هو الغيب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى ذكره: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرى، إلا اللهُ يعلمها. «ولا حبةٍ في ظُلماتِ الأرضِ ولا رطبٍ ولا يابس إلا في كتاب مبين»، يقول: ولا شيء أيضاً مما هو موجود، أو ممّا سيوجدُ ولم يوجدْ بَعْدُ، إلا وهو مثبتٌ في اللوحِ المحفوظ، مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عددُه ومبلغه، والوقت الذي يوجدُ فيه، والحالُ التي يفنى فيها.

ويعني بقوله: «مبين»، أنه يبين عن صِحَّةِ ما هُوَ فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم.

فإنْ قال قائل: وما وجهُ إثباتِهِ في اللوح المحفوظِ والكتابِ المبين، مالا يَخْفَى عليه، وهو بجميعه عالمٌ لا يُخَاف نسيانه؟

قيل له: لله تعـالى ذِكْـرُه فِعْل ما شاء. وجائزٌ أنْ يكونَ كانَ ذلك منه امتحـانـاً منـه لحفَـظَتِه، واختباراً للمتوكلينَ بكتابةِ أعمالهم، فإنهم فيما ذُكِرَ مأمورونَ بكتابةِ أعمالِ العبادِ، ثم بعرضها على ما أثبته الله من ذلك في اللوحِ المحفوظ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم. وقيل إن ذلك معنى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، [الجاثية: ٢٩]. وجائزٌ أنْ يكونَ ذلك لغير ذلك، مما هو أعلمُ به، إمّا بحجةٍ يحتجُّ بها على بعضِ ملائكته، وإما على بني آدم وغير ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه ﷺ: وقُلْ لهم، يامحمدُ، والله أعلم بالظالمين، والله هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم. «ويعلمُ ماجرحتم بالنهار»، يقول: ويعلمُ ماكسبتم من الأعمال بالنهار.

وأما «الاجتراح» عند العربِ، فهو عملُ الرجلِ بيده أو رجله أو فمه، وهي «الجوارح» عندهم، جوارح البدن فيما ذُكِرَ عنهم. ثم يقال لِكُلِّ مكتسبٍ عملاً «جارح»، لاستعمالِ العربِ ذلك في هذه «الجوارح»، ثم كَثُرَ ذلك في الكلام حتى قِيلَ لكل مُكْتَسِبٍ كَسْباً، بأيِّ أعضاءِ جسمِه اكتسب: «مُجْتَرِحٌ».

وهذا الكلامُ وإنْ كان خبراً من الله تعالى ذِكْرُهُ عن قُدْرتهِ وعلمه، فإنَّ فيه احتجاجاً على المشركينَ به، الذين كانوا يُنكرونَ قدرته على إحيائِهم بعد مماتهم وبعثهم بعـد فنـائهم. فقال تعالى ذِكْرُهُ محتجاً عليهم: «وهو الذي

يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى»، يقول: فالذي يقبضُ أرواحكم بالليل ويبعثكم في النهار لتبلغوا أجلاً مسمى، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّتَهُ، غير منكرٍ له القدرة على قبضِ أرواحِكم وإفنائكم، ثم رَدِّها إلى أجسادِكم، وإنشائِكم بعد مماتِكم، فإنَّ ذلك نظير ما تُعاينونَ وتشاهدون. وغير منكر لمن قَدَرَ على ما تعاينون من ذلك، القدرةُ على ما لم تُعاينوه. وإنَّ الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك، شبيه مارأيتم وعاينتم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٦٠﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: «ثم يبعثكم»، يثيركم ويوقظكم من منامكم. «فيه» يعني: في النهار، و«الهاء» التي في «فيه» راجعةٌ على «النهار». «ليقضى أجلٌ مسمى»، يقول: ليقضيَ اللهُ الأجلَ الذي سَمَّاهُ لحياتكم، وذلك الموت، فيبلغ مدته ونهايته. «ثم إليه مرجعكم»، يقول: ثم إلى الله مَعَادكم ومصيركم. «ثم ينبئكم بما كنتم تعملون»، يقول: ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إنْ خيراً فخيراً وإنْ شرًّا فشرًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وهو القاهر»، والله الغالبُ خَلْقَهُ، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم، المذلَّل المَعْلُوّ عليه لِذِلَّتِه. «ويرسل عليكم حفظة»، وهي ملائكتُه الذين يَتَعاقَبُونَكُمْ ليلاً ونهاراً، يحفظونَ أعمالَكُمْ ويحصونها، ولا يفرطون في حِفْظِ ذلك وإحصائِهِ ولا يُضيعون.

فإنْ قال قائل: أَوَ ليسَ الذي يقبضُ الأرواحَ مَلَكُ الموتِ، فكيف قيل: «توفته رسلنا»، «والرسلُ» جملة وهو واحدٌ؟ أو ليس قد قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾، [السجدة: ١١]؟

قيل: جائزٌ أنْ يكونَ الله تعالى ذِكْرُهُ أعانَ مَلَكَ الموت بأعوانٍ من عنده، فيتولون ذلك بأمرِ ملك الموت، فيكون «التوفي» مضافاً ـ وإنْ كان ذلك من فعل أعوانِ ملك الموت ـ إلى ملك الموت، إذْ كان فعلهم ما فَعَلُوا من ذلك بأمره، كما يضافُ قَتْلُ مَنْ قَتَلَ أعوانُ السلطان وجَلْدُ مَنْ جلدوه بأمرِ السلطان، إلى السلطانِ، وإنْ لم يكن السلطانُ باشرَ ذلك بنفسه، ولا وليه بيده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ٦٢﴾

يقول تعالى ذِكْره: ثم ردت الملائكة الذين توفَّوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم، إلى الله سيدهم الحق. «ألا له الحكم»، يقول: ألا له الحُكْمُ والقضاءُ دون مَنْ سواه من جميع خلقه. «وهو أسرعُ الحاسبين»، يقول: وهو أسرع مَنْ حَسَبَ عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناسُ، وأحصاها، وعَرَفَ مقاديرها ومبالغها، لأنه لا يحسبُ بعقدِ يدٍ، ولكنه يعلمُ ذلك ولا يَخْفَى عليه منه خافيةٌ، و﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيهِ ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم، الداعينَ إلى عبادةِ أوثانهم: من الذي ينجيكم. «من ظلمات البر»، إذا ضللتم فيه فتحيَّرتم، فأظلم عليكم الهدى والمحجة، ومن ظلماتِ البحرِ إذا ركبتموهُ، فأخطأتم فيه المحجةَ، فأظلم عليكم فيه السبيلُ، فلا تهتدون له ـ غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء. «تضرعاً»، منكم إليه واستكانةً جهراً. «وخفية»، يقول: وإخفاء للدعاء أحياناً، وإعلاناً وإظهاراً تقولون: لَئِنْ أنجيتَنا من هذه يارب ـ أي من هذه الظلماتِ التي نحنُ فيها. «لنكونن من الشاكرين»، يقول: لنكونن ممن يُوَحِّدُكَ بالشكرِ، ويخلصُ لكَ العبادةَ، دونَ مَنْ كُنَّا نشركه معكَ في عبادتك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ بربِّهم سِواهُ من الآلهة، إذا أنتَ استفهمتَهُمْ عَمَّنْ به يَستعينونَ عند نزولِ الكربِ بهم في البر والبحر: الله القادرُ على فَرَجكم عند حُلولِ الكرب بكم، ينجيكم من عظيمِ النازلِ بكم في البر والبحر مِنْ هَمِّ الضلالِ وخوفِ الهلاكِ، ومن كُلِّ كربٍ سوى ذلك وهَمٍّ ـ لا آلهتكُم التي تُشْرِكُونَ بها في عبادته، ولا أوثانكُم التي تعبدونَها من دونه، التي لا تقدرُ لكم على نفعٍ ولا ضُرٍّ، ثم أنتم بعد تَفَضُّلِه عليكم بكشفِ النازلِ بكم من الكربِ، ودفعِ الحالِّ بكم من جسيمِ الهَمِّ، تَعْدِلُونَ به آلهتَكُم وأصنامَكُم، فتشركونها في عبادَتِكم إياهُ. وذلك منكم جهلٌ بواجبِ حقهِ عليكم، وكفرٌ لأياديهِ عندكم، وتعرضٌ منكم لإنزالِ عقوبتهِ عاجلاً بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ بربهم غيره من الأصنامِ والأوثان، يامحمد، إنَّ الذي ينجيكم من ظلماتِ البرِّ والبحرِ ومن كُلِّ كربٍ، ثم تعودون للإشراكِ به، هو القادرُ على أن يرسلَ عليكم عذاباً من فوقِكم أو من تحتِ أرجلكم، لِشِرْكِكُمْ به، وادِّعائِكم معه إلهاً آخرَ غيره، وكفرانِكم نِعَمَهُ، مع إسباغِهِ عليكم آلاءَهُ ومِنَنَهُ.

وقد اختلف أهلُ التأويل في معنى «العذاب» الذي تَوَعَّدَ اللهُ به هؤلاء القوم أنْ يبعثَهُ عليهم من فوقهم أو من تحتِ أرجلِهم.

فقال بعضهم: أما العذاب الذي توعدهم به أن يبعثه عليهم من فوقهم، فالرجم، وأما الذي توعدهم أن يبعثه عليهم من تحتهم، فالخسف.

وقال آخرون: عَنَى بالعذاب من فوقكم، أئمة السوء. «أو من تحت أرجلكم»، الخدم وسفلة الناس.

وأَوْلى التأويلين في ذلك بالصواب عندي، قولُ مَنْ قالَ: عَنَى بالعذاب من فوقهم، الرجمَ أو الطوفانَ وما أشبه ذلك مما ينزل عليهم من فوق رؤوسهم - ومن تحت أرجلهم، الخسفَ وما أشبهه. وذلك أن المعروفَ في كلامِ العربِ من معنى «فوق» و«تحت» الأرجل، هو ذلك، دونَ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أو يخلطكم «شيعاً»، فرقاً، واحدتها «شِيعة».

وأما قوله: «يلبسكم» فهو من قولك: «لبَسْتُ عليه الأمرَ»، إذا خلطت، «فأنا ألبِسه». وإنما قلتُ إنَّ ذلك كذلك، لأنه لا خِلافَ بين القَرَأَةِ في ذلك بكسرِ «الباء»، ففي ذلك دليلٌ بَيِّنٌ على أنه من: «لبسَ يلبِس»، وذلك هو معنى الخلط. وإنما عَنَى بذلك: أو يخلطكم أهواءً مختلفةً وأحزاباً مفترقة.

وأما قوله: «ويُذِيقَ بعضَكم بأسَ بعض»، فإنه يعني: يقتلُ بعضَكم بيدِ بعضٍ.

ثم اختلف أهلُ التأويل فيمن عنى بهذه الآية.

فقال بعضهم: عُني بها المسلمون من أمةِ محمدٍ ﷺ، وفيهم نزلت.

وقال آخرون: عُني ببعضِها أهلُ الشرك، وببعضها أهلُ الإسلام.

والصوابُ من القول عندي أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه تَوَعَّدَ بهذه الآيةِ أهلَ الشركِ به من عَبَدَةِ الأوثانِ، وإيَّاهُمْ خاطبَ بها، لأنها بين إخبارٍ عنهم وخطابٍ لهم، وذلك أنها تتلو قولَهُ: «قُلْ مَنْ ينجيكم من ظُلمات البَرِّ والبحرِ تَدْعُونه تضرعاً وخُفْيَةً لئن أنجانا من هذه لنكونَنَّ من الشاكرين* قُلِ اللهُ ينجيكم منها ومِنْ كل كَرْبٍ ثم أنتم تشركون»، ويتلوها قوله: «وكَذَّبَ به قومُكَ وهو الحَقُّ». وغيرُ جائزٍ أنْ يكون المؤمنون كانوا به مكذبين، فإذا كان غير جائزٍ أن يكونَ ذلك كذلك، وكانت هذه الآيةُ بين هاتين الآيتين، كان بَيِّناً أنَّ ذلك وعيدٌ لمن تَقَدَّمَ وصف الله إياهُ بالشركِ، وتأخر الخبرُ عنه بالتكذيب ـ لا لِمَنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ. غير أنَّ ذلكَ وإنْ كان كذلك، فإنه قد عَمَّ وعيدُه بذلك كُلَّ مَنْ سلكَ سبيلهم من أهلِ الخلافِ على الله وعلى رسوله، والتكذيب بآياتِ الله من هذه وغيرها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: انظر، يامحمدُ، بعينِ قلبكَ إلى ترديدنـا حُجَجنا على هؤلاءِ المكذبين بربِّهم ـ الجاحدين نعمه، وتَصْريفناها فيهم. «لعلهم يفقهون»، يقول: ليفقهوا ذلك ويعتبروه، فيذَّكروا ويَزْدَجِرُوا عما هُمْ عليه مُقيمونَ مما يسخطه الله منهم، من عبادةِ الأوثانِ والأصنامِ، والتكذيبِ بكتابِ الله تعالى ذِكْرُه ورسوله ﷺ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكَذَّبَ، يامحمد، قومُكَ بما تقولُ وتُخْبِرُ وتُوعِدُ من الـوعيدِ. «وهـو الحق»، يقـول: والـوعيدُ الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم: من بعثِ العذابِ من فوقِهم، أو من تحتِ أرجلهم، أو لبسهم شيعاً، وإذاقة بعضِهم بأسَ بعض. «الحق الذي لا شَكَّ فيه أنه واقعٌ إنْ هُمْ لم يتوبوا ويُنِيبوا مما هُمْ عليه مقيمونَ من معصيةِ الله والشرك به، إلى طاعةِ الله والإيمانِ به. «قل لستُ عليكم بوكيل»، يقول: قُلْ لهم، يامحمدُ، لست عليكم بحفيظٍ ولا رقيبٍ، وإنما أنا رسولٌ أُبلِّغُكُم ما أُرسِلْتُ به إليكم. «لِكُلِّ نبأٍ مستقر»، يقول: لكلِّ خبرٍ مستقرٌ، يعني: قرارٌ يستقرُّ عنده، ونهايةٌ ينتهي إليه، فيتبين حَقُّه وصِدْقُه، مِنْ كَذبهِ وباطِله. «وسوف تعلمون»، يقول: وسوف تعلمونَ، أيهـا المكـذِّبُونَ بصحةِ ما أخبركُمْ به من وعيدِ الله إياكم، أيها المشركونَ،

حقيقته عند حلولِ عذابهِ بكم، فرأوا ذلك وعاينوه، فقتلهم يومئذٍ بأيدي أوليائه من المؤمنين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: وإذا رأيتَ، يامحمدُ، المشركينَ الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليكَ، ووحينا الذي أوحيناهُ إليكَ، و«خوضهم فيهـا»، كان استهـزاءَهم بهـا، وسبَّهم مَنْ أنزلها وتكلم بها، وتكذيبهم بها. «فأعرض عنهم»، يقول: فَصُدَّ عنهم بوجهك، وقُمْ عنهم، ولا تجلسْ معهم. «حتى يخوضوا في حديثٍ غيره»، يقول: حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاءِ بآياتِ الله من حديثهم بينهم. «وإمـا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ»، يقول: وإنْ أنساكَ الشيطان نَهْيَنَا إياكَ عن الجلوسِ معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنـا، ثم ذكـرتَ ذلـك، فَقُمْ عنهم، ولا تقعـد بعد ذكرك ذلك مع القومِ الظالمينَ الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوضُ فيه بما خاضوا به فيه. وذلك هو معنى «ظلمهم» في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: ومَن اتَّقى الله فَخَافَهُ، فأطاعه فيما أَمَرَهُ به، واجتنبَ ما نَهاهُ عنه، فليس عليه بتركِ الإعراضِ عن هؤلاء الخائضينَ في آياتِ الله في حال خوضهم في آياتِ الله، شيءٌ من تَبِعَةٍ فيما بينه وبين الله، إذا لم يَكُنْ

تركه الإعراضَ عنهم رِضًى بما هُمْ فيه، وكان لله بحقوقه متقياً، ولا عليهِ من إثمهم بذلك حَرَجٌ، ولكن ليعرضوا عنهم حينئذٍ ذكرى لأمرِ الله «لعلهم يتقون»، يقول: لِيَتَّقوا.

وقد ذُكِرَ أنَّ النبيَّ ﷺ إنما أُمِرَ بالقيام عن المشركين إذا خَاضُوا في آياتِ الله، لأنَّ قيامه عنهم كانْ مما يَكْرَهُونَهُ، فقال اللهُ له: إذا خاضُوا في آياتِ الله فَقُمْ عنهم، ليتقوا الخوضَ فيها ويتركوا ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ ﷺ: ذَرْ هؤلاء الذين اتَّخَذُوا دِينَ الله وطاعتهم إياه لَعِباً ولهواً، فجعلوا حظوظهم من طاعتهم إياه اللعبَ بآياتهِ، واللهوَ والاستهزاء بها إذا سمعوها وتُلِيَتْ عليهم، فأعرِضْ عنهم، فإنِّي لهم بالمرصاد، وإني لهم من وراء الانتقامِ منهم والعقوبة لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم بزينةِ الحياةِ الدنيا، ونسيانهم المعادَ إلى الله تعالى ذِكْرُه والمصيرَ إليه بعد الممات.

وقد نسخ الله تعالى ذِكْرُه هذه الآيةَ بقوله: ﴿ٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، [التوبة: ٥].

وأما قوله: «وذَكِّرْ به أنْ تُبْسَلَ نفسٌ بما كسبت»، فإنه يعني به: وذَكِّرْ، يامحمدُ، بهذا القرآن هؤلاء المولِّين عنكَ وعنه «أن تبسل نفس»، بمعنى: أنْ لا تُبْسَلَ، كما قال: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾، [النساء: ١٧٦]، بمعنى: أن لا تضلوا ـ وإنما معنى الكلام: وذَكِّرْهُمْ به ليؤمنوا ويتبعوا ما جاءهم من عند

الله من الحق، فلا تُبْسل أنفُسُهم بما كسبتْ من الأوزار ولكن حذفت «لا»، لدلالةِ الكلامِ عليها.

واختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «أنْ تُبْسَلَ نفس».

فقال بعضهم: معنى ذلك: أن تُسْلَمَ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تُحْبَسَ.

وقال آخرون: معناه: تُفْضَحَ.

وقال آخرون: معناه: أن تُجْزَى.

وأصلُ «الإبسال» التحريم، يقال منه: «أبسلت المكان»، إذا حَرَّمته فلم يُقْرَب.

فتأويلُ الكلام إذاً: وذكِّرْ بالقرآنِ هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلكَ سبيلَهُمْ من المشـركينَ، كيلا تُبسلَ نفسٌ بذنوبها وكفرها بربها، وترتهن فتغلق بما كسبتْ من إجرامها في عذاب الله «ليس لها من دون الله»، يقول: ليس لها، حين تسلم بذنوبها فترتهن بما كسبتْ من آثامها، أحدٌ ينصرها فينقذها من الله الذي جازاها بذنوبها جزاءها «ولا شفيع»، يشفعُ لها لوسيلة له عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ تَعْدِل النفسُ التي أُبسلتْ بما كسبت: يعني: «وإنْ تعدل كل عدل»، يعني: كل فداء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ

شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين إنْ فَدَوْا أنفُسَهم من عذابِ الله يومَ القيامة كُلَّ فداءٍ لم يُؤْخَذْ منهم، هم «الذين أُبْسِلُوا بما كسبوا»، يقول: أُسْلِمُوا لعذابِ الله، فرهنوا به جزاءً بما كَسَبُوا في الدنيا من الآثام والأوزار. «لهم شرابٌ من حميم». و«الحميم» هو الحارّ، في كلام العرب، وإنما هو «محموم» صرف إلى «فعيل».

وإنما جعل تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتهم في هذه الآية شراباً من حميم، لأنَّ الحارَّ من الماءِ لا يروي من عَطَشٍ. فأخبرَ أنهم إذا عطشوا في جهنمَ لم يُغَاثُوا بماءٍ يرويهم، ولكن بما يَزِيُدونَ به عطشاً على ما بِهِمْ من العطش «وعذاب أليم»، يقول: ولهم أيضاً مع الشرابِ الحميم من الله العذابُ الأليم والهوانُ المقيم «بما كانوا يكفرون»، يقول: بما كان من كُفْرِهم في الدنيا بالله، وإنكارِهم توحيدَهُ، وعبادَتِهم مَعَهُ آلهةً دونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا

وهذا تنبيه من الله تعالى ذِكْرُه نبيه ﷺ على حُجَّتِه على مُشْرِكي قومِهِ من عَبَدَةِ الأوثانِ. يقول له تعالى ذِكْرُه: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأندادَ، والآمرينَ لكَ باتِّباعِ دِينهم وعبادةِ الأصنامِ معهم: أَنَدْعُو من دونِ الله حجراً أو خشباً لا يقدرُ على نَفْعِنَا أو ضرنا، فَنَخُصّه بالعبادةِ دون الله، وندع عبادةَ الذي بيدهِ الضَّرُّ والنفعُ والحياةُ والموت، إنْ كنتم تَعقلونَ فتميِّزُونَ

بين الخيرِ والشـرِ؟ فلا شَكَّ أنكم تعلمون أنَّ خدمةَ ما يُرْتَجى نفعهُ ويُرْهَبَ ضُرُّهُ، أَحَقُّ وأولى من خدمةِ مَنْ لا يُرْجَى نفعهُ ولا يُخْشَى ضُره!

«ونردّ على أعقابنا»، يقول: ونرد إلى أدبارنا، فنرجع القهقرى خَلْفَنا، لم نظفر بحاجتنا.

وإنما يراد به في هذا الموضع: ونرد من الإسلام إلى الكفرِ «بعد إذْ هدانا الله»، فوفَّقَنـا له، فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطانُ، يهوي في الأرض حيران.

وقوله: «استهوته»، «استفعلته»، من قولِ القائل: «هوى فلانٌ إلى كذا يهـوي إليه»، ومن قولِ الله تعـالى ذكره: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾، [إبراهيم: ٣٧]، بمعنى: تَنْزِعُ إليهم وتريدهم.

وأما «حيران»، فإنه «فعلان» من قول القائل: «قد حار فلان في الطريق، فهو يَحَار فيه حَيرة وحَيَرَاناً وحَيرُورة»، وذلك إذْ ضَلَّ فلم يَهْتَدِ للمحجَّةِ.

«له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى»، يقول: لهذا الحيرانِ الذي قد استهوتهُ الشياطينُ في الأرض، أصحابٌ على المحجةِ واستقامةِ السبيلِ، يَدْعُونَهُ إلى المَحَجَّةِ لطريقِ الهدى الذي هُمْ عليه، يقولونه له: ائتنا.

وهـذا مَثَـلٌ ضَرَبَـهُ اللهُ تعـالى ذِكْـرُه لِمَنْ كَفَـرَ بالله بعد إيمانه، فاتبعَ الشياطينَ، من أهـلِ الشـركِ بالله ـ وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حالِ إسـلامـهِ، المقيمـونَ على الدينِ الحقِّ، يَدْعُونَهُ إلى الهدى الذي هُمْ عليه مُقِيمونَ، والصوابِ الذي هم به مُتَمَسِّكُونَ، وهو له مفارقٌ وعنه زائلٌ، يقولونه له: «ائتنـا فَكُنْ معنـا على استقـامةٍ وهدى»! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه ﷺ: قُلْ، يامحمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثان، القائلينَ لأصحابِكَ: «اتَّبِعُوا سبيلَنا ولنحملْ خطاياكم، فإنَّا على هدى» ـ: ليسَ الأمرُ كما زعمتم ـ «إنَّ هُدى الله هو الهدى»، يقول: إنَّ طريقَ الله الذي بَيَّنَهُ لنا وأوضَحَهُ، وسبيله الذي أمرنا بلزومِهِ، ودِينهُ الذي شَرَعَهُ لنا فَبَيَّنَهُ، هو الهُدَى والاستقامةُ التي لا شَكَّ فيها، لا عبادة الأوثانِ والأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع، فلا نترك الحَقَّ ونتبع الباطلَ. «وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لربِّ العالمين»، يقول: وأمرنا رَبُّنَا وربّ كُلِّ شيءٍ تعالى وَجْهُه، لِنُسْلِمَ له، لنخضعَ له بالذلَّةِ والطاعةِ والعبوديةِ، فنخلصَ ذلك له دونَ ماسِواهُ من الأندادِ والآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢﴾

(يعني): وأمرنا بإقامةِ الصلاة، وذلك أداؤها بحدودها التي فرضت علينا. «واتقوه»، يقول: واتقوا رَبَّ العالمينَ الذي أمرنا أنْ نسلم له، فَخَافُوه واحْذَرُوا سَخطه، بأداءِ الصلاةِ المفروضةِ عليكم، والإذعانِ له بالطاعة، وإخلاصِ العبادةِ له. «وهو الذي إليه تُحْشَرُونَ»، يقول: وربُّكم رَبُّ العالمين، هو الذي إليه تُحشرونَ فَتُجْمَعُونَ يومَ القيامة، فيجازي كُلَّ عاملٍ منكم بعمله، وتُوفَّى كُلُّ نفسٍ ما كسبت.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

بِٱلۡحَقِّۖ وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

إن الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنه المنفردُ بخلقِ السمواتِ والأرض دونَ كُلِّ ماسِواهُ، مُعَرِّفاً مَنْ أشركَ به من خَلْقِه جهلَهُ في عبادةِ الأوثانِ والأصنام ، وخطأَ ما هُمْ عليه مُقيمونَ من عبادة مالا يَضُرُّ ولا ينفع، ولا يقدرُ على اجتلابِ نفعٍ إلى نفسه، ولا دفع ضُرٍّ عنها ـ ومُحْتَجًّا عليهم في إنكارهم البعثَ بعد المماتِ والثوابَ والعقاب، بقدرتِهِ على ابتداعِ ذلك ابتداءً، وأنَّ الذي ابتدع ذلك غير متعذرٍ عليه إفناؤُه ثم إعادتُه بعد إفنائهِ، فقال: «وهو الذي خلق»، أيها العادلونَ بربِّهم مَنْ لا ينفعُ ولا يضرُّ ولا يقدرُ على شيءٍ. «السمواتِ والأرض بالحق»، حجـة على خلقـه، ليعـرفـوا بهـا صانعها، وليستدلُّوا بها على عظيمِ قُدْرتهِ وسلطانهِ، فيخلِصُوا له العبادة «ويوم يقول كُنْ فيكون»، يقول: ويوم يقولُ حين تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ كذلك: «كُنْ فيكون»، كما شاء تعالى ذِكْرُه، فتكون الأرض غير الأرض ـ ويكون الكلام عند قوله: «كن فيكون» متناهياً.

وإذا كان كذلك معناه، وجب أن يكونَ في الكلام محذوفٌ يدلّ عليه الظاهر، ويكون معنى الكلام: ويوم يقول كذلك: «كن فيكون» تُبَدَّلُ السمواتُ والأرض غيرَ السمـواتِ والأرض. ويدلُّ على ذلـك قولـه: «وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق»، ثم ابتدأ الخبرَ عن القولِ فقال: «قولُه الحق»، بمعنى وعـدُهُ هذا الذي وعَدَ تعالى ذِكْرُه، من تبديلهِ السمواتِ والأرض غيرَ الأرضِ والسموات، الحقُّ الذي لا شَكَّ فيه. «وله المُلْكُ يوم ينفخ في الصور» فيكون قوله: «يوم ينفخ في الصور»، من صلة «الملك» ويكون معنى الكلام: ولله الملكُ يومئـذٍ، لأنَّ النفخـةَ الثانيةَ في الصور حال تبديلِ الله السموات

والأرض غيرهما.

وجائزٌ أنْ يكونَ «القول» أعني: «قوله الحق»، مرفوعاً بقوله: «ويومَ يقولُ كُنْ فيكـون»، ويكون قوله: «كُنْ فيكون» محلاًّ للقول مرافعاً، فيكون تأويلُ الكلام: وهو الذي خَلَقَ السموات والأرض بالحق، ويومَ يُبَدِّلها غيرَ السموات والأرض، فيقول لذلك: «كُنْ فيكون»، «قولُه الحق».

وأما قوله: «وله الملكُ يومَ ينفخ في الصور»، فإنه خُصَّ بالخبرِ عن ملكه يومئذٍ، وإنْ كان الملكُ له خالصاً في كُلِّ وقتٍ في الدنيا والآخرة، لأنه عَنَى تعالى ذِكْرُه أنه لا مُنازِعَ له فيه يومئذٍ ولا مُدَّعى له، وأنهُ المنفردُ به دونَ كُلِّ من كان ينازعهُ فيه في الدنيا من الجبابرةِ، فأذعنَ جميعُهم يومئذٍ له به، وعَلِمُوا أنَّهم كانوا من دَعْواهُمْ في الدنيا في باطل.

معنى «الصور» في هذا الموضع: هو قرنٌ يُنفخ فيه نفختان: إحداهما لفنـاءِ مَنْ كان حيًّا على الأرض، والثانية لنشر كُلِّ مَيْتٍ واعْتَلُّوا لقولهم ذلك بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَاهُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وبالخبرِ الذي روي عن رسولِ الله ﷺ أنه قال إذ سئل عن الصور: هو قرن يُنفخ فيه[١].

ويعني بقوله: «عالم الغيب والشهادة»، عالم ما تعاينون: أيها الناسُ، فتشاهدونَهُ، وما يغيبُ عن حواسِّكُم وأبصارِكم فلا تحسونه ولا تبصرونه «وهو الحكيمُ»، في تدبيرهِ وتصريفهِ خَلْقَهُ من حالِ الوجودِ إلى العَدَمِ، ثم من حالِ العدم والفناء إلى الوجود، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثوابٍ أو عقاب.

---

(١) أخرجه أحمد: ١٩٢/٢، والترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وحَسَّنه (٢٤٣٠)، وأبو داود، والنسائي في الكبرى (كما في التحفة ٨٦٠٨). والحاكمَ في المستدرك: ٥٦٠/٤، وصححه، ووافقه الذهبي. قلنا: رجاله ثقات فهو صحيح.

«الخبير»، بِكُـلٍّ ما يعملونـه ويكسبونه من حسنٍ وسيىء، حافظ ذلك عليهم ليجازيهم على كل ذلك. يقول تعالى ذكره: فاحذروا، أيها العادلون بربكم، عقابَه، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون، وهو لكم من وراء الجزاء على ماتعملون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذْكُرْ، يامحمدُ ـ لحِجَاجِكَ الذي تحاجُّ به قومكَ، وخصومتكَ إيَّاهُمْ في آلهتهم، وما تراجعهم فيها، مما نُلْقِيه إليكَ ونُعَلمكَهُ من البرهانِ والدلالةِ على باطلِ ما عليه قومكَ مُقيمونَ، وصِحَّةِ ما أنتَ عليه مقيمٌ من الدين، وحقيقة ما أنتَ به عليهم محتجٌّ حِجاجَ إبراهيم خليلي قومَـهُ، ومـراجعَتَـهُ إياهم في باطلِ ما كانوا عليه مقيمينَ من عبادةِ الأوثان، وانقطاعه إلى الله والرِّضَى به وليًّا وناصراً دونَ الأصنامِ، فاتخِذْهُ إماماً واقْتَدِ به، واجعلْ سيرته في قومهِ لنفسكَ مثالاً ـ إذ قال لأبيه مفارقاً لدينه، وعائباً عبادته الأصنامَ دونَ بارئهِ وخالقهِ: ياآزر.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيلِ إبراهيم لأبيهِ آزر أنه قال: «أتتخذُ أصناماً آلهة»، تعبدها وتتخذها ربًّا دونَ اللهِ الذي خلقك فسوَّاك ورزقك؟

«إني أراك وقـومَـك في ضلال مبين»، يقـول: «إني أراك»، ياآزرُ، «وقومَك». الذين يعبدونَ معكَ الأصنامَ ويَتَّخِذُونَها آلهةً. «في ضلال»، يقول: في زوالٍ عن محجَّةِ الحقِّ، وعدولٍ عن سبيلِ الصواب. «مبين»، يقول:

يتبين لمن أبصَره أنه جَوْرٌ عن قصدِ السبيل، وزوالٌ عن محجةِ الطريق القويم. يعني بذلك أنه قد ضَلَّ هو وهم عن توحيدِ الله وعبادته، الذي استوجبَ عليهم إخلاصَ العبادةِ له بآلائهِ عندهم، دونَ غيرهِ من الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وكذلك»، وكما أريناه البصيرةَ في دينه، والحقَّ في خِلافهِ ما كانوا عليه من الضلالِ، نُرِيه ملكوتَ السموات والأرض ـ يعني: ملكه.

وأما قوله: «وليكون من الموقنين»، فإنه يعني أنه أراهُ ملكوتَ السمواتِ والأرض، ليكون مِمَّنْ يُقِرُّ بتوحيدِ الله، ويعلم حقيقةَ ما هداهُ له وبَصَّرَهُ إياه، من معرفةِ وحدانيتهِ، وما عليه قومُه من الضلالَةِ، من عبادَتِهم الأصنامَ، واتخاذهم إياها آلهةً دونَ الله تعالى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما واراه الليلُ وغَيَّبَهُ.

وقوله: «رأى كوكباً»، يقول: أبصر كوكباً حين طلع. «قال هذا ربي».

وأما قوله: «فلما أفَلَ»، فإنَّ معناه: فلما غابَ وذهبَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ

﴿أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ: فلما طلع القمرُ فرآهُ إبراهيمُ طالعاً، وهو «بُزُوغه». «قال هذا ربي فلما أفل»، يقول: فلما غابَ «قال»، إبراهيمُ، «لئن لم يَهْدِني ربي»، ويوفِّقني لإصابةِ الحَقِّ في توحيدِه. «لأكونَنَّ من القومِ الضالين»، أيْ: من القومِ الذين أخطأوا الحَقَّ في ذلك، فلم يُصِيبُوا الهدى، وعبدوا غيرَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «فلما رأى الشمس بازغة»، فلما رأى إبراهيمُ الشمسَ طالعةً، قال: هذا الطالعُ رَبِّي «هذا أكبرُ»، يعني: هذا أكبرُ من الكوكبِ والقمرِ ـ فحذف ذلك لدلالة الكلام عليه ـ «فلما أفلت»، يقول: فلما غابَتْ، قال إبراهيمُ لقومه «ياقوم إنّي بريءٌ مما تُشركون»، أي: من عبادةِ الآلهةِ والأصنامِ ودعائه إلهاً مع الله تعالى ذِكْرُه.

القَــوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن خليلِه إبراهيمَ عليه السلام: أنه لما تَبيَّنَ لهُ الحَقُّ وعرفَهُ، شَهِدَ شهادةَ الحقِّ، وأظهرَ خِلافَ قومِه أهلِ الباطل وأهلِ الشـرك بالله، ولم يأخـذْهُ في اللهِ لومةُ لائمٍ، ولـم يستوحشْ من قِبلِ الحقِّ والثباتِ عليه، مع خلافِ جميعِ قومِه لقولِه، وإنكارِهم إياهُ عليه، وقال لهم: «ياقوم إنِّيّ بريء مما تشركون» مع اللهِ الذي خلقني وخلقكم في عبادته من

آلهتكم وأصنامكم، إني وجهتُ وجهيَ في عبادتي إلى الذي خَلَقَ السمواتِ والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحْيي ويميت ـ لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع.

ثم أخبرهم تعالى ذِكْرُه: أنَّ توجيهَهُ وَجْهَهُ لعبادتِه، بإخلاصِ العبادةِ له، والاستقامةِ في ذلك لربِّهِ على ما يحبُّ من التوحيدِ، لا على الوجه الذي يوجِّه له وَجْهه مَنْ ليس بحنيفٍ، ولكنه به مشرك إذْ كان توجيهُ الوجهِ على غيرِ التحنُّفِ غير نافعٍ موجِّهَهُ، بل ضارّه ومهلكه. «وما أنا من المشركين»، ولستُ منكم، أي: لستُ مِمَّنْ يَدينُ دِينَكُم، ويَتَّبعُ مِلَّتَكُم أيُّها المشركون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجادل إبراهيمُ قومَهُ في توحيدِ الله وبراءته من الأصنام، وكان جِدالهم إياه قولُهم: أنَّ آلهتهم التي يعبدونها خيرٌ من إلههِ. قال إبراهيمُ: «أتحاجُّونِّي في الله»، يقول: أتجادلونني في توحيدي الله وإخلاصي العملَ له دونَ ماسواه من آلهة. «وقد هدان»، يقول: وقد وفَّقني ربي لمعرفةِ وحدانيتهِ، وبَصَّرني طريقَ الحقِّ حتى أيقنتُ أنْ لا شيءَ يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ سِواهُ. «ولا أخافُ ما تشركون به»، يقول: ولا أرهبُ من آلهتكم التي تَدْعُونَها من دونه شيئاً ينالني به في نفسي من سوء ومكروه. وذلك أنهم قالوا له: إنا نخافُ أنْ تَمَسَّك آلهتنا بسوءٍ من بَرَصٍ أو خَبَلٍ، لِذِكْرِكَ إياها بسوء! فقال لهم إبراهيم: لا أخافُ ما تشركون بالله من هذه الآلهة أن تنالَني بضر ولا مكروه، لأنها لا تنفعُ ولا تضر. «إلا أن يشاء ربي شيئاً»، يقول: ولكن خوفي من الله الذي

خلقني وخلقَ السموات والأرض، فإنه إنْ شاء أنْ ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناءٍ أو بقاءٍ، أو زيادةٍ أو نقصان أو غير ذلك، نالني به، لأنه القادرُ على ذلك.

«وسع ربي كُلَّ شيءٍ علماً»، يقول: وعلم ربي كلَّ شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ، لأنه خالقُ كُلِّ شيء، ليس كالآلهة التي لا تضرُّ ولا تنفع ولا تفهم شيئاً، وإنما هي خشبة منحوتةٌ، وصورة ممثلة. «أفلا تتذكرون»، يقول: أفلا تعتبرون، أيها الجهلةُ، فتعقِلُوا خطأً ما أنتم عليه مُقيمونَ، من عبادتكم صورةً مصوَّرةً وخشبةً منحوتة، لا تقدرُ على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله ـ وترككم عبادةَ من خلقكم وخَلَقَ كُلَّ شيء، وبيدهِ الخيرُ، وله القدرةُ على كل شيء، والعالم بكل شيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١﴾

وهذا جوابُ إبراهيمَ لقومِهِ حين خَوَّفُوه من آلهتهم أنْ تَمَسَّه، لذكرِهِ إياها بسوء، في نفسِه بمكروه، فقال لهم: وكيف أخافُ وأرهبُ ما أشركتموه في عبادتكم ربَّكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يضرُّ ولا ينفع؟ ولو كانتْ تنفعُ أو تضر، لَدَفَعَتْ عن أنفسها كَسْرِي إياها وضربي لها بالفأس! وأنتم لا تخافونَ الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادرُ على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه. «ما لم ينزِّلْ به عليكم سلطاناً»، يعني: ما لم يُعْطِكم على إشراكِكم إياهُ في عبادته حُجّة، ولم يضع لكم عليه برهاناً، ولم يجعل لكم به عذراً. «فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن»، يقول: أنا أحَقُّ بالأمن من عاقبةِ عبادتي

ربِّي مخلصاً له العبادة، حنيفاً له ديني، بريئاً من عبادةِ الأوثانِ والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دونِ الله أصناماً لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهاناً ولا حجة. «إنْ كنتم تعلمون»، يقول: إنْ كنتم تعلمون صِدْقَ ما أقول، وحقيقةَ ما أحتجُّ به عليكم، فقولوا وأخبروني: أيُّ الفريقين أحق بالأمن؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

اختلف أهلُ التأويل في الذي أخبر تعالى ذِكْرُه عنه أنه قال هذا القول ـ أعني: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»، الآية.

فقال بعضهم: هذا فصلُ القضاء من الله بين إبراهيم خليله ﷺ، وبين مَنْ حاجَّهُ من قومه من أهلِ الشرك بالله، إذْ قال لهم إبراهيم: «وكيف أخافُ ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنَزِّلْ به عليكم سلطاناً فأيُّ الفريقين أحَقُّ بالأمن إنْ كنتم تعلمون»؟ فقال الله تعالى ذِكْرُه، فاصلاً بينه وبينهم: الذين صدَّقوا الله وأخلصُوا له العبادةَ، ولم يخلطوا عبادتهم إياهُ وتصديقَهم له بظلمٍ ـ يعني: بشركٍ ـ ولم يشركوا في عبادته شيئاً، ثم جعلوا عبادتهم لله خالصاً، أحقُّ بالأمنِ من عقابِهِ مكروهَ عبادتِهِ رَبَّهُ، من الذين يُشركونَ في عبادتهم إياهُ الأوثانَ والأصنامَ، فإنهم الخائفونَ من عقابِهِ مكروهَ عبادتهم ـ أمَّا في عاجل الدنيا فإنهم وَجِلُونَ من حلولِ سخَطِ الله بهم، وأما في الآخرة، فإنهم الموقِنُونَ بأليمِ عذابِ الله.

وقال آخرون: هذا جوابٌ من قومِ إبراهيمَ ﷺ لإبراهيم، حين قال لهم: «أيّ الفريقين أحَقُّ بالأمن»؟ فقالوا له: الذين آمنوا بالله فوحَّدُوه أحق بالأمن، إذْ لم يلبسوا إيمانَهم بظلم.

وأَوْلى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: هذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاءٍ منه بين إبراهيم ﷺ وبين قومه. وذلك أنَّ ذلك لو كان من قولِ قومِ إبراهيم الذين كانوا يعبدون الأوثانَ ويشركونها في عبادة الله، لكانوا قد أَقَرُّوا بالتوحيدِ واتبعوا إبراهيم على ما كانوا يخالفونه فيه من التوحيدِ، ولكنه كما ذكرت من تأويله بَدِيًّا.

واختلف أهلُ التأويل في المعنى الذي عناه الله تعالى بقوله: «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم».

فقال بعضهم: بشركٍ.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولم يخلطوا إيمانهم بشيءٍ من معاني الظلم، وذلك: فِعْلُ ما نهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله. وقالوا: الآية على العموم، لأنَّ الله لم يخصَّ به معنىً من معاني الظلم.

قالوا: فإنْ قال لنا قائلٌ: أفلا أمْنَ في الآخرة، إلَّا لمن لم يَعْصِ الله في صغيرةٍ ولا كبيرة، وإلا لمن لقيَ الله ولا ذنبَ له؟

قلنا: إنَّ الله عَنَى بهذه الآية خاصًّا من خَلْقِه دون الجميع منهم، والذي عنى بها وأراده بها، خليلَه إبراهيم ﷺ، فأما غيره، فإنه إذا لقيَ الله لا يشرك به شيئاً فهو في مشيئتِهِ إذا كان قد أتى بعض معاصيه التي لا تبلغ أنْ تكونَ كفراً، فإنْ شاء لم يؤمنه من عذابه، وإن شاء تَفَضَّلَ عليه فعفا عنه.

قالوا: وذلك قولُ جماعةٍ من السلف، وإنْ كانوا مختلفين في المعنيِّ بالآية.

فقال بعضهم: عُني بها إبراهيم.

وقال بعضهم: عُني بها المهاجرون من أصحابِ رسول الله ﷺ.

وأولى القولين بالصحة في ذلك، ماصَحَّ به الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وهو الخبر الذي رواه ابن مسعود عنه أنه قال: الظلمُ الذي ذكره الله تعالى ذِكْرُه في هذا الموضع، هو الشرك[1].

وأما قوله: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»، فإنه يعني: هؤلاء الذين آمنوا ولم يخلطُوا إيمانَهم بشركٍ. «لَهُمُ الأمنُ» يومَ القيامةِ من عذابِ الله. «وهم مهتدون»، يقول: وهُمُ المصيبونَ سبيلَ الرشادِ، والسالكونَ طريقَ النجاة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٣﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وتلك حجتنا»، قولَ إبراهيم لمخاصميهِ من قومهِ المشركينَ: «أيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمنِ»، أَمَّنْ يعبدُ ربًّا واحداً مخلصاً له الدين والعبادة، أم من يعبدُ أرباباً كثيرة؟ وإجابتهم إياه بقولهم: «بل مَنْ يعبدُ ربًّا واحداً أحق بالأمن»، وقضاؤهم له على أنفسهم، فكان في ذلك قطع عُذْرِهم وانقطاع حُجَّتهم، واستعلاء حجةِ إبراهيمَ عليهم[2]. فهي الحجة التي آتاها الله إبراهيمَ على قومه.

وأما قوله: «إن ربك حكيم عليم»، فإنه يعني: إنَّ ربك، يامحمدُ،

---

(١) أخرجه الطبري من طرق (١٣٤٧٦ - ١٤٨٠، ١٤٨٣) وهو في الصحيحين: البخاري (٣٢) و(٣٣٦٠) و(٣٤٢٨) و(٣٤٢٩) و(٤٦٢٩) و(٤٧٧٦) و(٦٩١٨) و(٦٩٣٧)، ومسلم (١٢٤).

(٢) هذا تناقض من أبي جعفر في تفسيره، فقد ذكر قبل قليل أن الصواب في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أنه خبر من الله تعالى ذكره عن أولى الفريقين بالأمن، ثم عاد هنا فزعم أن ذلك من إجابة قوم إبراهيم لإبراهيم

«حكيم»، في سياسته خلقَه، وتلقينه أنبياءه الحججَ على أممهم المكذِّبةِ لهم، الجاحدة توحيدَ ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره. «عليم»، بما يؤولُ إليه أمرُ رُسُلِه والمرسل إليهم، من ثباتِ الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أو إنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذِكْرُه وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فَأْتَسِ، يامحمدُ، في نفسكَ وقومكَ المُكَذِّبيكَ، والمشركين، بأبيكَ وخليلي إبراهيم ﷺ، واصبرْ على ما ينوبكَ منهم صَبْرَهُ، فإني بالذي يؤولُ إليه أمرُكَ وأمرُهُمْ عالِمٌ، وبالتدبيرِ فيكَ وفيهم حكيمٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فجزينا إبراهيمَ ﷺ على طاعتهِ إيانا، وإخلاصهِ توحيدَ ربه، ومفارقته دينَ قومهِ المشركينَ بالله، بأنْ رفعنا درجته في عِلِّيينَ، وآتيناهُ أجْرَهُ في الدنيا، ووهبنا له أولاداً خصصناهم بالنبوّةِ، وذريةً شَرَّفناهم منا بالكرامة، وفَضَّلناهم على العالمينَ، منهم: ابنه إسحق، وابن ابنه يعقوب. «كُلًّا هدينا»، يقول: هَدَينا جميعَهم لسبيلِ الرشاد، فوفقناهم للحقِّ والصوابِ من الأديان. «ونـوحـاً هَدَينـا من قَبْـلُ»، يقول: وهدينا لمثل الذي هدينا إبراهيم وإسحقَ ويعقوب من الحق والصواب، فوفقناه له ـ نوحاً، من قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب.

«ومن ذريته داود»، و«الهاء» التي في قوله: «ومن ذريته»، من ذِكْرِ نوح.

وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه ذَكَرَ في سياقِ الآيات التي تتلو هذه الآيةَ لوطاً فقال: «وإسمعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلًّا فضلنا على العالمين». ومعلوم أنَّ لوطاً لم يكن من ذريةِ إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين. فإذْ كان ذلك كذلك، وكان معطوفاً على أسماء مَنْ سمَّينا من ذريتهِ، كان لا شك أنه لو أُريدَ بالذريةِ ذريةَ إبراهيمَ، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أنَّ لوطاً ليس من ذرّيةِ إبراهيمَ، ولكنه من ذرية نوح. فلذلك وجب أن تكون «الهاء» في «الذرية»، من ذكر نوح.

فتـأويل الكلام: ونوحاً وَفَّقْنَا للحقِّ والصواب من قبل إبراهيم وإسحق ويعقوب، وهَدَينا أيضاً من ذرِّيةِ نوح، داود وسليمان.

«وكذلك نجزي المحسنين»، يقول: تعالى ذِكْرُه: جَزَيْنَا نُوحاً بصبره على ما امتُحِنَ به فينا، بأنْ هديناه فوفَّقناهُ لإصابةِ الحق الذي خذلنا عنه مَنْ عصانا فخالفَ أمرنا ونهينا من قومه، وهَدَيْنَا من ذريته من بعده مَنْ ذَكَرَ تعالى ذِكْرُه من أنبيائهِ لمِثْلِ الذي هديناهُ له. وكما جزينا هؤلاء بِحُسْنِ طاعتهِم إيانا وصبرهم على المِحَنِ فينا، كذلك نجزي بالإحسانِ كُلَّ محسن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٥﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدى والرشاد من ذريته: زكريا بن إدُو بن برخيًّا، ويحيى ين زكريا، وعيسى بن مريم ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن حزقيا. «وإلياس».

وقوله: «كُلٌّ من الصالحين»، يقول: مَنْ ذكرنا من هؤلاء الذين سَمَّيْنَا «من الصالحين»، يعني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلى الله عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهَدَينَا أيضاً من ذرية نوح «إسمعيل» وهو: إسمعيل بن إبراهيم. «واليسع»، هو: اليسع بن أخْطُوب بن العجوز. و«يونس» هو: يونس بن متى. «ولوطاً وكلًّا فضلنا»، من ذرية نوح ونوحاً، لهم بَيَّنَّا الحَقَّ ووفَّقناهُمْ له، وفَضَّلنا جميعَهُم «على العالمين»، يعني: على عالمِ أزمانِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهَدَيْنَا أيضاً من آباءِ هؤلاء الذين سماهم تعالى ذِكْرُه. «ومن ذُرِّياتِهم وإخوانهم»، آخرينَ سِواهم، لم يُسَمِّهم، للحق والدين الخالص الذي لا شِرْكَ فيه، فوفَّقناهم له. «واجتبيناهم»، يقول: واخْتَرناهُمْ لديننا وبلاغِ رسالتِنا إلى مَنْ أرسلناهم إليه، كالذي اخترنا مِمَّنْ سمَّينا.

«وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم»، يقول: وسَدَّدناهم فأرشدناهم إلى طريقٍ غير معوجٍّ، وذلك دينُ الله الذي لا عِوَج فيه، وهو الإسلامُ الذي ارتضاهُ الله ربُّنا لأنبيائهِ، وأمرَ به عبادَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٨٨﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ذلك هدى الله»، هذا الهدى الذي هديتُ به

مَنْ سَمَّيْتُ من الأنبياءِ والرسل، فوفقتُهم به لإصابةِ الدينِ الحقِّ الذي نالوا بإصابتهم إياهُ رِضَى رَبِّهم، وشرفَ الدنيا، وكرامةَ الآخرة، هو «هدى الله»، يقول: هو توفيقُ الله ولُطْفه الذي يوفِّقُ به مَنْ يشاء، ويلطفُ به لمن أَحَبَّ من خَلْقِه، حتى ينيبَ إلى طاعةِ الله، وإخلاصِ العمل له، وإقراره بالتوحيد، ورفضِ الأوثان والأصنام. «ولو أشركوا لحبطَ عنهم ما كانوا يعملون»، يقول: ولو أشركَ هؤلاء الأنبياءُ الذين سَمَّيناهم، بربِّهم تعالى ذِكْرُه، فعبدوا معه غيرَهُ. «لَحَبِطَ عنهم»، يقول: لبطلَ فذهبَ عنهم أجرُ أعمالِهم التي كانوا يعملون، لأنَّ الله لا يقبلُ مع الشركِ به عملاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «أولئك»، هؤلاء الذين سَمَّيناهم من أنبيائهِ ورسلهِ، نوحاً وذريته الذين هَدَاهم لدينِ الإسلام، واختارهم لرسالتهِ إلى خَلقِه، هم «الذين آتيناهُمُ الكتابَ»، يعني: بذلك: صُحُفَ إبراهيمَ وموسى، وزبورَ داود، وإنجيلَ عيسى صلوات الله عليهم أجمعين. «والحكم»، يعني: الفهمَ بالكتابِ، ومعرفةَ مافيه من الأحكام.

وعَنَى بذلك مجاهد، إنْ شاء الله، ما قلتُ، لأنَّ «اللب» هو «العقل»، فكأنه أراد: أنَّ الله آتاهم العقلَ بالكتابِ، وهو بمعنى ما قلنا من أنه الفهمُ به.

وقد بَيَّنَّا معنى «النبوة» و«الحكم»، فيما مضى بشواهدهما، فأغنى ذلك عن إعادته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإنْ يَكْفُرْ: يامحمدُ، بآياتِ كتابي الذي أنزلتُه إليكَ فيجحد هؤلاء المشركونَ العادلونَ بربِّهم.

ثم اختلف أهلُ التأويل في المعنى بـ «هؤلاء».

فقال بعضهم: عُني بهم كفارُ قريش، وعنى بقوله: «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»، الأنصار.

وقال آخرون: معنى ذلك: فإنْ يكفُرْ بها أهلُ مكة، فقد وَكَّلْنا بها الملائكةَ.

وقال آخرون: عنى بقوله: «فإن يكفر بها هؤلاء»، يعني قريشاً وبقوله: «فقد وكلنا بها قوماً»، الأنبياء الذين سَمَّاهم في الآيات التي مضت قبْلَ هذه الآية.

وأولى هذه الأقوال في تأويلِ ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: عنى بقوله: «فإنْ يكفُرْ بها هؤلاء»، كفار قريش. «فقد وَكَّلْنَا بها قوماً ليسوا بها بكافرين»، يعني به الأنبياء الثمانية عشر الذين سَمَّاهُم اللهُ تعالى ذِكْرُه في الآيات قبل هذه الآية. وذلك أنَّ الخبرَ في الآياتِ قبلها عنهم مَضَى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأنْ يكونَ خبراً عنهم، أوْلى وأحق مِنْ أنْ يكونَ خبراً عن غيرهم.

فتأويلُ الكلام، إذْ كان ذلك كذلك: فإنْ كَفَرَ قومُكَ من قريش، يامحمدُ، بآياتنا، وكَذَّبُوا وجَحَدُوا حقيقَتها، فقد استحفظناها واسترعَيْنَا القيامَ بها رُسلَنا وأنبياءَنا من قبلك، الذين لا يجحدونَ حقيقتَها، ولا يُكَذِّبونَ بها، ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ

يقول تعالى ذِكْرُه: «أولئك»، هؤلاء القوم الذين وَكَّلْنَا بآياتِنا وليسوا بها بكافرينَ، همُ الذين هداهمُ اللهُ لدينهِ الحقِّ، وحفظِ ما وُكِّلُوا بحفظه من آياتِ كتابه، والقيامِ بحدوده، واتباع حلالهِ وحرامهِ، والعمل بما فيه من أمرِ الله، والانتهاءِ عما فيه من نهيه، فوفَّقهم جَلَّ ثناؤه لذلك. «فبهداهم اقتده»، يقول تعالى ذِكْرُه: فبالعملِ الذي عَمِلُوا، والمنهاجِ الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم، والتوفيقِ الذي وفقناهم. «اقتده»، يامحمدُ، أي: فاعملْ، وخُذْ به واسلكه، فإنه عملٌ لله فيه رِضىً، ومنهاجُ مَنْ سلكه اهتدى.

وهذا التأويلُ على مذهب مَنْ تأوَّلَ قوله: «فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكـافـرينَ»، أنهم الأنبياء المُسَمَّـوْنَ في الآياتِ المتقدمة. وهو القولُ الذي اخترناه في تأويل ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ» لهؤلاء الذين أمرتُكَ أنْ تُذَكِّرَهُمْ بآياتي، أنْ تُبْسَلَ نفسٌ بما كَسَبتْ، من مشركي قومكَ يامحمد: «لا أسألكم»، على تذكيري إياكم، والهـدى الذي أدعوكُم إليه، والقرآن الذي جئتكم به، عِوَضاً أعتاضُهُ منكم عليه، وأجراً آخذهُ منكم، وما ذلكَ مني إلا تذكيرٌ لكم، ولكـلِّ مَنْ كان مثلكم ممن هو مقيمٌ على باطلٍ، بأسَ الله أن يَحُلَّ بكم، وسَخَطه أنْ ينزلَ بكم على شِرْكِكُمْ به وكفركم ـ وإنذارٌ لجميعكم بين يدي عذابٍ شديد، لتذكروا وتنزجروا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ

يقول تعالى ذكره: «وما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قدره»، وما أجَلُّوا الله حَقَّ إجلالهِ، ولا عَظَّمُوه حَقَّ تعظيمهِ. «إذْ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء»، يقول: حين قالوا: لم ينزل الله على آدميّ كتاباً ولا وحياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يامحمدُ، لمشركي قومكَ القائلينَ لك: «وما أنزل الله على بشر من شيء» - قُلْ: «مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً»، يعني: جلاءً وضياء من ظُلْمَةِ الضلالةِ. «وهدى للناس»، يقول: بياناً للناس، يبينُ لهم به الحَقَّ من الباطلِ فيما أشكل عليهم من أمرِ دينهم. «تجعلونه قراطيسَ تُبْدُونَها». والمرادُ منه المكتوب في القراطيس، يراد: يُبْدُونَ كثيراً مما يكتبونَ في القراطيس فَيُظْهِرُونَهُ للناسِ، ويُخْفُونَ كثيراً مما يثبتونه في القراطيس فَيُسِرُّونَهُ ويكتمونه الناس.

ومما كانوا يكتمونه إياهم، ما فيها من أمر محمد ﷺ ونبوّته.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وعَلَّمَكم اللهُ جَلَّ ثناؤه بالكتاب الذي أنزلَهُ إليكم، ما لم تَعْلَمُوا أنتم من أخبارِ مَنْ قَبْلَكُم، ومن أنباءِ مَنْ بَعْدَكُم، وما هو كائنٌ في

مَعَادِكم يوم القيامة. «ولا آباؤكم»، يقول: ولم يعلمه آباؤكم، أيها المؤمنون بالله من العربِ وبرسولِهِ ﷺ.

وأما قوله: «قُلِ اللهُ»، فإنه أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤه نبيَّه محمداً ﷺ أن يجيبَ استفهامَه هؤلاء المشركينَ عما أمره باستفهامِهم عنه بقوله: «قُلْ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس يجعلونه[1] قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً»، بِقِيلِ الله، كأمرِهِ إياه في موضعٍ آخر في هذه السورة بقوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، [الأنعام: ٦٣]. فأمره باستفهام المشركين عن ذلك، كما أمره باستفهامِهم إذْ قالوا: «ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ من شيء»، عَمَّنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس. ثم أمره بالإجابةِ عنه هنالك بقِيلِه: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤]، كما أمره بالإجابة ههنا عن ذلك بقِيلِه: الله أنزله على موسى.

وأما قوله: «ثم ذَرْهُمْ في خَوْضِهم يلعبون»، فإنه يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: ثم ذَرْ هؤلاء المشركينَ العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، بعد احتجاجِكَ عليهم في قِيلِهم: «ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ من شيء» بقولك: «مَنْ أنزلَ الكتابَ الذي جاء به موسى نوراً وهُدَىً للناس»، وإجابتك ذلك بأنَّ الذي أنزله: اللهُ الذي أنزل عليكَ كتابه. «في خوضهم»، يعني: فيما يخوضونَ فيه من باطِلِهم وكُفْرِهم بالله وآياته. «يلعبون»، يقول: يستهزئون ويسخرون.

وهذا من الله وعيدٌ لهؤلاء المشركينَ وتهدُّدٌ لهم. يقول الله جَلَّ ثناؤه: ثم دَعْهُمْ لاعبينَ، يامحمدُ، فإني من وراء ماهُمْ فيه من استهزائِهم بآياتي بالمرصاد، وأُذِيقُهم بأسي، وأحلُّ بهم إنْ تمادوا في غَيِّهم سَخَطي.

---

(١) قوله «يجعلونه... يبدونها... ويخفون» كلها على قراءة المؤلف الطبري.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا القرآنُ، يامحمدُ. «كتابٌ». «أنزلناه»، يقول: أوحيناهُ إليكَ. «مباركٌ»، وهو «مفاعل» من «البركة». «مُصَدِّقُ الذي بين يديه»، يقول: صَدَّقَ هذا الكتابُ ما قَبْلَهُ من كُتبِ الله التي أنزلها على أنبيائهِ قبلك، ولم يخالفها دلالةً ومعنى «نوراً وهدى للناس»، يقول: هو الذي أنزل إليك، يامحمدُ، هذا الكتابَ مباركاً، مصدقاً كتابَ موسى وعيسى وغير ذلك من كُتُبِ الله. ولكنه جَلَّ ثناؤه ابتدأ الخبر عنه، إذ كان قد تقدم من الخبرِ عن ذلك ما يدل على أنـه له مواصلٌ، فقال: «وهذا كتابٌ أنزلناه إليك مبارك»، ومعناه: وكـذلك أنزلتُ إليك كتابي هذا مباركاً، كالذي أنزلتُ من التوراة إلى موسى هدى ونوراً.

وأمـا قولـه: «ولتنـذر أمَّ القرى ومَنْ حولها»، فإنه يقول: أنزلنا إليك، يامحمدُ، هذا الكتاب مصدِّقاً ما قَبْلَهُ من الكتبِ، ولتنذِرَ به عذابَ الله وبأسَهُ مَنْ في أُمِّ القرى، وهي مكة. «ومَنْ حولَها»، شرقاً وغرباً، من العادلينَ بربِّهم غيرَهُ من الآلهة والأندادِ، والجاحدينَ برسلِهِ، وغيرهم من أصنافِ الكفار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ كان يؤمنُ بقيام الساعةِ والمعادِ في الآخرةِ إلى الله، ويُصَدِّقُ بالثوابِ والعقاب، فإنه يؤمنُ بهذا الكتابِ الذي أنزلناه إليك، يامحمدُ، ويصدقُ به، ويقرُّ بأنَّ الله أنزله، ويحافظُ على الصلوات المكتوبات

التي أمرَهُ الله بإقامتها، لأنه منذرُ مَنْ بلغه وعيدَ اللهِ على الكفرِ به وعلى معاصيهِ، وإنما يجحدُ به وبما فيه ويكذِّب، أهلُ التكذيب بالمعاد، والجحودِ لقيامِ الساعة، لأنه لا يرجو من اللهِ إنْ عَمِلَ بما فيه ثواباً، ولا يخاف إنْ لم يجتنبْ ما يأمره باجتنابهِ عقاباً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

يعني جَلَّ ذِكْرُه بقوله: «ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً»، ومَنْ أخطأُ قولاً وأجهل فعلاً. «ممن افترى على الله كذباً»، يعني: ممن اختلقَ على الله كذباً، فادَّعى عليه أنه بعثه نبيًّا وأرسله نذيراً، وهو في دعواه مُبْطِلٌ، وفي قِيلهِ كاذبٌ.

وهـذا تسفيهٌ من الله لمشركي العرب، وتجهيلٌ منه لهم، في معارضةِ عبدالله بن سعد بن أبي سرح، والحنفيِّ مسيلمةَ، لنبيِّ الله ﷺ، بدعوى أحدهما النبوَّةَ، ودعوى الآخر أنه قد جاء بمثْلِ ما جاءَ به رسولُ الله ﷺ - ونفْيٌ منه عن نبيه محمدٍ ﷺ اختلاقَ الكذبِ عليه ودعوى الباطل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: ولو تَرَى، يامحمدُ، حين يغمرُ الموتُ بسكراتهِ هؤلاءِ الظالمينَ العادلينَ بربِّهم الآلهةَ والأندادَ، والقائلين: «ما أنزلَ الله على بَشَرٍ من شيء»، والمفترينَ على الله كذباً، الزاعمينَ أنَّ الله أوحى إليه

ولم يُوحَ إليه شيءٌ، والقائلينَ: «سأُنْزِلُ مِثْلَ ما أنزلَ اللهُ»، فتعاينَهُمْ وقد غَشِيتهم سكراتُ الموت، ونزل بهم أمرُ الله، وحان فناءُ آجالهم، والملائكة باسطو أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُم وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾، [محمد: ٢٧، ٢٨]. يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عما تقولُ رسلُ الله التي تقبضُ أرواحَ هؤلاء الكفار لها، يخبر عنها أنها تقولُ لأجسامِها ولأصحابِها: «أَخْرِجُوا أنفسَكم»، إلى سخطِ الله ولعنتِه، فإنكم اليومَ تُثابون على كُفْرِكم بالله، وقِيلِكُمْ عليه الباطلَ، وزَعْمِكُم أنَّ الله أوحى إليكم ولم يُوحِ إليكم شيئاً، وإنكاركم أنْ يكونَ اللهُ أنزلَ على بشرٍ شيئاً، واستكباركم عن الخضوعِ لأمرِ الله وأمرِ رسوله، والانقيادِ لطاعته «عذابَ الهون»، وهو عذابُ جهنم الذي يُهينُهم فيذلّهم حتى يعرفوا صَغَار أنفسهم وذِلَّتَها.

والعرب إذا أرادت بـ «الهون» معنى «الهوان»، ضمت «الهاء»، وإذا أرادت به الرِّفْقَ والدَّعَةَ وخِفَّةَ المؤونة، فتحت «الهاء»، فقالوا: هو «قليل هَوْن المؤونة»، ومنه قول الله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ [الفرقان: ٦٣]، يعني: بالرفق والسكينة والوقار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤه عَمَّا هو قائلٌ يومَ القيامة لهؤلاء العادلينَ به الآلهةَ والأنداد، يخبرُ عبادَهُ أنه يقولُ لهمْ عند ورودِهم عليه: «لقد جئتمونا فُرادى».

ويعني بقوله: «فرادى»، وُحداناً لا مالَ معهم، ولا إناثَ، ولا رقيق، ولا شيء مما كان الله خَوَّلَهُمْ في الدنيا «كما خلقناكم أوَّلَ مرة»، عُرَاةً غُلْفاً غُرلاً حُفاة، كما ولدتهم أُمَّهاتُهم[1]، وكما خَلَقهم جَلَّ ثناؤه في بطون أمهاتهم لا شيء عليهم ولا معهم مما كانوا يتباهَوْن به في الدنيا.

وأما قوله: «وتركتم ما خَوَّلْنَاكُمْ وراءَ ظهوركم»، فإنه يقول: خلفتم أيها القوم ما مكناكم في الدنيا مما كنتم تَتَبَاهَوْنَ به فيها، خَلْفَكُمْ في الدنيا فلم تحملوهُ معكم.

وهـذا تعبيرٌ من الله جَلَّ ثنـاؤه لهؤلاء المشـركينَ بمباهاتِهم التي كانوا يتباهون بها في الدنيا بأموالهم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء العادلينَ بربهم الأنداد يوم القيامة: ما نَرَى معكم شفعاءكم الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة.

---

(١) غلف: جمع أغلف، وهو الذي لم يُخْتَنْ، والغُرْل: جمع أغرل: وهو أيضاً الذي لم يختن، وهو مستفادٌ من حديث عائشة رضي الله عنها: «يُحشرُ الناسُ يومَ القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً»، الذي أخرجه مسلم (٢٨٥٩).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٩٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه، مُخْبِراً عن قِيله يومَ القيامةِ لهؤلاء المشركينَ به الأنداد: «لقد تَقَطَّعَ بينكم»، يعني تَوَاصُلَهم الذي كان بينهم في الدنيا، ذهب ذلك اليوم، فلا تواصلَ بينهم ولا تَوَادٌّ ولا تناصُرَ، وقد كانوا في الدنيا يتواصلُونَ ويتناصرونَ، فاضمحلَّ ذلك كله في الآخرة، فلا أحدَ منهم ينصرُ صاحِبَهُ، ولا يواصله.

وأما قوله: «وضَلَّ عنكم ما كنتم تزعمون»، فإنه يقول: وحَادَ عن طريقِكم ومنهاجِكم ما كنتم من آلهتكم تزعمون أنَّهُ شريكُ رَبِّكم، وأنه لكم شفيعٌ عند ربكم، فلا يشفع لكم اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾

وهذا تنبيهٌ من الله جَلَّ ثناؤه هؤلاء العادلينَ به الآلهةَ والأوثانَ على موضعِ حجَّتِه عليهم، وتعريفٌ منه لهم خطأَ ماهُمْ عليه مُقِيمونَ من إشراكِ الأصنامِ في عبادتهم إياه. يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذي له العبادةُ، أيها الناسُ، دونَ كُلِّ ما تعبدونَ من الآلهةِ والأوثانِ، هو اللهُ الذي فَلَقَ الحَبَّ ـ يعني: شَقَّ الحبَّ من كل ما ينبتُ من النباتِ، فأخرج منه الزرعَ. «والنوى»، من كُلِّ ما يغرس مما له نَواةٌ، فأخرج منه الشجرَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يخرجُ السُّنْبُلَ الحيَّ من الحَبِّ الميت، ومخرج الحبِّ الميتِ من السنبل الحيِّ، والشجرِ الحيّ من النوى الميت، والنوى الميِّت من الشجر الحيّ.

والشجرُ مادام قائماً على أصوله لم يجفَّ، والنباتُ على ساقه لم ييبس، فإنَّ العرب تسميه «حَيًّا»، فإذا يبسَ وجفَّ أو قطع من أصله، سمّوه «ميتاً».

وأمـا قوله: «ذلكم الله»، فإنه يقول: فاعلُ ذلك كُلِّهِ اللهُ جَلَّ جلاله. «فأَنَّى تؤفكون»، يقول: فأيّ وجوه الصدِّ عن الحقِّ، أيها الجاهلون، تصدُّونَ عن الصوابِ وتصرفون، أفلا تتدبرونَ فتعلمونَ أنَّه لا ينبغي أن يُجعل لمن أنعم عليكم بفلق الحَبِّ والنوى، فأخرجَ لكم من يابسِ الحب والنوى زُرُوعاً وحُرُوثاً وثِماراً تتغذون ببعضه وتفكَّهُونَ ببعضه، شريكٌ في عبادته ما لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يبصر؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا

يعني بقوله: «فالق الإصباح»، شاقُّ عمودَ الصُّبْحِ عن ظُلْمَةِ الليلِ وسواده.

و«الإصباح» مصدر من قول القائل: «أصبحنا إصباحاً».

وأخبر جل ثناؤه أنه جعل الليلَ سكناً، لأنه يسكنُ فيه كل مُتَحَرِّكٍ بالنهار، ويهدأ فيه، فيستقرُّ في مسكنه ومأواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا

اختلف أهلُ التأويل في ذلك:

فقال بعضهم: معنى ذلك: وجعلَ الشمسَ والقمرَ يجريان في أفلاكِهما بحسابٍ.

وقال آخرون: معنى ذلك: وجعل الشمس والقمر ضياء.

وأَوْلى القولين في تأويل ذلك عندي بالصواب، تأويلُ مَنْ تأوَّله: وجعلَ الشمسَ والقمرَ يجريان بحسابٍ وعددٍ لبلوغِ أمرهما ونهايةِ آجالهِما، ويدورانِ لمصالحِ الخَلْقِ التي جُعِلا لها.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه، ذكرَ قبلَه أياديه عند خَلْقِه، وعظم سلطانه، بفلقِه الإصباحَ لهم، وإخراجِ النباتِ والغِراسِ من الحَبِّ والنوى، وعَقَّبَ ذلك بذكرِهِ خَلْقَ النجومِ لهدايتِهم في البَرِّ والبحر. فكان وصفُه إجراءَهُ الشمسَ والقمرَ لمنافِعهم، أشبه بهذا الموضع من ذِكْرِ إضاءتهما، لأنه قد وَصَفَ ذلك قَبْلُ بقوله: «فالق الإصباح»، فلا معنى لتكريرِهِ مرةً أخرى في آيةٍ واحدة لغير معنى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٩٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الفعلُ الذي وصفه أنه فعله، وهو فَلْقُه الإصباحَ، وجَعْلُه الليلَ سكناً والشمسَ والقمرَ حسباناً، تقديرُ الذي عَزَّ سلطانه، فلا يقدرُ أحدٌ أرادَهُ بسوءٍ وعقابٍ أو انتقامٍ، من الامتناعِ منه. «العليم»، بمصالحِ خَلْقِه وتدبيرهم - لا تقديرُ الأصنامِ والأوثان التي لا تسمعُ ولا تبصر، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله، ولا تضرُّ ولا تنفع، وإنْ أُريدتْ بسوءٍ لم تقدرْ على الامتناعِ منه مِمَّنْ أرادَها. يقول جل ثناؤه: فأَخْلِصُوا، أيها الجَهَلَةُ، عبادتَكم لفاعلِ هذه الأشياء، ولا تُشْرِكُوا في عبادته شيئاً غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واللهُ الذي جعل لكم، أيها الناسُ، النجومَ أدلةً في البر والبحر إذا ضللتم الطريقَ، أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلًا، تستدلُّونَ بها على المحجَّةِ، فتهتدونَ بها إلى الطريقِ والمحجة، فتسلكونه وتنجون بها من ظلماتِ ذلك، كما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، أي: من ضلالِ الطريق في البرّ والبحر وعَنَى بالظلمات، ظُلْمَةَ الليلِ، وظلمةَ الخطأ والضلالِ، وظلمةَ الأرضِ أو الماء.

وقوله: «قد فَصَّلْنَا الآياتِ لقومٍ يعلمون»، يقول: قد مَيَّزنا الأدلةَ، وفرَّقنا الحججَ فيكم وبيَّنَّاها، أيها الناسُ، ليتدبَّرَهَا أولُو العِلْمِ باللهِ منكم، ويفهمها أُولُو الحِجى منكم، فَيُنِيبُوا من جهلهم الذي هم مُقيمونَ عليه، وينزجروا عن خطأ فِعْلِهم الذي هم عليه ثابتون، ولا يتمادوا عناداً لله ـ مع عِلْمِهم بأنَّ ما هُمْ عليه مقيمون خطأ ـ في غَيِّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإلهكم، أيها العادلونَ باللهِ غيرَهُ «الذي أنشأكم»، يعني: الذي ابتدأ خَلْقَكُمْ من غير شيءٍ، فأوجدكم بعد أنْ لم تكونوا شيئاً «من نَفْسٍ واحدة»، يعني: من آدم.

وأما قوله: «فمستقرٌّ ومستودع»، فإنَّ أهلَ التأويل في تأويله مختلفون.

فقال بعضهم: معنى ذلك: وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدة، فمنكم مُسْتَقِرٌّ في الرحم، ومنكم مستودع في القبر حتى يبعثَهُ اللهُ لنَشْرِ القيامة.

وقال آخرون: «المستودع»، ما كان في أصلاب الآباء، و«المستقر»، ما كان في بطون النساء، وبطون الأرض، أو على ظهورها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: فمستقر في الأرض على ظهورها، ومستودع عند الله.

وقال آخرون: معنى ذلك: فمستقر في الرحم، ومستودع في الصُّلْب.

وأوْلى التأويلاتِ في ذلك بالصواب أنْ يُقالَ: إنَّ الله جَلَّ ثناؤه عَمَّ بقوله: «فمستقر ومستودع»، كُلَّ خَلْقِه الذي أنشأ من نفسٍ واحدة، مستقرًّا ومستودعاً، ولم يخصص من ذلك معنىً دون معنى. ولا شكَّ أنَّ من بني آدم مستقراً في الرحم، ومستودَعاً في الصلب، ومنهم مَنْ هو مستقرٌّ على ظهرِ الأرضِ أو بطنها، ومستودع في أصلابِ الرجال، ومنهم مستقر في القبرِ، مستودع على ظهرِ الأرض. فكلُّ «مستقر» أو «مستودع» بمعنىً من هذه المعاني، فداخلٌ في عمومِ قولِهِ: «فمستقر ومستودع» ومُرَادٌ به، إلَّا أن يأتي خبرٌ يجبُ التسليمُ له بأنه معنيٌّ به معنىً دون معنى، وخاص دون عام.

وأما قوله: «قد فَصَّلْنَا الآياتِ لقوم يفقهون»، يقول تعالى: قد بَيَّنا الحججَ، ومَيَّزْنَا الأدلةَ والأعلامَ وأحكمناها. «لقومٍ يفقهون»، مواقعَ الحجج ومواضعَ العِبَر ويفهمونَ الآياتِ والذكر، فإنهم إذا اعتبروا بما نَبَّهْتُهم عليه من إنشائي من نفسٍ واحدة ما عَايَنُوا من البشرِ، وخلقي ما خلقتُ منها من عجائبِ الألوانِ والصورِ، عَلِمُوا أنَّ ذلك من فعلِ مَنْ ليس له مِثْلٌ ولا شريكٌ فيشركوهُ في عبادتهم إياه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والله الذي له العبادةُ خالصة لا شريكَ فيها لشيءٍ سِواهُ، هو الإلـهُ الذي أنزلَ من السماءِ ماءً. «فأخرجنا به نباتَ كل شيء»، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناهُ من السماء من غذاءِ الأنعامِ والبهائمِ والطيرِ والوحشِ وأرزاقِ بني آدمَ وأقواتِهم، ما يتغذونَ به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون. وإنما معنى قوله: «فأخرجنا به نباتَ كُلِّ شيء»، فأخرجنا به ماينبتُ به كُلُّ شيء وينمو عليه ويصلحُ.

ولو قيل: معناه: فأخرجنا به نباتَ جميعِ أنواعِ النبات، فيكون «كل شيء»، هو أصناف النبات ـ كان مذهباً، وإنْ كان الوجهُ الصحيح هو القولَ الأول[1].

وقوله: «فأخرجنا منه خَضِراً»، يقول: «فأخرجنا منه»، يعني: من الماء الذي أنزلناه من السماء «خَضِراً»، رطباً من الزرع.

قوله: «نُخرجُ منه حَبًّا متراكباً»، يقول: نخرجُ من الخضر حبًّا ـ يعني: ما في السنبلِ، سنبلِ الحنطةِ والشعيرِ والأرزِ، وما أشبه ذلك من السنابلِ التي حبُّها يركب بعضه بعضاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومِنَ النخلِ مَنْ طَلْعُهَا قنوانُهُ دانية. و«القنوان» جمع

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٤٧.

«قِنْو»، كما «الصنوان» جمع «صِنْو»، وهو العِذْق، ويعني بقوله: «دانية»، قريبةٌ مُتَهدِّلَةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ

يقول تعالى ذِكْرُه: وأخرجنا أيضاً جناتٍ من أعنابٍ - يعني: بساتينَ من أعناب.

وقوله: «والزيتون والرمان»، عطف بـ «الزيتون» على «الجنات»، بمعنى: وأخرجنا الزيتونَ والرمان مُشْتَبِهاً وغيرَ متشابه.

ومعنى الكلام: وشجر الزيتون والرمان، فاكتفى من ذِكْرِ «الشجر» بذكرِ ثمرِهِ، كما قيل: ﴿وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، [يوسف: ٨٢]، فاكتفى بذكر «القرية» من ذِكْرِ «أهلها»، لمعرفةِ المخاطَبينَ بذلك بمعناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ

اختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك:

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة وبعض أهلِ البصرة: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ﴾، بفتح «الثاء» و«الميم».

وقرأه بعض قَرَأَةِ أهلِ مكة وعامة قرأة الكوفيين: ﴿إِلَى ثُمُرِهِ﴾، بضم «الثاء» و«الميم»

فكأنّ مَنْ فتحَ «الثاء» و«الميم» من ذلك، وَجَّهَ معنى الكلام: انظروا إلى ثمرِ هذهِ الأشجارِ التي سَمَّيْنَا من النخلِ والأعنابِ والزيتونِ والرمانِ إذا أثمرَ-

وأنَّ «الثمر» جمعُ «ثمرة»، كما «القصبُ»، جمع «قصبة»، و«الخشب» جمع «خشبة».

وكأنَّ مَنْ ضَمَّ «الثاء» و«الميم»، وجَّه ذلك إلى أنه جمع «ثِمَار»، كما «الحُمرُ» جمع «حمار»، والجُرُب» جمع «جراب».

وأوْلى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿ٱنظُرُوا إِلَى ثُمُرِهِ﴾ بضم «الثاء» و«الميم»، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه وصفَ أصنافاً من الطعام كما قال يحيى بن وَثَّاب، وكذلك حبَّ الزرعِ المتراكب، وقِنوانَ النخلِ الدانية، والجنات من الأعنابِ والزيتونِ والرمان، فكان ذلك أنواعاً من الثمر، فجمعت «الثمرة» «ثمراً»، ثم جمع «الثمر» «ثماراً»، ثم جمع ذلك فقيل: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثُمُرِهِ﴾، فكان ذلك جمع «الثمار» و«الثمار» جمع «الثمر»، و«إثماره» عقدُ الثمر.

وأما قوله: «ويَنْعه»، فإنه نُضْجُهُ وبلوغُه حين يبلغ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ في إنزالِ الله من السماء الماءَ الذي أخرجَ به نباتَ كُلِّ شيءٍ، والخضِرَ الذي أخرجَ منه الحَبَّ المتراكبَ، وسائرَ ما عدَّدَ في هذه الآية من صنوفِ خَلْقِه «لآيات»، يقول: في ذلكم، أيها الناسُ، إذا أنتم نظرتم إلى ثمرهِ عند عقدِ ثمرهِ، وعند يَنْعِه وانتهائه، فرأيتم اختلافَ أحوالِه وتصرفه في زيادته ونموّه، علمتم أنَّ له مُدَبِّراً ليس كمثله شيءٌ، ولا تصلحُ العبادة إلَّا له دونَ الآلهةِ والأندادِ، وكان فيه حجج وبرهان وبيان. «لقوم يؤمنون»، يقول: لقومٍ يُصَدِّقُونَ بوحدانيةِ الله وقُدْرَتهِ على ما يشاء.

وخصّ بذلك تعالى ذِكْرُه القومَ الذين يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحججِ الله والمعتبرون بها، دونَ مَنْ قد طَبَعَ اللهُ على قلبِه، فلا يعرفُ حقًّا

من باطلٍ، ولا يتبين هدًى من ضلالة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: وجعل هؤلاء العادلونَ بربِّهم الآلهةَ والأندادَ، لله شركاء، الجنَّ، كما قالَ جَلَّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَباً﴾، [الصافات: ١٥٨].

وأما قوله: «وخَرَقُوا له بنينَ وبناتٍ بغير علم»، فإنه يعني بقوله: «خرقوا». اختلَقوا.

فتأويلُ الكلام إذاً: وجعلوا لله الجنَّ شركاءَ في عبادتهم إياهُ، وهو المنفردُ بخلقهم بغيرِ شريكٍ ولا مُعينٍ ولا ظهير. «وخرقوا له بنين وبنات»، يقول: وتَخَرَّصُوا لله كذباً، فافتعلوا له بنينَ وبناتٍ، بغيرِ علمٍ منهم بحقيقةِ مايقولونَ، ولكنْ جهلاً بالله وبعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أنْ يكونَ له بنونَ وبنات ولا صاحبة، ولا أنْ يَشركه في خَلْقِه شريكٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تَنَزَّهَ اللهُ، وعَلَا فارتفعَ عن الذي يَصِفُه به هؤلاء الجَهَلَةُ من خَلْقِه، في ادِّعائِهم له شركاءَ من الجِنِّ، واختراقهم له بنينَ وبناتٍ، وذلك لا ينبغي أن يكون من صفته، لأنَّ ذلك من صفة خَلْقِه الذين يكونُ منهم الجماعُ الذي يحدث عنه الأولادُ، والذين تضطرّهم لضعفِهم الشهواتُ إلى اتخاذِ الصاحبةِ لقضاءِ اللذاتِ، وليس الله تعالى ذِكْرُه بالعاجزِ فيضطره شيءٌ إلى

شيءٍ، ولا بالضعيفِ المحتـاجِ فتدعوهُ حاجته إلى النساءِ إلى اتخاذِ صاحبةٍ لقضاءِ لذة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الله، الذي جعلَ هؤلاء الكَفَرةُ به له الجِنَّ شركاءَ، وخرقوا له بنينَ وبناتٍ بغير علمٍ. «بديعُ السمواتِ والأرض»، يعني: مُبْتَدِعُهَا ومُحْدِثُهَا وموجِدُهَا بعد أنْ لم تَكُنْ.

«أنَّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ»، والولدُ إنما يكونُ من الذكر من الأنثى، ولا ينبغي أنْ يكونَ لله سبحانه صاحبةٌ، فيكون له ولد. وذلك أنه هو الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ. يقول: فإذا كان لا شيء إلا اللهُ خلقه، فأنَّى يكونُ لله ولد، ولم تكنْ له صاحبةٌ فيكون له منها ولد؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُهُ: واللهُ خَلَقَ كُلَّ شيءٍ، ولا خالقَ سِواهُ. وكـلُّ ما تَدَّعُونَ، أيها العادلونَ بالله الأوثانَ من دونهِ، خَلْقُهُ وعبيدُه مِلْكاً، كان الذي تدعونه ربًّا وتزعمون أنه له ولد، أو جنيًّا أو إنسيًّا. «وهو بكلِّ شيءٍ عليم»، يقول: والله الذي خلق كُلَّ شيءٍ، لا يَخْفَى عليه ما خلق ولا شيء منه، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في الأرضِ ولا في السماء، عالم بعددِكُمْ وأعمالِكم، وأعمال من دَعَوْتُموهُ رَبًّا أو لله ولداً، وهو مُحْصِيها عليكم وعليهم، حتى يجازيَ كلًّا بعمله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الذي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ وهو بكل شيءٍ عليم، هو اللهُ ربُّكم، أيها العادلونَ باللهِ الآلهةَ والأوثانَ، والجاعلونَ له الجنَّ شركاءَ، وآلهتَكم التي لا تملكُ نفعاً ولا ضرًّا، ولا تفعلُ خيراً ولا شرًّا. «لا إله إلاّ هو».

وهذا تكذيبٌ من الله جَلَّ ثناؤه للذين زعموا أنَّ الجنَّ شركاء الله. يقول جَلَّ ثناؤه لهم: أيها الجاهلونَ، إنه لا شيءَ له الألوهيةُ والعبادةُ، إلا الذي خلق كل شي، وهو بكل شيءٍ عليم، فإنه لا ينبغي أنْ تكونَ عبادَتُكم وعبادةُ جميع مَنْ في السمواتِ والأرض إلا له خالصة بغيرِ شريكٍ تشركونه فيها، فإنه خالقُ كل شيء وبارئه وصانعه. وحَقٌّ على المصنوعِ أن يُفْرِدَ صانِعَهُ بالعبادةِ «فاعبدوه»، يقول: فَذِلُّوا له بالطاعةِ والعبادةِ والخدمةِ، واخضعوا له بذلك. «وهو على كُلِّ شيءٍ وكيل»، يقول: والله على كُلِّ ما خلق من شيءٍ رقيبٌ وحفيظ، يقوم بأرزاقِ جميعهِ وأقواتهِ وسياستهِ وتدبيرهِ وتصريفه بقدرته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار».

فقال بعضهم: معناه لا تحيطُ به الأبصارُ، وهو يُحيطُ بها.

واعْتَلَّ قائلو هذه المقالةِ لقولهم هذا، بأنْ قالوا: إنَّ الله قال: ﴿حَتَّى إِذَا

أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ﴾، [يونس: ٩٠]. قالوا: فوصف اللهُ تعالى ذِكْرُه الغرقَ بأنه أدركَ فرعونَ. ولا شك أنَّ الغرقَ غير موصوفٍ بأنه رآه، ولا هو مما يجوزُ وصفُه بأنه يَرَى شيئاً. قالوا: فمعنى قوله: «لا تدركه الأبصار»، بمعنى: لا تراه، بعيد. لأنَّ الشيءَ قد يدرك الشيءَ ولا يراه، كما قال جَلَّ ثناؤه مُخْبراً عن قِيلِ أصحاب موسى ﷺ لموسى حين قرُب منهم أصحاب فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، [الشعراء: ٦١]، لأنَّ الله قد كان وَعَدَ نبيَّهُ موسى ﷺ أنهم لا يُدْرَكون لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى﴾، [طه: ٧٧].

قالوا: فإنْ كان الشيء قد يرى الشيء ولا يدركه، ويدركه ولا يراه، فكان معلوماً بذلك أن قوله: «لا تدركه الأبصار»، من معنى: لا تراه الأبصار، بمعزل ـ وأنَّ معنى ذلك: لا تحيطُ به الأبصار، لأن الإحاطةَ به غير جائزة.

قالوا: فالمؤمنون وأهلُ الجنةِ يرون رَبَّهم بأبصارِهم، ولا تدركه أبصارهم، بمعنى: أنها لا تُحِيطُ به، إذْ كان غير جائز أن يوصفَ الله بأن شيئاً يحيط به.

قالوا: ونظيرُ جواز وصفه بأنه يُرَى ولا يُدْرَك، جوازُ وصفه بأنه يعلم ولا يحاط بعلمه، وكما قال جَلَّ ثناؤه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، [البقرة: ٢٥٥]. قالوا: فنفى جَلَّ ثناؤه عن خَلْقِه أنْ يكونُوا يحيطون بشيءٍ من عِلْمِه إلا بما شاء. قالوا: ومعنى «العلم» في هذا الموضع، المعلوم. قالوا: فلم يكن في نفيهِ عن خَلْقِه أنْ يُحيطوا بشيءٍ من علمه إلا بما شاء، نَفْيٌ عن أنْ يعلموه. قالوا: فإذا لم يكنْ في نفيِ الإحاطةِ بالشيءِ علماً نَفْيٌ للعلمِ به، كان كذلك، لم يكن في نفي إدراكِ الله عن البصر، نفيُ رؤيتهِ له. قالوا: وكما جاز أنْ يعلمَ الخلقُ أشياءَ ولا يُحيطونَ بها عِلْماً، كذلك جائزٌ أنْ يَرَوْا ربَّهم بأبصارِهم ولا يدركوه بأبصارهم، إذْ كان معنى «الرؤية» غير معنى

«الإدراك»، ومعنى «الإدراك» غير معنى «الرؤية»، وأنَّ معنى «الإدراك»، إنما هو الإحاطة.

قالـوا: فإنْ قال لنا قائل: وما أنكرتم أن يكون معنى قوله: «لا تُدركه الأبصار»، لا تَراهُ الأبصار؟

قلنا له: أنكرنا ذلك، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤه أخبر في كتابه أن وجوهاً في القيامـة إليه ناظـرة[1]، وأنَّ رسـولَ الله ﷺ أخبرَ أُمَّتَهُ أنهم سيرونَ رَبَّهم يومَ القيامةِ، كما يُرَى القمرُ ليلةَ البدر[2]، وكما ترونَ الشمسَ ليسَ دونها سحاب[3]. قالوا: فإذْ كان الله قد أخبر في كتابه بما أخبر، وحققتْ أخبارُ رسولِ الله ﷺ بمـا ذكرنا عنه من قِيلِه ﷺ: أنَّ تأويلَ قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، [القيامة: ٢٢، ٢٣]، أنه نَظَرُ أبصارِ العيون لله جَلَّ جلاله[4]، وكان كتاب الله يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً، وكان مع ذلك غير جائزٍ أنْ يكون أحدُ هذين الخبرين ناسخاً للآخر، إذْ كان غير جائزٍ في الأخبار ـ لما قد بَيَّنَّا في كتابنا: «كتاب لطيف البيان، عن أصول الأحكام»، وغيره ـ عُلِمَ، أن معنى قوله: «لا تدركه الأبصار»، غير معنى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، فإنَّ أهل الجنة ينظرون بأبصارهم يومَ القيامةِ إلى الله، ولا يدركونه بها، تصديقاً لله في كِلَا الخبرين، وتسليماً لما جاء به تنزيله على ما جاء به في السورتين.

ـ وقال، آخرون: معنى ذلك: لا تراهُ الأبصارُ، وهو يرى الأبصار.

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

(٢) البخاري (٧٤٣٤) وغيره من حديث جرير بن عبدالله.

(٣) البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) من حديث أبي هريرة.

(٤) الأحاديث الصحاح في رؤية الله سبحانه يوم القيامة كثيرة معروفة لا ينكرها إلا جاحد بالسنة المطهرة.

فقال قائلو هذه المقالة: معنى «الإدراك» في هذا الموضع، الرؤية ـ وأنكروا أن يكون الله يُرَى بالأبصارِ في الدنيا والآخرة ـ وتأوَّلُوا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، بمعنى انتظارِهَا رحمةَ الله وثوابَه.

وتأول بعضُهم في الأخبارِ التي رُويت عن رسولِ الله ﷺ بتصحيحِ القولِ برؤيةِ أهلِ الجنةِ ربهم يومَ القيامةِ تأويلات، وأنكر بعضُهم مجيئها، ودافعوا أنْ يكونَ ذلك من قولِ رسولِ الله ﷺ، ورَدُّوا القولَ فيه إلى عقولهم، فزعموا أنَّ عقولَهم تُحِيل جوازَ الرؤيةِ على اللهِ عَزَّ وجَلَّ بالأبصارِ، وأتوا في ذلك بضرُوبٍ من التمويهات، وأكثروا القولَ فيه من جهة الاستخراجات.

وكان من أجلِّ ما زَعَمُوا أنهم عَلِمُوا به صِحَّةَ قولهم ذلك من الدليل، أنهم لم يجدوا أبصارهم ترى شيئاً إلّا ما بَايَنَها دون مالاَصَقَهَا، فإنها لا ترى مالاصقها. قالوا: فما كان للأبصار مُبايناً مما عاينته، فإنَّ بينه وبينها فضاءً وفرجةً. قالوا: فإنْ كانت الأبصارُ ترى رَبَّها يوم القيامة، على نحو ما ترى الأشخاص اليوم، فقد وجب أنْ يكونَ الصانع محدوداً. قالوا: ومن وصفه بذلك، فقد وصفه بصفاتِ الأجسام التي يجوز عليها الزيادة والنقصان.

قالوا: وأخرى، أنَّ مِنْ شأنِ الأبصارِ أنْ تُدْرِكَ الألوانَ، كما من شأنِ الأسماعِ أن تدركَ الأصواتَ، ومن شأن المُتَنَسِّمِ أنْ يدرك الأعراف[1]. قالوا: فمن الوجه الذي فسد أن يكون جائزاً أن يُقْضَى للسمعِ بغيرِ إدراكِ الأصواتِ، وللمتنسِّمِ إلّا بإدراكِ الأعراف. فسد أن يكون جائزاً القضاءُ للبصر بإدراك الألوان. قالوا: ولما كانَ غير جائزٍ أنْ يكونَ الله تعالى ذِكْرُه موصوفاً بأنه ذو لون، صَحَّ أنه غير جائزٍ أن يكون موصوفاً بأنه مرئيٌّ.

---

(١) الأعراف: الروائح.

وقال آخرون: معنى ذلك: لا تدركه أبصارُ الخلائق في الدنيا، وأما في الآخرة فإنها تدركه. وقال أهلُ هذه المقالةِ: «الإدراكُ»، في هذا الموضع، الرؤيةُ.

واعْتَلَّ أهلُ هذه المقالةِ لقولهم هذا بأنْ قالوا: «الإدراك»، وإنْ كان قد يكون في بعضِ الأحوالِ بغيرِ معنى الرؤية، فإنَّ الرؤيةَ من أحدِ معانيه. وذلك أنه غير جائزٍ أن يلحق بصرُه شيئاً فيراه، وهو لِمَا أبْصَرَهُ وعايَنَهُ غير مُدْرِكٍ، وإنْ لم يُحِطْ بأجزائهِ كلها رؤيةً. قالوا: فرؤيةُ ما عاننَهُ الرائي إدراكٌ له، دونَ ما لم يَرَهُ قالوا: وقد أخبرَ اللهُ أنَّ وجوهاً يوم القيامة إليه ناظرةٌ. قالوا: فَمُحَالٌ أنْ تكون إليه ناظرة وهي له غير مدركةٍ رؤيةً. قالوا: وإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائزٍ أنْ يكونَ في أخبار الله تَضَادٌّ وتعارضٌ، وَجَبَ وصَحَّ أنَّ قوله: «لاتدركه الأبصار»، على الخصوصِ لا على العمومِ، وأنَّ معناه: لا تدركه الأبصارُ في الدنيا، وهو يدركُ الأبصار في الدنيا والآخرة، إذ كان الله قد استثنى ما استثنى منه قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

وقال آخرونَ: من أهلِ هذه المقالة: الآيةُ على الخصوص، إلا أنه جائزٌ أنْ يكـون معنى الآية: لا تدركه أبصارُ الظالمينَ في الدنيا والآخرة، وتدركه أبصارُ المؤمنينَ وأولياء الله. قالوا: وجائز أن يكون معناها: لا تدركه الأبصار بالنهايةِ والإحاطةِ، وأما بالرؤية فَبَلَى. قالوا: وجائز أنْ يكونَ معناها: لا تدركه الأبصار في الدنيا، وتدركه في الآخرة ـ وجائزٌ أن يكون معناها: لا تدركه أبصارُ مَنْ يراهُ بالمعنى الذي يدرك به القديم أبصارَ خَلْقِه ـ فيكون الذي نفى عن خَلْقِه من إدراك أبصارهم إياه، هو الذي أثبته لنفسه، إذْ كانت أبصارُهم ضعيفةً لا تنفـذ إلَّا فيما قوَّاها جَلَّ ثناؤه على النفوذ فيه، وكانت كلها متجلية لبصره لا يَخْفَى عليه منها شيءٌ. قالوا: ولا شَكَّ في خصوص قوله: «لاتدركه الأبصار»،

وأنَّ أولياء الله سيرونَـهُ يومَ القيامـةِ بأبصـارهم، غير أنَّـا لا ندري أيَّ معاني الخصـوص الأربعـة أُريدَ بالآيةِ. واعْتَلُّوا لتصحيحِ القـولِ بأنَّ الله يرى في الآخرة، بنحو عِلَلِ الذينَ ذكرنا قَبْلُ.

وقـال آخرون: الآيةُ على العموم، ولن يدركَ الله بصرُ أحدٍ في الدنيا والآخـرة، ولكنَّ الله يُحْدِثُ لأوليائهِ يومَ القيامة حاسّةً سادسة سوى حواسِّهم الخمس، فيرونَهُ بها.

واعتلوا لقولهم هذا بأنَّ الله تعالى ذِكْرُه نفى عن الأبصارِ أنْ تدركه، من غيرِ أنْ يدلَّ فيها أو بآية غيرها على خصوصها. قالوا: وكذلك أخبرَ في آيةٍ أخرى أنَّ وجوهاً إليه يومَ القيامة ناظرة. قالوا: فأخبارُ الله لا تتنافى ولا تتعارض، وكِـلَا الخبرين صحيحٌ معناهُ على ما جاءَ به التنزيلُ. واعتلُّوا أيضاً من جهةِ العقل بأنْ قالوا: إنْ كان جائزاً أن نراه في الآخرةِ بأبصارنا هذه وإنْ زِيدَ في قواها، وجب أنْ نراهُ في الدنيا وإنْ ضَعُفَتْ، لأنَّ كُلَّ حاسةٍ خُلِقَتْ لإدراكِ معنىً من المعاني، فهي وإنْ ضَعفَتْ كُلَّ الضعفِ، فقد تُدرِكُ مع ضعفها ما خُلِقَتْ لإدراكهِ وإنْ ضعف إدراكُها إياه، ما لم تُعْدم. قالوا: فلو كان في البصر أن يُدركَ صانعه في حالٍ من الأحوال أو وقتٍ من الأوقات ويراه، وجب أن يكون يدركه في الدنيا ويراه فيها وإنْ ضعف إدراكُه إياه. قالوا: فلما كان ذلك غير موجودٍ من أبصارنا في الدنيا، كان غير جائزٍ أن تكونَ في الآخرة إلا بهيئتها في الدنيا في أنها لا تدركُ إلّا ما كانَ من شأنها إدراكُه في الدنيا. قالوا: فلما كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذِكْرُه قد أخبر أنَّ وجوهاً في الآخرة تراه، علم أنها تراهُ بغيرِ حاسةِ البصر، إذ كان غير جائز أن يكون خبرُه إلا حقًّا.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، ما تظاهرت به الأخبارُ عن رسولِ

الله ﷺ أنه قال: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»[١] - «وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب»[٢]، فالمؤمنون يرونه، والكافرونَ عنه يومئــذٍ محجــوبــونَ، كمـــا قال جل ثنـاؤه: ﴿كَـلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِـذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾، [المطففين: ١٥].

فأما ما اعتلَّ به مُنْكِرُو رؤية اللهِ يومَ القيامةِ بالأبْصار، لما كانت لا ترى إلا ما بَايَنَها وكان بينها وبينه فضاءٌ وفُرجة، وكان ذلك عندهم غير جائزٍ أنْ تكون رؤيةُ الله بالأبصار كذلك، لأنَّ في ذلك إثبات حَدٍّ له ونهايةٍ، فبطل عندهم لذلـك جوازُ الرؤيةِ عليه - فإنه يُقَالُ لهم: هل علمتم موصوفاً بالتدبيرِ سوى صانعكم، إلا مُمَاسًّا لكم أو مبايناً؟

فإنْ زعموا أنهم يعلمون ذلك، كُلِّفُوا تبيينه، ولا سبيلَ إلى ذلك.

وإنْ قالوا: لا نعلمُ ذلك.

قيل لهم: أَوَ ليسَ قد علمتموه لا مُمَاسًّا لكم ولا مبايناً، وهو موصوفٌ بالتدبيرِ والفعل، ولم يجب عندكم إذْ كنتم لم تعلموا موصوفاً بالتدبير والفعلِ غيره إلا مماسًّا لكم أو مبايناً، أنْ يكون مستحيلاً العلم به، وهو موصوفٌ بالتدبيرِ والفِعْلِ لا مماس ولا مباين؟

فإن قالوا: ذلك كذلك.

قيل لهم: فمـا تنكرون أنْ تكونَ الأبصارُ كذلك لا ترى إلا ما باينها وكـانت بينـهوبينها فُرْجَةٌ، قد تراه وهو غير مباين لها ولا فرجة بينها وبينه ولا فضاء، كما لا تعلمُ القلوبُ موصوفاً بالتدبير إلا مماسًّا لها أو مبايناً، وقد علمتْه عندكم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

لا كذلك؟ وهل بينكم وبين مَنْ أنكر أنْ يكونَ موصوفاً بالتدبيرِ والفعلِ معلوماً، إلا مُمَاسًّا للعالم به أو مبايناً - وأجاز أن يكونَ موصوفاً برؤيةِ الأبصار، لا مماسًّا لها ولا مبايناً، فرق؟

ثم يُسألون الفرقَ بين ذلك، فلن يقولوا في شيءٍ من ذلك قولاً إلا أُلْزِمُوا في الآخرِ مثله.

وكـذلـك يسألون فيما اعتلوا به في ذلك: أنَّ من شأن الأبصار إدراك الألوانِ، كما أنَّ من شأنِ الأسماع إدراك الأصوات، ومن شأن المتنسِّم درك الأعرافِ، فمن الوجه الذي فسد أن يُقْضَى للسمعِ بغيرِ درك الأصوات، فسد أن يُقْضَى للأبصار بغير درك الألوان.

فيقـال لهم: ألستم لم تعلمـوا فيما شاهدتم وعاينتم، موصوفاً بالتدبيرِ والفعلِ إلا ذَا لونٍ، وقد علمتموه موصوفاً بالتدبير لا ذا لونٍ؟

فإن قالـوا: «نعم» - لا يجـدون من الإقرار بذلك بُدًّا، إلا أنْ يكذبوا فيزعموا أنهم قد رأوا وعاينوا موصوفاً بالتدبيرِ والفعلِ غير ذي لون، فيكلفون بيانَ ذلك، ولا سبيلَ إليه.

فيقـال لهم: فإذْ كان ذلك كذلك، فما أنكرتم أنْ تكون الأبصار فيما شاهـدتم وعاينتم لم تجدوها تدرك إلَّا الألوان، كما لم تجدوا أنفسكم تعلمُ موصوفاً بالتدبيرِ إلا ذَا لونٍ، وقد وجدتموها عَلِمَتْهُ موصوفاً بالتدبير غير ذي لونٍ. ثـم يسألون الفرق بين ذلك، فلن يقولوا في أحدهما شيئاً إلا أُلْزِمُوا في الآخر مثله.

ولأهلِ هذه المقالة مسائلُ فيها تلبيسٌ، كرهنا ذِكْرَها وإطالةَ الكتابِ بها وبـالجـواب عنهـا، إذ لم يكن قَصْـدُنَـا في كتـابنـا هذا قصـدَ الكشفِ عن تمويهاتهم، بل قصدنا فيه البيان عن تأويلِ آيِ الفرقان. ولكنا ذكرنا القَدْرَ

الذي ذكرنا، ليعلم الناظرُ في كتابنا هذا أنهم لا يرجعونَ من قولهم إلاّ إلى ما لبَّس عليهم الشيطانُ، مما يسهلُ على أهلِ الحق البيانُ عن فسادِه، وأنهم لا يرجعونَ في قولهم إلى آيةٍ من التنزيلِ مُحْكَمَة، ولا رواية عن رسولِ الله ﷺ صحيحة ولا سقيمة، فهم في الظلمات يَخْبطونَ، وفي العمياء يَتردَّدُونَ، نعوذُ بالله من الحيرةِ والضلالة.

وأما قوله: «وهو اللطيف الخبير»، فإنه يقول: والله تعالى ذِكْرُه المتيسرُ له من إدراكِ الأبصار، والمتأتِّي له من الإحاطةِ بها رؤيةُ ما يَعْسُرُ على الأبصار من إدراكها إياهُ وإحاطتها به ويتعذر عليها. «الخبير»، يقول: العليم بخلقه وأبصارهم، والسبب الذي له تعذر عليها إدراكه، فلطف بقدرته فهَيَّأ أبصارَ خَلْقِه هيئة لا تدركه، وخَبرَ بعلمهِ كيف تدبيرها وشؤونها وما هو أصلح بخلقه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾

وهذا أمرٌ من الله جل ثناؤه نبيَّه محمداً ﷺ أنْ يقول لهؤلاء الذين نبَّههم بهذه الآياتِ من قوله: «إنَّ الله فالقُ الحَبِّ والنوى» إلى قوله: «وهو اللطيف الخبير»، على حُجَجِه عليهم، وعلى سائرِ خَلْقِه معهم، العادلينَ به الأوثانَ والأندادَ، والمكذبينَ باللهِ ورسولهِ محمدٍ ﷺ وما جاءهم من عند الله ـ قُلْ لهم يامحمد: «قد جاءكم»، أيها العادلونَ بالله، والمكذبون رسولَهُ. «بصائر من ربكم»، أي: ماتبصرون به الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر.

وقوله: «فمن أبصره فلنفسه»، يقول: فمن تَبَيَّنَ حُجَجَ الله وعرَفها وأقَرَّ بها، وآمن بما دلّته عليه من توحيدِ الله وتصديق رسولهِ وما جاء به، فإنما أصابَ حَظَّ نفسه، ولنفسه عمل، وإياها بَغَى الخير. «ومن عَمِيَ فعليها»، يقول: ومَنْ

لم يستدلَّ بها، ولم يصدق بما دلته عليه من الإيمانِ بالله ورسوله وتنزيله، ولكنه عميَ عن دلالتها التي تدلُّ عليها، يقول: فنفسَه ضَرَّ، وإليها أساءَ لا إلى غيرها.

وأما قوله: «وما أنا عليكم بحفيظ»، يقول: وما أنا عليكم برقيبٍ أُحصِي عليكم أعمالَكُم وأفعالَكُم، وإنما أنا رسولٌ أُبلِّغُكم ما أُرسلتُ به إليكم، والله الحفيظُ عليكم، الذي لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أعمالكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما صرفتُ لكم، أيها الناسُ، الآياتِ والحججَ في هذه السورة، وبيَّنْتُهَا، فَعَرَّفْتُكُمُوها، في توحيدي وتصديقِ رسولي وكتابي ووقَّفتكم عليها، فكذلك أبيِّنُ لكم آياتي وحججي في كل ما جَهِلْتُموه فلم تعرفوه من أمري ونهيي.

وأما تأويل قوله: «ولنبينه لقومٍ يعلمون»، يقول: تعالى ذِكْرُه: كما صرفنا الآياتِ والعبرَ والحججَ في هذه السورةِ لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الآلهةَ والأندادَ، كذلك نصرفُ لهم الآياتِ في غيرها، كيلا يقولوا لرسولِنا الذي أرسلناهُ إليهم: «إنما تعلمتَ ما تأتينا به تتلوه علينا من أهلِ الكتاب»، فينزجروا عن تكذيبهم إياه، وتَقَوُّلِهم عليه الإفكَ والزورَ، ولِنُبَيِّنَ بتصريفنا الآياتِ الحقَّ، لقومٍ يعلمون الحق إذا تبيَّن لهم فَيَتَّبِعُوه ويقبلوه، وليسوا كمن إذا بُيِّنَ لهم عَمُوا عنه فلم يَعْقِلُوه، وازدادوا من الفهمِ له بُعْداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: اتَّبِعْ، يامحمدُ، ما أمرك به رَبُّكَ في وحيِهِ الذي أوحاهُ إليكَ، فاعملْ به، وانزجر عما زَجَركَ عنه فيه، ودَعْ ما يدعوكَ إليه مشركو قومكَ من عبادةِ الأوثانِ والأصنام، فإنه لا إله إلا هو. يقول: لا معبودَ يستحقُ عليكَ إخلاصَ العبادةِ له إلَّا الله الذي هو فالقُ الحَبِّ والنوى، وفالق الإصباح، وجاعلُ الليل سكناً، والشمس والقمر حسباناً. «وأعرض عن المشركين»، يقول: ودَعْ عنكَ جِدالهم وخصومتهم. ثم نسخ ذلك جل ثناؤه بقوله في براءة: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، الآية، [التوبة: ٥].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝١٠٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: أعرض عن هؤلاءِ المشركينَ بالله، ودَعْ عنكَ جِدالهم وخصومتهم ومسابَّتهم. «ولو شاء الله ما أشركوا»، يقول: لو أرادَ ربُّكَ هِدايتَهم واستنقاذَهُم من ضلالتهم، للطف لهم بتوفيقه إياهم فلم يُشْرِكُوا به شيئاً، ولآمنوا بكَ فاتبعوكَ وصَدَّقُوا ما جِئْتَهُمْ به من الحَقِّ من عند ربك. «وما جعلناكَ عليهم حفيظاً»، يقول جل ثناؤه: وإنما بعثتك إليهم رسولاً مبلِّغاً، ولم نبعثكَ حافظاً عليهم ماهم عاملوهُ، تُحصي ذلك عليهم، فإنَّ ذلك إلينا دونك. «وما أنتَ عليهم بوكيل»، يقول: ولستَ عليهم بقيِّمٍ تقوم بأرزاقِهم وأقواتِهم ولا بحفظهم، فيما لم يُجْعَلْ إليكَ حفظُه من أمرهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ

﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وللمؤمنين به: ولا تَسُبُّوا الذين يدعو المشركون من دونِ الله من الآلهةِ والأندادِ، فيسبَّ المشركونَ اللهَ جهلاً منهم بربِّهم، واعتداءً بغير عِلْمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما زَيَّنا لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنام، عبادةَ الأوثانِ و طاعةَ الشيطانِ بخذلاننا إيَّاهم عن طاعةِ الرحمن، كذلك زيَّنا لكلِ جماعةٍ اجتمعتْ على عملٍ من الأعمالِ من طاعةِ الله ومعصيته، عملَهم الذي هم عليه مجتمعونَ، ثم مرجعهم بعد ذلك ومصيرهم إلى ربهم. «فينبئهم بما كانوا يعملون». يقول: فيُوقِفهم ويخبرهم بأعمالِهم التي كانوا يعملونَ بها في الدنيا، ثم يجازيهم بها، إنْ كان خيراً فخيراً، وإنْ كان شرًّا فشرًّا، أو يعفو بفضلِه، ما لم يكن شِرْكاً أو كفراً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَلَفَ بالله هؤلاء العادلونَ باللهِ جَهْدَ حَلِفهم، وذلك أوكدُ ماقَدَرُوا عليه من الأيمانِ وأصعبُهَا وأشدُّها. «لئن جاءتهم آية»، يقول: قالوا: نقسمُ بالله لئن جاءتنا آيةٌ تُصَدِّقُ ما تقولُ، يامحمدُ، مثل الذي جاء مَنْ

قَبْلَنا من الأمم. «ليؤمنن بها»، يقول: قالوا: لَنُصَدِّقَنَّ بمجيئها بكَ، وأنكَ للهِ رسولٌ مُرْسَلٌ، وأنَّ ما جِئْتَنا به لَحَقٌّ من عندِ الله.

وقيل: «ليؤمنن بها»، فأخرج الخبرَ عن «الآية»، والمعنى لمجيء الآية.

يقول لنبيه ﷺ: «قُلْ إنما الآياتُ عند الله»، وهو القادرُ على إتيانِكم بها دونَ كُلِّ أحدٍ من خَلْقِه «وما يُشعركم»، يقول: وما يُدْرِيكم «أنها إذا جاءت لا يؤمنون»؟

وذكر أنَّ الذين سألوه الآيةَ من قومه، هم الذين آيسَ اللهُ نبيَّه من إيمانِهم من مشركي قومه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

معنى الكلام: وما يُدْرِيكم، أيها المؤمنونَ، لعل الآياتِ إذْ جاءت هؤلاء المشركينَ لا يؤمنون، فيعاجَلُوا بالنقمةِ والعذاب عند ذلك، ولا يؤخَّروا به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

إنَّ الله جل ثناؤه، أخبر عن هؤلاء الذينَ أقسموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهم لئن جاءتهم. آيةٌ ليؤمنن بها: أنَّه يقلبُ أفئدتَهم وأبصارهم ويُصَرِّفها كيف شاء، وأنَّ ذلكَ بيدِه يقيمه إذا شاء، ويزيغهُ إذا أراد ـ وأنَّ قوله: «كما لم يؤمنوا به أولَ مرة»، دليلٌ على محذوفٍ من الكلام ـ وأنَّ قوله: «كما» تشبيه ما بعده بشيءٍ قبله.

وإذْ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يكونَ معنى الكلام: ونقلبُ أفئدتَهم،

فنزيغها عن الإيمانِ، وأبصارَهم عن رؤيةِ الحَقِّ ومعرفةِ موضعِ الحجة، وإنْ جاءتهم الآية التي سألوها، فلا يؤمنوا بالله ورسولِه وما جاءَ به من عند الله، كما لم يؤمنوا بتقليبنا إياها قبلَ مجيئها مرَّة قبلَ ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونذر هؤلاءِ المشركينَ الذين أقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم: لئن جاءتهم آيةٌ ليؤمنن بها عند مجيئها ـ في تمرُّدهم على الله واعتدائِهم في حدوده، يتردَّدونَ، لا يهتدونَ لحقٍّ، ولا يبصرون صواباً، قد غَلَبَ عليهم الخِذْلانُ، واستحوذَ عليهم الشيطانُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ١١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يامحمد، آيِسْ من فَلاحِ هؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ، القائلينَ لك: «لئن جئتنا بآيةٍ لنؤمنن لك»، فإننا نَزَّلْنَا إليهمُ الملائكةَ حتى يَرَوْهَا عياناً، وكَلَّمهم الموتى بإحيائِنا إياهم حُجَّةً لكَ، ودلالةً على نبوَّتِكَ، وأخبروهم أنك مُحِقٌّ فيما تقولُ، وأن ماجئتهم به حقٌّ من عند الله، وحشرنا عليهم كُلَّ شيءٍ فجعلناهُم لك قبلاً، ما آمنوا ولا صَدَّقُوكَ ولا اتبعوكَ إِلَّا أنْ يشاء الله ذلك لمن شاء منهم. «ولكن أكثرهم يجهلون»، يقول: ولكن أكثرَ هؤلاء المشركين يجهلون أنَّ ذلك كذلك، يحسبون أنَّ الإيمانَ إليهم، والكفرَ بأيديهم، متى شَاؤُوا آمنوا، ومتى شاؤوا كفروا. وليس

ذلك كذلك، ذلك بيدي، لا يؤمنُ منهم إلا مَنْ هَدَيْتُه له فَوفَّقْتُهُ، ولا يكفر إلاَّ مَنْ خذلته عن الرشدِ فأضللته.

وقيل إنَّ ذلك نزل في المستهزئينَ برسولِ الله ﷺ، وما جاءَ به من عندِ الله، من مشركي قريش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، مُسَلِّيَه بذلك عما لَقِيَ من كَفَرَةِ قومِهِ في ذاتِ الله، وحاثًّا له على الصبرِ على ما نالَ فيه: «وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا»، يقول: وكما ابتليناكَ، يامحمدُ، بأنْ جعلنا لك من مشركي قومكَ أعداء شياطينَ يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القولِ، ليصدُّوهم بمجادلتهم إياكَ بذلك عن اتِّباعِكَ والإيمانِ بكَ وبما جئتهم به من عند ربِّكَ، كذلك ابتلينا من قبلك من الأنبياء والرُّسُلِ، بأنْ جعلنا لهم أعداءً من قومهم يُؤْذُونَهم بالجدالِ والخصـومـات. يقـول: فهـذا الذي امتحنتُكَ به، لم تخصص به من بينِهم وحدكَ، بل قَدْ عَمَّمْتُهم بذلكَ معكَ لأبتليهم وأختبرهم، مع قُدْرتي على منعِ مَنْ آذاهُم من إيذائِهم، فلم أفعـلْ ذلـك إلَّا لأعـرفَ أولي العزمِ منهم من غيرهم. يقول: فاصبرْ أنتَ كما صبرَ أُولُو العزمِ من الرسل.

وأما «شياطين الإنس والجن»، فإنهم مَرَدَتُهُمْ.

وأما قوله: «يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زخرف القول غروراً»، فإنه يعني أنّه يُلقي المُلْقِي منهم القولَ، الذي زَيَّنَهُ وحَسَّنَهُ بالباطلِ إلى صاحبِهِ، ليغترَّ به مَنْ سمعه، فيضلّ عن سبيلِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شئتُ، يامحمد، أنْ يؤمنَ الذين كانوا لأنبيائي أعداءً من شياطينِ الإنسِ والجن فلا ينالهم مَكْرُهم ويأمنوا غَوائِلهم وأذاهم، فعلتُ ذلك، ولكني لم أشأ ذلك، لأبتليَ بعضَهم ببعضٍ، فيستحق كُلُّ فريقٍ منهم ما سَبَقَ له في الكتـابِ السـابق. «فَـذَرهـم»، يقـول: فَدَعْهُمْ ـ يعني الشياطين الذين يجادلونكَ بالباطلِ من مشركي قومكَ ويخاصمونك بما يُوحي إليهم أولياؤهم من شياطينِ الإنسِ والجنِ. «وما يفترون»، يعني: وما يختلقون من إفكٍ وزور.

يقول له ﷺ: اصبرْ عليهم، فإني من وراءِ عقابِهم على افترائِهم على الله، واختلاقِهم عليه الكذبَ والزور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا شياطينَ الإنس والجن يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القولِ غروراً». «ولِتَصْغَى إليه»، يقول: جَلَّ ثنـاؤه: يُوحي بعضُ هؤلاء الشياطين إلى بعضٍ المُزَيَّنَ من القولِ بالباطل، ليغرُّوا به المؤمنينَ من أتباعِ الأنبياء فيفتنوهم عن دينهم. «ولتصغى إليه أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة»، يقول: ولتميلَ إليه قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ۝١١٣﴾

يقول تعالى ذكره: وليكتسِبُوا من الأعمالِ ما هم مُكْتَسِبُونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه لنبيه محمـدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ بالله الأوثانَ والأصنامَ، القائلينَ لك: «كُفَّ عن آلهتنا، ونكف عن إلهكَ»: إنَّ الله قد حَكَمَ عليَّ بذكرِ آلهتكم بما يكونُ صَدًّا عن عبادَتِها. «أفغيرَ الله أبتغي حكماً»، أي: قل: فليسَ لي أنْ أتعدَّى حُكْمَهُ وأتجاوزه، لأنه لا حَكَم أعدل منه، ولا قائلَ أصدق منه. «وهو الذي أنزل إليكمُ الكتابَ مفصلاً»، يعني القرآن. «مفصَّلاً»، يعني: مُبَيّناً فيه الحكمَ فيما تختصمونَ فيه من أمري وأمركم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنْ أنكرَ هؤلاء العادلونَ باللهِ الأوثانَ من قومكَ توحيد الله، وأشركوا معه الأندادَ، وجَحَدُوا ما أنزلته إليك، وأنكروا أنْ يكون حقاً وكذَّبوا به ـ فالذين آتيناهُم الكتابَ، وهو التوراةُ والإنجيلُ من بني إسرائيل. «يعلمون أنه منزل من رَبِّكَ»، يعني القرآن وما فيه. «بالحق» يقول: فصلاً بين أهلِ الحقِّ والباطلِ، يدلُّ على صِدْقِ الصادقِ على الله، وكَذِبِ الكاذبِ المفتري عليه. «فلا تكونن من الممترين»، يقول: فلا تكونَنَّ، يامحمدُ، من الشاكِّينَ في حقيقةِ الأنباء التي جاءتك من اللهِ في هذا الكتاب، وغيرِ ذلك مما تَضَمَّنَهُ، لأنَّ الذين آتيناهُم الكتابَ يعلمون أنَّه مُنَزَّلٌ من رَبِّكَ بالحق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكَمُلَتْ. «كلمةُ ربك»، يعني القرآن. «صِدْقاً وعَدْلًا»، يقول: كملتْ كلمةُ ربك من الصدقِ والعدل.

«لا مبدِّل لكلماته»، يقول: لا مُغَيِّرَ لما أخبرَ في كتبه أنه كائنٌ، من وقوعهِ في حِينه وأجَلِهِ الذي أخبر اللهُ أنه واقعٌ فيه، وذلك نظيرُ قولِهِ جَلَّ ثناؤه ﴿يُرِيدَونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللهُ مِنْ قَبْلُ﴾، [الفتح: ١٥]، فكانت إرادتُهم تبديلَ كلام الله، مسألتهم نبيَّ الله أنْ يتركهم يحضرونَ الحربَ معه، وقولهم له ولمن معه من المؤمنين: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُم﴾، بعد الخبرِ الذي كان اللهُ أخبرهم تعالى ذكره في كتابه بقوله: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللهُ إلى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ الآية، [التوبة: ٨٣]، فحاولوا تبديلَ كلام الله وخبره بأنهم لَنْ يخرجوا مع نبيِّ الله في غَزاةٍ، ولن يقاتلوا معه عدوًّا بقولهم لهم: «ذرونا نتبعكم»، فقال اللهُ جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: «يريدون أنْ يُبَدِّلُوا» ـ بمسألتهم إياهم ذلك ـ كلامَ الله وخَبَرَهُ: «قُلْ لن تَتَّبِعُونَا كذلكم قالَ اللهُ من قَبْلُ». فكذلك معنى قوله: «لا مُبَدِّلَ لكلماتِه»، إنما هو لا مُغَيِّرَ لما أخبرَ عنه من خبرٍ أنه كائنٌ، فيبطل مجيئه وكونه ووُقُوعه على ما أخبرَ جَلَّ ثناؤه، لأنه لا يزيد المفترونَ في كُتُبِ الله ولا ينقصون منها. وذلك أنَّ اليهودَ والنصارى لا شَكَّ أنهم أهلُ كتب الله التي أنزلها على أنبيائهِ، وقد أخبر جَلَّ ثناؤه أنهم يُحَرِّفُونَ غيرَ الذي أخبر أنَّه لا مُبَدِّلَ له.

وأما قوله: «وهو السميع العليم»، فإنَّ معناه: واللهُ «السميع»، لما يقولُ هؤلاء العادلونَ بالله، المُقْسِمُونَ باللهِ جَهْدَ أيمانِهم لئن جاءتهم آيةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها، وغير ذلك من كلامِ خَلْقِه. «العليم»، بما تؤولُ إليه أيمانُهم من برٍّ وصِدْقٍ

وكَذِبٍ وحِنْثٍ، وغير ذلك من أمورِ عباده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ١١٦﴾

يقولِ تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: لا تُطِعْ هؤلاء العادلينَ باللهِ الأندادَ، يامحمـدُ، فيما دعوكَ إليه من أكلِ ماذبحوا لآلهتِهم، وأهَلُّوا به لغيرِ رَبِّهم، وأشكالَهم من أهلِ الزَّيْغِ والضلال، فإنك إنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يُضِلُّوكَ عن دينِ الله، ومحجة الحَقِّ والصوابِ، فيصدُّوكَ عن ذلك.

وإنما قال الله لنبيه: «وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرض»، من بني آدمَ، لأنهم كانوا حينئذٍ كفاراً ضُلَّالاً، فقال له جَلَّ ثناؤه: لاتُطِعْهُمْ فيما دَعَوْكَ إليه، فإنك إنْ تُطِعْهُمْ ضللت ضلالَهُمْ، وكنتَ مِثْلَهُمْ، لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأُوه. ثم أخبرَ جَلَّ ثناؤه عن حالِ الذين نَهَى نبيَّهُ عن طاعتهم فيما دعوه إليه في أنفسهم، فقال: «إنْ يتبعون إلَّا الظنَّ»، فأخبر جَلَّ ثناؤه أنهم من أمرهم على ظَنٍّ عند أنفسهم، وحسبانٍ على صحة عزمٍ عليه، وإن كان خطأً في الحقيقـة. «وإنْ هم إلا يخـرصـون»، يقـول: ماهم إلَّا مُتَخَـرِّصونَ، يظنون ويتوقعون حَزْراً، لا يقينَ علمٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١١٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: يامحمدُ، إنَّ ربكَ الذي نهاكَ أنْ تُطيعَ هؤلاء العادلينَ باللهِ الأوثانَ، لئلا يُضِلُّوكَ عن سبيلِهِ، هو أعلمُ منكَ ومن

جميع خَلْقِه من يَضِلُّ عن سبيله بزخرفِ القولِ الذي يوحِي الشياطينُ بعضُهم إلى بعضٍ، فيصدُّوا عن طاعتهِ واتباعِ ما أمر به. «وهو أعلمُ بالمهتدين»، يقول: وهو أعلمُ أيضاً منكَ ومنهم بمن كان على استقامةٍ وسدادٍ، لا يَخْفَى عليه منهم أحدٌ. يقول: واتبع، يامحمدُ، ما أمرتُكَ به، وانْتَهِ عما نَهَيْتُكَ عنه من طاعةِ مَنْ نهيتُكَ عن طاعتهِ، فإني أعلمُ بالهادي والمضلِّ من خَلْقي، منك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١١٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وعباده المؤمنينَ به وبآياته: «فكلوا»، أيها المؤمنونَ، مما ذَكَّيْتُمْ من ذبائِحكم وذبحتموه الذبحَ الذي بينتُ لكم أنه تحلُّ به الذبيحةُ لكم، وذلك ما ذَبَحَهُ المؤمنونَ بي من أهلِ دِينكم دينِ الحق، أو ذبحه مَنْ دانَ بتوحيدي من أهلِ الكتاب، دونَ ماذبحه أهلُ الأوثانِ ومَنْ لا كِتابَ له من المجوس. «إن كنتم بآياته مؤمنين»، يقول: إنْ كنتم بحججِ الله التي أتتكم وأعلامه، بإحلالِ ما أحللتُ لكم، وتحريم ما حرمتُ عليكم من المطاعمِ والمآكلِ، مُصَدِّقينَ. ودَعوا عنكم زخرفَ ماتُوحيه الشياطينُ بعضها إلى بعضٍ من زخرفِ القولِ لكم، وتلبيس دِينكم عليكم غروراً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾

معنى قوله: «وما لكم»، في هذا الموضع: وأيُّ شيءٍ يمنعكم أنْ تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه تَقَدَّمَ إلى المؤمنينَ بتحليلِ ما ذُكِرَ اسمُ الله عليه، وإباحة أكلِ ماذُبِحَ بدينِهِ أو دِينِ مَنْ كان يَدِينُ ببعضِ

شرائعِ كتبه المعروفة، وتحريم ما أُهِلَّ به لغيرِهِ، من الحيوان ـ وزَجَرهُمْ عن الإصغاء لما يوحي الشياطينُ بعضُهم إلى بعضٍ من زُخْرُفِ القول في الميتةِ والمنخنقة والمتردِّيةِ، وسائرِ ماحَرَّمَ الله من المطاعم. ثم قال: وما يمنعكم من أكل ما ذُبِحَ بديني الذي ارتضيتُه، وقد فَصَّلْتُ لكم الحلالَ من الحرامِ فيما تطعمون، وبينتُه لكم بقولي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾، إلى قوله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ﴾، [المائدة: ٣]، فلا لبسَ عليكم في حرام ذلك من حلاله، فتتمنَّعُوا من أكلِ حلالهِ حَذَراً من مواقعةِ حرامه.

وأما قوله: «إلا ما اضطررتم إليه»، فإنه يعني تعالى ذِكْرُه: أنَّ ما اضطُرِرْنَا إليه من المطاعمِ المُحَرَّمةِ التي بَيَّنَ تحريمَها لنا في غيرِ حالِ الضرورة، لنا حلالٌ ما كنا إليه مُضطرينَ، حتى تزولَ الضرورة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ١١٩﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وإنَّ كثيراً من الناس [الذين] يجادلونكم في أكلِ ماحَرَّمَ اللهُ عليكم، أيها المؤمنونَ بالله، من الميتةِ، لَيُضِلُّونَ أتباعَهم بأهوائِهم من غيرِ عِلْمٍ منهم بصحة ما يقولون، ولا برهانَ عندهم بما فيه يجادلون، إلا رُكوباً منهم لأهوائِهم، واتِّباعاً منهم لدواعي نفوسِهم، اعتداءً وخِلافاً لأمر الله ونهيه، وطاعةً للشياطين. «إنَّ ربك هو أعلمُ بالمعتدين»، يقول: إنَّ رَبَّكَ، يامحمدُ، الذي أَحَلَّ لكَ ما أحلَّ وحَرَّمَ عليك ما حرمَ، هو أعلمُ بمن اعتدى حدوده فتجاوزَهَا إلى خِلافها، وهو لهم بالمرصاد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾

يقول تعالى ذكره: ودعوا، أيها الناسُ[1]، علانيةَ الإثم ِ، وذلك ظاهرهُ ـ وسِرَّهُ، وذلك باطنُه.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في المعنيِّ بالظاهرِ من الإثمِ والباطن منه، في هذا الموضع.

فقال بعضهم: «الظاهر منه»، ماحَرَّمَ جَلَّ ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، [سورة النساء: ٢٢]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، الآية، [سورة النساء: ٢٣]، و«الباطن منه»، الزنا.

وقال آخرون: «الظاهر»، أولاتُ الراياتِ[2] من الزَّواني، «والباطن»، ذواتُ الأخدان[3].

وقال آخرون: «الظاهر»، التعرِّي والتجرد من الثياب، وما يستر العورة في الطواف ـ و«الباطن»، الزنا.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه تَقَدَّمَ إلى خَلْقِه بتركِ ظاهرِ الإثمِ وباطنه، وذلك سره وعلانيته. و«الإثم» كل ماعُصِيَ الله به من محارمِهِ، وقد يدخل في ذلك سِرُّ الزنا وعلانيته، ومعاهرةُ أهلِ الراياتِ وأولات الأخدانِ منهن، ونكاحُ حلائلِ الآباءِ والأمهاتِ والبنات، والطواف بالبيت عرياناً، وكل معصيةٍ لله ظَهَرَتْ أو بَطنتْ. وإذ كان ذلك كذلك، وكانَ جميعُ ذلك «إثماً»، وكان الله عَمَّ بقوله: «وذَرُوا ظاهرَ الإثم وباطنه»، جميعَ ما

---

(١)

(٢) أولات الرايات: البغايا في الجاهلية، كُنَّ ينصبن رايات عند خيامهن أو عند بيوتهن، يُعْرَفنَ بها.

(٣) الأخدان: الأصدقاء، وذات الخدن: التي تتخذ صديقاً يأتيها سراً.

ظهرَ من الإثمِ وجميع ما بطن - لم يكن لأحدٍ أنْ يخصَّ من ذلك شيئاً دونَ شيءٍ، إلا بحجةٍ للعذرِ قاطعة.

غير أنه لو جاز أنْ يوجَّه ذلك إلى الخصوصِ بغيرِ برهانٍ، كان توجيهه إلى أنه عَنَى بظاهرِ الإثمِ وباطنهِ في هذا الموضع، ما حَرَّمَ اللهُ من المطاعمِ والمآكلِ من الميتةِ والدمِ، وما بَيَّنَ الله تحريمه في قوله: «حُرِّمَتْ عليكم الميتةُ»، إلى آخر الآية، أولى، إذ كان ابتداء الآياتِ قَبْلَها بذكرِ تحريمِ ذلك جرى، وهذه في سياقها. ولكنه غير مستنكرٍ أنْ يكون عَنَى بها ذلك، وأدخلَ فيها الأمرَ باجتنابِ كُلِّ ما جَانَسَهُ من معاصي الله، فخرج الأمرُ عامًّا بالنهي عن كُلِّ ما ظهر أو بطن من الإثم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين يعملون بما نَهاهم اللهُ عنه، ويركبون معاصيَ الله، ويأتون ما حرَّم الله. «سَيُجْزَوْنَ»، يقول: سَيُثِيبُهم اللهُ يومَ القيامةِ بما كانُوا في الدنيا يعملون من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: «ولا تَأْكُلوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسمُ الله عليه»، لا تأكلوا، أيها المؤمنونَ، مما ماتَ فلم تَذْبَحُوه أنتم، أو يَذْبَحهُ مُوَحِّدٌ يَدِينُ للهِ بشرائع شَرَعها له في كتابٍ منزل، فإنه حرام عليكم - ولا ما أُهِلَّ به لغيرِ الله مما ذَبَحه

المشركون لأوثانهم، فإنَّ أَكْلَ ذلك «فِسْقٌ»، يعني: معصية كفرٍ.

(ويعني بقوله): «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم»: إنَّ الله أخبرَ أنَّ الشياطينَ يُوحُونَ إلى أوليائهم لِيُجَادِلُوا المؤمنينَ في تحريمهم أكلَ الميتةِ، بما ذكرنا من جِدَالِهم إياهم ـ وجائزٌ أنْ يكونَ الموحون كانوا شياطينَ الإنسِ يوحون إلى أوليائهم منهم ـ وجائزٌ أنْ يكونوا شياطينَ الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس ـ وجائزٌ أنْ يكون الجنسانِ كلاهما تَعَاوَنَا على ذلك، كما أخبرَ اللهُ عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾، [الأنعام: ١١٢]. بل ذلك الأغلبُ من تأويلهِ عندي، لأنَّ اللهَ أخبرَ نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس، كما جعلَ لأنبيائهِ من قبله، يوحي بعضهم إلى بعض المزيَّنَ من الأقوالِ الباطلة، ثم أعلمه أنَّ أولئك الشياطين يُوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومَنْ تبعه من المؤمنينَ فيما حرمَ الله من الميتة عليهم.

ويعني بقوله: «ليجادلوكم»، ليخاصموكم.

وأما قوله: «وإن أطعتموهم إنكم لمشركون»، فإنه يعني: وإن أطعتموهم.

وأما قوله: «إنكم لمشركون»، يعني: إنكم إذاً مِثْلُهم، إذْ كان هؤلاء يأكلونَ الميتةَ استحلالاً. فإذا أنتم أكلتموها كذلك، فقد صرتُمْ مِثْلَهُمْ مشركين.

واختلف أهلُ العلم في هذه الآية، هل نُسِخَ من حُكْمِهَا شيءٌ أم لا؟

والصوابُ من القولِ في ذلك عندنا، أنَّ هذه الآية مُحْكَمَةٌ فيما أنزلت، لم يُنْسَخْ منها شيءٌ، وأنَّ طعامَ أهلِ الكتاب حلالٌ، وذبائحهم ذكيَّةٌ. وذلك مما حَرَّمَ الله على المؤمنين أكله بقوله: «ولا تأكلوا مِمَّا لم يُذْكَر اسمُ الله عليه»، بمعزلٍ. لأنَّ الله إنما حَرَّمَ علينا بهذه الآيةِ المَيْتَةَ، وما أُهِلَّ به للطواغيتِ،

وذبائحُ أهلِ الكتاب ذكيةٌ سَمَّوا عليها أو لم يُسَمُّوا، لأنهم أهلُ توحيدٍ وأصحابُ كُتُبٍ لله، يَدِينـونَ بأحكـامها، يذبحون الذبائحَ بأديانهم، كما يذبحُ المسلمُ بدينه، سَمَّى اللهَ على ذبيحتهِ أو لم يُسَمِّهِ، ألا أنْ يكونَ تركَ من ذكر تسمية اللهِ على ذبيحتـه على الدينونة بالتعطيلِ، أو بعبادة شيءٍ سوى الله، فيحرم حينئذٍ أكلُ ذبيحتهِ، سَمَّى اللهَ عليها أو لم يُسَمِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**

وهذا الكلامُ من الله جَلَّ ثناؤه يدلُّ على نهيهِ المؤمنينَ برسولهِ يومئذٍ عن طاعةِ بعضِ المشركينَ الذين جادلُوهم في أكلِ الميتة، بما ذكرنا عنهم من جدالهم إياهم به، وأمرهِ إياهم بطاعةِ مؤمنٍ منهم كان كافراً، فهدَاهُ جَلَّ ثناؤه لِرُشْده، ووفَّقَهُ للإيمان. فقال لهم: أطاعةُ مَنْ كان ميتاً، يقول: من كان كافراً؟ فجعله جَلَّ ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذَ بنصيبهِ من العملِ لله بما يؤديه إلى نجاتهِ، بمنزلةِ «الميت» الذي لا ينفعُ نفسه بنافعةٍ، ولا يدفعُ عنها من مكروه نازلة. «فأحييناه»، يقول: فهديناهُ للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضارَّ نفسهِ ومنافعها، ويعملُ في خلاصها من سَخَط الله وعقـابه في معاده. فجعلَ إبصارَهُ الحَقَّ تعالى ذِكْرُه بعد عَمَاه عنه، ومعرفته بوحدانيتهِ وشرائع دينهِ بعد جهلهِ بذلك، حياةً وضياءً يستضيء به فيمشي على قَصْدِ السبيل، ومنهج الطريق في الناس. «كَمَنْ مَثَلُه في الظلماتِ»، لا يدري كيف يتوجَّه، وأي طريقٍ يأخذ، لشدةِ ظُلْمَةِ الليل وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافرُ الضالُ في ظلماتِ الكفر، لا يبصرُ رشداً، ولا يعرف حقًّا، ـ يعني في ظلمات الكفر. يقول: أفَطَاعةُ هذا الذي هديناهُ للحقِّ وبَصَّرناهُ الرشادَ، كطاعةِ مَنْ مثلهُ مثلُ مَنْ هو في الظلمات متردِّدٌ، لا يعرفُ المخرجَ منها، في

دعاء هذا إلى تحريمِ ماحرمَ الله، وتحليلِ ما أحَلَّ، وتحليل هذا ماحرم الله، وتحريمه ما أحلّ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما خذلتُ هذا الكافرَ الذي يُجادِلُكم - أيها المؤمنونَ بالله ورسوله، في أكلِ ما حَرَّمتُ عليكم من المطاعم - عن الحقِّ، فزينتُ له سُوءَ عمله فرآه حسناً، ليستحقَّ به ما أعددتُ له من أليمِ العقابِ، كذلك زيَّنتُ لغيرِهِ مِمَّنْ كان على مِثْلِ ماهو عليه من الكفرِ بالله وآياته، ما كانوا يعملونَ من معاصي الله ليستوجبوا، بذلك من فِعْلِهم، ما لهم عند رَبِّهم من النَّكال.

وفي هذا أوضحُ البيان على تكذيبِ الله الزاعمينَ[1] أنَّ الله فوَّض الأمورَ إلى خَلْقِه في أعمالهم، فلا صُنْعَ له في أفعالهم، وأنه قد سَوَّى بين جميعِهم في الأسبابِ التي بها يصلون إلى الطاعةِ والمعصية. لأنَّ ذلك لو كانَ كما قالوا، لكان قد زَيَّن لأنبيائهِ وأوليائهِ من الضلالةِ والكفرِ، نظيرَ مازيَّن من ذلك لأعدائهِ وأهلِ الكفرِ به، وزيَّنَ لأهلِ الكفر به من الإيمان به، نظيرَ الذي زَيَّنَ منه لأنبيائه وأوليائه. وفي إخبارِهِ جَلَّ ثناؤُه أنه زين لكلِّ عاملٍ منهم عمله، ما يُنْبِىءُ عن تزيين الكفرِ والفسوق والعصيان، وخَصَّ أعداءه وأهل الكفر، بتزيينِ الكفر لهم والفسوق والعصيان، وكَرَّهَ إليهم الإيمانَ به والطاعة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ

---

(١) الزاعمون هم: القدرية والمعتزلة والشيعة الإمامية، المعروفون بالمفوِّضة.

﴿مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ١٢٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: وكما زَيَّنا للكافرينَ ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكلِّ قريةٍ عظماءَها مجرميها - يعني أهلَ الشركِ بالله والمعصية له. «ليمكروا فيها»، بغرورٍ من القولِ أو بباطلٍ من الفعلِ، بدينِ الله وأنبيائه. «وما يمكرون»، أي ما يحيقُ مَكْرُهم ذلك إلا بأنفسِهم، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه من وراء عقوبتهم على صدِّهم عن سبيله. «وهم لا يشعرون»، يقول: لا يدرونَ ماقد أعدَّ اللهُ لهم من أليمِ عذابه، فهم في غيِّهم وعُتُوِّهم على الله يتمادَوْن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا جاءت هؤلاءِ المشركينَ الذين يجادلون المؤمنينَ بزخرفِ القولِ فيما حرم الله عليهم، ليصدُّوا عن سبيلِ الله. «آية»، يعني حُجَّةً من اللهِ على صِحَّةِ ما جاءهم به محمدٌ ﷺ من عندِ الله وحقيقته قالوا لنبيِّ الله وأصحابه: «لن نؤمن»، يقول: لن نُصَدِّقَ بما دعانا إليه محمدٌ ﷺ من الإيمانِ به، وبما جاءَ به من تحريمِ ماذكر أنَّ الله حَرَّمهُ علينا. «حتى نُؤْتَى»، يعنون: حتى يُعطيهم اللهُ من المعجزاتِ مِثْلَ الذي أعطى موسى من فَلْقِ البحر، وعيسى من إحياءِ الموتى، وإبراءِ الأكمه والأبرص. يقول تعالى ذِكْرُه: «اللهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالته». يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: إنَّ آياتِ الأنبياء والرسل لن يُعْطَاهَا من البشر إلَّا رسولٌ مُرْسَلٌ، وليس العادلون بربِّهم الأوثانَ والأصنام منهم فيعطوها. يقول جَلَّ ثناؤه: فأنا أعلمُ بمواضعِ رسالاتي، ومَنْ هو لها أهلٌ،

فليس لكم أيها المشركونَ أنْ تَتَخَيَّرُوا ذلك عليَّ أنتم، لأنَّ تخيُّرَ الرسولِ إلى المرسِلِ دون المرسَلِ إليه، والله أعلمُ إذا أرسلَ رسالةً بموضعِ رسالاته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ، معلِّمَهُ ما هو صانعٌ بهؤلاءِ المتمردينَ عليه: «سيصيبُ»، يامحمدُ، الذين اكتسبوا الإثمَ بشِرْكِهم باللهِ وعبادَتِهم غيرَهُ. «صَغَارٌ»، يعني: ذِلَّةٌ وهوان.

وقولـه: «وعـذاب شديد بمـا كانـوا يمكـرون»، يقول: يصيبُ هؤلاء المكذبينَ بالله ورسوله، المُسْتَحلِّينَ ماحَرَّمَ الله عليهم من المَيْتَةِ، مع الصَّغَارِ عذابٌ شديد، بما كانوا يَكيدونَ للإسلامِ وأهلِهِ بالجدالِ بالباطلِ، والزخرفِ من القولِ، غروراً لأهلِ دينِ الله وطاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ

ويقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يهديه للإيمانِ به وبرسولِهِ وما جاءَ به من عند رَبِّهِ، فيوفِّقهُ له. «يشرح صدره للإسلام»، يقول: فَسَحَ صَدْرَهُ لذلك وهَوَّنَهُ عليه، وسَهَّلَهُ له، بِلُطْفِه ومعونتِهِ، حتى يستنيرَ الإسلامُ في قلبه، فيضيءَ له، ويَتَّسِعَ له صدُره بالقبول.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومَنْ أراد الله إضلالَهُ عن سبيلِ الهدى، يَشغله بكفرِهِ وصدِّهِ عن سبيلِهِ، ويجعلْ صدرَهُ بخِذْلانِهِ وغَلَبَةِ الكفرِ عليه، حَرَجاً.

و«الحرج»، أشَدُّ الضِّيقِ، وهو الذي لا ينفذهُ، من شِدَّةِ ضِيقِهِ، وهو ههنا الصدرُ الذي لا تصلُ إليه الموعظةُ، ولا يدخله نورُ الإيمانِ، لِرَيْنِ الشركِ عليه. وأصله من «الحرج»، و«الحرج» جمع «حَرَجة»، وهي الشجرةُ الملتف بها الأشجار، لا يدخل بينها وبينها شيءٌ لشدةِ التفافها بها.

وفي هذه الآية أبينُ البيانِ لمن وُفِّقَ لفهمها، عن أنَّ السببَ الذي به يُوصلُ إلى الإيمان والطاعة، غير السبب الذي به يُوصَلُ إلى الكفرِ والمعصية، وأنَّ كِلاَ السببينِ من عندِ الله. وذلك أنَّ الله جل ثناؤه أخبر عن نفسه أنه يشرح صدرَ مَنْ أراد هدايتَهُ للإسلام، ويجعل صدرَ مَنْ أراد إضلالَهُ ضَيِّقاً عن الإسلامِ حَرَجاً كأنَّما يَصَّعَّدُ في السماء. ومعلومٌ أنَّ شرحَ الصدرِ للإيمانِ خِلافُ تضييقِهِ له، وأنه لو كان يوصل بتضييق الصدر عن الإيمان إليه، لم يكن بين تضييقِهِ عنه وبين شرحِهِ له فَرْقٌ، ولكان مَنْ ضُيِّقَ صدرُه عن الإيمانِ، قد شُرِحَ صدرُه له، ومَنْ شرح صدره له، فقد ضُيِّقَ عنه، إذْ كان موصولاً بكلٍّ واحدٍ منهما - أعني من التضييقِ والشرح - إلى مايُوصَل به إلى الآخر. ولو كان ذلك كذلك، وَجَبَ أنْ يكونَ الله قد كان شرحَ صدرَ أبي جهلٍ للإيمان به، وضَيَّقَ صدرَ رسولِ الله ﷺ عنه. وهذا القولُ من أعظمِ الكفرِ بالله. وفي فساد ذلك أن يكون كذلك، الدليلُ الواضح على أنَّ السَّبَب الذي به آمنَ المؤمنونَ بالله ورسله، وأطاعَهُ المطيعونَ، غير السببِ الذي كفرَ به الكافرونَ بالله وعَصَاهُ

العاصون، وأنَّ كِلَا السببين من عند الله وبيده، لأنه أخبر جَلَّ ثناؤه أنه هو الذي يشرحُ صدرَ هذا المؤمنِ به للإيمانِ إذا أرادَ هِدايتَهُ، ويضيِّق صدرَ هذا الكافرِ عنه إذا أراد ضلالَه[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾

وهذا مَثَلٌ من الله تعالى ذِكْرُه، ضربه لقلبِ هذا الكافرِ في شِدَّةِ تَضييقهِ إياهُ عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصُّعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنَّ ذلك ليس في وُسْعِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: كما يجعلُ اللهُ صدرَ مَنْ أراد إضلالَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً، كأنما يَصَّعَّدُ في السماء من ضِيقهِ عن الإيمانِ فيجزيه بذلك، كذلك يُسَلِّطُ اللهُ الشيطانَ عليه وعلى أمثاله مِمَّنْ أَبَى الإيمانَ بالله ورسوله، فيغويه ويصدّه عن سبيلِ الحق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ ۞

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الذي بَيَّنا لكَ، يامحمدُ، في هذه السورةِ وغيرها من سورِ القـرآن ـ هو صراطُ رَبِّكَ، يقول: طريق ربِّكَ، ودِينه الذي ارتضاهُ

---

(١) هذا ردٌّ بليغ على المعتزلة، ومَنْ قال بمقالتهم في هذا.

لنفســه دينـاً، وجعله مستقيمـاً لا اعوجاجَ فيه. فاثْبُتْ عليه، وحرِّم ما حَرَّمْتُه عليكَ، وأحلل ما أحللتـهُ لكَ، فقـد بيَّنا الآياتِ والحجج على حقيقةِ ذلك وصحته. «لقومٍ يذكرون»، يقول: لِمَنْ يتذكر ما احتجَّ الله به عليه من الآياتِ والعبرِ فيعتبر بها. وخَصَّ بها «الذين يتذكرون»، لأنهم هم أهلُ التمييزِ والفهمِ، وأولو الحِجَى والفضل.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «لهم»، للقومِ الذين يذكرون آياتِ الله فيعتبرونَ بها، ويُوقنون بدلالتها على مادَلَّتْ عليه من توحيدِ الله ومن نبوَّةِ نبيهِ محمدٍ ﷺ وغيرِ ذلك، فيصدِّقونَ بما وصلوا بها إلى علمه من ذاك.

وأما «دار السلام»، فهي دار الله التي أعدَّها لأوليائهِ في الآخرة، جزاءً لهم على ما أبلوا في الدنيا في ذاتِ الله، وهي جنته. و«السلام»، اسمٌ من أسماء الله تعالى.

وأمـا قولـه: «وهـو وليُّهم»، فإنه يقول: والله ناصرُ هؤلاء القومِ الذين يذكـرونَ آياتِ الله. «بما كانوا يعملون»، يعني: جزاءً بما كانوا يعملون من طاعةِ الله ويتبعون رضوانه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بقوله: «ويوم يحشرهم جميعاً»، ويومَ يحشر هؤلاء

العادلينَ باللهِ الأوثانَ والأصنامَ وغيرَهم من المشركينَ، مع أوليائِهم من الشياطينِ الذين كانوا يُوحُونَ إليهم زُخْرُفَ القولِ غُروراً ليجادِلُوا به المؤمنينَ، فيجمعهم جميعاً في موقفِ القيامة ـ يقولُ للجن: «يامعشرَ الجن قد استكثرتم من الإنسِ»، وحذف «يقول للجن» من الكلامِ، اكتفاءً بدلالة ماظهرَ من الكلامِ عليه منه.

وعَنَى بقوله: «قد استكثرتم من الإنس»، استكثرتم من إضلالِهم وإغوائِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فيجيبُ أولياءُ الجن من الإنسِ فيقولون: رَبَّنا استمتعَ بعضُنا ببعضٍ في الدنيا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالوا: بَلَغْنَا الوقتَ الذي وَقَّتَ لموتِنَا. وإنما يعني جَلَّ ثناؤه بذلك: أنهم قالوا: استمتعَ بعضُنا ببعضٍ أيّامَ حياتِنَا إلى حالِ موتنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٢٨﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عَمَّا هو قائلٌ لهؤلاءِ الذينَ يحشرهم يومَ القيامةِ من العادلينَ به في الدنيا الأوثانَ، ولقُرَنائِهم من الجِنِّ، فأخرج الخبرَ

عما هو كائنٌ، مُخْرَج الخبرِ عما كانَ، لتقدُّمِ الكلام قَبْلَه بمعناه والمراد منه، فقـال: قال الله لأولياءِ الجِنِّ من الإِنسِ الذين قد تَقَدَّمَ خبرُه عنهم: «النارُ مثواكم»، يعني نار جهنم. «مثواكم»، الذي تثوونَ فيه، أي تُقِيمونَ فيه.

«خالدين فيها»، يقول: لابثِينَ فيها. «إِلَّا ما شاء الله»، يعني إلا ماشاء الله من قَدْر مُدَّة ما بينَ مبعثهم من قبورِهم، إلى مصيرِهم إلى جهنم، فتلك المدة التي استثناها الله من خلودِهم في النار. «إِنَّ ربكَ حكيم»، في تدبيرِهِ في خَلْقِه، وفي تصريفِهِ إِيَّاهم في مشيئتِهِ من حالٍ إلى حال، وغير ذلك من أفعالِهِ. «عليمٌ»، بعواقبِ تدبيرِهِ إياهم، وما إليه صائرةٌ أمرِهم من خيرٍ وشر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾

معناه: وكذلك نجعلُ بعضَ الظالمينَ لبعضٍ أولياءَ. لأنَّ الله ذَكَرَ قَبْلَ هذه الآيةِ ما كانَ من قولِ المشـركينَ، فقال جَلَّ ثناؤه: «وقال أولياؤُهم من الإِنس رَبَّنَا استمتعَ بعضُنا ببعضٍ»، وأخبر جَلَّ ثناؤه: أنَّ بعضَهم أولياءُ بعضٍ، ثم عَقَّبَ خبره ذلك عن أنَّ ولايةَ بعضِهم بعضاً بتوليتِهِ إياهم، فقال: وكما جعلنا بعضَ هؤلاء المشركين من الجن والإِنس أولياءَ بعضٍ يستمتعُ بعضُهم ببعضٍ، كذلك نجعلُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ في كل الأمور. «بما كانوا يكسبون»، من معاصي الله ويعملونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا

وهذا خبر من الله جَلَّ ثناؤه عما هو قائلٌ يومَ القيامة لهؤلاء العادلينَ به من مشركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذِكْرُه يومئذٍ: «يامعشرَ الجن والإنس ألم يأتكم رسلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آياتي»، يقول: يُخْبِرُونَكُم بما أوحي إليهم من تنبيهي إياكم على مواضعِ حججي، وتعريفي لكم أدلَّتي على توحيدي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمري، والانتهاء إلى حدودي. «وينذرونكم لِقاءَ يومِكم هذا»، يقول: يُحَذِّرُونَكُمْ لِقاءَ عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتِكُمْ إيَّايَ، فتنتهوا عن معاصيَّ.

وهذا من الله جَلَّ ثناؤه تقريعٌ وتوبيخٌ لهؤلاء الكَفَرَةِ على ما سَلَفَ منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي. ومعناه: قد أتاكم رُسُلٌ منكم ينبِّهونكم على خطأ ماكُنْتُمْ عليه مقيمينَ بالحججِ البالغة، وينذرونكم وعيدَ الله على مقامكم على ماكنتم عليه مقيمينَ، فلم تقبلوا ذلك، ولم تتذكروا ولم تعتبروا.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾

وهذا خَبَرٌ من الله جل ثناؤه عن قولِ مشركي الجن والإنس عند تقريعهِ إياهم «شهدنا على أنفسنا»، بأنَّ رُسُلَكَ قد أتتنا بآياتكَ، وأنْذَرَتْنا لِقاءَ يومِنا هذا، فَكَذَّبناها وجَحَدْنا رسالتها، ولم نَتَّبِعْ آياتكَ ولم نُؤمنْ بها.

قال الله خبراً مبتدأ: وغَرَّتْ هؤلاءِ العادلينَ بالله الأوثانَ والأصنامَ، وأولياءَهم من الجن. «الحياةُ الدنيا»، يعني: زينةُ الحياةِ الدنيا، وطلبُ الرياسةِ فيها والمنافسة عليها، أنْ يسلموا لأمرِ الله فيطيعوا فيها رُسُلَهُ، فاستكبروا وكانوا قوماً عالينَ. فاكتفى بذكرِ «الحياة الدنيا» من ذكرِ المعاني التي غرَّتهم وخَدَعتهم فيها، إذْ كان في ذكرها. مكتفىً عن ذِكْرِ غيرِها، لدلالةِ الكلامِ على ماتُرك

ذكره - يقول الله تعالى ذِكْرُه: «وشهدوا على أنفسهم»، يعني: هؤلاء العادلينَ به يومَ القيامة - أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرسله، لِتَتِمَّ حُجَّةُ الله عليهم بإقرارِهم على أنفسِهم بما يوجبُ عليهم عقوبتَهُ وأليمَ عذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ذلك أنْ لم يكن رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى بظلم»، أي: إنما أرسلنا الرسلَ، يامحمدُ، إلى مَنْ وصفتُ أمرَه، وأعلمتُكَ خبرَهُ من مشركي الإنسِ والجن، يَقُصُّون عليهم آياتي وينذرونهم لقاءَ مَعَادِهم إليَّ، من أجلِ أنَّ ربَّكَ لم يكن مُهْلِكَ القرى بظلمٍ.

وقد يتَّجه من التأويل في قوله: «بظلم»، وجهان:

أحدهما: «ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، أي: بِشِرْكِ مَنْ أشركَ، وكُفْرِ مَنْ كفر من أهلها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، [لقمان: ١٣]. «وأهلُها غافلون»، يقول: لم يكن يعاجِلهم بالعقوبةِ حتى يبعثَ إليهم رسلاً تُنَبِّهُهم على حججِ الله عليهم، وتُنْذِرهم عذابَ الله يومَ مَعَادِهم إليه، ولم يكنْ بالذي يأخذهم غَفْلَةً فيقولوا: «ما جاءنا من بَشِيرٍ ولا نذير».

والآخر: «ذلك أنْ لم يكن ربكَ مُهلكَ القرى بظلم»، يقول: لم يكن ليهلكهم دونَ التنبيهِ والتذكيرِ بالرُّسل والآياتِ والعبرِ، فيظلمهم بذلك، والله غير ظَلَّامٍ لعبيده(١).

وأولى القولين بالصوابِ عندي، القولُ الأول: أنْ يكونَ معناه: أنْ لم

(١) هذه مقالة الفراء في معاني القرآن: ١/٣٥٥.

يكن ليهلكهم بشركِهم، دونَ إرسالِ الرسل إليهم، والإعذار بينه وبينهم. وذلك أنَّ قوله: «ذلك أن لم يكن رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى بظلم»، عقيبَ قوله: «ألم يأتكم رُسُلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آياتي»، فكان في ذلكَ الدليلُ الواضحُ على أنَّ نَصَّ قوله: «ذلك أنْ لم يكن ربك مهلك القرى بظلم»، إنما هو: إنما فعلنا ذلكَ من أجلِ أنَّا لا نهلكُ القرى بغيرِ تذكيرٍ وتنبيهٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولِكُلِّ عاملٍ في طاعةِ الله أو معصيته، منازلُ ومراتبُ من عملهِ يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شرًّا فشرًّا. «وما رَبُّكَ بغافلٍ عما يعملون»، يقول جَلَّ ثناؤه: وكُلُّ ذلك من عملهم، يامحمدُ، بعلمٍ من ربِّك، يُحْصِيها ويُثْبِتُهَا لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومَعَادِهم إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «وربُّكَ»، يا محمدُ، الذي أمرَ عبادَهُ بما أمرَهُمْ به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابَهُمْ على الطاعةِ، وعاقبهم على المعصيةِ. «الغنيُّ»، عن عبادهِ الذين أمرهم بما أمرَ، ونهاهم عما نهى، وعن أعمالِهم وعبادتهم إياهُ، وهم المحتاجونَ إليه، لأنه بيدهِ حياتُهم ومماتُهم، وأرزاقُهم

وأقواتُهم ونفعهم وضرهم. يقول عزَّ ذِكْرُه: فلم أخلقهم، يا محمدُ، ولم آمرهم بما أمرتُهُمْ به، وأنْهَهُمْ عما نَهَيْتُهُمْ عنه، لحاجةٍ لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضَّلَ عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانِهم إنْ أحسنوا، فإنّي ذُو الرَّأفةِ والرحمة.

وأما قوله: «إنْ يشأ يُذْهبكم ويستخلِفْ من بعدكم ما يشاء»، فإنه يقول: إنْ يشأ ربُّك، يا محمدُ، الذي خلق خَلْقَهُ لغيرِ حاجةٍ منه إليهم وإلى طاعتهم إياه. «يُذْهِبْكُمْ»، يقــول: يهلك خَلْقَـهُ هؤلاء الـذين خلقهم من ولـدِ آدم. «ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء»، يقول: ويأتِ بخَلْقٍ غيرِكم وأممٍ سواكم، يخلفُونكم في الأرض. «من بعدكم»، يعني: من بعد فنائِكم وهلاكِكم. «كما أنشأكم من ذرّية قومٍ آخرين»، كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خَلْقٍ آخرينَ كانوا قبلَكم.

ومعنى «مِنْ» في هذا الموضع التعقيب، كما يقال في الكلام: «أعطيتك من دينارك ثوباً»، بمعنى: مكانَ الدينار ثوباً، لا أنَّ الثوبَ من الدينارِ بعضٌ. كذلك الذين خوطبوا بقوله: «كما أنشأكم»، لم يُرِدْ بإخبارِهم هذا الخبرَ أنهم أُنْشِئُوا من أصلابِ قومٍ آخرين، ولكن معنى ذلك ما ذكرنا من أنَّهم أُنْشِئُوا مكانَ خَلْقٍ خَلَف قومٍ آخرين قد هلكوا قَبْلَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمشركين به: أيها العادلونَ بالله الأوثانَ والأصنامَ، إنَّ الذي يُوعِدُكم به رَبُّكم من عقابِهِ على إصرارِكم على كُفْرِكم، واقعٌ بكم. «وما أنتم بمعجزين»، يقول: لن تعجزوا ربَّكم هَرَباً منه في الأرض فتفوتوه، لأنكم

حيثُ كنتم في قَبْضَتِه، وهو عليكم وعلى عقوبتكم بمعصيتكم إيَّاهُ قادرٌ. يقول: فاحذرُوه وأنيبوا إلى طاعتهِ، قبلَ نزولِ البلاء بكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمد ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لقومك من قريش الذين يجعلونَ مع اللهِ إلهاً آخر: «اعملوا على مكانَتِكم»، يقول: اعملوا على حِيالكم وناحيتكم.

«إني عامل»، يقول جَلَّ ثناؤُه، لنبيه: قل لهم اعملُوا ما أنتم عاملونَ، فإني عاملٌ ما أنا عامِلُهُ مما أمرني به رَبي. «فسوف تعلمون»، يقول: فسوفَ تعلمونَ عند نزولِ نقمةِ اللهِ بكم، أيُّنا كان المحقّ في عمله، والمصيب سبيلَ الرشاد، أنا أم أنتم.

وقوله تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ لقومِكَ، «يا قوم اعملوا على مكانتكم»، أمرٌ منه له بوعِيدهم وتهدُّدِهم، لا إطلاقٌ لهم في عمل ما أرادُوا من معاصي الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١٣٥﴾

يعني بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «من تكون له عاقبة الدار»، فسوف تعلمون، أيها الكَفَرَةُ بالله، عند معايَنَتِكُم العذابَ، مَن الذي تكونُ له عاقبةُ الدارِ مِنَّا ومنكم. يقول: من الذي تُعْقبه دنياهُ ما هو خير له منها أو شر منها بما قَدَّمَ فيها من صالحِ أعماله أو سَيِّئها.

ثم ابتدأ الخبر جَلَّ ثناؤُهُ فقال: «إنه لا يفلحُ الظالمون»، يقول: إنه لا ينجحُ ولا يفوزُ بحاجته عند الله مَنْ عَمِلَ بخلافِ ما أمرهُ الله به من العمل في الدنيا، وذلك معنى: «ظلم الظالم»، في هذا الموضع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وجعل هؤلاء العادلونَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ لربِّهم «مما ذَرأ» خالقهم، يعني: مما خَلَقَ من الحرثِ والأنعام. «نصيباً»، يعني: قسماً وجزءاً.

وأما قوله: «ساء ما يحكمون»، فإنه خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن فِعْلِ هؤلاء المشركينَ الذين وصفَ صِفَتهم. يقول جَلَّ ثناؤُه: وقد أساءُوا في حكمهم، إذْ أخـذوا من نصيبي لشركائِهم، ولم يُعْطُوني من نصيبِ شركائِهم. وإنما عَنَى بذلـك تعالى ذِكْرُه الخَبرَ عن جَهْلِهم وضلالتهم، وذهابِهم عن سبيل الحقِّ، بأنهم لم يرضوا أنْ عدلوا بمن خَلَقَهم وغذاهم، وأنعمَ عليهم بالنعم التي لا تُحْصَى، ما لا يضـرهم ولا ينفعهم، حتى فَضَّلُوهُ في أقسامِهم عند أنفسِهم بالقَسَم عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكما زيَّن شركاءُ هؤلاءِ العادلينَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ لهم ما زَيَّنُوا لهم، من تصييرِهم لربِّهم من أموالهم قَسْماً بزعمهم، وتركهم ما وَصَلَ من القَسْم الذي جعلوه لله إلى قسم شركائهم في قسمهم، وردِّهم ما وَصَل من القَسَم الذي جعلوه لشركائهم إلى قسم نصيبِ الله، إلى قسم شركائهم. «كذلك زين لكثيرٍ من المشركينَ قتلَ أولادهم شركاؤهم»، من الشياطين، فَحَسَّنُوا لهم وأدَ البناتِ. «لِيُرْدُوهُمْ»، يقول ليهلكوهم. «وليلبسُوا عليهم دِينَهم»، فعلوا ذلك بهم، ليخلطوا عليهم دِينهم فيلتبس، فَيَضلُّوا ويهلكوا، بفعلِهم ما حَرَّمَ اللهُ عليهم، ولو شاء الله أنْ لا يفعلوا ما كانوا يفعلون من قتلهم لم يفعلوه، بأنْ كان يهديهم للحقِّ، ويوفقهم للسداد، فكانوا لا يقتلونهم، ولكن الله خذلهم عن الرشاد فقتلوا أولادَهُم، وأطاعوا الشياطينَ التي أغوتهم.

يقول الله لنبيه، مُتوعِّداً لهم على عظيمِ فِرْيَتِهم على رَبِّهم فيما كانوا يقولون في الأنصباء التي يقسِمونها: «هذا لله وهذا لشركائنا»، وفي قتلهم أولادهم. «ذَرْهُمْ»، يا محمدُ، «وما يَفترونَ»، وما يَتقوَّلُونَ عليَّ من الكذبِ والزورِ، فإني لهم بالمرصاد، ومن وراء العذاب والعقاب.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاء الجَهَلَةِ من المشركينَ أنهم كانوا يُحَرِّمُونَ ويحلِّلونَ من قِبَلِ أنفُسِهم، من غيرِ أنْ يكون الله أذِنَ لهم بشيءٍ من ذلك.

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء العادلونَ بربهم من المشركينَ، جهلاً

منهم، لأنعامٍ لهم وحرثٍ: هذه أنعامٌ وهذا حَرْثٌ حِجْرٌ يعني: بـ«الأنعام» و«الحرث» ما كانوا جعلوهُ لله ولآلهتهم، التي قد مضى ذِكْرُهَا في الآية قبل هذه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: وحَرَّمَ هؤلاء الجَهَلَةُ من المشركينَ ظهورَ بعضِ أنعامهم، فلا يركبون ظهورها، وهم ينتفعون برِسْلِها ونِتَاجها وسائرِ الأشياء منها غير ظهورِها للركوبِ ، وحَرَّمُوا من أنعامهم أنعاماً أُخَر، فلا يحجُّون عليها، ولا يذكرونَ اسمَ الله عليها إنْ ركبوها بحالٍ، ولا إنْ حلبوها، ولا إنْ حمَلوا عليها.

وأما قوله: «افتراء على الله»، فإنه يقول: فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحـريمهم ما حَرَّمُوا، وقالوا ما قالوا من ذلك، كَذِباً على الله، وتَخَرُّصاً الباطلَ عليه، لأنهم أضافوا ما كانوا يُحَرِّمُونَ من ذلك، على ما وَصَفَهُ عنهم جَلَّ ثَنَـاؤُهُ في كتابه، إلى أنَّ اللهَ هو الذي حَرَّمَهُ، فنفى الله ذلك عن نفسه، وأكْذَبَهُمْ، وأخبر نبيه والمؤمنينَ أنهم كَذَبَةٌ فيما يَدَّعُونَ.

ثم قال عَزَّ ذِكْرُه: «سيجزيهم»، يقول: سَيُثِيبُهم ربُّهم بما كانوا يفترونَ على الله الكَذِبَ ثوابَهم، ويجزيهم بذلك جزاءهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ﴾

الأنعام: ١٣٩

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «ما في بطون هذه الأنعام».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك اللَّبن.

وقال آخرون: بل عَنى بذلك ما في بطونِ البحائرِ والسوائبِ من الأجِنَّةِ.

وأوْلى الأقوال في تأويلِ ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ عن هؤلاءِ الكَفَرَةِ أنهم قالوا في أنعام بأعيانها: «ما في بطونِ هذه الأنعام خالصة لذكورنا دون إناثنا»، واللبنُ مما في بطونها، وكذلك أجنتها. ولم يخصُص الله بالخبرِ عنهم أنهم قالوا: بعضُ ذلك حرام عليهن دون بعض.

وإذ كان ذلك كذلك، فالواجبُ أنْ يقال إنهم قالوا: ما في بطون تلك الأنعـام من لبنٍ وجنينٍ حِلٌّ لذكـورِهم - خالصـة، دونَ إناثهم، وإنهم كانوا يؤثِرُونَ بذلك رجالَهم، إلا أنْ يكونَ الذي في بطونها من الأجنة ميتاً، فيشترك حينئذٍ في أكلهِ الرجال والنساء.

والصوابُ من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله أخبر عن هؤلاء المشركينَ أنهم كانوا يقولون لما في بطونِ هذه الأنعام - يعني أنعامهم -: «هذا محرم على أزواجنا»، و«الأزواج»، إنما هي نساؤهم في كلامهم، وهن لاشك بناتُ مَنْ هُنَّ أولاده، وحلائلُ مَنْ هُنَّ أزواجُه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: «سيجزي»، أي: سيثيبُ ويكافىءُ هؤلاءِ المفترينَ عليه الكذب في تحريمهم ما لم يحرِّمه اللهُ، وتحليلهم ما لم يحلله الله، وإضافتهم كَذِبَهم في ذلك إلى الله، وقوله: «وصفهم»، يعني بـ«وصفهم»، الكذبَ على

الله، وذلك كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في موضعٍ آخرَ من كتابه: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ٦٢].

وأما قوله: «إنه حكيم عليم»، فإنه يقولُ جَلَّ ثناؤُهُ: إنَّ الله في مجازاتهم على وَصْفِهم الكذب وقيلِهم الباطلَ عليه. «حكيم»، في سائرِ تدبيرهِ في خَلْقِه. «عليمٌ»، بما يُصْلِحُهم، وبغيرِ ذلكَ من أمورِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قد هَلَكَ هؤلاء المفترونَ على رَبِّهم الكذبَ، العادلونَ به الأوثانَ والأصنام، الذين زَيَّنَ لَهُمْ شركاؤُهم قتلَ أولادِهم، وتحريمَ ما أنعمتُ به عليهم من أموالهم، فقتلوا طاعةً لها أولادَهم، وحَرَّمُوا ما أَحَلَّ اللهُ لهم وجعله لهم رِزْقاً من أنعامِهم. «سَفَهاً»، منهم. يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلكَ جهالةً منهم بما لهم وعليهم، ونقصَ عقولٍ وضعفَ أحلامٍ منهم، وقِلَّةَ فَهْمٍ بعاجلِ ضرِّهِ وآجلِ مكروهه، من عظيمِ عقابِ الله عليه لهم. «افتراء على الله»، يقول: تَكَذُّباً على اللهِ وتَخَرُّصاً عليه الباطلَ. «قد ضَلُّوا»، يقول: قد تركوا مَحجَّةَ الحقِّ في فِعْلِهم ذلكَ، وزالوا عن سواءِ السبيل. «وما كانوا مهتدين»، يقول: ولم يَكُنْ فاعِلُو ذلك على هدىً واستقامةٍ في أفعالهم التي كانوا يفعلون قبل ذلك، ولا كانوا مهتدينَ للصوابِ فيها، ولا مُوَفَّقينَ له.

ونزلت هذه الآيةُ في الذين ذَكَرَ اللهُ خَبرهم في هذه الآياتِ من قوله: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحَرْثِ والأنعامِ نصيباً»، الذين كانوا يُبَحِّرونَ البحائرَ، ويُسَيِّبونَ السوائبَ، ويَئِدُونَ البناتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾

وهذا إعلامٌ من الله تعالى ذِكْرُه ما أنعمَ به عليهم من فضله، وتنبيهٌ منه لهم على موضعِ إحسانِه، وتعريفٌ منه لهم ما أَحَلَّ وحَرَّمَ وقسمَ في أموالهم من الحقوقِ لمن قسم له فيها حقًّا.

يقول تعالى ذِكْرُه: وربكم، أيها الناسُ. «أنشأ»، أي أحدثَ وابتدعَ خلقاً، لا الآلهة والأصنام. «جناتٍ»، يعني بساتين. «معروشات»، وهي ما عَرَشَ الناسُ من الكروم. «وغير معروشات»، غيرَ مرفوعاتٍ مبنيَّات، لا ينبته الناسُ ولا يرفعونه، ولكنَّ الله يرفعهُ وينبته وينميِّه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: وأنشأ النخلَ والزرعَ مختلفاً أُكُلُه ـ يعني بـ«الأكل»، الثمرَ. يقول: وخَلقَ النخلَ والزرعَ، مختلفاً ما يخرجُ منه مما يُؤكَلُ من الثمرِ والحَبِّ. «والزيتونَ والرمانَ متشابهاً وغير متشابه»، في الطَّعْمِ، منه الحلوُ، والحامض، والمُزّ[1].

وأما قوله: «كُلُوا من ثمره إذا أثمر»، فإنه يقولُ: كُلُوا من رطبه ما كانَ رطباً ثمرهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾

---

(١) المز ـ بضم الميم وبالزاي ـ ما كان طعمُه بين الحلو والحامض.

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك.

فقال بعضهم: هذا أمرٌ من اللهِ بإيتاءِ الصدقةِ المفروضةِ من الثمر والحَبِّ.

وقال آخرون: بل ذلك حَقٌّ أوجبه اللهُ في أموالِ أهلِ الأموالِ، غيرُ الصدقةِ المفروضة.

وقال آخرون: كان هذا شيئاً أمَرَ اللهُ به المؤمنينَ قبل أنْ تُفْرَضَ عليهم الصدقةُ المؤقتة. ثم نَسَخَتْهُ الصدقةُ المعلومةُ، فلا فَرْضَ في مالٍ كائناً ما كانَ، زَرْعاً كان أو غرساً، إلا الصدقة التي فَرَضَها اللهُ فيه.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: كان ذلك فرضاً فَرَضَهُ اللهُ على المؤمنين في طعامهم وثمارِهم التي تُخْرِجها زُرُوعهم وغرُوسهم، ثم نَسَخَهُ الله بالصدقةِ المفروضة، والوظيفةِ المعلومةِ من العُشْرِ ونصفِ العشر. وذلك أنَّ الجميعَ مُجْمِعُونَ لا خِلافَ بينهم: أنَّ صدقة الحَرْثِ لا تُؤخَذُ إلا بعد الدِّياسِ والتنقيةِ والتذريةِ، وأنَّ صدقةَ التمر لا تُؤخَذُ إلا بعد الإجزازِ.

فإذا كان ذلك كذلك، وكان قوله جَلَّ ثناؤُهُ: «وآتوا حَقَّهُ يومَ حَصادِه»، يُنْبِيءُ عن أنه أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ بإيتاءِ حقه يومَ حصادِه، وكانَ يوم حصادِه هو يوم جَدِّه وقَطْعِه، والحبُّ لاشَكَّ أنه في ذلك اليوم في سُنْبُلِه، والتَّمر وإنْ كان ثمر نخل أو كَرْم غيرُ مستحكم جُفوفُه ويبْسُه، وكانت الصدقة من الحَبِّ إنما تُؤْخَذُ بعد دياسِهِ وتذريتِهِ وتنقيتِهِ كيلاً، والتمرُ إنما تُؤْخَذُ صدقته بعد استحكامِ يبسه وجُفُوفه كَيْلاً ـ عُلِمَ أنَّ ما يؤخذُ صدقةً بعد حين حَصْده، غير الذي يجب إيتاؤه المساكينَ يومَ حَصاده.

فإن قال قائل: وما تُنْكِرُ أنْ يكونَ ذلك إيجاباً من اللهِ في المالِ حقًّا سوى الصدقةِ المفروضة؟

قيل: لأنه لا يخلو أنْ يكونَ ذلك فرضاً واجباً، أو نفْلاً.

فإنْ يَكُنْ فَرْضَاً واجباً، فقد وجبَ أنْ يكونَ سبيلُه سبيلَ الصدقات المفروضات التي مَنْ فرَّطَ في أدائها إلى أهلها كان بربِّه آثماً، ولأمره مُخَالفاً. وفي قيام الحجة بأنْ لا فرضَ للهِ في المالِ بعدَ الزكاةِ يجبُ وجوبَ الزكاة سِوى ما يجبُ من النفقةِ لمن يلزم المرءَ نفقته، ما يُنْبِيءُ عن أنَّ ذلك ليس كذلك.

أو يكون ذلك نَفْلاً. فإنْ يكن ذلك كذلك، فقد وجبَ أنْ يكون الخيارُ في إعطاءِ ذلك إلى رَبِّ الحرثِ والثمرِ. وفي إيجابِ القائلينَ بوجوب ذلك، ما ينبيءُ عن أنَّ ذلك ليسَ كذلك.

وإذا خرجت الآيةُ من أن يكون مُراداً بها النَّدْبُ، وكان غير جائزٍ أنْ يكونَ لها مخرجٌ في وجوب الفَرْضِ بها في هذا الوقت، عُلِمَ أنها منسوخة.

ومما يؤيدُ ما قلنا في ذلك من القولِ دليلاً على صحته، أنه جَلَّ ثناؤُهُ أتبع قوله: «وآتوا حَقَّهُ يومَ حصاده»، «ولا تُسْرِفُوا إنه لا يحبُّ المسرفينَ»، ومعلومٌ أنَّ من حُكْمِ اللهِ في عبادِه مُذْ فَرَضَ في أموالهم الصدقةَ المفروضةَ المؤقتةَ القَدْرِ، أنَّ القائمَ بأخذِ ذلك ساسَتُهم ورُعاتهم. وإذا كان ذلك كذلك، فما وجهُ نهيِ رَبِّ المالِ عَن الإسرافِ في إيتاء ذلك، والآخذُ مُجْبِرٌ، وإنما يأخذُ الحَقَّ الذي فُرِضَ لله فيه؟

وإنْ ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك إنما هو نهيٌ من الله القيِّمَ بأخذِ ذلك من الرعاةِ عن التعدِّي في مالِ رَبِّ المال، والتجاوز إلى أخذِ ما لم يُبَحْ له أخذُه، فإنَّ آخرَ الآية وهو قوله: «ولا تسرفوا»، معطوف على أوله، وهو قوله: «وآتوا حقه يوم حصاده». فإنْ كان المنهيَّ عن الإسرافِ القيِّمُ بقبضِ ذلك، فقد يجبُ أنْ يكونَ المأمورَ بإيتائه، المنهيَّ عن الإسرافِ فيه، وهو السلطانُ.

وذلك قولٌ إنْ قاله قائلٌ، كان خارجاً من قولِ جميعِ أهلِ التأويل، ومخالفاً المعهودَ من الخطابِ، وكفى بذلك شاهداً على خَطَئِه.

فإنْ قالَ قائلٌ: وما تُنْكِرُ أنْ يكونَ معنى قوله: «وآتوا حقه يوم حصاده»، وآتوا حقه يومَ كَيْلِهِ، لا يومَ قَصْله[1] وقَطْعِه، ولا يومَ جِدَادِه وقِطافه؟

قيل: لأنَّ يومَ كَيْلِه غير يومِ حَصادِه. ولَنْ يخلوَ معنى قائلي هذا القولِ من أحدِ أمرين: إما أنْ يكونوا وَجَّهُوا معنى «الحصاد»، إلى معنى «الكيل»، فذلك ما لا يُعْقَلُ في كلامِ العرب، لأنَّ «الحصاد» و«الحصد» في كلامهم: الجدّ والقطع، لا الكيل ـ أو يكونوا وَجَّهُوا تأويل قوله: «وآتوا حَقَّهُ يومَ حصاده». إلى: وآتوا حَقَّهُ بعدَ يومِ حصادِه إذا كِلْتُموه، فذلك خلافُ ظاهرِ التنزيل. وذلك أنَّ الأمرَ في ظاهرِ التنزيل بإيتاءِ الحقِّ منه يومَ حصاده، لا بعدَ يوم حصاده. ولا فرقَ بين قائلٍ: إنما عَنَى الله بقوله: «وآتوا يوم حصاده»، بعدَ يومِ حصادِه ـ وآخرَ قال: عَنَى بذلك قبلَ يومِ حصاده، لأنهما جميعاً قائلان قولاً، دليلُ ظاهرِ التنزيل بخلافه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٤١﴾

اختلف أهلُ التأويلِ في «الإسراف»، الذي نهى الله عنه بهذه الآية، ومَنِ المنهيُّ عنه.

فقال بعضهم: المنهيُّ عنه: ربُّ النخل والزرع والثمر ـ و«السرف» الذي

(١) قصلَ النبات: قَطَعَهُ وهو أخضر، وفي عامية العراق اليوم: القصيل أو «الكصيل» هو قطعُ الشعير وهو أخضر قبل ظهور سنابله تُعلف به الحيوانات في أول الربيع.

نهى اللهُ عنه في هذه الآية، مجاوزةُ القَدْرِ في العطِيَّةِ إلى ما يجحفُ بربِّ المالِ.

وقال آخرون: «الإسراف» الذي نهى اللهُ عنه في هذا الموضع، مَنْعُ الصدقةِ والحقِّ الذي أمر الله ربَّ المالِ بإيتائه أهلَهُ بقوله: «وآتوا حقه يوم حصاده».

وقال آخرون: إنما خُوطِبَ بهذا السلطانُ. نُهِيَ أن يأخذَ من ربِّ المالِ فوقَ الذي ألزمَ الله مالَه.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنْ يقال: إنَّ الله تعالى ذِكْرُه نهى بقوله: «ولا تسرفوا»، عن جميع معاني «الإسراف»، ولم يخصصْ منها معنىً دونَ معنى.

وإذ كان ذلك كذلك، وكان «الإسراف» في كلام العرب: الإخطاء بإصابةِ الحَقِّ في العطيَّةِ، إما بتجاوزِ حَدِّهِ في الزيادة، وإما بتقصير عن حَدِّهِ الواجب، كان معلوماً أنَّ المفرِّقَ مالَه مباراةً، والباذلَهُ للناسِ حتى أجحفتْ به عَطِيَّتُه، مسرفٌ بتجاوزِه حَدَّ الله إلى ما ليس له. وكذلك المُقَصِّرُ في بذلِه فيما ألزمه اللهُ بَذْله فيه، وذلك كمنعِه ما ألزمه إيتاءَهُ منه أهلَ سُهْمَانِ الصدقةِ إذا وَجَبَتْ فيه، أو منعه مَنْ ألزمه الله نفقتَهُ من أهلِهِ وعياله وما ألزمه منها. وكذلك السلطان في أخـذه من رعيتـه ما لم يأذن اللهُ بأخذِه. كُلُّ هؤلاء فيما فعلوا من ذلك مسرفونَ، داخلونَ في معنى مَنْ أتى ما نهى اللهُ عنه من الإسرافِ بقوله: «ولا تُسْرِفُوا»، في عَطِيَّتِكُم من أموالكم ما يجحفُ بكم ـ إذْ كان ما قَبْلَهُ من الكلامِ أمراً من الله بإيتاءِ الواجبِ فيه أهله يومَ حصادِه. فإنَّ الآية قد كانت تنزلُ على رسولِ الله ﷺ بسببٍ خاصٍّ من الأمورِ، والحكمُ بها على العامِّ، بل عامّةُ آيِ القرآنِ كذلك. فكذلك قوله: «ولا تسرفوا إنه لا يحبِ المسرفين».

ومن الدليل على صِحَّةِ ما قلنا من معنى: «الإسراف» أنه على ما قُلْنَا، قولُ الشاعر:

أَعْطَوا هُنَيْدَةَ يَحْدُوهَا ثَمَانِيَةٌ ... مَا فِي عَطَائِهِمُ مَنٌّ وَلَا سَرَفُ

يعني بـ «السرف»: الخطأ في العطيّة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأنشأ من الأنعامِ حَمُولةً وفَرْشاً، مع ما أنشأ من الجناتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشات.

و«الحمولة»، ما حُمِلَ عليه من الإبلِ وغيرها.

و«الفرش»، صِغَارُ الإبلِ التي لم تدرك أن يُحْمَل عليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: كُلُوا مما رزقكمُ الله، أيها المؤمنونَ، فأحلَّ لكم ثمراتِ حُرُوثِكم وغُروسِكم، ولحومِ أنعامِكم، إذْ حَرَّمَ بعضَ ذلك على أنفسهم المشركون بالله، فجعلوا للهِ مما ذَرأَ من الحرثِ والأنعامِ نصيباً وللشيطانِ مثله، فقالوا «هذا للهِ بزعمِهم وهذا لشركائنا». «ولا تتبعوا خُطواتِ الشيطان»، كما اتبعها باحِرُو البحيرةِ، ومُسَيِّبو السوائب، فتحرموا على أنفسكم من طيبِ رزقِ الله الذي رزقكم ما حرموه، فتُطِيعُوا بذلك الشيطانَ، وتَعْصُوا به الرحمنَ.

إنَّ الشيطان لكم عدوٌّ يبغي هلاكَكُم وصَدَّكم عن سبيلِ ربكم. «مبينٌ»،

قد أبانَ لكم عَدَاوَتَهُ، بمناصبتهِ أباكُم بالعداوةِ، حتى أخرجه من الجنةِ بكيدهِ، وخَدَعه حَسَداً منه له، وبغياً عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾

وهـذا تقريعٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ العادلينَ به الأوثانَ من عَبَدَةِ الأصنامِ، الذين بحروا البحائرَ، وسَيَّبُوا السوائبَ، ووصَلُوا الوصائلَ ـ وتعليمٌ منه نبيَّهُ ﷺ والمؤمنين به، الحجة عليهم في تحريمهم ما حَرَّمُوا من ذلك. فقالَ للمؤمنينَ به وبرسوله: وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغيرَ معروشاتٍ، ومِنَ الأنعامِ أنشأ حَمُولةً وفَرْشاً. ثم بَيَّنَ جَلَّ ثناؤُهُ «الحمولة» و«الفرش»، فقال: «ثمانية أزواج».

«من الضأن اثنين ومن المعز اثنين»، فذلك أربعة، لأنَّ كُلَّ واحدٍ من الاثنين من الضـأنِ زوجٌ، فالأنثى منـه زوجُ الذكر، والذكر منه زوجُ الأنثى، وكـذلـك ذلك من المعز ومن سائرِ الحيوان. فلذلك قال جَلَّ ثناؤُهُ: «ثمانية أزواج»، كما قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، [الذاريات: ٤٩]، لأنَّ الذكر زوجُ الأنثى، والأنثى زوج الذكر، فهما وإنْ كانا اثنين فهما زوجان، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، [الأعراف: ١٨٩]، وكما قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، [الأحزاب: ٣٧].

ثم قال لهم: كُلُوا مما رَزَقَكُم اللهُ من هذه الثمارِ واللحومِ، واركبوا هذه الحَمُولةَ، أيها المؤمنونَ، فلا تَتَّبِعُوا خُطواتِ الشيطانِ في تحريمِ ما حَرَّمَ هؤلاء الجَهَلَةُ بغيرِ أمري إياهم بذلك.

قل، يا محمدُ، لهؤلاء الذين حَرَّمُوا ما حرموا من الحرثِ والأنعامِ اتباعاً للشيطانِ، من عَبَدَةِ الأوثانِ والأصنام الذينَ زعموا أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّمُونَ من ذلك ـ: الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ رَبُّكم، أيها الكَذَبَةُ على الله، من الضأنِ والمعز؟ فإنهم إنْ ادَّعوا ذلك وأَقَرُّوا به، كذبوا أنفسهم وأبانوا جَهْلَهم. لأنهم إذا قالوا: «يحرمُ الذكرين من ذلك»، أوجبوا تحريمَ كُلِّ ذَكَرَيْنِ من ولدِ الضأنِ والمعزِ، وهم يستمتعونَ بلحومِ الذُّكْرَانِ منها وظهورها. وفي ذلك فسادُ دعواهم وتكذيب قولهم. «أم الأنثيين»، فإنهم إنْ قالوا: «حَرَّمَ ربنا الأنثيين»، أوجبوا تحريمَ لحومِ كُلِّ أنثى من ولدِ الضأنِ والمعزِ على أنفسهم وظهورها. وفي ذلك أيضاً تكـذيبٌ لهم، ودَحْضُ دعـواهم أنَّ رَبَّهم حَرَّمَ ذلك عليهم، إذْ كانوا يستمتعون بلحومِ بعضِ ذلك وظهوره. «أم ما اشتملتْ عليه أرحامُ الأُنثيين»، يقول: أم حرم ما اشتملتْ عليه أرحامُ الأنثيين، يعني أرحام أنثى الضأنِ وأنثى المعز، فلذلك قال: «أرحام الأنثيين»، وفي ذلك أيضاً لو أقَرُّوا به فقالوا: «حرم علينا ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين»، بطُولُ قولهم وبيانُ كَذِبهم، لأنهم كانوا يُقِرُّونَ بإقرارهم بذلك أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ذكورَ الضأنِ وإناثها، أنْ يأكلوا لحومها أو يركبوا ظهورها، وقد كانوا يستمتعونَ ببعضِ ذكورِها وإناثها.

«نَبِّئُوني بعلم»، يقول: قُلْ لهم: خَبِّرُوني بعلمِ ذلك على صحته: أيَّ ذلك حَرَّمَ رَبُّكم عليكم، وكيف حَرَّمَ؟ «إنْ كنتم صادقينَ»، فيما تَنْحلُونه رَبَّكُمْ من دَعْواكم، وتُضِيفُونَهُ إليه من تحرِيمكم.

وإنما هذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ نبيَّه أنَّ كُلَّ ما قاله هؤلاءِ المشركونَ في ذلك وأضافوهُ إلى الله، فهو كَذِبٌ على الله، وأنه لم يُحَرِّمْ شيئاً من ذلك، وأنهم إنما اتَّبَعُوا في ذلك خُطواتِ الشيطانِ، وخالفوا أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وتـأويلُ قوله: «ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّم أم الأنثيين أما اشتملتْ عليه أرحامُ الأنثيين»، نحو تأويل قوله: «من الضأنِ اثنين ومن المعز اثنين»، وهذه أربعةُ أزواج، على نحوِ ما بَيَّنا من الأزواجِ الأربعةِ قَبْلُ من الضأنِ والمعزِ، فذلك ثمانيةُ أزواج، كما وصفَ جَلَّ ثناؤُهُ.

وأما قوله: «أم كنتم شهداءَ إذْ وصَّاكم الله بهذا فَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ افترى على اللهِ كذباً لِيُضِلَّ الناسَ بغير علم»، فإنه أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ نبيَّه ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاء الجَهَلَةِ من المشركينَ الذين قَصَّ قَصَصهم في هذه الآياتِ التي مضَتْ. يقول له عَزَّ ذِكْرُه: قُلْ لهم، يا محمدُ: أيَّ هذه سألتكم عن تحريمهِ حَرَّمَ رَبُّكم عليكم من هذه الأزواج الثمانية؟ فإنْ أجابوكَ عن شيءٍ مما سألتهم عنه من ذلك، فقل لهم: أخَبَراً قُلْتُمْ: «إنَّ الله حَرَّمَ هذا عليكم»، أخبركم به رسـولٌ عن رَبِّكم، أم شَهِـدْتُم رَبَّكُمْ فرأيتمـوهُ فَوَصَّـاكُمْ بهـذا الذي تقولونَ وتُزَوِّرُونَ على الله؟ فإنَّ هذا الذي تقولون من أخباركم عن الله أنه حرامٌ بما تزعمـونَ على ما تزعمـون، لا يُعلَمُ إلا بوحي من عنـده مع رسـولٍ يُرْسِلُه إلى خَلْقِـه، أو بسماعٍ منه، فبأيِّ هذين الوجهينِ عَلِمْتُمْ أنَّ الله حَرَّمَ ذلك كذلك، برسولٍ أرسَلَهُ إليكم، فأنبؤني بعلمٍ إنْ كنتم صادقين؟ أم شهدتم رَبَّكم فأوصَاكم بذلك، وقال لكم: «حَرَّمْتُ ذلك عليكم»، فسمعتُمْ تحريمَهُ منه، وعهدَهُ إليكم بذلك؟ فإنه لم يكنْ واحدٌ من هذينِ الأمرينِ. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: «فَمَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً»، يقول: فمن أشَدُّ ظلماً لنفسه، وأبعدُ

عن الحقِّ ممن تخـرَّصَ على الله قِيْلَ الكَـذِبِ، وأضافَ إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمْ، وتحليلَ ما لم يُحَلِّلْ. «ليضل الناسَ بغيرِ علم»، يقول: ليصدَّهُمْ عن سبيلِه. «إنَّ الله لا يهدي القومَ الظالمين»، يقول: لا يوفّق الله للرشد مَن افترى على اللهِ وقال عليه الزُّورَ والكَذِبَ، وأضافَ إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمْ، كفراً باللهِ، وجُحُوداً لنبوةِ نبيِّه محمد ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء الذين جعلوا للهِ مِمَّـا ذَرأ من الحـرثِ والأنعـامِ نصيباً، ولشركائِهم من الآلهةِ والأندادِ مثله ـ والقائلينَ: هذه أنعامٌ وحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إلَّا مَنْ نشاء بزعمهم ـ والمحرِّمينَ من أنعام أُخَرَ ظهورهَا ـ والتاركينَ ذِكْرَ اسمِ اللهِ على أُخَر منها ـ والمحرِّمينَ بعضَ ما في بطون بعض أنعامِهم على إناثِهم وأزواجِهم، ومُحِلِّيهِ لذكورِهم، المحرِّمينَ ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله، وإضافةً منهم ما يُحَرِّمُونَ من ذلك إلى أن اللهَ هُوَ الذي حَرَّمَهُ عليهم ـ: أجاءكم من الله رسولٌ بتحريمه ذلك عليكم، فأنبئونا به، أمْ وَصَّاكم الله بتحريمِهِ مشاهدةً منكم له، فسمعتم منه تحريمَهُ ذلك عليكم فحرمتموه؟ فإنكم كَذَبَةٌ إن ادَّعَيْتُمْ ذلكَ، ولا يمكنكم دعواه، لأنكم إذا ادَّعيتُموه عَلِمَ الناسُ كَذِبَكُمْ ـ فإني لا أجدُ فيما أوحى إليَّ من كتابهِ وآيِ تنزيلهِ، شيئاً مُحَرَّماً على آكلٍ يأكلُه مما تَذْكُرونَ أنَّهُ حَرَّمَهُ من هذه الأنعامِ التي تَصِفُونَ تحـريمَ ما حَرَّمَ عليكم منهـا بزعْمِكم. «إلا أنْ يكونَ مَيْتَةً»، قد ماتتْ بغيرِ تذكيةٍ. «أو دماً مسفوحاً»، وهو المُنصبُّ ـ أو إلَّا أنْ يكونَ لحمَ خنزيرٍ. «فإنه رجسٌ أو فسقاً»، يقول: أو إلَّا أنْ يكونَ فِسْقاً يعني، بذلك: أو إلَّا أنْ يكونَ

مذبوحاً ذَبَحَهُ ذابحٌ من المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ لصنمِهِ وآلهتِهِ، فذكرَ عليه اسمَ وثنِهِ، فإنَّ ذلك الذبح فِسْقٌ نهى الله عنه وحَرَّمَهُ، ونهى مَنْ آمَنَ به عن أكلِ ما ذُبِحَ كذلك، لأنه ميتةٌ.

وهذا إعلامٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ للمشركينَ الذين جادلوا نبيَّ الله وأصحابه في تحريمِ الميتةِ بما جادَلوهم به، أنَّ الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرامُ الذي حَرَّمَهُ الله، وأنَّ الذي زعموا أنَّ الله حَرَّمَهُ حلالٌ قد أحلَّهُ الله، وأنهم كَذَبَةٌ في إضافتهم تحريمَهُ إلى الله.

وفي اشتراطه جَلَّ ثناؤُهُ في الدم عند إعلامه عبادَهُ تحريمَهُ إياهُ، المسفوحَ منه دونَ غيرِه، الدليلُ الواضحُ أنَّ ما لم يَكُنْ منه مسفوحاً، فحلالٌ غيرُ نَجِسٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

وقد ذكرنا اختلافَ أهلِ التأويل في تأويل قوله: «فمن اضْطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عَادٍ»، والصوابُ من القولِ فيه عندنا فيما مضى من كتابنا هذا، في «سورة البقرة»، بما أغنى عن إعادتِهِ في هذا الموضع - وأن معناه: فمن اضطر إلى أكلِ ما حَرَّمَ الله من أكلِ المَيْتَةِ والدم المسفوحِ أو لحمِ الخنزير أو ما أُهِلَّ لغيرِ الله به، غيرَ باغٍ في أكله إيَّاهُ تَلَذُّذاً، لا لضرورةِ حالةٍ من الجوعِ، ولا عادٍ في أكلهِ بتجاوزهِ ما حَدَّهُ الله وأباحه له من أكله، وذلك أن يأكلَ منه ما يدفعُ عنه الخوفَ على نفسِه بتركِ أكلِه من الهلاكِ، لم يتجاوزْ ذلك إلى أكثرَ منه، فلا حَرَجَ عليه في أكلِه ما أكلَ من ذلك. «فإنَّ الله غفور»، فيما فعلَ من ذلك، فساترٌ عليه بتركهِ عقوبَتَهُ عليه، ولو شاء عاقبه عليه. «رحيم»، بإباحتِهِ إياهُ أكلَ ذلك عند حاجته إليه، ولو شاء حرَّمه عليه ومنعه منه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾

قال أبو جعفر:

يقول تعالى ذِكْرُه: وحَرَّمْنَا على اليهودِ. «كُلَّ ذي ظُفُرٍ»، وهو من البهائمِ والطيرِ ما لم يكن مشقُوقَ الأصابعِ، كالإبلِ والنَّعام والاوزِ والبَطِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾

إنَّ اللهَ أخبرَ أنه كان حَرَّمَ على اليهودِ من البقرِ والغنمِ شحومَهُمَا، إلَّا ما استثناهُ منها مما حملتْ ظهورُهُمَا أو الحَوَايا أو ما اختلطَ بعظيمٍ. فكل شحمٍ سِوى ما استثناهُ اللهُ في كتابه من البقرِ والغنمِ، فإنه كان مُحَرَّماً عليهم.

وبنحو ذلك من القولِ تظاهرت الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ، وذلك قوله: «قاتلَ اللهُ اليهودَ، حُرِّمَتْ عليهم الشحومُ فجملوها ثم باعوها وأكَلُوا أثمانها»[1].

وأما قوله: «إلَّا ما حَمَلَتْ ظهورُهُما»، فإنه يعني: إلا شحوم الجَنْبِ وما علقَ بالظهرِ، فإنها لم تُحَرَّمْ عليهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾

---

(١) هو في الصحيحين من حديث ابن عباس: البخاري (٢٢٢٣) و(٣٤٦٠)، ومسلم (١٥٨٢)، ومن حديث أبي هريرة: البخاري (٢٢٢٤)، ومسلم (١٥٨٣)، وأخرجه مسلم (١٥٨١) من حديث جابر أيضاً.

و«الحـوايا» جَمْـعُ، واحـدها «حاوِياء»، و«حاوية»، و«حَوِيَّة»، وهي ما تحوَّى من البطنِ فاجتمعَ واستدارَ، وهي بناتُ اللبن، وهي «المباعر»، وتسمى «المرابض»، وفيها الأمعاء.

ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حَرَّمْنَا عليهم شحومهما، إلا ما حملتْ ظهورُهُمَا، أو ما حملت الحوايا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْمَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن البقرِ والغنمِ حَرَّمْنَا على الذينَ هَادُوا شحومَهُمَا، سِوى ما حملتْ ظهورُهما، أو ما حملتْ حواياهما، فإنَّا أحْلَلْنَا ذلكَ لهم، وإلاَّ ما اختلطَ بعظمٍ، فهو لهم أيضاً حلالٌ.

وعَنَى بقوله: «أو ما اختلطَ بعظم»، شحم الألية والجنبِ، وما أشبه ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فهذا الذي حَرَّمْنَا على الذين هَادُوا من الأنعامِ والطيرِ ذواتِ الأظافيرِ غير المنفرجةِ، ومن البقرِ والغنمِ ما حَرَّمْنَا عليهم من شحومهما، الذي ذكرنا في هذه الآية، حَرَّمْنَاهُ عليهم عقوبةً مِنَّا لهم، وثواباً على أعمالِهم السيئة، وبَغْيِهم على رَبِّهم.

وقوله: «وإنا لصادقون»، يقول: وإنا لصادقون في خبرنا هذا عن هؤلاءِ اليهـودِ عَمَّا حَرَّمْنَا عليهم من الشحومِ ولحومِ الأنعامِ والطيرِ التي ذكرنا أنَّا

حَرَّمنا عليهم، وفي غير ذلك من أخبارنا، وهم الكاذبونَ في زعمِهم أنَّ ذلك إنما حَرَّمَهُ إسرائيلُ على نفسِه، وأنهم إنما حَرَّمُوهُ لتحريمِ إسرائيلَ إياهُ على نفسه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: فإنْ كَذَّبكَ، يا محمدُ، هؤلاء اليهودُ فيما أخبرناكَ أنَّا حَرَّمْنَا عليهم وحَلَّلْنَا لهم، كما بَيَّنا في هذه الآية. «فَقُلْ رَبُّكم ذُو رحمةٍ»، بنَا، وبِمَنْ كانَ به مؤمناً من عباده، وبغيرهم من خَلْقه. «واسعة»، تَسَعُ جميعَ خَلْقِه، المحسنَ والمسيءَ، لا يعاجلُ مَنْ كفرَ به بالعقوبةِ، ولا مَنْ عَصَاهُ بالنِّقمة، ولا يَدَعُ كرامة مَنْ آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثوابَ عمله، رحمةً منه بِكِلا الفريقينِ، ولكنَّ بأسَهُ ـ وذلك سطوته وعذابه ـ لا يردُّه إذا أحَلَّهُ عند غضبه على المجرمينَ بهم عنهم شيءٌ، و«المجرمون» هم الذين أجرَمُوا فاكتسبوا الذنوبَ واجترحُوا السيئاتِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا

يقول جَلَّ ثناؤُه: «سيقولُ الذين أشركوا»، وهم العادلونَ باللهِ الأوثانَ والأصنامَ من مشركي قريش. «لو شاء الله ما أشركنا»، يقول: قالوا احتجازاً من الإذعان للحقِّ بالباطلِ من الحجة، لما تَبَيَّنَ لهم الحق، وعلموا باطلَ ما كانوا عليه مقيمينَ من شِرْكِهم، وتحريمهم ما كانوا يُحَرِّمُونَ من الحروثِ والأنعام،

على ما قد بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه في الآياتِ الماضيةِ قَبْلَ ذلك: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً»، وما بعدَ ذلك: لو أراد الله منها الإيمانَ به، وإفرادَهُ بالعبادةِ دونَ الأوثانِ والآلهة، وتحليلَ ما حَرَّمَ من البحائرِ والسوائبِ وغير ذلك من أموالنا، ما جعلنا لله شريكاً، ولا جعلَ ذلك له آباؤُنَا من قبلنا، ولا حَرَّمْنَا ما نُحَرِّمُه من هذه الأشياءِ التي نحنُ على تحريمها مقيمون، لأنه قادرٌ أنْ يحول بيننا وبين ذلك، حتى لا يكون لنا إلى فِعْلِ شيءٍ من ذلك سبيل: إما بأن يضطرنا إلى الإيمانِ وتركِ الشركِ به، وإلى القولِ بتحليلِ ما حَرَّمنا ـ وإما بأن يَلْطُفَ بنا بتوفيقهِ، فنصيرَ إلى الإقرارِ بوحدانيتهِ، وتركِ عبادةِ ما دونه من الأندادِ والأصنـام، وإلى تحليلِ ما حرمنا، ولكنه رضي منا ما نحنُ عليه من عبادةِ الأوثـان والأصنامِ واتخاذِ الشريكِ له في العبادة والأنداد، وأراد ما نحرّم من الحروث والأنعام، فلم يَحُلْ بيننا وبين ما نحنُ عليه من ذلك.

قال الله مُكَـذِّبـاً لهم في قِيْلِهم: «إنَّ الله رضيَ منا ما نحنُ عليه من الشرك، وتحريم ما نحرّم» ـ وراداً عليهم باطل ما احتجوا به من حُجَّتِهم في ذلك «كذلك كَذَّبَ الذين من قَبْلِهم»، يقول: كما كَذَّبَ هؤلاء المشركون، يا محمدُ، ما جئتهم به من الحَقِّ والبيان، كَذَّبَ مَنْ قَبْلَهم من فَسَقَةِ الأممِ الذين طَغَوا على رَبِّهم ما جاءتهم به أنبياؤُهم من آياتِ الله وواضحِ حججه، وردُّوا عليهم نصائحَهُم. «حتى ذاقوا بأسنا»، يقول: حتى أسخطونا فغضبنا عليهم، فأحللنا بهم بأسَنَا فذاقوه، فعطبوا بذوقِهم إياهُ، فخابوا وخَسِرُوا الدنيا والآخرة. يقول: وهؤلاء الآخرونَ مَسْلُوكٌ بهم سبيلهم، إنْ هُمْ لم يُنِيبُوا فيومنوا ويُصَدِّقُوا بما جِئْتَهُمْ به من عند رَبِّهم.

فإنْ قال قائل: وما برهانكَ على أنَّ الله تعالى إنما كَذَّبَ من قِيْلِ هؤلاء المشركين قولهم: «رضيَ اللهُ منا عبادةَ الأوثانِ، وأراد منا تحريمَ ما حَرَّمْنَا من الحروثِ والأنعام»، دونَ أنْ يكونَ تكذيبه إياهُمْ كان على قولهم: «لو شاء الله

ما أشـركنـا ولا آباؤُنَا ولا حَرَّمْنَا من شيءٍ»، وعلى وَصْفِهم إياهُ بأنه قد شاء شِرْكَهُمْ وشِركَ آبائِهم، وتحريمهم ما كانوا يحرمون؟

قيل له: الدلالةُ على ذلك قوله: «كذلك كَذَّبَ الذين من قَبْلِهم»، فأخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم سَلَكُوا في تكذيبهم نَبِيّهم محمداً ﷺ فيما أتاهم به من عند الله ـ من النهيِ عن عبادةِ شيءٍ غير الله تعالى ذِكْرُه، وتحريم غير ما حَرَّمَ اللهُ في كتابه وعلى لسانِ رسوله ـ مسلك أسلافِهم من الأمم الخاليةِ المُكَذِّبَةِ اللهَ ورسولَه. والتكذيبُ منهم إنما كان لمكذِّب، ولو كان ذلك خَبَراً من الله عن كذبهم في قِيلهم: «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا»، لقال: «كذلك كذَبَ الذين من قبلهم»، بتخفيفِ «الذال»، وكان ينسبهم في قِيلهم ذلك إلى الكذبِ على الله، لا إلى التكذيبِ مع عِلَلٍ كثيرةٍ يَطُولُ بذكرها الكتابُ، وفيما ذكرنا كفايةٌ لمن وُفِّق لفهمهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ، المُحَرِّمينَ ما هُمْ مُحَرِّمُونَ من الحرُوثِ والأنعام، القائلينَ: «لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حَرَّمْنَا من شيء»، ولكنه رضيَ منا ما نحنُ عليه من الشركِ وتحريم ما نُحَرِّمُ: «هل عندكم». بدعواكم ما تَدَّعُونَ على اللهِ من رِضَاهُ بإشراكِكُمْ في عبادته ما تشركون، وتحريمكم من أموالِكم ما تُحَرِّمُونَ ـ علمُ يقينٍ من خبرِ مَنْ يقطعُ خَبَرُهُ العُذْرَ، أو حجةٌ تُوجِبُ لنا اليقينَ، من العلم. «فتخرجوهُ لنا»، يقول: فَتُظْهِرُوا ذلك لنا وتُبَيِّنُوهُ، كما بَيَّنا لكم مواضعَ خطأ قولِكُم وفِعْلِكم، وتناقضَ ذلك واستحالته في المعقولِ والمسموعِ. «إنْ

تَتَّبِعُونَ إلَّا الظنَّ»، يقولُ له: قُلْ لهم: إنْ تقولونَ ما تقولونَ، أيها المشركونَ، وتَعبدونَ من الأوثانِ والأصنامِ ما تعبدون، وتُحَرِّمونَ من الحروثِ والأنعامِ ما تُحَرِّمُونَ، إلَّا ظنًّا وحسباناً أنه حَقٌّ، وأنكم على حق، وهو باطلٌ، وأنتم على باطل. «وإنْ أنتم إلَّا تخرصون»، يقول: «وإن أنتم»، وما أنتم في ذلك كله. «إلَّا تخرصون»، يقول: إلا تَتقوَّلُون الباطلَ على الله، ظنًّا بغيرِ يقينِ عِلْمٍ ولا برهانٍ واضح.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثـانَ والأصنامَ، القائلينَ على رَبِّهم الكذبَ، في تحريمهم ما حَرَّمُوا من الحروثِ والأنعام، إنْ عجزوا عن إقامةِ الحجةِ عند قِيْلِكَ لهم: «هل عندكم مِنْ علمٍ بما تَدَّعُونَ على رَبِّكم فَتُخْرِجُوه لنا»، وعن إخراجِ علمِ ذلكَ لكَ وإظهاره، وهُمْ لاشَكَّ عن ذلك عَجَزَةٌ، وعن إظهارهِ مُقَصِّرُونَ، لأنه باطلٌ لا حقيقةَ له. «فللَّه»، الذي حَرَّمَ عليكم أن تُشْرِكُوا به شيئاً، وأن تتبعوا خطواتِ الشيطانِ في أموالكم من الحروثِ والأنعامِ. «الحجةُ البالغة»، دونكم أيها المشركون.

ويعني: بـ«البالغة»، أنها تبلغُ مراده في ثبوتها على مَنْ احتجَّ بها عليه من خَلْقِه، وقَطْعِ عُذْرِه إذا انتهت إليه فيما جُعِلت حجةً فيه.

«فلو شاء لهـداكم أجمعين»، يقـول: فلو شاء رَبُّكم لوفَّقكم أجمعينَ للإجماعِ على إفرادِهِ بالعبادةِ، والبراءةِ من الأنداد والآلهةِ، والدينونةِ بتحريمِ ما حَرَّمَ اللهُ وتحليلِ ما حَلَّلَهُ اللهُ، وتركِ اتباع خطواتِ الشيطانِ، وغيرِ ذلك

من طاعاتهِ، ولكنه لم يَشَأْ ذلك. فخالفَ بين خَلْقِه فيما شاء منهم، فمنهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاء المفترينَ على رَبِّهم من عَبَدَةِ الأوثان، الزاعمينَ أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّمُوهُ من حُروثِهم وأنعـامِهم. «هَلُمَّ شهداءكم» يقول: هاتوا شهداءَكُم الذين يَشهدونَ على اللهِ أنه حَرَّمَ عليكم ما تَزعمون أنه حَرَّمَهُ عليكم.

قال الله لنبيه: «فـإنْ شَهِـدُوا»، يقول: يا محمدُ، فإنْ جاءوكَ بشهداء يَشْهدونَ أنَّ الله حَرَّمَ ما يزعمون أنَّ الله حَرَّمَهُ عليهم. «فلا تَشْهَدْ معهم»، فإنهم كَذَبَةٌ، وشهودُ زُورٍ في شهادتهم بما شَهِدُوا به من ذلك على الله. وخاطب بذلك جَلَّ ثناؤُهُ نَبيَّهُ ﷺ، والمرادُ به أصحابه والمؤمنون به. «ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين كَذَّبُوا بآياتنا»، يقول: ولا تُتَابِعْهُمْ على ما هُمْ عليه من التكذيبِ بوحي الله وتنزيله، في تحريم ما حَرَّمَ، وتحليلِ ما أُحَلَّ لهم، ولكن اتبع ما أُوحِيَ إليك من كتابِ ربكَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه. «والذين لا يؤمنون بالآخرة»، يقول: ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يؤمنون بالآخرة، فتكذب بما هُمْ به مكذبون من إحياءِ الله خَلْقَهُ بعد مماتِهم، ونشره إياهم بعد فنائهم. «وهم بربهم يعـدلـون»، يقـول: وهم مع تكـذيبهم بالبعثِ بعـد الممـاتِ، وجحودِهم قيامَ الساعة، بالله يعدلون الأوثانَ والأصنامَ، فيجعلونها له عِدْلاً، ويتخذونها له ندًّا، يعبدونها من دونه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثـانَ والأصنامَ، الزاعمينَ أنَّ الله حَرَّمَ عليهم ما هم مُحَرِّمُوه من حُروثِهم وأنعـامِهم، على ما ذكرتُ لك في تنزيلي عليك ـ: تعالوا، أيها القومُ، أقرأ عليكم ما حَرَّم رَبُّكم حقاً يقيناً، لا الباطل تَخَرُّصاً، تخرُّصَكم على الله الكذبَ والفريةَ ظنًّا، ولكنْ وحياً من الله أوحاهُ إليَّ، وتنزيلاً أنزله عليَّ: أن لا تُشركوا بالله شيئـاً من خَلْقِه، ولا تعدلوا به الأوثانَ والأصنامَ، ولا تعبدوا شيئاً سواه. «وبـالـوالـدين إحسـاناً»، يقول: وأوصى بالوالدينِ إحساناً ـ وحَذَفَ «أوصى» و«أمر»، لدلالةِ الكلامِ عليه ومعرفةِ السامعِ بمعناه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾

يعني تعـالى ذِكْـرُه بقـولـه: «ولا تقتلوا أولادَكُم من إملاق»، ولا تَئِدُوا أولادَكُم فتقتلوهم من خشيةِ الفقرِ على أنفسكم بنفقاتهم، فإنَّ الله هو رازقكم وإياهم، ليس عليكم رِزْقُهم، فتخافوا بحياتِهم على أَنْفُسِكم العجزَ عن أرزاقِهم وأقواتهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولا تَقْرَبُوا الظاهر من الأشياء المُحَرَّمةِ عليكم التي هي

علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، والباطنَ منها الذي تأتونَهُ سِرًّا في خفاءٍ لا تُجاهرونَ به، فإنَّ كُلَّ ذلك حرامٌ.

وقد قيل: إنما قيل: لا تقربوا ما ظهرَ من الفواحشِ وما بَطَنَ، لأنهم كانوا يستقبحون من معاني الزنا بعضاً دونَ بعضٍ.

وليس ما قالوا من ذلك بمدفوعٍ، غير أنَّ دليلَ الظاهر من التنزيلِ على النهي عن ظاهرِ كُلِّ فاحشةٍ وباطنها، ولا خبرَ يقطعُ العذرَ، بأنه عُنيَ به بعضٌ دون جميع. وغير جائزٍ إحالةُ ظاهرِ كتابِ الله إلى باطنٍ، إلاَّ بحجةٍ يجبُ التسليمُ لها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قل تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم أنْ لا تُشركوا به شيئاً»، «ولا تقتلوا النفس التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق»، يعني بالنفس التي حَرَّمَ الله قَتْلَهَا، نفسَ مؤمنٍ أو مُعاهد ـ وقوله: «إلاَّ بالحق»، يعني بما أباحَ قَتْلَها به: من أن تقتل نفساً فتقتل قَوَداً بها، أو تزني وهي محصنة فَتُرْجَمَ، أو ترتدَّ عن دينها الحقِّ فتقتل. فذلك «الحق» الذي أباح الله جَلَّ ثناؤُهُ قَتْلَ النفسِ التي حرم على المؤمنينَ قَتْلَها به. «ذلكم»، يعني هذه الأمور التي عَهِدَ إلينا فيها ربُّنا أنْ لا نأتيه وأنْ لا ندعه، هي الأمور التي وَصَّانا والكافرينَ بها أن نعمل جميعاً به. «لعلكم تعقلون»، يقول: وَصَّاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ولا تَقْرَبُوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ»، ولا تقربوا ماله إلاَّ بما فيه صلاحهُ وتثميره.

وأما قوله: «حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ»، فإنَّ «الأَشُدَّ» جمع «شَدٍّ»، كما «الأَضُرّ» جمع «ضر»، وكما «الأَشُرّ» جمع «شر»، و«الشد» القوة، وهو استحكامُ قوةِ شبابه وسنه، كما «شَدُّ النهار» ارتفاعُه وامتدادُه.

وفي الكلام محذوف، تُرِكَ ذِكْرُه اكتفاءً بدلالةِ ما ظهر عما حذف. وذلك أنَّ معنى الكلام: «ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشده»، فإذا بلغ أشده فآنستم منه رُشْداً، فادفعوا إليه ماله ـ لأنه جَلَّ ثناؤُهُ لم يَنْهَ أنْ يُقْرَبَ مالُ اليتيمِ في حال يُتْمِه إلا بالتي هي أحسنُ حتى يبلغ أشده، ليحِلَّ لوليِّه بعد بلوغِه أَشُدَّهُ أنْ يقربه بالتي هي أسوأ، ولكنه نهاهم أنْ يقرَبُوه حياطةً منه له، وحِفْظاً عليه، ليسلِّمُوه إليه إذا بلغ أشده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قُلْ تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم أنْ لا تُشْرِكُوا به شيئاً» ـ وأنْ أوفُوا الكيلَ والميزانَ. يقول: لا تَبْخَسُوا الناسَ الكيلَ إذا كِلْتُموهم، والوزنَ إذا وَزَنْتُموهم، ولكنْ أوفوهم حقوقَهُم. وإيفاؤُهم ذلكَ، إعطاؤُهم حقوقَهُمْ تامةً. «بالقسطِ»، يعني بالعدل.

وأما قوله: «لا نكلف نفساً إلَّا وسعها»، فإنه يقول: لا نكلف نفساً، من إيفاءِ الكيلِ والوزن، إلا ما يَسَعُهَا فيحلُّ لها ولا تُحْرَجُ فيه. وذلكَ أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ، عَلِمَ من عبادِه أنَّ كثيراً منهم تَضِيقُ نفسُه عن أنْ تطيبَ لغيرِه بما لا يجبُ عليها له، فأمر المعطي بإيفاءِ رَبِّ الحَقِّ حَقَّهُ الذي هُوَ له، ولم يكلِّفه الزيادةَ،

لما في الزيادةِ عليه من ضِيقِ نفسه بها. وأمَرَ الذي له الحق، بأخذِ حقه، ولم يكلفه الرضى بأقلَّ منه، لما في النقصانِ عنه من ضِيْقِ نفسِه. فلم يكلف نفساً منهما إلَّا ما لا حرجَ فيه ولا ضيق، فلذلك قال: «لا نكلف نفساً إلَّا وسعها».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «وإذا قلتم فاعدلوا»، وإذا حكمتم بين الناسِ فتكلمتم فقولوا الحَقَّ بينهم، واعدلوا وأنصفوا ولا تَجُوروا، ولو كان الذي يتوجَّهُ الحَقُّ عليه والحكم، ذا قرابةٍ لكم، ولا تحملنَّكُمْ قرابةُ قريبٍ أو صداقةُ صديقٍ حكمتم بينه وبين غيره، أنْ تقولوا غيرَ الحَقِّ فيما احتكم إليكم فيه. «وبعهدِ الله أوفوا»، يقول: وبوصيةِ الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن يُطِيعُوه فيما أمَرَهُمْ به ونهاهم، وأنْ يعملوا بكتابهِ وسنةِ رسولهِ ﷺ، وذلك هو الوفاءُ بعهدِ الله.

وأما قوله: «ذلكم وَصَّاكم به»، يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ للعادلينَ بالله الأوثان والأصنامَ من قومكَ: هذه الأمور التي ذكرت لكم في هاتين الآيتين، هي الأشياءُ التي عَهِدَ إلينا رَبُّنَا، ووصَّاكُمْ بها رَبُّكم، وأمركم بالعملِ بها ـ لا بالبحائرِ، والسوائبِ، والوصائلِ، والحامِ، وقتلِ الأولاد، ووأدِ البناتِ، واتباعِ خطواتِ الشيطان. «لعلكم تذكَّرون»، يقول: أمركم بهذه الأمورِ التي أمركم بها في هاتين الآيتين، ووصَّاكُمْ بها وعَهِدَ إليكم فيها، لتتذكروا عواقبَ أمركم، وخطأَ ما أنتم عليه مُقِيمونَ، فتنزجروا عنها، وترتدعوا وتُنيبوا إلى طاعة ربكم.

وكان ابن عباس يقول: هذه الآيات، هُنَّ الآيات المحكمات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهذا الذي وَصَّاكم به ربكم، أيها الناسُ، في هاتين الآيتين من قوله: «قُلْ تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم»، وأمركم بالوفاءِ به، هو «صراطه» ـ يعني: طريقه ودِينه الذي ارتضاهُ لعباده. «مستقيماً»، يعني: قويماً لا اعـوجاجَ به عن الحق. «فاتبعوه»، يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسِكم منهاجاً تسلكونه، فاتبعوه. «ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ»، يقول: ولا تَسْلُكُوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره، ولا تبغوا دِيناً خِلافَهُ، من اليهوديةِ والنصرانيَةِ والمجوسيةِ وعبادةِ الأوثان، وغير ذلك من المللِ، فإنها بِدَعٌ وضلالاتٌ. «فتفرق بكم عن سبيله»، يقول، فيشتّت بكم، إن اتبعتم السبل المحدثة التي ليست لله بسبل ولا طرق ولا أديان، اتباعُكم إياها. «عن سبيله»، يعني: عن طريقهِ ودِينهِ الذي شَرَعَهُ لكم وارتضاهُ، وهو الإسلامُ الذي وَصَّى به الأنبياءَ، وأمر به الأممَ قبلكم. «ذلكم وَصَّاكم به»، يقول تعالى ذِكْرُه: هذا الذي وَصَّاكم به رَبُّكم من قولهِ لكم: «إنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُلَ»، وَصَّاكم به «لعلكم تتقون»، يقول: لتتقوا اللهَ في أنفسكم فلا تُهْلِكُوها، وتَحْذَرُوا رَبَّكم فيها فلا تسخطوهُ عليها، فيحلَّ بكم نِقْمَتهُ وعذابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ثم آتينا موسى الكتابَ»، ثم قُلْ بعد ذلك يا محمدُ: آتى رَبُّكَ موسى الكتابَ ـ فترك ذِكْرَ «قُلْ»، إذ كان قد تَقَدَّمَ في أولِ

القصّة ما يدلُّ على أنه مُرَادٌ فيها، وذلك قوله: «قُلْ تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عليكم»، فَقَصَّ ما حَرَّمَ عليهم وأَحَلَّ، ثم قال: ثم قل: «آتينا موسى»، فحذف «قل» لدلالةِ قوله: «قل» عليه، وأنه مُرَادٌ في الكلام.

وإنما قلنا: ذلك مُرَادٌ في الكلام، لأنَّ محمداً ﷺ لاشك أنه بُعث بعد موسى بدهرٍ طويل، وأنه إنما أمرَ بتلاوةِ هذه الآياتِ على مَنْ أمر بتلاوتها عليه بعد مبعثه. ومعلومٌ أنَّ موسى أوتي الكتابَ من قبل أمرِ الله محمداً بتلاوةِ هذه الآياتِ على مَنْ أمر بتلاوتها عليه. و«ثم»، في كلام العرب، حرفٌ يدلُّ على أنَّ ما بعده من الكلام والخبر، بعد الذي قبلها.

ثم اختلف أهلُ التأويل في معنى قوله: «تماماً على الذي أحسن».

فقال بعضهم: معناه: تماماً على المحسنين.

وقال آخرون: معنى ذلك: «تماماً على الذي أحسن»، موسى، فيما امْتَحَنَهُ اللهُ به في الدنيا من أمرِهِ ونهيِهِ.

وقال آخرون: في ذلك: معناه: ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً على إحسانِ الله إلى أنبيائهِ وأياديه عندهم.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصواب، قولُ مَنْ قال: معناه: ثم آتينا موسى الكتابَ تماماً لِنِعَمِنَا عندهُ، على الذي أحسن موسى في قيامهِ بأمْرِنَا ونَهْيِنَا - لأنَّ ذلك أظهرُ معانيه في الكلام، وأنَّ إيتاءَ موسى كتابه نعمةٌ من الله عليه ومِنَّةٌ عظيمة. فأخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ أنه أنعم بذلك عليه لِمَا سَلَفَ له من صالحِ عملٍ وحُسْنِ طاعةٍ.

وأما قوله: «وتفصيلاً لكل شيء»، فإنه يعني: وتبييناً لكلِّ شيءٍ من أمرِ الدين الذي أُمِرُوا به.

فتأويلُ الكلام إذاً: ثم آتينا موسى التوراةَ تماماً لنعمنا عنده وأيادينا قِبَله، تَتِمُّ به كرامتنا عليه على إحسانِه وطاعتِه ربَّهُ وقيامه بما كَلَّفَهُ من شرائعِ دينِه، وتبييناً لكلٍّ ما بقومِهِ وأتباعه إليه الحاجة من أمرِ دينهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ 

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: آتينـا موسى الكتـابَ تماماً وتفصيلاً لكل شيء. «وهدى»، يعني بقوله: «وهدى»، تقويماً لهم على الطريقِ المستقيم، وبياناً لهم سُبُلَ الرشادِ لئلا يَضِلُّوا. «ورحمة»، يقول: ورحمةً منا بهم ورأفة، لِنُنَجِّيهم من الضلالةِ وعَمى الحيرة.

وأما قوله: «لَعَلَّهُم بلقاءِ رَبِّهم يؤمنون»، فإنما يعني: إيتائي موسى الكتابَ تماماً لكرامةِ الله موسى، على إحسانِ موسى، وتفصيلاً لشرائعِ دينه، وهُدًى لمن اتبعه، ورحمةً لمن كان منهم ضالاًّ لينجيه اللهُ به من الضلالة، وليؤمن بلقاءِ ربه إذا سمع مواعظَ اللهِ التي وعظ بها خَلْقَهُ فيه، فيرتدع عَمَّا هو عليه مقيمٌ من الكفرِ به، وبلقائِهِ بعد مماتِهِ، فيطيع ربه، ويصدِّقَ بما جاءه به نبيهُ موسى ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وهذا كتابٌ أنزلناه مبارك»، وهذا القرآنُ الذي أنزلناه إلى نبينا محمدٍ ﷺ. «كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه»، يقول: فاجعلوه إماماً تَتَّبِعُونَهُ وتعملونَ بما فيه، أيها الناسُ. «واتقوا»، يقول: واحْذَرُوا اللهَ في

أنفسكم، أنْ تضِيعُوا العملَ بما فيه، وتتعدّوا حدودَه، وتستحلُّوا محارمه.

وقولـه: «لعلكم ترحمون»، يقول: لِتُرْحَمُوا، فتنجوا من عذابِ الله، وأليم عقابه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

فأمـا الطائفتان اللتان ذَكَرهما اللهُ، وأخبرَ أنه إنما أنزل كتابَهُ على نبيه محمدٍ ﷺ لئلا يقول المشركون: «لم ينزلْ علينا كتابٌ فَنَتَّبِعَهُ، ولم نُؤْمَرْ ولم نُنْه، فليس علينا حجةٌ فيما نأتي ونَذَر، إذْ لم يأتنا من الله كتابٌ ولا رسول»، وإنما الحجةُ على الطائفتين اللتين أنزل عليهما الكتاب من قبلنا - فإنهما اليهود والنصارى، وكذلك قال أهلُ التأويل.

وأما «وإنْ كُنَّا عن دِراستهم لغافلين»، فإنه يعني: أنْ تقولوا: وقد كُنَّا عن تلاوةِ الطائفتين الكتابَ الذي أنزلتُ عليهم. «غافلين»، لا ندري ما هيَ، ولا نعلمُ ما يقرأونَ، وما أنزل إليهم في كتابهم، لأنهم كانوا أهله دوننا، ولم نُعْنَ به ولم نُؤْمَرْ بما فيه، ولا هو بلساننا، فيتخذوا ذلك حُجَّةً. فقطع اللهُ بإنزالهِ القرآنَ على نبيه محمدٍ ﷺ حجتهم تلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

يقول تعالى ذِكْرُه: «وهذا كتابٌ أنزلناهُ مبارك»، لئلا يقولَ المشركونَ من عَبَدَةِ الأوثانِ من قريش: «إنما أُنزلَ الكتابُ على طائفتين من قبلنا»، أو: لئلا يقولوا: لو أنَّا أُنْزلَ علينا الكتابُ كما أُنْزلَ على هاتين الطائفتين من قبلنا، فَأُمرنا

فيه ونُهينا، وبُيِّنَ لنا فيه خطأُ ما نحنُ فيه من صوابه. «لَكُنَّا أهدى منهم»، أي: لكنا أشدَّ استقامةً على طريق الحق، واتباعاً للكتاب، وأحسن عملاً بما فيه، من الطائفتينِ اللتين أُنزلَ عليهما الكتابُ من قبلنا. يقول الله: «فقد جاءكم بينةٌ من ربكم» يقول: فقد جاءكم كتابٌ بلسانكم عربيّ مبين، حُجَّة عليكم واضحة بَيِّنة من رَبِّكم. «وهدى»، يقول: وبيانٌ للحق، وفُرْقانٌ بين الصواب والخطأ، «ورحمة» لمن عَمِلَ به واتَّبعهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

يقـول جَلَّ ثناؤُه: فمن أخطأُ فِعْلاً وأشدُّ عدواناً منكم، أيها المشركونَ المُكَذِّبُونَ بحججِ الله وأدلته ـ وهي آياته. «وصَدَفَ عنها»، يقول: وأعرضَ عنها بعد ما أَتَتْهُ، فلم يُؤْمِنْ بها، ولم يصدِّقْ بحقيقتها.

وأخرج جَلَّ ثناؤُهُ الخبرَ بقوله: «فمن أظلمُ ممن كذب بآياتِ الله»، مخرجَ الخبرِ عن الغائب، والمعنيُّ به المخاطبونَ به من مشركي قريش.

وقوله: «سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سُوءَ العذاب»، يقول: سَيُثِيبُ الله الذين يعرضون عن آياتِهِ وحججِهِ ولا يتدبرونها، ولا يَتَعَرَّفُونَ حقيقتَها فيؤمنوا بما دَلَّتْهُمْ عليه من توحيدِ الله، وحقيقةِ نبوةِ نبيه، وصِدْقِ ما جاءهم به من عند ربهم. «سُوءَ العذاب»، يقول: شديدَ العقابِ، وذلك عذابُ النارِ التي أعَدَّهَا الله لكَفَرَةِ خَلْقِهِ به. «بما كانوا يصدفون»، يقول: يفعل الله ذلك بهم جزاء بما كانوا يُعْرِضُونَ عن آياتِهِ في الدنيا، فلا يقبلون ما جاءهم به نَبِيُّهُم محمد ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: هل ينتظرُ هؤلاء العادلونَ بربِّهم الأوثان والأصنام. «إلَّا أنْ تأتيهم الملائكةُ»، بالموتِ فتقبضَ أرواحَهُم ـ أو أن يأتيهم رَبُّك، يا محمدُ، بين خلقه في موقف القيامة. «أو يأتي بعضُ آياتِ ربك»، يقول: أو أنْ يأتيهم بعضُ آياتِ ربك. وذلك فيما قال أهلُ التأويل: طلوعُ الشمس من مغربها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «يوم يأتي بعضُ آياتِ رَبِّكَ»، لا ينفع مَنْ كان قبل ذلك مشركاً بالله، أنْ يؤمنَ بعد مجيء تلك الآية.

وقيل: إنَّ تلك الآية التي أخبر الله جَلَّ ثناؤُهُ أنَّ الكافرَ لا ينفعهُ إيمانه عند مجيئها: طلوعُ الشمس من مغربها.

وأما قوله: «أو كسبت في إيمانها خيراً»، فإنه يعني: أو عَمِلَتْ في تصديقها بالله خيراً، من عملٍ صالح يُصَدِّقُ قِيلَه ويُحققه، من قبلِ طلوعِ الشمس من مغربها. ولا ينفعُ كافراً لم يَكُنْ آمنَ بالله قبلَ طلوعها كذلك، إيمانُه بالله إنْ آمنَ وصَدَّقَ بالله ورسله، لأنها حالةٌ لا تمتنع نفسٌ من الإقرارِ بالله، لعظيمِ الهولِ الواردِ عليهم من أمرِ الله، فَحُكْمُ إيمانهم، كحكمِ إيمانِهم عند قيامِ الساعة، وتلك حالٌ لا يمتنعُ الخَلْقُ من الإقرارِ بوحدانيةِ الله، لمعاينتهم من أهوالِ ذلك اليومِ ما ترتفعُ معه حاجتهم إلى الفكر والاستدلالِ والبحثِ والاعتبار، ولا ينفعُ مَنْ كان بالله وبرسله مصدِّقاً، ولفرائضِ الله مُضَيِّعاً، غير

مكتسب بجـوارحهِ لله طاعة، إذا هي طلعتْ من مغربها ـ أعمالُه إنْ عَمِلَ، وكسبُه إن اكتسبَ، لتفريطهِ الذي سَلَفَ قبل طلوعها في ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾

يقـولُ تعالى لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ والأصنامَ: انتظروا أنْ تأتيكم الملائكةُ بالموتِ فتقبض أرواحكم، أو أنْ يأتيَ رَبُّكم لفصلِ القضاء بيننا وبينكم في موقفِ القيامة، أو أنْ يأتيكم طلوعُ الشمسِ من مغربها، فَتُطْوى صحفُ الأعمال، ولا ينفعكم إيمانُكم حينئذٍ إنْ آمنتم، حتى تعلموا حينئذٍ المُحِقَّ منا من المُبْطِلِ، والمسيءَ من المحسنِ، والصادقَ من الكاذبِ، وتَتَبَيَّنُوا عند ذلك بمن يحيقُ عذابُ الله وأليم نكاله، ومَن الناجي منا ومنكم ومَنِ الهالك ـ إنا مُنْتَظِرُو ذلكَ، ليجزلَ اللهُ لنا ثوابَهُ على طاعتنا إياه، وإخلاصنا العبادةَ له، وإفرادِنَاهُ بالربوبيةِ دونَ ما سِواهُ، ويفصل بيننا وبينكم بالحق، وهو خيرُ الفاصلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ١٥٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في المَعْنِيِّينَ بقوله: «إنَّ الذين فَرَّقُوا دِينهم».

فقال بعضهم: عَنَى بذلك اليهودَ والنصارى.

وقال آخرون: عَنَى بذلك أهلَ البدعِ من هذه الأمة، الذين اتَّبَعُوا مُتَشابهَ القرآنِ دونَ مُحْكَمِه.

والصوابُ من القولِ في ذلك عندي أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبر نبيه ﷺ أنه بريءٌ مِمَّنْ فارقَ دِينـه الحق وفَرَّقَهُ، وكانوا فِرَقاً فيه وأحزاباً شِيَعاً، وأنه ليس منهم. ولا هُمْ منـه، لأنَّ دِينَـهُ الذي بعثه الله به هو الإسلامُ، دين إبراهيم الحنيفية، كما قال له رَبُّه وأمره أنْ يقولَ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فكان مَنْ فارقَ دِينه الذي بعث به ﷺ من مشركٍ ووثنيٍّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ ومتحنِّفٍ، مبتدع قد ابتدعَ في الدينِ ما ضَلَّ به عن الصراطِ المستقيم والدينِ القيمِ ملةَ إبراهيمَ المسلم، فهو بريءٌ من محمدٍ ﷺ، ومحمدٌ منه بريءٌ، وهو داخلٌ في عموم قوله: «إنَّ الذين فَرَّقُوا دِينهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيء».

وأما قوله: «لستَ منهم في شيءٍ إنما أمرهم إلى الله»، فإنَّ أهلَ التأويل اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: نزلت هذه الآيةُ على نبيِّ الله بالأمرِ بتركِ قتالِ المشركينَ قبلَ وُجوبِ فَرْضِ قتالهم، ثم نسخها الأمر بقتالهم في «سورة براءة»، وذلك قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وقال آخرون: بَلْ نزلتْ على النبيِّ ﷺ إعلاماً من الله له أنَّ من أمته مَنْ يُحْدث بعده في دينه. وليست بمنسوخةٍ، لأنها خبرٌ لا أمر، والنسخُ إنما يكونُ في الأمر والنهي.

والصـوابُ من القـولِ في ذلـك أن يقال: إنَّ قوله: «لست منهم في شيء»، إعلامٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ أنه من مُبْتَدِعَةِ أُمتهِ الملحدةِ في دينهِ بريءٌ، ومن الأحـزابِ من مشـركي قومه، ومن اليهودِ والنصارى. وليس في إعلامِه ذلكَ ما يوجبُ أنْ يكونَ نهاهُ عن قتالهم، لأنه غير محالٍ أنْ يقالَ في

الكلام: «لستَ من دينِ اليهودِ والنصارى في شيءٍ فقاتلهم، فإنَّ أمرهم إلى الله في أنْ يتفضلَ على مَنْ شاء منهم فيتوب عليه، ويهلك مَنْ أراد إهلاكَهُ منهم كافراً فيقبض رُوحَهُ، أو يقتله بيدكَ على كُفْرِه، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلونَ عند مقدَمِهم عليه». وإذْ كان غير مستحيلٍ اجتماعُ الأمر بقتالهم، وقوله: «لستَ منهم في شيء إنما أمْرُهُمْ إلى الله»، ولم يكنْ في الآيةِ دليلٌ واضحٌ على أنها منسوخةٌ، ولا وَرَدَ بأنها منسوخةٌ عن الرسول خبرٌ - كان غير جائز أن يُقْضَى عليها بأنها منسوخة، حتى تقومَ حجةٌ موجبةٌ صحةَ القولِ بذلك، لما قد بَيَّنّا من أنَّ المنسوخَ هو ما لم يَجُزْ اجتماعُه وناسخه في حالٍ واحدة، في كتابنا: «كتاب اللطيف من البيان عن أصول الأحكام».

وأما قوله: «إنما أمْرُهُم إلى الله»، فإنه يقول: أنا الذي إليَّ أمرُ هؤلاءِ المشركينَ الذين فارقوا دِينهم وكانوا شِيَعاً، والمبتدعة من أُمَّتِكَ الذين ضلُّوا عن سبيلكَ، دونكَ ودونَ كُلِّ أحدٍ. إما بالعقوبةِ إنْ أقامُوا على ضلالَتِهم وفُرْقتِهم دينهم فأهلكَهُمْ بها، وإما بالعفوِ عنهم بالتوبةِ عليهم والتفضل مني عليهم. «ثم يُنَبِّئُهم بما كانوا يفعلون»، يقول: ثم أخبرهم في الآخرةِ عند ورودِهم عليَّ يومَ القيامةِ بما كانوا يفعلون، فأجازي كُلًّا منهم بما كانوا في الدنيا يفعلون، المحسنَ منهم بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءةِ. ثم أخبر جَلَّ ثناؤه ما مبلغ جزائهِ مَنْ جازى منهم بالإحسان أو بالإساءة فقال: «مَنْ جاء بالحسنةِ فله عَشْرُ أمثالها ومَنْ جاء بالسيئةِ فلا يُجْزَى إلاَّ مِثْلَها وهم لا يُظْلَمُونَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مَنْ وافَى رَبَّهُ يومَ القيامة في موقفِ الحساب، من هؤلاءِ الذين فارقوا دِينَهم وكانوا شيعاً، بالتوبةِ والإيمانِ والإقلاعِ عَمَّا هو عليه

مقيمٌ من ضلالتهِ، وذلك هو الحسنةُ التي ذَكَرها الله فقال: مَنْ جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها.

ويعني بقوله: «فله عشر أمثالها»، فله عشر حسناتٍ أمثال حسنتهِ التي جاء بها. «ومن جاء بالسيئة»، يقول: ومَنْ وافى يومَ القيامةِ منهم بفراقِ الدِّينِ الحقِّ والكفر بالله، فلا يُجْزَى إلا ما ساءَهُ من الجزاء، كما وافى الله به من عمله السيء. «وهُمْ لا يُظلمـونَ»، يقول: ولا يظلمُ اللهُ الفريقين، لا فريقَ الإحســان، ولا فريقَ الإسـاءة، بأنْ يُجـازي المحسنَ بالإسـاءةِ، والمسيءَ بالإحسانِ، ولكنه يجازي كلا الفريقين من الجزاء ما هُوَ له، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ حكيمٌ لا يضع شيئاً إلا في موضعه الذي يستحقُّ أن يَضَعَهُ فيه، ولا يجازي أحداً إلا بما يستحقُّ من الجزاء.

فإنْ قال قائلٌ: فإنْ كان الأمرُ كما ذكرت، من أنَّ معنى «الحسنة» في هذا الموضع: الإيمان بالله، والإقرار بوحدانيته، والتصديق برسوله. «والسيئة» فيه: الشرك به، والتكذيب لرسوله ـ أَفَللإيمانِ أمثالٌ فَيُجَازى بها المؤمن؟ وإنْ كان له مِثْـلٌ، فكيف يُجَـازَى به، و«الإيمـان»، إنما هو عندك قولٌ وعمل، والجزاءُ من الله لعبادِهِ عليه الكرامة في الآخرة، والإنعام عليه بما أَعَدَّ لأهلِ كرامتهِ من النعيم في دارِ الخلود، وذلك أعيانٌ تُرَى وتُعَايَنُ وتُحَسُّ ويلتذُّ بها، لا قولٌ يسمع، ولا كسبُ جوارح؟

قيل: إنَّ معنى ذلك غير الذي ذهبتَ إليه. وإنما معناه: مَنْ جاء بالحسنَةِ فوافَى اللهَ بها له مُطيعاً، فإنَّ له من الثوابِ ثواب عشرِ حسناتٍ أمثالها.

فإن قال: قلت فهل لقولِ «لا إله إلَّا الله» من الحسناتِ مِثْلٌ؟

قيل: له مِثْلٌ هو غيرُه، ولكنْ له مِثْلٌ هو قولُ لا إله إلا الله، وذلك هو الذي وَعَدَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ مَنْ أتاهُ به أن يجازيه عليه من الثوابِ بمثل عشرة

أضعافِ ما يستحقه قائله. وكذلك ذلك فيمَنْ جاءَ بالسيئةِ التي هي الشرك، إلا أنه لا يجازى صاحبها عليها إلاَّ ما يستحقه عليها من غيرِ إضعافه عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ. «إنني هَدَاني رَبِّي إلى صراطٍ مستقيم»، يقول: قُلْ لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريقِ القويم، هو دينُ الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفيةُ المسلمة، فوفقني له. «ديناً قيماً»، يقول: مستقيماً. «ملة إبراهيم»، يقـول: دين إبراهيم. «حنيفاً»، يقول: مستقيماً. «وما كان من المشركين»، يقول: وما كانَ من المشركينَ بالله، يعني إبراهيم صلواتُ الله عليه، لأنه لم يكنْ ممن يعبدُ الأصنامَ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: دِيناً قيماً».

فقـرأ ذلـك عامة قَرَأَةِ المدينة وبعض البصريين: ﴿دِيناً قَيِّماً﴾ بفتح «القاف» وتشديد «الياء»، إلحاقاً منهم ذلك بقول الله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦ / يوسف: ٤٠ / الروم: ٣٠]. وبقوله، ﴿ذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقرأ ذلك عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿دِيناً قِيَماً﴾ بكسر «القاف» وفتح «الياء» وتخفيفها. وقالوا «القيِّم» و«القِيَم» بمعنى واحدٍ، وهما لغتان معناهما: الدِّينُ المستقيم.

والصـوابُ من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار، متفقتا المعنى، فبأيِّتِهمَا قرأ القارىءُ فهو للصواب مصيبٌ، غير أن

فتح «القاف» وتشديد «الياء» أعجبُ إليَّ، لأنه أفصح اللغتين وأشهرهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ والأصنام، الذين يسألونك أنْ تتَّبِعَ أهواءهم على الباطلِ من عبادةِ الآلهـة والأوثانِ. «إنَّ صلاتي ونُسُكي»، يقول: وذبحي. «ومحياي»، يقول: وحياتي. «ومماتي» يقول: ووفاتي. «لله رب العالمين»، يعني: أن ذلك كُلَّهُ له خالصاً دونَ ما أشركتم به، أيها المشركونَ، من الأوثانِ. «لا شريكَ له» في شيءٍ من ذلكَ من خَلْقِه، ولا لشيءٍ منهم فيه نصيبٌ، لأنه لا ينبغي أنْ يكونَ ذلك إلَّا له خالصاً. «وبذلك أُمِرْتُ»، يقول: وبذلك أمرني ربي. «وأنا أولُ المسلمين»، يقول: وأنا أوَّلُ مَنْ أقرَّ وأذْعنَ وخضعَ من هذه الأمة لربه بأنَّ ذلكَ كذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ، لهؤلاء العادلينَ بربِّهم الأوثانَ، الداعيكَ إلى عبادةِ الأصنامِ واتباعِ خطواتِ الشيطان. «أغيرَ الله أبغي رَبًّا»، يقولُ: أَسِوى اللهِ أطلبُ سَيِّداً يسودني؟. «وهو رَبُّ كل شيء»، يقول: وهو سَيِّدُ كُلِّ شيءٍ دونه ومدبِّره ومُصْلِحُه. «ولا تكسب كُلُّ نفسٍ إلَّا عليها»، يقول: ولا تجترح نفسٌ إثماً إلا عليها، أي: لا يؤخذ بما أتَتْ من معصية الله تبارك وتعالى، وركبتْ من الخطيئةِ، سِواها، بل كُلُّ ذي إثمٍ فهو

المعاقَبُ بإثمهِ والمأخوذُ بذنبه. «ولا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أخرى»، يقول: ولا تأثم نفسٌ آثمةٌ بإثمِ نفس أخرى غيرها، ولكنها تأثمُ بإثمها، وعليه تُعاقَبُ، دونَ إثم أخرى غيرها.

وإنما يعني بذلك المشركينَ الذين أمرَ اللهُ نبيه ﷺ أنْ يقولَ هذا القولَ لهم. يقول: قُلْ لهم: إنَّا لسنا مأخوذينَ بآثامِكم، وعليكم عقوبةُ إجرامِكم، ولنا جزاءُ أعمالِنَا. وهذا كما أمره اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ في موضعٍ آخرَ أنْ يقولَ لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء العادلينَ بربهم الأوثانَ: كُلُّ عاملٍ منا ومنكم فله ثوابُ عمله، وعليه وزرهُ، فاعملوا ما أنتم عاملوه. «ثم إلى ربكم»، أيها الناسُ. «مَرْجِعُكم»، يقول: ثم إليه مَصِيرُكُم ومنقلبكم. «فينبئكم بما كنتم فيه»، في الدنيا، «تختلفون» من الأديانِ والمللِ، إذْ كانَ بعضُكم يَدِينُ باليهوديةِ، وبعضٌ بالنصرانيةِ، وبعضٌ بالمجوسية، وبعضٌ بعبادةِ الأصنام وادِّعاء الشركاءِ مع اللهِ والأنداد، ثم يُجازي جميعَكم بما كان يعملُ في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ، فتعلموا حينئذٍ مَنِ المحسنُ منَّا والمسيء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ وأمته: والله الذي جعلكم، أيها الناسُ، «خلائفَ الأرض»، بأنْ أهلكَ مَنْ كان قَبْلَكُمْ من القرونِ والأممِ الخاليةِ،

واستخلفكم، فجعلكم خلائفَ منهم في الأرض، تخلفونهم فيها وتعمرُونَها بعدَهم.

وأما قوله: «ورفع بعضَكم فوقَ بعضٍ درجات»، فإنه يقولُ: وخالف بين أحوالكم، فجعل بعضَكم فوقَ بعض، بأنْ رفع هذا على هذا، بما بسطَ لهذا من الرزقِ ففضَّلَهُ بما أعطاهُ من المالِ والغِنى، على هذا الفقيرِ فيما خَوَّله من أسبابِ الدنيا، وهذا على هذا بما أعطاهُ من الأيْدِ والقوةِ على هذا الضعيفِ الواهنِ القُوى. فخالفَ بينهم بأنْ رَفَعَ من درجةِ هذا على درجةِ هذا، وخَفَضَ من درجةِ هذا عن درجةِ هذا.

وأما قوله: «ليبلوكم فيما آتاكم»، فإنه يعني ليختبركم فيما خَوَّلَكُمْ من فَضْلِه، ومنحكم من رِزْقِهِ، فيعلم المطيعَ له منكم فيما أمَرَهُ به ونهاه عنه، والعاصي؛ ومَنِ المؤدِّي مما آتاهُ الحق الذي أمره بأدائهِ منه، والمفرِّط في أدائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: «إنَّ ربك»، يا محمدُ، لسريعُ العقابِ لمن أسخطه بارتكابهِ معاصيه، وخلافه أمْرَهُ فيما أمَرَهُ به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما مَنَحَهُ من فَضْلِهِ وطَوْله توليًّا وإدباراً عنه، مع إنعامهِ عليه، وتمكينهِ إياهُ في الأرض، كما فعلَ بالقرونِ السالفة. «وإنه لغفور»، يقول: وإنه لساترٌ ذُنوبَ من ابتلى منه إقبالاً إليه بالطاعةِ عند ابتلائهِ إياهُ بنعمته، واختباره إياه بأمره ونهيه، فَمُغَطٍّ عليهِ فيها، وتاركٌ فضيحتَهُ بها في موقفِ الحساب. «رحيم» بتركهِ عقوبته على سالفِ ذنوبهِ التي سَلَفَتْ بينه وبينه، إذْ تاب وأنابَ إليه قبلَ لقائهِ ومصيرهِ إليه.

تفسير سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ جَلَّ ثناؤُهُ وتقدَّست أسماؤه: ﴿الٓمٓصٓ ١﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قولِ الله تعالى ذِكْرُه: «ألمص».

فقال بعضهم: معناه: أنا الله أفصل.

وقال آخرون: هو هجاءُ حروفِ اسمِ الله تبارك وتعالى الذي هو «المُصَوِّرُ».

وقال آخرون: هي اسم من أسماء الله، أقسمَ رَبُّنَا به.

وقال آخرون: هو اسمٌ من أسماءِ القرآن.

وقال آخرون: هي حروفُ هجاءٍ مُقَطَّعة.

وقال آخرون: هي من حساب الجُمَّل.

وقال آخرون: هي حروفٌ تحوي معانيَ كثيرة، دَلَّ اللهُ بها خَلْقَهُ على مُرادِهِ من كُلِّ ذلك.

وقال آخرون: هي حروفُ اسم الله الأعظم.

وقد ذكرنا الصوابَ من القولِ عندنا في ذلك فيما مضى، بما أَغْنَى عن إعادتهِ في هذا الموضع[1].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾

يعني تعالى ذِكْرُه: هذا القرآنُ، يا محمدُ، كتابٌ أنزله اللهُ إليكَ.

---

(١) انظر أول تفسير سورة البقرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: فلا يَضِقْ صَدْرُكَ، يا محمدُ، من الإنذارِ بهِ مَنْ أرسلتُكَ لإنذارِه به، وإبلاغه مَنْ أمرتُكَ بإبلاغهِ إيَّاهُ، ولا تَشُكَّ في أنه من عندي، واصبرْ للمُضِيِّ لأمرِ الله واتباعِ طاعتهِ فيما كَلَّفَكَ وحَمَّلَكَ من عِبْءِ أثقالِ النبوة، كما صبرَ أُولُو العزمِ من الرسلِ، فإنَّ الله معكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

يعني بذلك تعالى ذِكْرُه: هذا كتابٌ أنزلناهُ إليكَ، يا محمدُ، لتنذرَ به مَنْ أمرتُكَ بإنذارِه، «وذكرى للمؤمنين» ـ وهو من المُؤَخَّرِ الذي معناهُ التقديمُ. ومعناه: «كتابٌ أُنزلَ إليكَ لِتُنْذِرَ به»، و«ذكرى للمؤمنين»، «فلا يَكُنْ في صدرِكَ حَرَجٌ منه».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء المشركين من قومك الذين يعبدون الأوثانَ والأصنام: اتبعوا، أيها الناسُ، ما جاءكم من عند رَبِّكُمْ بالبَيِّناتِ والهدى، واعملوا بما أمَرَكُمْ به رَبُّكم، ولا تتبعوا شيئاً من دونه ـ يعني: شيئاً غيرَ ما أنزلَ إليكم رَبُّكُم. يقول: لا تتبعوا أمرَ أوليائِكم الذين يأمرونكم بالشِّرْكِ بالله وعبادةِ الأوثان، فإنهم يُضِلُّونَكُمْ ولا يهدونكم.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف قلتَ: «معنى الكلام: قل اتبعوا»، وليس في الكلام موجوداً ذِكْرُ «القول»؟

قيل: إنه وإنْ لم يَكُنْ مذكوراً صريحاً، فإنَّ في الكلام دلالة عليه، وذلك قوله: «فلا يَكُنْ في صدرِكَ حَرَجٌ منه لتنذر به»، ففي قوله «لتنذر به»، الأمرُ بالإنـذارِ، وفي الأمرِ بالإنذار، الأمرُ بالقولِ، لأنَّ الإنذارَ قولٌ. فكأن معنى الكلام: أنذر القومَ وقُلْ لهم: اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليكم من رَبِّكم.

ولو قيل: معناه: لِتُنْذِرَ به وتُذَكِّرَ به المؤمنينَ فتقول لهم: اتَّبِعُوا ما أُنزل إليكم - كان غيرَ مدفوع.

وقوله: «قليلاً ما تَذَكَّرُونَ»، يقول: قليلاً ما تَتَّعِظُونَ وتعتبرونَ فتراجعون الحَقَّ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: حَذِّرْ هؤلاء العابدينَ غيري، والعادلينَ بي الآلهةَ والأوثانَ، سَخَطي لا أُحِلُّ بهم عقوبتي فأهلكهم، كما أهلكتُ مَنْ سَلَكَ سبيلَهم من الأممِ قَبْلهم، فكثيراً ما أهلكتُ قَبْلَهُمْ من أهلِ قُرىً عَصَوْني وكَـذَّبُوا رُسُلي وعبدوا غيري. «فجاءها بأسنا بياتاً»، يقول: فجاءتهم عقوبَتُنا ونِقْمَتُنَا ليلاً قبل أنْ يُصْبِحُوا - أو جاءتهم «قائلين»، يعني: نهاراً في وقتِ القائلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلم يكن دعوى أهلِ القريةِ التي أهلكناها، إذْ جاءهم

بأسُنَا وسطوتُنا بياتاً أو هم قَائِلُونَ، إلا اعترافُهُمْ على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مُسيئِينَ، وبربِّهم آثمينَ، ولأمرِهِ ونهيهِ مخالفين.

وعَنَى بقوله جَلَّ ثناؤُهُ: «دَعْوَاهُم»، في هذا الموضع دُعَاءَهم.

ولـ «الـدعوى» في كلام العرب وجهان: أحدهما: الدعاء، والآخر: الإِدِّعاء للحق. ومن «الـدعوى» التي معناها الدعاء، قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٥].

فإنْ قال قائلٌ: وكيف قيل: «فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلَّا أنْ قالوا إنا كنا ظالمين»؟ وكيف أمكنتهم الدعوى بذلك، وقد جاءهم بأسُ الله بالهلاكِ؟ أَقالُوا ذلكَ قبل الهلاك؟ فإنْ كانوا قالوه قبلَ الهلاك، فإنهم قالوا قبلَ مجيءِ البأسِ، والله يخبرُ عنهم أنهم قالوه حين جاءهم، لا قَبْلَ ذلك؟ أو قالوه بعد ما جاءهم، فتلك حالةٌ قد هَلَكُوا فيها، فكيف يجوز وَصْفُهم بِقِيْلِ ذلكَ إذا عاينوا بأسَ الله، وحقيقة ما كانت الرسل تَعِدُهُمْ من سطوةِ الله؟

قيل: ليس كُلُّ الأممِ كان هلاكُهَا في لحظةٍ ليس بين أوَّله وآخرِه مَهَلٌ، بل كان منهم مَنْ غرق بالطوفانِ. فكان بين أوَّلِ ظهورِ السببِ الذي علموا أنهم به هالكون، وبين آخرِه الذي عَمَّ جميعَهُم هَلاكُه، المدة التي لا خفاءَ بها على ذي عقلٍ. ومنهم مَنْ مُتِّعَ بالحياةِ بعد ظهورِ علامةِ الهلاك لأعينهم أياماً ثلاثة، كقومِ صالح وأشباهِهم. فحينئذ لما عاينوا أوائلَ بأسِ الله الذي كانت رُسُلُ الله تَتَوَعَّدُهُمْ به، وأيقنوا حقيقةَ نزولِ سطوةِ الله بهم، دَعَوْا: «يا وَيْلَنا إنَّا كنا ظالـمين»، فلم يَكُ ينـفعُهم إيمــانُهم مع مجيءِ وعيدِ الله وحلولِ نقمتــهِ بساحتهم. فَحَذَّرَ رَبُّنَا جَلَّ ثناؤُهُ الذين أرسلَ إليهم نبيه محمداً ﷺ من سَطْوَتِه وعقابِهِ على كُفْرِهم به وتكذيبهم رسوله، ما حَلَّ بِمَنْ كان قَبْلَهُمْ من الأممِ إذْ عصوا رُسله، واتبعوا أمر كُلِّ جبارٍ عنيد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنسألنَّ الأممَ الذين أرسلت إليهم رسلي: ماذا عَمِلَتْ فيما جاءتهم به الرسلُ من عندي من أمري ونهيي؟ هَلْ عَمِلُوا بما أمرتهم به، وانتهوا عما نهيتهم عنه، وأطاعوا أمري، أم عصوني فخالفوا ذلك؟ «ولنسألن المُـرْسَلين»، يقول: ولنسألن الرُّسُلَ الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بَلَّغَتْهُم رسالاتي، وأدَّتْ إليهم ما أمرتُهم بأدائهِ إليهم، أم قَصَّرُوا في ذلك فَفَرَّطُوا ولم يبلغوهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾



يقـول تعالى ذِكْرُه: فلنخبرن الرُّسُلَ ومَنْ أرسلتهم إليهِ بيقين علمٍ بما عملوا في الدنيا فيما كنتُ أمرتُهم به، وما كنتُ نَهَيْتُهُمْ عنه. «وما كنا غائبين»، عنهم وعن أفعالِهم التي كانوا يفعلونها.

فإنْ قالَ قائلٌ: وكيف يسأل الرسلَ، والمرسل إليهم، وهو يخبرُ أنه يَقُصُّ عليهم بعلمٍ بأعمالِهم وأفعالِهم في ذلك؟

قيل: إنَّ ذلكَ منه تعالى ذِكْرُه ليس بمسألةِ استرشادٍ، ولا مسألة تَعَرُّفٍ منهم ما هوَ به غيرُ عَالِمٍ، وإنما هو مسألةُ توبيخٍ وتقريرٍ معناها الخبر، كما يقول الرجل للرجل: «ألم أُحْسِنْ إليكَ فأسأتَ؟»، و«ألم أَصِلْكَ فقطعتَ؟». فكذلك مسألة الله المرسلَ إليهم، بأنْ يقول لهم: «ألم يَأْتِكُمْ رُسُلي بالبيناتِ؟ ألم أبعث إليكم النذر فتنذركم عذابي وعقابي في هذا اليوم من كَفَرَ بي وعَبَدَ

غيري»؟ كما أخبر جَلَّ ثناؤُهُ أنه قائل لهم يومئذٍ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ* وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، ونحو ذلك من القول الذي ظاهره ظاهرُ مسألة، ومعناه الخبر والقصص، وهو بعدُ توبيخٌ وتقرير.

وأما مسألةُ الرسل الذي هو قَصَصٌ وخَبَرٌ، فإنَّ الأممَ المُشْرِكَةَ لما سُئِلَتْ في القيامةِ قِيلَ لها: «ألم يأتكم رُسلٌ منكم يَتْلُونَ عليكم آياتِ رَبِّكم»؟ أنكر ذلك كثيرٌ منهم وقالوا: «ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير». فقيل للرسل: «هل بَلَّغْتُمْ ما أُرسِلتم به»؟ أو قيل لهم: «ألم تُبَلِّغُوا إلى هؤلاءِ ما أُرسلتُمْ به؟»، كما جاء الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وكما قال جَلَّ ثناؤُهُ لأمةِ نبينا محمدٍ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: ١٤٣]. فكلُّ ذلك من اللهِ مسألةٌ للرسلِ على وجهِ الاستشهاد لهم على مَنْ أُرسِلُوا إليه من الأمم، وللمرسَلِ إليهم على وجهِ التقرير والتوبيخِ، وكُلُّ ذلك بمعنى القصصِ والخبر.

فأما الذي هو عن الله منفيٌّ من مسألتهِ خَلْقَهُ، فالمسألةُ التي هي مسألةُ استرشادٍ واستثبات فيما لا يعلمه السائلُ عنها ويعلمه المسؤولُ، ليعلمَ السائلُ عِلْمَ ذلك من قِبَله، فذلك غيرُ جائزٍ أنْ يُوصَفَ اللهُ به، لأنه العالمُ بالأشياءِ قبلَ كونها وفي حال كونها وبعد كونها، وهي المسألةُ التي نفاها جَلَّ ثناؤُهُ عن نفسه بقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وبقوله: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، يعني: لا يَسأل عن ذلك أحداً منهم مسألة مستثبت، ليعلمَ عِلْمَ ذلك من قبل من سأل منه، لأنه العالمُ بذلك كله وبكلِّ شيءٍ غيره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾

معنى الكلام: والوزن يومَ نسألُ الذين أُرسلَ إليهم والمرسلينَ، الحق ويعني بـ«الحق»، العدلَ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «فمن ثَقُلَتْ مَوازِينه».

فقال بعضهم: معناه: فمن كَثُرَتْ حسناتُه.

وقال آخرون: معنى ذلك: فمن ثقلت موازينه التي تُوزَنُ بها حسناتُه وسيئاته. قالوا: وذلك هو «الميزان» الذي يعرفهُ الناسُ، له لسانٌ وكِفَّتان. والصواب من القول في ذلك عندي، أنَّ ذلك هو «الميزان» المعروفُ الذي يُوزَنُ به، وأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ يَزِنُ أعمالَ خَلْقِه الحسنات منها والسيئات، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «فمن ثقلت موازينه»، موازين عمله الصالح. «فأولئك هم المفلحون»، يقول: فأولئك هم الذين ظفروا بالنجاحِ، وأدركوا الفوزَ بالطلباتِ، والخلودَ والبقاء في الجنات، لتظاهُرِ الأخبارِ عن رسولِ الله ﷺ بقوله: «ما وُضِعَ في الميزان شيء أثقل من حسن الخُلق»[1]، ونحو ذلك من الأخبار التي تحقق أن ذلك ميزانٌ يوزن به الأعمال، على ما وصفت.

فإنْ أنكرَ ذلك جاهلٌ بتوجيه معنى خبرِ الله عن الميزانِ وخبرِ رسولِه ﷺ عنه، وِجْهَتَهُ، وقال: أوَ باللهِ حاجةٌ إلى وزنِ الأشياء، وهو العالمُ بمقدارِ كُلِّ شيءٍ قبلَ خَلْقِه إياهُ وبعده، وفي كل حال؟ ـ أو قال: وكيف تُوزَنُ الأعمالُ،

(١) حديث صحيح أخرجه ابن أبي شيبة: ٥١٦/٨، وعبدالرزاق (٢٠١٥٧)، وأحمد: ٤٤٦/٦ و٤٤٨ و٤٥١، وأبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٢) وقال: حسن صحيح، وابن حبان (٤٨١) و(٥٦٩٣) و(٥٦٩٥) من حديث أبي الدرداء. وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وأنس وأسامة بن شريك.

والأعمال ليست بأجسامٍ تُوصَفُ بالثقلِ والخِفَّةِ، وإنما توزنُ الأشياءُ لِيُعْرَفَ ثقلها من خفتها، وكثرتها من قلتها، وذلك لا يجوزُ إلا على الأشياء التي تُوصَفُ بالثقل والخفة، والكثرةِ والقلة.

قيل له في قوله: «وما وجهُ وزنِ الله الأعمالَ، وهو العالمُ بمقاديرها قبل كَوْنِهَا»: وَزْنُ ذلك، نظيرُ إثباته إياهُ في أمِّ الكتابِ واستنساخه ذلك في الكتب، من غيرِ حاجةٍ به إليه، ومن غير خوفٍ من نسيانه، وهو العالمُ بكلِّ ذلكَ في كُلِّ حالٍ ووقتٍ قبلَ كونه وبعد وجودِه، بل ليكون ذلك حُجَّةً على خَلْقِه، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ في تنزيله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩] الآية. فكذلك وَزْنُه تعالى أعمالَ خَلْقِه بالميزانِ، حجة عليهم ولهم، إما بالتقصيرِ في طاعته والتضييع، وإما بالتكميل والتتميم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: ومَنْ خَفَّتْ موازينُ أعمالهِ الصالحة، فلم تَثْقُلْ بإقرارِه بتوحيدِ الله، والإيمانِ به وبرسوله، واتباعِ أمره ونهيه، فأولئكَ الذين غَبَنُوا أنفسهم حظوظَها من جزيلِ ثوابِ الله وكرامته. «بما كانوا بآياتنا يظلمون»، يقول: بما كانوا بحججِ الله وأدلته يجحدون، فلا يُقِرُّونَ بصحتها، ولا يوقنون بحقيقتها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد وطَّأنا لكم، أيها الناسُ، في الأرضِ، وجعلناها لكم قراراً تستقرُّونَ فيها، ومِهاداً تمتهدونَها، وفراشاً تفترشونها. «وجعلنا لكم فيها معايش»، تعيشون بها أيامَ حياتِكم، من مطاعمَ ومشاربَ، نعمةً مني عليكم، وإحساناً مني إليكم. «قليلاً ما تشكرون»، يقول: وأنتم قليلٌ شُكْرُكُمْ على هذه النعمِ التي أنعمتُها عليكم لعبادَتِكُمْ غيري، واتخاذكم إلهاً سواي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ولقد خلقناكم»، ولقد خلقنا آدمَ. «ثم صورناكم»، بتصويرنا آدمَ، كما قد بَيَّنَّا فيما مضى من خطابِ العرب الرجلَ بالأفعالِ تُضِيفُهَا إليه، والمعنيُّ في ذلك سلفه، وكما قال جَلَّ ثناؤُهُ لمن بين أظهُرِ المؤمنينَ من اليهودِ على عهدِ رسولِ الله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُم الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، [البقرة: ٦٣]. وما أشبه ذلك من الخطابِ الموجَّه إلى الحيِّ الموجودِ، والمرادُ به السَلَفُ المعدومُ، فكذلك ذلك في قوله: «ولقد خلقناكم ثم صَوَّرناكم»، معناه: ولقد خلقنا أباكم آدم ثم صوَّرناهُ.

وإنما قلنا هذا القولَ، لأنَّ الذي يتلو ذلك قوله: «ثم قلنا للملائكةِ اسجدوا لآدمَ»، ومعلومٌ أنَّ الله تبارك وتعالى قد أمرَ الملائكةَ بالسجودِ لآدمَ، قبلَ أنْ يُصَوِّرَ ذُرِيَّتَهُ في بطونِ أمهاتهم، بل قبلَ أنْ يخلُقَ أمهاتهم.

وأما قوله للملائكة: «اسجدوا لآدم»، فإنه يقول جَلَّ ثناؤُهُ: فلما صَوَّرْنَا آدمَ، وجعلناهُ خَلْقاً سَوِيًّا، ونفخنا فيه من روحنا، قلنا للملائكة: «اسجدوا

لآدم»، ابتـلاءً منـا واختبـاراً لهم بالأمر، ليعلم الطائع منهم من العاصي. «فسجدوا»، يقول: فسجد الملائكةُ، إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين لآدم، حين أمره اللهُ مع مَنْ أمرَ من سائرِ الملائكة غيره بالسجود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

وهذا خَبَرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيْلِه لإبليسَ، إذْ عَصَاهُ فلم يسجدْ لآدمَ إذْ أمره بالسجودِ له. يقول: قال الله لإبليس: «ما منعكَ»، أيّ شيءٍ منعكَ. «أنْ لا تسجد»، أنْ تَدَعَ السجودَ لآدم «إذْ أمرتُكَ» أنْ تسجدَ. «قال أنا خيرٌ منه»، يقول: قال إبليس: أنا خيرٌ من آدمَ. «خلقتني من نارٍ وخلقته من طين».

فإنْ قال قائل: أخبرنا عن إبليس، أَلَحِقَتْهُ الملامةُ على السجودِ، أمْ على تَرْكِ السجود؟ فإنْ تكن لحقته الملامةُ على تركِ السجود، فكيف قيل له: «ما منعكَ أنْ لا تسجد إذ أمرتُكَ»؟ وإنْ كان النكير على السجود، فذلك خلافُ ما جاء به التنزيلُ في سائرِ القرآن، وخلاف ما يعرفه المسلمون!

قيل: إنَّ الملامةَ لم تَلْحَقْ إبليسَ إلا على معصيتِهِ رَبَّهُ بتركِهِ السجودَ لآدمَ إذْ أمَرَهُ بالسجودِ له.

وأما قوله: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين»، فإنه خبر من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن جوابِ إبليسَ إياه إذ سأله: ما الذي منعه من السجود لآدم، فأحوجه إلى أنْ لا يسجدَ له، واضطره إلى خِلافه أمرَهُ به، وتركه طاعته ـ أنَّ المانعَ كان له من السجود، والداعيَ له إلى خِلافهِ أمر رَبِّه في ذلك: أنه أشد منه أيْداً[1]، وأقوى منه قوةً، وأفضل منه فضلاً، لفضلِ الجنسِ الذي منه خُلِقَ،

(١) الأيد: القوة.

وهو النارُ، على الذي خُلِقَ منه آدمُ، وهو الطينُ. فَجَهِلَ عدوُّ الله وجهَ الحَقِّ، وأخطأ سبيلَ الصواب. إذْ كان معلوماً أنَّ من جوهرِ النارِ الخِفَّةَ والطيشَ والاضطراب والارتفاع عُلُوًّا، والذي في جوهرها من ذلك هو الذي حملَ الخبيثَ بعد الشقاءِ الذي سَبَقَ له من الله في الكتابِ السابق، على الاستكبارِ عن السجودِ لآدمَ، والاستخفافِ بأمرِ ربه، فأورثه العَطبَ والهلاكَ. وكان معلوماً أنَّ من جوهرِ الطينِ الرزانةَ والأناةَ والحلمَ والحياءَ والتثبُّتَ، وذلك الذي هو في جوهره من ذلك، كان الداعي لآدم بعدَ السعادةِ التي كانت سبقت له من رَبِّهِ في الكتابِ السابق، إلى التوبةِ، من خطيئته، ومسألته ربَّه العفوَ عنه والمغفرة. ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: «أولُ مَنْ قاسَ إبليسُ»، يعنيان بذلك: القياسَ الخطأ[1]، وهو هذا الذي ذكرنا من خطأ قولِه، وبُعْدِهِ من إصابةِ الحَقِّ، في الفضل الذي خصَّ الله به آدمَ على سائرِ خَلْقِه: من خَلْقِه إياهُ بيدِه، ونفخِهِ فيه من روحِهِ، وإسجادِهِ له الملائكةَ، وتعليمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، مع سائرِ ما خصَّهُ به من كرامته. فضرب عن ذلك كلِّه الجاهلُ صَفْحاً، وقَصَدَ إلى الاحتجاجِ بأنه خُلِقَ من نارٍ وخُلِقَ آدمُ من طين!! وهو في ذلك أيضاً له غير كفؤٍ، لو لم يكن لآدم من الله جَلَّ ذِكْرُهُ تكرمة شيء غيره، فكيفَ والذي خُصَّ به من كرامته يكثُرُ تَعدادهُ، ويُمَلُّ إحصاؤه.

وهذا الذي قاله عَدُوُّ الله ليس لما سأله عنه بجواب. وذلك أنَّ الله تعالى ذِكْرُه قال له: ما منعكَ من السجودِ؟ فلم يُجِبْ بأنَّ الذي منعه من السجود أنه خُلِقَ من نارٍ وخُلِقَ آدمُ من طينٍ، ولكنه ابتدأ خبراً عن نفسه، فيه دليلٌ على موضعِ الجوابِ فقال: «أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين».

---

(١) هذه التفاتةُ فقيهٍ عارف، فليس المقصود به كل قياس كما يفسره الجَهَلَةُ، هذا إذا صَحَّ عنهما رحمهما الله أنهما قالا ذلك!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾

يعني بذلك جَلَّ ثناؤُهُ: قال الله لإبليسَ عند ذلك: «فاهبط منها». «فما يكونُ لكَ أنْ تتكبرَ فيها»، يقول الله تعالى ذِكْرُه: فقال الله له: «اهبطْ منها»، يعني من الجنة. «فما يكونُ لك»، يقول: فليس لكَ أنْ تستكبرَ في الجنة عن طاعتي وأمري.

فإنْ قال قائلٌ: هل لأحدٍ أنْ يتكبرَ في الجنة؟

قيل: إنَّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبتَ، وإنما معنى ذلك: فاهبطْ من الجنةِ، فإنه لا يسكنُ الجنةَ متكبرٌ عن أمرِ الله، فأما غيرها، فإنه يسكنها المستكبرُ عن أمرِ الله، والمستكينُ لطاعته.

وقوله: «فاخرُجْ إنكَ من الصاغرين»، يقول: فاخرجْ من الجنةِ، إنك من الذين قد نالَهُمْ من اللهِ الصَّغَارُ والذلُّ والمَهانة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾

وهذه أيضاً جَهْلَةٌ أخرى من جَهَلاتِهِ الخبيثة. سأل رَبَّهُ ما قد عَلِمَ أنه لا سبيلَ لأحدٍ من خَلْقِ الله إليه. وذلك أنه سأل النَّظِرة إلى قيام الساعة، وذلك هو يوم يبعث فيه الخلق. ولو أُعطيَ ما سألَ من النَّظِرة، كان قد أُعْطِيَ الخلودَ وبقاءً لا فناءَ معه، وذلك أنه لا موتَ بعد البعثِ. فقال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [سورة الحجر: ٣٧،٣٨ / سورة ص: ٨٠،٨١]، وذلك إلى اليوم الذي قد كتبَ اللهُ عليه فيه الهلاكَ والموتَ

والفناء، لأنه لا شيءَ يبقى فلا يفنى، غير رَبِّنا الحيِّ الذي لا يموتُ. يقول الله تعالى ذِكْرُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، [آل عمران: ١٨٥ / الأنبياء: ٣٥ / العنكبوت: ٥٧]. و«الإنظار» في كلام العرب، التأخيرُ. يقال منه: «أَنْظَرْتُهُ بحقي عليه أُنْظِرهُ به إنظاراً»[١].

فإنْ قال قائل: فإنَّ الله قد قال له إذ سأله الإنظارَ إلى يوم يُبعثونَ: «إنك من المنظرين» في هذا الموضع، فقد أجابه إلى ما سَألَ؟

قيل له: ليس الأمرُ كذلك، وإنما كان مُجيباً له إلى ما سألَ لو كان قال له: «إنك من المنظرين إلى الوقتِ الذي سألتَ ـ أو: إلى يوم البعث ـ أو: إلى يوم يبعثون»، أو ما أشبه ذلك، مما يدلُّ على إجابتهِ إلى ما سألَ من النظرةِ. وأما قوله: «إنك من المنظرين»، فلا دليلَ فيه لولا الآية الأخرى التي قد بَيَّنَ فيها مُدَّةَ إنظارِه إياهُ إليها، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾، [الحجر: ٣٧، ٣٨ / ص: ٨٠، ٨١]، كم المدة التي أنظره إليها، لأنه إذا أنظره يوماً واحداً أو أقلَّ منه أو أكثر، فقد دخلَ في عِدادِ المنظرين، وتَمَّ فيه وَعْدُ اللهِ الصادق، ولكنه قد بَيَّنَ قَدْرَ مُدَّةِ ذلك بالذي ذكرناه، فعلم بذلك الوقت الذي أُنظِر إليه.

فتأويلُ الكلام: قال إبليسُ لربه: «أنظرني»، أي أَخِّرْني وأجِّلْني، وأَنْسِئْ في أجلي، ولا تُمِتْني. «إلى يوم يبعثون»، يقول: إلى يوم يُبْعَثُ الخَلْقُ. فقال تعالى ذِكْرُه: «إنك من المنظرين»، إلى يوم يُنْفَخُ في الصُّور، فَيُصْعَقُ من في السموات ومن في الأرض إلاَّ مَنْ شاء الله.

فإن قال قائل: فهل أَحَدٌ مُنْظَرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: «إنك منهم»؟

---

(١) انظر مفردات الراغب: ٨١٣ ففيه مزيد دلالات على ذلك من الآيات الكريمات.

قيل: نعم، مَنْ لم يقبضْ الله روحه من خَلْقِه إلى ذلك اليوم، ممن تقومُ عليه الساعة، فهم من المُنْظَرينَ بآجالِهم إليه. ولذلك قيل لإبليسَ: «إنك من المنظرين»، بمعنى: إنك مِمَّنْ لا يُمِيتُه الله إلَّا ذلكَ اليوم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: قال إبليسُ لربه: «فبما أغويتني»، يقول: فَبِمَا أَضْلَلْتَنِي.

وفي هذا بيانٌ واضح على فسادِ ما يقولُ القَدَرِيةُ، من أنَّ كُلَّ مَنْ كفرَ أو آمنَ فبتفويضِ الله أسبابَ ذلكَ إليه، وأنَّ السببَ الذي به يصلُ المؤمنُ إلى الإيمان، هو السببُ الذي به يصلُ الكافرُ إلى الكفرِ. وذلك أنَّ ذلك لو كان كما قالوا: لكان الخبيثُ قد قال بقوله: «فبما أغويتني»، «فبما أصلحتني»، إذ كان سبب «الإغواء» هو سبب «الإصلاح»، وكان في إخبارِه عن الإغواءِ إخبارٌ عن الإصلاحِ، ولكنْ لما كان سبباهما مختلفين، وكان السببُ الذي به غوَى وهلك من عند الله. أضافَ ذلك إليه فقال: «فبما أغويتني».

وأما قوله: «لأقعُدَنَّ لهم صِراطَكَ المستقيم»، فإنه يقول: لَأَجْلِسَنَّ لبني آدمَ «صِراطكَ المستقيم»، يعني: طريقكَ القويم، وذلك دِينُ الله الحق، وهو الإسلامُ وشرائعه. وإنما معنى الكلام: لَأَصُدَّنَّ بني آدم عن عبادتكَ وطاعتكَ، ولأغوينَّهم كما أغويتني، ولأُضِلَّنَّهُمْ كما أضللتني.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

يعني بذلـك جَلَّ ثناؤُهُ: ثم لآتينَّهُمْ من جميعِ وجوهِ الحقِّ والباطلِ، فأَصُدُّهُمْ عن الحَقِّ، وأحسِّنَ لهم الباطلَ. وذلك أنَّ ذلك عَقِيب قوله: «لأقعدن لهم صراطك المستقيم»، فأخبر أنه يقعدُ لبني آدمَ على الطريقِ الذي أمرَهم اللهُ أنْ يسلكُوه، وهو ما وصفنا من دينِ الله دينِ الحق، فيأتيهم في ذلك من كُلِّ وجـوههِ، من الوجهِ الذي أمرهم اللهُ به، فيصدُّهم عنه، وذلك «مِنْ بين أيدِيهم وعن أيمانِهم» ـ ومن الوجهِ الذي نهاهم اللهُ عنه، فيزيّنه لهم ويَدْعُوهم إليه، وذلك «من خَلْفِهم وعن شمائلهم».

وأما قوله: «ولا تجدُ أكثرهم شاكرينَ». فإنه يقولُ: ولا تجدُ، ربِّ، أكثرَ بني آدمَ شاكـرينَ لكَ نِعْمَتَكَ التي أنعمتَ عليهم، كَتَكْرِمَتِكَ أباهم آدم بما أكرمتَهُ به، من إسجادِكَ له ملائكتكَ، وتفضيلكَ إياهُ عليَّ ـ و«شكرهم إياه»، طاعتُهم له بالإقرارِ بتوحيدِه، واتِّباعِ أمرِه ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن إحلالهِ بالخبيثِ عدوِّ الله ما أَحَلَّ به من نِقْمَتِهِ ولعنتهِ، وطردِهِ إياهُ عن جنته، إذْ عَصَاهُ وخالَفَ أمره، وراجعه من الجـواب بما لم يكن له مراجعته به. يقول: قال اللهُ له عند ذلك: «اخرجْ منها»، أي من الجنة. «مذؤوماً مدحوراً»، يقول: مَعِيباً.

و«الذأم» العيبُ. يقال منه: «ذأمهُ يذأمه ذأماً فهو مذؤوم»، ويتركون الهمز فيقولون: «ذِمْته أُذِيمه ذَيْماً وذاماً»، و«الذأم» و«الذيم»، أبلغ في العيب من «الذمّ».

وأما «المدحور»، فهو المُقْصَى، يقال: «دَحَرَهُ يدحَرُه دَحْراً ودُحُوراً»، إذا أقصاهُ وأخرجَهُ، ومنه قولهم: «ادحَرْ عنكَ الشيطان»(١).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨﴾

وهذا قَسَمٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ. أقسم أنَّ مَنْ اتَّبَعَ من بني آدمَ عدوَّ الله إبليس وأطاعَهُ وصَدَّقَ ظَنَّهُ عليه، أنْ يملأ من جميعِهم ـ يعني: من كَفَرةِ بني آدم تُبَّاعِ إبليسَ، ومن إبليسَ وذريته ـ جهنم. فَرحمَ الله امرأً كَذَّبَ ظَنَّ عدوِّ الله في نفسه، وخيَّبَ فيها أمله وأمنيته، ولم يمكِّن من طمعَ طمعٍ فيها عدوَّه، واستغشَّه ولم يستنصحه، فإنَّ الله تعالى ذِكْرُه إنما نَبَّهَ بهذه الآياتِ عبادَهُ على قِدَم عداوةِ عدوِّه وعدوهم إبليس لهم، وسالفِ ما سَلَفَ من حَسدِه لأبيهم، وبَغْيِهِ عليه وعليهم، وعَـرَّفَهُمْ مواقعَ نعمهِ عليهم قديماً في أنفسهم ووالدهم ليدَّبَـرُوا آياتِـهِ، وليتذكَّرَ أولُو الألباب، فينزجروا عن طاعةِ عدوهِ وعدوهم إلى طاعتهِ ويُنيبوا إليها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

يقول الله تعالى ذِكْرُه: وقال الله لآدم: «يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنةَ فكلا من حيث شئتما»، فأسكنَ جَلَّ ثناؤُهُ آدمَ وزوجتَهُ الجنةَ بعد أنْ أهبطَ منها إبليسَ وأخرجه منها، وأباح لهما أنْ يأكُلَا من ثمارِها من أيِّ مكانٍ شاءا منها،

(١) أنظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/٢١٢.

ونَهَاهُمَا أنْ يَقْرَبَا ثمرَ شجرةٍ بعينها.

«فتكونا من الظالمين»، يقول: فتكونا مِمَّنْ خالفَ أمرَ رَبِّه، وفعلَ ما ليس له فعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا

معنى الكلام: فجذبَ إبليسُ إلى آدم حوّاء، وألقى إليهما: ما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عن أكلِ ثمرِ هذه الشجرة، إلا أنْ تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين - ليبديَ لهما ما واراهُ الله عنهما من عوراتهما فَغَطَّاهُ بسترِهِ الذي ستره عليهما.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: وقال الشيطانُ لآدمَ وزوجتهِ حواء: ما نهاكُمَا رَبُّكُمَا عن هذه الشجرةِ أنْ تأكلا ثمرَها، إلا لئلا تكونا مَلَكَيْن.

وأسقطت «لا» من الكلام، لدلالةَ ما ظهرَ عليها، كما أسقطت من قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾، [النساء: ١٧٦]. والمعنى: يبينُ الله لكم أنْ لا تَضِلُّوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ



يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وقاسَمَهُمَا»، وحَلَفَ لهما، كما قال في موضع آخر: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾، [النمل: ٤٩]، بمعنى تحالفوا بالله.

وقوله: «إني لكما لمن الناصحين» أي: لَمِمَّنْ يَنصحُ لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكلِ ثمرِ الشجرةِ التي نُهيتُمَا عن أكلِ ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إنْ أكلتماه كنتما مَلَكَين أو كنتما من الخالدين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «فَدَلَّاهُما بغرور»، فَخَدَعهما بغرور.

«فلما ذاقا الشجرة»، يقول: فلما ذاقَ آدم وحواء ثمرَ الشجرةِ، يقول: طَعماهُ.

«بَدَتْ لهما سوآتهما»، يقول: انكشفتْ لهما سوآتُهمَا، لأنَّ الله أعراهما من الكسوةِ التي كان كساهُمَا قبلَ الذنبِ والخطيئةِ، فسلبهما ذلك بالخطيئةِ التي أخطآ والمعصيةِ التي ركبا. «وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من ورق الجنة»، يقول: أقبلا وجعلا يشدَّانِ عليهما من ورقِ الجنة، ليواريا سوآتهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونادى آدمَ وحواءَ ربُّهما: أَلَمْ أَنْهَكُمَا عن أكلِ ثمرةِ الشجرةِ التي أَكَلْتُمَا ثمرها، وأُعْلِمْكُمَا أنَّ إبليسَ لكما عَدُوٌّ مبين - يقول: قد أبان عداوته لكما، بترك السجود لآدم حسداً وبغياً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن آدمَ وحواء فيما أجابَاهُ به، واعترافِهما على أنفسِهما بالذَّنْبِ، ومسألتِهمَا إياهُ المغفرةَ منه والرحمة، خِلافَ جوابِ اللعينِ إبليس إياه.

ومعنى قوله: «قالا رَبَّنَا ظلمنا أنفسنا»، قال آدمُ وحواء لربهما: يا رَبَّنَا، فعلنا بأنفسنا من الإساءةِ إليها بمعصيتكَ وخِلافِ أمركَ، وبطاعتنا عَدُوَّنا وعدوَّكَ فيما لم يكنْ لنا أنْ نُطيعه فيه، من أكلِ الشجرة التي نَهَيْتَنَا عن أَكْلِهَا. «وإن لم تغفر لنا»، يقول: وإنْ أنتَ لم تَسْتُرْ علينا ذَنْبَنَا فتغطيه علينا، وتترك فضيحتَنا به بعقوبتكَ إيَّانَا عليه. «وترحمنا»، بتعطُّفِكَ علينا، وتَرْكِكَ أَخْذَنَا به. «لنكونَنَّ من الخاسرين»، يعني: لنكونن من الهالكين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن فعله بإبليسَ وذُرِّيتهِ، وآدمَ وولده، والحية.

يقـول تعالى ذِكْرُه لآدمَ وحواء وإبليس والحية: اهبطُوا من السماءِ إلى الأرض، بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ.

وقوله: «ولكم في الأرض مستقر»، يقول: ولكم، يا آدمُ وحواء، وإبليس والحية - في الأرضِ قرارٌ تستقرونه، وفراشٌ تَمْتهدونَهُ.

وأما قوله: «ومتاع إلى حين»، فإنه يقول جَلَّ ثناؤه: «ولكم فيها متاع»، تستمتعون به إلى انقطاعِ الدنيا، وذلك هو الحِينُ الذي ذكره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الله للذين أَهبَطَهُمْ من سمواتِهِ إلى أرضه: «فيها تَحْيَونَ»، يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونونَ فيها أيامَ حياتِكم. «وفيها تموتون»، يقول: في الأرضِ تكونُ وفاتكم. «ومنها تُخْرَجُونَ»، يقول: ومن الأرضِ يُخرجِكم رَبُّكم ويحشركم إليه لبعثِ القيامةِ أحياء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾

يقول جَلَّ ثناؤه للجَهَلَةِ من العربِ الذين كانوا يَتَعَرَّونَ للطوافِ، اتِّباعاً منهم أمرَ الشيطان، وتركاً منهم طاعة الله، فَعَرَّفَهُمْ انخداعَهُم بغرورِهِ لهم، حتى تَمكَّنَ منهم فَسَلَبهم من سترِ الله الذي أنعمَ به عليهم، حتى أبدى سوآتِهم وأظهرها من بعضِهم لبعضٍ، مع تَفَضُّلِ الله عليهم بتمكينهم مما يسترونها به، وأنه قد سار بهم سِيرتَهُ في أبويهم آدم وحواء اللذين دَلاَّهُما بغرورٍ حتى سَلَبَهُمَا سترَ الله الذي كان أنعمَ به عليهما حتى أبدى لهما سوآتِهما فَعَرَّاهُمَا منه: «يا بني آدمَ قد أنزلنا عليكم لباساً»، يعني بإنزاله عليهم ذلك، خَلْقَهُ لهم، ورِزْقَهُ إياهم - و«اللباس» ما يلبسونَ من الثياب. «يُواري سوآتكم»، يقول: يسترُ عوراتِكم عن أعينكم - وكَنَّى بـ«السوآت»، عن العورات.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِيشًا﴾

و«الرياشُ»، في كلام العرب، الأثاثُ، وما ظهرَ من الثيابِ من المتاعِ مما يُلْبَسُ أو يُحْشى من فراشٍ أو دِثَار.

و«الريش» إنما هو المتاعُ والأموالُ عندهم. وربما استعملوه في الثيابِ والكسوة دونَ سائرِ المال. يقولون: «أعطاه سرجاً بريشه»، و«رحْلًا بريشه»، أي بكسوتهِ وجهازه. ويقولون: «إنه لَحَسَنُ ريشِ الثيابِ»، وقد يستعمل «الرياش» في الخِصْبِ ورَفاهة العيش.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأته عامة قرأةِ المكيين والكوفيين والبصريين: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، برفع «ولباس».

وقرأ ذلك عامة قَرَأَةِ المدينةِ: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، بنصب «اللباس»، وهي قراءة بعض قَرَأَةِ الكوفيين.

فتأويل ـ الكلام ـ إذا رفع «لباس التقوى» ـ: ولباس التقوى ذلك الذي قد عَلِمْتُموه، خيرٌ لكم يا بني آدم، من لباسِ الثياب التي تُواري سوآتكم، ومن الرياشِ التي أنزلناها إليكم، هكذا فالبَسُوه.

وأما تأويلُ مَنْ قرأه نصباً، فإنه: «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى»، هذا الذي أنزلنا عليكم من اللباسِ الذي يواري سوآتكم والريش، ولباسُ التقوى خيرٌ لكم من التعرِّي والتَّجَرُّدِ من الثيابِ في طوافكم بالبيتِ، فاتقوا الله والبسوا ما رَزَقكم الله من الرياشِ، ولا تطيعوا

الشيطانَ بالتجرد والتعرِّي من الثياب، فإنَّ ذلك سخريةٌ منه بكم وخدعةٌ، كما فعـلَ بأبويكم آدم وحواء، فَخَدَعَهُمَا حتى جَرَّدَهُمَا من لباسِ الله الذي كان ألبسهما بطاعتهما له، في أكلِ ما كان الله نهاهما عن أكلِهِ من ثمرِ الشجرةِ التي عصَياهُ بأكلها.

وهذه القراءةُ أوْلى القراءتين في ذلك عندي بالصواب، أعني نَصْبَ قوله: ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾، لصحة معناهُ في التأويل على ما بَيَّنتُ، وأنَّ الله إنما ابتدأ الخبرَ عن إنزالهِ اللباسَ الذي يواري سوآتنا والرياش، توبيخاً للمشركين الذين كانوا يتجرّدونَ في حالِ طوافِهم بالبيتِ، ويأمرهم بأخذِ ثيابهم والاستتار بها في كُلِّ حال، مع الإيمانِ به واتباع طاعته ـ ويعلمهم أنَّ كُلَّ ذلك خيرٌ من كلِّ ما هُمْ عليه مقيمون من كُفْرِهم بالله، وتَعَرِّيهم، لا أنه أعلمهم أنَّ بعضَ ما أنزلَ إليهم خيرٌ من بعض.

ومما يدلُّ على صحةِ ما قلنا في ذلك، الآياتُ التي بعد هذه الآية، وذلك قوله: «يا بني آدم لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطانُ كما أخرجَ أبويكم من الجنةِ ينزعُ عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما» وما بعدَ ذلك من الآياتِ إلى قوله: «وأنْ تقولوا على اللهِ ما لا تعلمون»، فإنه جَلَّ ثناؤُهُ يأمرُ في كل ذلك بأخذِ الزينةِ من الثيابِ، واستعمالِ اللباسِ، وتركِ التجرُّدِ والتعرِّي، وبالإيمان به، واتباعِ أمرِه والعملِ بطاعته، وينهى عن الشركِ به واتباعِ أمرِ الشيطان، مؤكِّداً في كُلِّ ذلك ما قد أجْمَلَهُ في قوله: «يا بني آدمَ قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباسَ التقوى ذلك خير».

وأوْلى الأقـوالِ بالصحـة في تأويلِ قولـه: «ولباس التقوى»، استشعار النفوسِ تقوى الله، في الانتهاءِ عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمرَ به من طاعته، وذلك يجمعُ الإيمانَ، والعملَ الصالح، والحياءَ، وخشيةَ الله، والسمتَ الحسن. لأنَّ مَن اتَّقى اللهَ كان به مؤمناً، وبما أمره به عاملاً، ومنه

خائفاً، وله مراقباً، ومن أنْ يُرَى عند ما يكرهه من عبادِه مُسْتَحْيِياً. ومَنْ كان كذلك ظهرتْ آثارُ الخيرِ فيه، فَحَسُنَ سَمْته وهَدْيه، ورُئِيَتْ عليه بهجةُ الإيمانِ ونوره.

وإنما قلنا عَنَى بـ«لباس التقوى»، استشعارَ النفسِ والقلبِ ذلك ـ لأنَّ «اللباس»، إنما هو ادِّراعُ ما يلبس، واجتياب[1] ما يكتسى، أو تغطية بدنه أو بعضه به. فكل مَنِ ادَّرع شيئاً واجتابهُ حتى يُرَى عَيْنُه أو أثرُه عليه، فهو له «لابس». ولذلك جعلَ جَلَّ ثناؤُهُ الرجالَ للنساءِ لباساً، وهُنَّ لهم لباساً، وجعل الليل لعباده لباساً[2].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ٢٦

يقول تعالى ذِكْرُه: ذلك الذي ذكرتُ لكم أنِّي أنزلتُه إليكم، أيها الناسُ، من اللباسِ والرِّياشِ، من حججِ الله وأدلته التي يعلمُ بها مَنْ كفرَ صحةَ توحيد الله، وخطأَ ما هُمْ عليه مقيمون من الضلالةِ. «لعلهم يذكرون»، يقول جَلَّ ثناؤه: جعلتُ ذلك لهم دليلاً على ما وصفتُ، ليذَّكَّروا فيعتبروا ويُنِيبُوا إلى الحَقِّ وتركِ الباطلِ، رحمةً مني بعبادي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ

---

(١) اجتاب الثوب اجتياباً: لَبِسَهُ.

(٢) في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لباس لكم وأنتم لباسٌ لهن﴾ [البقرة: ١٨٧]، وفي قوله سبحانه: ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ [النبأ: ١٠].

الأعراف: ٢٧

يقول تعالى ذِكْرُه: يا بني آدمَ: لا يَخْدَعَنَّكُم الشيطانُ فَيُبْدِي سوآتكم للناسِ بطاعتكم إياهُ عند اختبارِه لكم، كما فعل بأبويكم آدم وحواء عند اختبارِه إياهما فأطاعاهُ وعَصَيَا رَبَّهُمَا، فأخرجهما بما سَبَّبَ لهما من مَكْرِه وخدعِهِ، من الجنـةِ، ونـزعَ عنهما ما كان ألبسَهُمَا من اللباسِ، لِيُرِيَهُمَا سوآتِهما بكشف عورتهما، وإظهارِها لأعينهما بعد أنْ كانت مستترةً.

وقد اختلف أهلُ التأويلِ في صفة «اللباس» الذي أخبر اللهُ جَلَّ ثناؤهُ أنه نزعه عن أبَويْنَا، وما كانَ.

فقال بعضهم: كان ذلك أظفاراً.

وقال آخرون: كان لباسهما نوراً.

وقال آخرون: إنما عَنَى اللهُ بقوله: «ينزعُ عنهما لباسهما»، يَسْلُبْهُمَا تقوى الله.

والصوابُ من القولِ في تأويلِ ذلك عندي أن يقالَ: إنَّ الله تعالى حَذَّرَ عبادَهُ أنْ يفتنهم الشيطانُ كما فتنَ أبويهم آدم وحواء، وأنْ يُجَرِّدهم من لباسِ الله الذي أنزله إليهم، كما نزعَ عن أبويهم لباسهما. «اللباس» المطلق من الكلامِ بغيرِ إضافةٍ إلى شيءٍ في متعارف الناس، وهو ما اجتابَ فيه اللابسُ من انواعِ الكُسى، أو غَطَّى بدنه أو بعضه.

وإذْ كانَ ذلك كذلك، فالحق أنْ يقالَ: إنَّ الذي أخبر اللهُ عن آدمَ وحواء من لباسهما الذي نزعه عنهما الشيطان، هو بعض ما كانا يُوارِيانِ به أبدانَهُمَا وعورَتهما.

وقد يجوز أن يكون ذلك كان ظفراً ـ ويجوز أنْ يكونَ كان ذلك نوراً ـ ويجوز أن يكون غير ذلك ـ ولا خبرَ عندنا بأيِّ ذلك تثبتُ به الحجةُ، فلا قولَ في ذلك أصوب من أن يقالَ كما قالَ جَلَّ ثناؤهُ: «ينزعُ عنهما لباسهما».

وأضاف جَلَّ ثناؤُهُ إلى إبليسَ إخراجَ آدمَ وحواء من الجنة، ونزعَ ما كانَ عليهما من اللباسِ عنهما، وإنْ كان اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ هو الفاعلُ ذلك بهما عقوبةً على معصيتهما إياه، إذْ كان الذي كان منهما في ذلك عن تسْنيةِ[1] ذلك لهما بمكرِهِ وخداعِه، فأُضيفَ إليه أحياناً بذلك المعنى، وإلى الله أحياناً بفعلهِ ذلكَ بهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بذلك: إنَّ الشيطانَ يراكم هو ـ و«الهاء» في «إنه» عائدةٌ على الشيطان ـ و«قبيله»، يعني: وصِنْفُه وجنسهُ الذي هُوَ منه واحدٌ جَمْعه قبل، وهم الجن.

وقوله: «من حيثُ لا ترونهم» يقول: من حيث لا ترونَ أنتم، أيها الناسُ، الشيطانَ وقبيله. «إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون»، يقول: جعلنا الشياطين نُصَراءَ الكفارِ الذين لا يُوَحِّدونَ الله ولا يُصَدِّقُونَ رُسُلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨﴾

قال: كان نساؤُهم يَطُفْنَ بالبيتِ عُراةً، فتلك الفاحشةُ التي وجدوا عليها آباءهم: «قُلْ إنَّ الله لا يأمرُ بالفحشاء»، الآية.

---

(١) سَنَى له الأمرَ: سَهَّلَهُ ويَسَّرَهُ وفتحه.

(يعني): وإذا فعلَ الذين لا يؤمنونَ باللهِ، الذين جعلَ اللهُ الشياطينَ لهم أولياءَ، قبيحاً من الفعلِ، وهو «الفاحشة»، وذلك تَعَرِّيهم للطوافِ بالبيتِ وتجردهم له، فعُذِلُوا على ما أتوا من قبيحِ فِعْلِهم وعُوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مِثْلِ ما نفعلُ آباءَنا، فنحنُ نفعلُ مثلَ ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديِهم، ونستنُّ بسنتهم، واللهُ أمرنا به، فنحن نتبعُ أمرَهُ فيه».

يقول اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ لنبيه محمدٍ ﷺ: «قُلْ»، يا محمدُ، لهم: «إنَّ اللهَ لا يأمرُ بالفحشاء»، يقول: لا يأمرُ خَلْقَهُ بقبائحِ الأفعالِ ومساويها. «أتقولون»، أيها الناسُ، «على اللهِ ما لا تعلمون»، يقول: أَتَروُونَ على اللهِ أنه أمَرَكُمْ بالتعرِّي والتجردِ من الثيابِ واللباسِ للطوافِ، وأنتم لا تعلمونَ أنه أمركم بذلك؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء الذين يزعمونَ أنَّ اللهَ أمرهم بالفحشاءِ كَذِباً على اللهِ: ما أمرَ ربي بما تقولونَ، بَلْ «أمرَ ربي بالقسط»، يعني: بالعدل.

وأما قوله: «وأقيموا وُجوهَكم عند كُلِّ مسجد»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في تأويله.

فقال بعضهم: معناه: وَجِّهُوا وجوهَكُمْ حيثُ كنتم في الصلاةِ إلى الكعبةِ.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك: واجعلوا سُجودَكُمْ للهِ خالصاً، دونَ ما سواه من الآلهةِ والأنداد.

وأوْلى هذين التأويلين بتأويلِ الآية: أنَّ القومَ أُمِرُوا أنْ يتوجَّهُوا بصلاتِهم إلى رَبِّهم، لا إلى ما سواهُ من الأوثـانِ والأصنـام، وأنْ يجعلوا دعـاءهـم لله خالصاً، لا مُكاءً ولا تصديةً.

وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالآية، لأنَّ الله إنما خاطبَ بهذه الآية قوماً من مشركي العرب، لم يكونوا أهلَ كنائسَ وبِيَعٍ، وإنما كانت الكنائسُ والبِيَعُ لأهلِ الكتابين. فغير معقولٍ أنْ يقالَ لمن لا يصلي في كنيسةٍ ولا بِيعة: «وجِّهْ وجهكَ إلى الكعبةِ في كنيسةٍ أو بِيعةٍ».

وأمـا قولـه: «وادْعُـوه مخلصينَ له الدِّينَ»، فإنه يقول: واعملوا لربِّكُمْ مخلصينَ له الدينَ والطاعةَ، لا تخلطوا ذلك بشرك، ولا تجعلوا في شيءٍ مما تعملون له شريكاً.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «كما بدأكم تعودون».

فقال بعضهم: تأويلُه: كما بَدَأكم أشقياءَ وسُعَداء، كذلك تُبعثونَ يومَ القيامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: كما خَلَقكم ولم تكونوا شيئاً، تَعودونَ بعد الفناء.

وأوْلى الأقـوالِ في تأويل ذلـك بالصواب، القولُ الذي قاله مَنْ قال: معناه: كما بَدَأكم اللهُ خَلْقاً بعد أنْ لم تكونوا شيئاً، تعودون بعد فنائِكم خَلْقاً مثله، يحشركم إلى يومِ القيامة ـ لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه: أَمَر نبيه ﷺ أنْ يُعْلِمَ

بما في هذه الآيةِ قوماً مشركين أهلَ جاهلية، لا يؤمنونَ بالمعاد، ولا يُصَدِّقونَ بالقيامة. فأمره أنْ يدعوَهم إلى الإقرارِ بأنَّ الله باعثهم يومَ القيامة، ومثيبُ مَنْ أطاعه، ومعاقبُ مَنْ عصاه. فقال له: قُلْ لهم: أمرَ ربي بالقسطِ، وأنْ أقيموا وجوهَكُمْ عندَ كُلِّ مسجد، وأنِ ادعوهُ مخلصينَ له الدين، وأنْ أقِرُّوا بأنْ كما بَدَأكم تعودونَ ـ فتركَ ذِكْرَ «وأنْ أقِرُّوا بأنْ»، كما تركَ ذِكْرَ «أن» مع «أقيموا»، إذْ كان فيما ذكر دلالة على ما حذف منه.

وإذ كان ذلك كذلك، فلا وجهَ لأنْ يؤمرَ بدعاءِ مَنْ كان جاحداً النشورَ بعد المماتِ، إلى الإقرارِ بالصفةِ التي عليها يُنْشَر من نُشِر، وإنما يُؤمَرُ بالدعاءِ إلى ذلك مَنْ كان بالبعثِ مُصَدِّقاً، فأما مَنْ كان له جاحداً، فإنما يُدْعَى إلى الإقرارِ به، ثم يُعَرَّفُ كيف شرائط البعث.

ثم ابتدأ الخبر جَلَّ ثناؤُهُ عما سَبَقَ من عِلْمِه في خَلْقِه، وجرى به فيهم قضاؤُه، فقال: هَدَى الله منهم فريقاً فوفَّقهم لصالحِ الأعمالِ فهم مهتدون، وحقَّ على فريقٍ منهم الضلالة عن الهدى والرشاد، باتخاذهم الشيطانَ من دونِ الله وليًّا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إن الفريقَ الذي حَقَّ عليهم الضلالةُ، إنما ضَلُّوا عن سبيلِ الله وجارُوا عن قَصْدِ المحجة، باتخاذِهم الشياطينَ نُصراءَ من دون الله، وظُهراءَ، جهلاً منهم بخطأ ما هُمْ عليه من ذلك، بل فعلوا ذلك وهم يظنون أنهم على هُدى وحَقٍّ، وأنَّ الصوابَ ما أتوه وركبوا.

وهذا من أبْيَنِ الدلالةِ على خطأ قولِ مَنْ زعمَ أنَّ الله لا يُعذِّبُ أحداً

على معصيةٍ ركبهـا أو ضلالـةٍ اعتقدها، إلا أنْ يأتيها بعد عِلْمٍ منه بصوابِ وجهها، فيركبها عناداً منه لربِّه فيها. لأنَّ ذلك لو كان كذلك، لم يَكُنْ بين فريقِ الضلالة الذي ضَلَّ وهو يحسَبُ أنه هادٍ وفريقِ الهدى، فَرْقٌ. وقد فرَّق الله بين أسمائِهما وأحكامهما في هذه الآية.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين يَتَعَرَّونَ عند طوافِهم ببيتِهِ الحرام، ويُبْدُونَ عوراتهم هنالك من مشركي العربِ، والمُحَرِّمينَ منهم أكلَ ما لم يُحَرِّمْهُ الله عليهم من حلالِ رزقِهِ، تبرُّراً عند نفسه لربه: «يا بني آدمَ خُذوا زينتكم»، من الكسـاءِ واللباس. «عند كل مسجدٍ وكُلوا»، من طيباتِ ما رَزَقْتُكم، وحَلَّلْتُه لكم. «واشربوا»، من حلالِ الأشربةِ، ولا تُحَرِّمُوا إلا ما حرمتُ عليكم في كتابي أو على لسانِ رسولي محمد ﷺ.

وقوله: «إنه لا يحب المسرفين»، يقول: إنَّ الله لا يحب المُتَعدِّينَ حَدَّهُ في حلالٍ أو حرامٍ، الغالينَ فيما أحلَّ اللهُ أو حَرَّمَ، بإحلالِ الحرامِ وبتحريمِ الحلال، ولكنه يحبُّ أنْ يُحَلَّلَ ما أَحَلَّ ويُحَرَّمَ ما حَرَّمَ، وذلك العدلُ الذي أمرَ به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء الجَهَلَةِ من العربِ الذين يَتعرَّوْنَ عند طوافِهم بالبيتِ، ويُحَرِّمُونَ على أنفسهم ما أحللتُ

لهم من طيباتِ الرزق: مَنْ حرَّمَ، أيها القومُ، عليكم زينةَ اللهِ التي خَلَقها لعبادِه أنْ تتـزيَّنـوا بهـا وتتجمَّلُوا بلبـاسها، والحلال من رزقِ الله الذي رزقَ خَلْقَهُ لمطاعمهم ومشاربهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ - لهؤلاء الذين أمرتُكَ أنْ تقولَ لهم: «مَنْ حَرَّمَ زينةَ الله التي أخرجَ لعبادِه والطيبات من الرزق»، إذْ عَيُّوا بالجوابِ، فلم يَدْرُوا ما يُجيبونَكَ -: زينة الله التي أخرجَ لعبادِه وطيبات رزقه، للذينَ صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، واتَّبَعُوا ما أُنْزلَ إليك من رَبِّكَ، في الدنيا، وقد شَرَكَهُمْ في ذلك فيها مَنْ كَفَرَ بالله ورسوله وخالف أمرَ ربه، وهي للذين آمنوا بالله ورسوله خالصة يومَ القيامة، لا يشركهم في ذلك يومئذٍ أحدٌ كَفَرَ بالله ورسوله وخالفَ أمرَ ربه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾



يقول تعالى ذِكْرُه: كما بينتُ لكم الواجبَ عليكم في اللباسِ والزينةِ، والحلالِ من المطاعم والمشاربِ والحرامِ منها، وميزتُ بين ذلك لكم، أيها الناسُ، كذلك أبيِّنُ جميعَ أدلتي وحججي، وأعلامَ حلالي وحرامي وأحكامي، لقومٍ يعلمون ما يُبَيَّنُ لهم، ويفقهون ما يُمَيَّزُ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاءِ المشركينَ الذين يتجرّدونَ من ثيابهم للطوافِ بالبيت، ويحرمون أكلَ طيباتِ ما أحلَّ اللهُ لهم من رِزْقه: أيها القومُ، إنَّ الله لم يُحَرِّمْ ما تحرمونه، بل أحلَّ ذلك لعبادِه المؤمنينَ وطيَّبه لهم، وإنما حَرَّمَ رَبِّيَ القبائحَ من الأشياء ـ وهي «الفواحش» «ما ظهرَ منها»، فكان علانيةً. «وما بطن»، منها فكان سِرًّا في خفاء.

وأما «الإثم»، فإنه المعصية. «والبغي»، الاستطالة على الناس.

يقول تعالى ذِكْرُه: إنما حَرَّمَ ربي الفواحشَ مع الإثم والبغي على الناس.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: إنما حَرَّمَ ربي الفواحشَ والشركَ به، أنْ تعبدوا مع اللهِ إلهاً غيره. «ما لم يُنَزِّلْ به سلطاناً»، يقول: حَرَّمَ رَبُّكم عليكم أنْ تجعلوا معه في عبادته شِرْكاً لشيءٍ لم يجعلْ لكم في إشراكِكم إياهُ في عبادته حجةً ولا برهاناً ـ وهو «السلطان». «وأنْ تقولوا على الله ما لا تعلمون»، يقول: وأنْ تقولوا إنَّ اللهَ أمركم بالتعرِّي والتجرُّدِ للطوافِ بالبيت، وحَرَّمَ عليكم أكلَ هذه الأنعامِ التي حَرَّمْتُموها وسيَّبْتُموها وجعلتموها وصائلَ وحوامي، وغير ذلك مما لا تعلمون أنَّ الله حَرَّمه، أو أمرَ به، أو أباحَهُ، فَتُضِيفُوا إلى الله تحريمه وحَظْره والأمرَ به، فإنَّ ذلك هو الذي حَرَّمه اللهُ عليكم دونَ ما تزعمون أنَّ الله حرمه، أو تقولون إنَّ الله أمركم به، جهلاً منكم بحقيقةِ ما تقولون وتضيفونه إلى الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: تهدُّداً للمشركينَ الذين أخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم كانوا إذا فعلوا فاحشةً قالوا: «وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها». ووعيداً منه لهم على كَذِبهم عليه، وعلى إصرارِهم على الشركِ به والمقامِ على كُفْرِهم - ومُذَكِّراً لهم ما أَحَلَّ بأمثالهم من الأممِ الذين كانوا قبلهم: «ولِكُلِّ أمةٍ أجل»، يقول: ولكل جماعةٍ اجتمعت على تكذيبِ رُسلِ الله، وردِّ نصائِحهم، والشركِ بالله، مع متابعةِ رَبِّهم حججه عليهم. «أجلٌ»، يعني: وقتٌ لحلولِ العقوباتِ بساحتهم، ونزولِ المَثُلاتِ بهم على شِرْكهم. «فإذا جاء أجلهم»، يقول: فإذا جاء الوقتُ الذي وَقَّتَهُ الله لهلاكِهم، وحلول العقابِ بهم. «لا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمون»، يقول: لا يتأخرونَ بالبقاء في الدنيا، ولا يُمَتَّعونَ بالحياةِ فيها عن وقتِ هلاكهم وحينَ حُلولِ أجلِ فنائهم، ساعةً من ساعاتِ الزمان. «ولا يستقدمون»، يقول: ولا يَتقدَّمُونَ بذلك أيضاً عن الوقتِ الذي جعلَهُ الله لهم وقتاً للهلاك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُعَرِّفاً خَلْقَهُ ما أَعَدَّ لحزبِهِ وأهلِ طاعتهِ والإيمانِ به وبرسوله، وما أَعَدَّ لحزبِ الشيطانِ وأوليائه والكافرينَ به وبرسله: «يا بني آدم إِمَّا يأتينكم رُسُلٌ منكم»، يقول: إنْ يَجِئْكُمْ رُسُلي الذين أرسلهم إليكم بدعائِكم إلى طاعتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي. «منكم»، يعني: من أنفسِكم

ومن عشائركم وقبائلكم. «يَقُصُّونَ عليكم آياتي»، يقول: يتلونَ عليكم آياتِ كتابي، ويُعَرِّفُونكم أدلتي وأعلامي على صِدْقِ ما جاؤوكم به من عندي، وحقيقة ما دعوكم إليه من توحيدي. «فمن اتقىَ وأصلح»، يقول: فَمَنْ آمَنَ منكم بما أتـاهُ به رُسلي ممـا قص عليه من آياتي وصـدَّقَ، واتقى الله فَخَـافَـهُ بالعملِ بما أمره به والانتهاء عما نهاهُ عنه على لسانِ رسوله. «وأصلحَ»، يقول: وأصلحَ أعماله التي كان لهـا مفسـداً قبل ذلك من معاصي الله بالتحوُّبِ منها. «فلا خوفٌ عليهم»، يقول: فلا خوفٌ عليهم يومَ القيامةِ من عقابِ الله إذا وردوا عليه. «ولا هم يحزنون»، على ما فَاتَهُمْ من دُنياهم التي تركوها، وشهواتهم التي تَجَنَّبوها، اتباعاً منهم لنهي الله عنها، إذا عاينوا من كرامةِ الله ما عاينوا هنالك.

فإنْ قال قائل: ما جوابُ قوله: «إما يأتينكم رُسُلٌ منكم»؟

قيل: قد اختلف أهلُ العربية في ذلك.

فقال بعضُهم في ذلك: الجوابُ مضمرٌ، يدلُّ عليه ما ظهرَ من الكلام، وذلك قوله: «فمن اتقى وأصلح». وذلك لأنه حين قال: «فمن اتقى وأصلح»، كأنه قال: فأطيعوهم.

وقال آخرون منهم: الجواب: «فمن اتقى»، لأنَّ معناه: فمن اتقى منكم وأصلحَ. قال: ويدل على أنَّ ذلك كذلك، تبعيضُه الكلامَ. فكان في التبعيض اكتفاء من ذكر «منكم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦

يقـول جَلَّ ثنـاؤه: وأمـا مَنْ كَذَّبَ بآيات[1] رسلي التي أرسلتهـا إليه، وجَحَـدَ

---

(١) في المطبوع: «بإيتاء» كأنه من غلط الطبع.

توحيدي، وكفر بما جاء به رُسُلي، واستكبرَ عن تصديقِ حُجَجي وأدلّتي. «فأولئكَ أصحابُ النار هم فيها خالدون»، يقول: هم في نار جهنم ماكثونَ لا يخرجون منها أبداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَمَنْ أخطأُ فِعلاً، وأجهلُ قولاً، وأبعدُ ذهاباً عن الحَقِّ والصواب. «مِمَّنِ افترى على الله كذباً»، يقول: ممن اختلقَ على الله زُوراً من القولِ، فقالَ إذا فعلَ فاحشةً: إنَّ الله أمَرَنا بها. «أو كَذَّبَ بآياته»، يقول: أو كَذَّبَ بأدلتهِ وأعلامه الدالَّةِ على وحدانيتهِ ونبوّةِ أنبيائه، فجحدَ حقيقتَها ودافعَ صِحَّتَها. «أولئك»، يقول: مَن فعل ذلك، فافترى على الله الكذبَ وكَذَّبَ بآياتهِ. «أولئك ينالُهم نصيبُهم من الكتابِ»، يقول: : يَصِلُ إليهم حَظُّهم مما كتبَ اللهُ لهم في اللوحِ المحفوظ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في صفة ذلك «النصيب»، الذي لهم في «الكتاب»، وما هو؟

فقال بعضُهم: هو عذابُ الله الذي أعدَّهُ لأهلِ الكفرِ به.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك يَنالُهم نصيبُهم مما سَبَقَ لهم من الشقاءِ والسعادةِ.

وقال آخرون: معنى ذلك، أولئك ينالهم نصيبُهم من كتابِهم الذي كتب لهم أو عليهم، بأعمالِهم التي عَمِلُوها في الدنيا من خيرٍ وشر.

وقال آخرون: معنى ذلك: ينالهم نصيبهم مما وُعِدُوا في الكتابِ من خيرٍ أو شرّ.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم من الكتابِ الذي كتبه اللهُ على مَنِ افترى عليه.

وقال آخرون: معنى ذلك: أولئك ينالهم نصيبهم مما كتبَ لهم من الرِّزْقِ والعمر والعمل.

وأَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصوابِ، قولُ مَنْ قال: معنى ذلك: أولئك ينالُهم نصيبُهم من الكتاب، مما كتب لهم من خيرٍ وشرٍ في الدنيا، ورزقٍ وعمل وأجل. وذلك أنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أتبع ذلك قوله: «حتى إذا جاءتهم رُسُلنا يَتَوفَّوْنَهُمْ قالوا أينَ ما كنتم تَدْعُونَ من دون الله»، فأبان بإتباعه ذلك قولَه: «أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب»، أنَّ الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كانَ مقضيًّا عليهم في الدنيا أنْ ينالهم، لأنه قد أخبر أنَّ ذلك ينالهم إلى وقتِ مجيئِهم رُسُلَهُ لتقبضَ أرواحَهُمْ. ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعدَّ لهم في الآخرة، لم يكن محدوداً بأنه ينالهم إلى مجيء رُسُلِ الله لوفاتهم، لأنَّ رُسُلَ الله لا تجيئهم للوفاةِ في الآخرة، وأنَّ عذابهم في الآخرة لا آخرَ له ولا انقضاء، فإنَّ الله قد قضى عليهم بالخلودِ فيه. فَبَيِّنٌ بذلك أنَّ معناه ما اخترنا من القولِ فيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «حتى إذا جاءتهم رسلنا»، إلى أنْ جاءتهم رسلنا. يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذبَ، أو كَذَّبُوا بآياتِ رَبِّهم، ينالهم حظوظهم التي كتبَ اللهُ لهم، وسَبَقَ في عِلْمِه لهم من رزقٍ وعملٍ وأجل

وخيرٍ وشرٍ في الدنيا، إلى أنْ تأتيهم رُسُلُنا لقبضِ أرواحهم. فإذا جاءتهم رسلنا، يعني مَلَك الموت وجُنْده. «يَتوفَّونَهم»، يقول: يستوفونَ عَدَدهم من الدنيا إلى الآخرة. «قالوا أين ما كنتم تَدْعُونَ من دون الله»، يقول: قالت الرسلُ: أين الذين كنتم تَدْعُونَهُمْ أولياءَ من دونِ الله وتعبدونهم، لا يدفعونَ عنكم ما قد جاءكم من أمرِ الله الذي هو خالقكم وخالقهم، وما قد نزلَ بساحتِكم من عظيمِ البلاء؟ وهلا يُغيثونَكُمْ من كربِ ما أنتم فيه فينقذونكم منه؟ فأجابهم الأشقياءُ فقالوا: ضَلَّ عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دونِ الله. يعني بقوله: «ضلوا»، جَارُوا وأخذوا غيرَ طريقنا، وتركونا عند حاجتنا إليهم فلم ينفعونا. يقولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: وشهدَ القومُ حينئذٍ على أنفسهم أنهم كانوا كافرينَ بالله، جاحدينَ وحدانيتَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن قِيْلِهِ لهؤلاء المفترينَ عليه، المُكَذِّبينَ آياتهِ يومَ القيامة. يقول الله تعالى ذِكْرُه، قال لهم حين وَرَدُوا عليه يومَ القيامة، ادخلوا، أيها المفترونَ على رَبِّكم، المُكَذِّبُونَ رُسُلَهُ، في جماعاتٍ من ضُرَبائكم. «قد خَلَتْ من قَبْلِكم»، يقول: قد سَلَفَتْ من قبلكم «من الجِنِّ والإنس في النار»، ومعنى ذلك: ادخلوا في أمم هي في النار، قد خَلَتْ من قبلكم من الجِنِّ والإنس ـ وإنما يعني بـ«الأمم»، الأحزابَ وأهلَ المللِ الكافرةِ. «كلما دخلت أمةٌ لَعَنَتْ أُختها»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: كلما دخلت النارَ جماعةٌ من أهلِ مِلَّةٍ. «لعنت أختها»، يقول: شتمت الجماعةَ الأخرى من أهلِ ملتها، تَبَرِّياً منها.

وإنما عنى بـ«الأخت»، الأُخُوَّةَ في الدِّينِ والملة، وقيل: «أُختها»، ولم

يقل: «أخاها»، لأنه عَنَى بها «أمة» وجماعة أخرى، كأنه قيل: كلما دخلتْ أمةٌ لعنتْ أمةً أخرى من أهلِ ملتها ودينها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا

يقول تعالى ذِكْرُه: حتى إذا تداركتِ الأممُ في النارِ جميعاً، يعني اجتمعت فيها.

يقول: اجتمع فيها الأوَّلونَ من أهلِ المللِ الكافرةِ والآخِرون منهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن محاورةِ الأحزابِ من أهلِ المللِ الكافرة في النار يوم القيامة. يقول الله تعالى ذِكْرُه: فإذا اجتمع أهلُ المللِ الكافرةِ في النار فادَّاركُوا، قالت أخرى أهلِ كُلِّ ملةٍ دخلت النار ـ الذين كانوا في الدنيا بعد أُولى منهم تَقَدَّمتها وكانتْ لها سَلَفاً وإماماً في الضلالة والكفر ـ لأُولاهَا الذين كانوا قَبْلَهُمْ في الدنيا: رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونا عن سبيلكَ، ودعونا إلى عبادةِ غيركَ، وزَيَّنُوا لنا طاعةَ الشيطان، فآتِهِم اليومَ من عذابكَ الضِّعْفَ على عذابنا.

وأما قوله: «قال لِكُلٍّ ضِعفٌ ولكن لا تعلمون»، فإنه خبرٌ من الله عن جوابه لهم. يقول: قال الله للذين يَدْعُونه فيقولون: «رَبَّنا هؤلاء أَضَلُّونا فآتِهم عذاباً ضِعْفاً من النار» ـ: لِكُلِّكُم، أَوَّلكم وآخركم، وتابعوكم ومُتَّبَعوكم ـ «ضِعْفٌ»، يقول: مكرر عليه العذاب.

وقوله: «ولكن لا تعلمون»، يقول: ولكنكم، يا معشرَ أهلِ النار، لا تعلمونَ ما قَدْرُ ما أعدَّ اللهُ لكم من العذابِ، فلذلك تسأل الضِّعْفَ منه الأمةُ الكافرةُ الأخرى لأُخْتِها الأولى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: وقالتْ أُولى كُلِّ أمةٍ ومِلَّةٍ سبقتْ في الدنيا، لأُخْرَاها الذين جاؤوا من بَعْدِهم، وحَدَثوا بعد زمانهم فيها، فسلكُوا سبيلَهم واسْتَنُّوا سُنَّتَهم: «فما كانَ لكم علينا من فَضْلٍ»، وقد علمتم ما حَلَّ بنا من عقوبةِ الله جَلَّ ثناؤُهُ بمعصيتنا إياهُ وكُفْرِنَا بآياتهِ، بعدما جاءتنا وجاءتكم بذلك الرسلُ والنُّذُرُ، فهل أنَبْتُمْ إلى طاعةِ الله، وارتدعتم عن غوايتكم وضلالتكم؟ فانقضتْ حُجَّةُ القوم وخُصِمُوا ولم يُطِيقُوا جواباً بأنْ يقولوا: «فُضِّلْنَا عليكم إذ اعتبرنا بكم فآمنا بالله وصَدَّقْنَا رسله»، قال الله لجميعهم: فذوقوا جميعكم، أيها الكَفَرةُ، عذابَ جهنم، بما كنتم في الدنيا تكسبونَ من الآثامِ والمعاصي، وتَجترحونَ من الذنوبِ والإجرام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ الذين كذبوا بحججنا وأدلَّتنا فلم يُصَدِّقُوا بها، ولم يتبعوا رسلنا. «واستكبروا عنها»، يقول: وتكبروا عن التصديقِ بها وأنِفُوا من اتِّباعِها والانقيادِ لها تَكَبُّراً. «لا تُفَتَّحُ لهم»، لأرواحِهم إذا خَرجتْ من

أجسادِهم. «أبوابُ السماء»، ولا يصعدُ لهم في حياتهم إلى الله قولٌ ولا عملٌ، لأنَّ أعمالَهم خبيثةٌ، وإنما يُرْفَعُ الكَلِمُ الطيبُ والعملُ الصالح، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالح يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: ولا يدخل هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا واستكبروا عنها، الجنةَ التي أعَدَّها الله لأوليائهِ المؤمنينَ أبداً، كما لا يلجُ الجملُ في سَمِّ الخِياطِ أبداً، وذلك ثَقب الإبرة.

«وكذلك نَجْزي المجرمينَ»، يقول: وكذلك نُثِيبُ الذين أجرَمُوا في الدنيا ما استحقُّوا به من الله العذابَ الأليمَ في الآخرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: لهؤلاءِ الذين كَذَّبُوا بآياتنا واستكبروا عنه. «من جهنمَ مِهادٌ» - وهو ما امتَهدُوه مما يقعدُ عليه ويضطجع، كالفراشِ الذي يفرش، والبساطِ الذي يبسط.

«ومن فوقهم غواشٍ». وهو جمعُ «غاشية»، وذلك ما غَشَّاهم فَغطَّاهُمْ من فوقهم.

وإنما معنى الكلام: لهم من جهنمَ مِهادٌ من تحتهم فُرُشٌ، ومن فوقهم منها لُحُفٌ، وإنهم بين ذلك.

وأما قوله: «وكذلك نجزي الظالمين»، فإنه يقول: وكذلك نُثِيبُ ونكافىءُ مَنْ ظلم نَفْسَهُ، فأكسَبَها من غضبِ الله ما لا قِبَلَ لها به بِكُفْرِه بربِّه، وتكذيبه أنبيائه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: «والذين صَدَّقُوا الله ورسولَهُ، وأَقَرُّوا بما جاءهم به من وحي اللهِ وتنزيله وشرائعِ دينه، وعملوا ما أمرهم اللهُ به فأطاعوه، وتَجَنَّبُوا ما نهاهم عنه. «لا نكلفُ نفساً إلا وسعها»، يقول: لا نكلفُ نفساً من الأعمالِ إلا ما يَسَعُهـا فلا تحـرج فيه. «أولئك»، يقـول: هؤلاء الـذين آمنوا وعملوا الصالحات. «أصحابُ الجنة»، يقول: هم أهلُ الجنة الذين هم أهلها، دونَ غيرِهم مِمَّنْ كفرَ بالله وعمل بسيئاتهم. «هُمْ فيها خالدون»، يقول: هم في الجنة ماكثون، دائمٌ فيها مكثهم، لا يخرجونَ منها، ولا يُسْلَبونَ نعيمها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَذْهَبْنَا من صدورِ هؤلاءِ الذين وَصفَ صِفَتَهُم، وأخبرَ أنهم أصحابُ الجنة، ما فيها من حقدٍ وغِمْرٍ[1] وعَداوةٍ كان من بعضِهم في الدنيا على بعضٍ، فجعلهم في الجنةِ إذا أُدْخِلُمُوها على سُرُرٍ متقابلينَ، لا

(١) الغمر: الحقد الذي يغمر القلب.

يحسدُ بعضُهم بعضاً على شيءٍ خَصَّ اللهُ به بعضَهم وفَضَّلَهُ من كرامتهِ عليه، تجري من تحتهم أنهارُ الجنة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال هؤلاء الذينَ وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، حين أُدْخِلُوا الجنةَ ورأوا ما أكرمهم اللهُ به من كرامته، وما صَرَفَ عنهم من العـذابِ المهين الذي ابتلى به أهلَ النارِ بكفرهم بربّهم، وتكذيبهم رُسُلَهُ: «الحمدُ لله الذي هدانا لهذا»، يقول: الحمدُ لله الذي وَفَّقنا للعملِ الذي أكسبنا هذا الذي نحنُ فيه من كرامةِ الله وفضلهِ، وصرف عذابه عنا. «وما كنا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله»، يقول: وما كنا لنرشد لذلك، لولا أنْ أرشدنا الله له ووفقنا بمنِّهِ وطَوْله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخْبِراً عن هؤلاءِ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنهم يقولون عند دخولهم الجنةَ، ورؤيتهم كرامةَ الله التي أكرمهم بها، وهو أنَّ أعداءَ الله في النار: والله لقد جاءتنا في الدنيا، وهؤلاء الذين في النار، رُسُلُ رَبِّنا بالحقِّ من الأخبارِ عن وَعْدِ الله أهلَ طاعتهِ والإيمان به وبرسله، ووعيدِهِ أهلَ معاصيهِ والكفر به.

وأمـا قولـه: «ونُودُوا أنْ تِلْكُمُ الجنةُ أُورِثْتُموها بما كنتم تعملون»، فإنَّ معناه: ونادى مُنَادٍ هؤلاءِ الذين وَصَفَ اللهُ صِفَتَهم، وأخبرَ عَمَّا أعَدَّ لهم من

كرامتهِ: أنْ يا هؤلاء، هذه تلكم الجنةُ التي كانت رُسُلي في الدنيا تُخْبِرُكُمْ عنهـا، أُوْرِثْكُمُـوهَـا اللهُ عن الـذين كَذَّبُوا رُسُلَهُ، لتصديقِكُمْ إياهم وطاعتكم رَبَّكم. وذلك هو معنى قوله: «بما كنتم تعلمون».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ونادى أهلُ الجنةِ أهلَ النارِ بعد دُخُولِهِمُوهَا: يا أهلَ النار، قد وجدنا ما وَعَدنا رَبُّنا حقًّا في الدنيا على ألسن رُسُلِهِ، من الثوابِ على الإيمانِ به وبهم، وعلى طاعتِه، فهل وجدتم ما وَعَدَ رَبُّكم على ألسنَتِهم على الكُفْر وعلى معاصيهِ من العقاب؟ فأجابهم أهلُ النار: بأنْ نعم، قد وجدنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حقًّا.

وأما قوله: «فأذَّنَ مُؤذنٌ بينهم»، يقول: فنادى مُنادٍ، وأعلم مُعْلِمٌ بينهم ـ «أن لعنةُ الله على الظالمين»، يقول: غَضَبُ الله وسخطُه وعقوبته على مَنْ كَفَرَ به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: إنَّ المؤذنَ بين أهلِ الجنةِ والنارِ يقول: «أن لعنة الله على الظالمين»، الذين كفروا بالله وصَدُّوا عن سبيلِه. «ويبغونها عوجاً»، يقول: حاولوا سبيل الله ـ وهو دِينُه. «أنْ يُغَيِّرُوهُ ويُبَدِّلُوه عما جعله الله له من استقامته.

«وهم بالآخرة كافرون»، يقول: وهُمْ لقيامِ الساعةِ والبعثِ في الآخرةِ والثوابِ والعقابِ فيها جاحدون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وبينهما حجاب»، وبين الجنةِ والنارِ حجابٌ، يقول: حاجزٌ، وهو: السورُ الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، [الحديد: ١٣]. وهو «الأعراف» التي يقول الله فيها: «وعلى الأعرافِ رجالٌ»، كذلك.

وأمـا قولـه: «وعلى الأعـراف رجـال»، فإنَّ «الأعرافَ» جَمْعٌ، واحِدُها «عُرْف»، وكل مُرْتَفعٍ من الأرضِ عند العرب فهو «عُرْف»، وإنما قيل لعُرف الديك «عرف»، لارتفاعه على ما سِواهُ من جسده.

وكان السُّدِّيُّ يقول: إنما سمى «الأعراف» أعرافاً، لأنَّ أصحابه يعرفون الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وعلى الأعرافِ رجالٌ يعرفونَ أهلَ الجنة بسيماهم، وذلـك بياضُ وجـوههم، ونضـرةُ النعيمِ عليهـا ـ ويعـرفون أهلَ النارِ كذلك بسيماهم، وذلك سوادُ وجوههم، وزرقةُ أعينهم. فإذا رأوا أهلَ الجنةِ نادوهم: «سلامٌ عليكم».

وأمـا قولـه: «ونادوا أصحابَ الجنةِ أنْ سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون»، أي: حَلَّتْ عليكم أَمَنَةُ الله من عقابِه وأليمِ عذابه.

واختلف أهلُ التأويل في المعنيِّ بقوله: «لم يدخلوها وهم يطمعون».

فقال بعضهم: هذا خبرٌ من الله عن أهلِ الأعراف: أنهم قالوا لأهلِ الجنةِ ما قالوا قبلَ دخولِ أصحابِ الأعراف، غير أنهم قالوه وهم يطمعون في دخولها.

وقال آخرون: إنما عَنَى بذلك أهلَ الجنة، وأنَّ أصحابَ الأعراف يقولون لهم قبل أنْ يدخلوا الجنةَ: «سلامٌ عليكم»، وأهلُ الجنة يطمعون أنْ يدخلوها، ولم يدخلوها بَعْدُ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعـالَى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإذا صُرِفَتْ أبصارُ أصحابِ الأعراف تِلْقَاءَ أصحابِ النار - يعني: حِيالَهم ووِجاهَهم - فنظروا إلى تشويه الله لهم. «قالوا رَبَّنَا لا تجعلنا مع القومِ الظالمين»، الذين ظلموا أنفسهم، فأكسبوها من سخطكَ ما أورثهم من عذابكَ ما هُمْ فيه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: «ونادى أصحابُ الأعرافِ رجالًا»، من أهلِ الأرضِ.

«يعرفونهم بسيماهم»، سِيمَا أهلِ النار. «قالوا ما أغنى عنكم جَمْعُكم»، ما كنتم تجمعونَ من الأموالِ والعَدَد في الدنيا. «وما كنتم تستكبرون»، يقول: وتَكَبُّرُكُم الذي كنتم تتكبرونَ فيها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في المعنيِّين بهذا الكلام.

فقال بعضهم: هذا قِيلُ الله لأهلِ النار، توبيخاً على ما كانَ من قِيلهم في الدنيا، لأهلِ الأعراف، عند إدخالهِ أصحابَ الأعرافِ الجنة.

فتأويلُ الكلام على هذا التأويل: قال اللهُ لأهلِ التكبر عن الإقرارِ بوحدانيةِ الله، والإذعانِ لطاعتهِ وطاعةِ رُسُلِه، الجامعينَ في الدنيا الأموالَ مُكاثرةً ورِياءً: أيها الجبابرة كانوا في الدنيا، أهؤلاء الضعفاء الذين كنتم في الدنيا أقسمتم لا ينالهم اللهُ برحمة؟ قال: قد غفرتُ لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي، ادخلوا يا أصحابَ الأعرافِ الجنةَ لا خوفٌ عليكم بعدها من عقوبةٍ تعاقبون بها على ما سَلَفَ منكم في الدنيا من الآثام والأجرام، ولا أنتم تحزنون على شيءٍ فاتكم في دنياكم.

وقال أبو مجلز[1]: بَلْ هذا القولُ خبرٌ من الله عن قِيْلِ الملائكةِ لأهلِ النار، بعد ما دخلوا النارَ، تعييراً منهم لهم على ما كانوا يقولونَ في الدنيا للمؤمنينَ الذين أدخلهم اللهُ يومَ القيامةِ جَنَّتَهُ. وأما قوله: «ادْخُلُوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون»، فخبرٌ من اللهِ عن أمرِه أهلَ الجنةِ بدخولها.

(١) أبو مجلز لاحق بن حميد السدوسي البصري، الإمام التابعي الثقة المتوفى بُعيد سنة ١٠٠ (تهذيب الكمال: ٣١/١٧٦-١٨٠).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن استغاثةِ أهلِ النار بأهلِ الجنة، عند نزولِ عظيمِ البلاءِ بهم من شِدَّةِ العطشِ والجوع، عقوبةً من الله لهم على ما سَلَفَ منهم في الدنيا من تركِ طاعةِ الله، وأداءِ ما كان فَرَضَ عليهم فيها في أموالهم من حقوقِ المساكين من الزكاةِ والصدقة.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ونادى أصحابُ النار»، بعد ما دخلوها. «أصحابَ الجنةِ»، بعد ما سكنوها. «أنْ»، يا أهلَ الجنة. «أفيضُوا علينا من الماءِ أو مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ»، أي: أطعمونا مما رزقكم الله من الطعام.

فأجابهم أهلُ الجنة، إنَّ الله حَرَّمَ الماءَ والطعامَ على الذين جَحَدُوا توحيده، وكَذَّبُوا في الدنيا رُسُلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾

وهذا خبرٌ من الله عن قِيلِ أهلِ الجنة للكافرين.

يقول تعالى ذِكْرُه: فأجابَ أهلُ الجنة أهلَ النار: «إنَّ الله حَرَّمهما على الكافرين»، الذين كفروا بالله ورسله، الذين اتَّخَذُوا دِينهم الذي أمرهم اللهُ به لهواً ولعباً، يقول: سخريةً ولعباً.

«وغَرَّتْهُم الحياةُ الدنيا»، يقول: وخَدَعهم عاجلُ ما هُمْ فيه من العيشِ والخفضِ والدَّعة، عن الأخذِ بنصيبهم من الآخرةِ، حتى أتتهم المنيةُ ـ يقولُ الله جَلَّ ثناؤُهُ: «فاليومَ ننساهم كما نَسُوا لقاءَ يومهم هذا»، أي ففي هذا اليوم، وذلك يوم القيامة «ننساهم»، يقول: نتركهم في العذابِ المبينِ جِياعاً عِطاشاً بغيرِ طعامٍ ولا شراب، كما تركوا العملَ للقاءِ يومِهم هذا، ورفضوا الاستعدادَ له بإتعابِ أبدانِهم في طاعةِ الله.

وأما قوله: «وما كانوا بآياتنا يجحدون»، فإنَّ معناه: «اليوم ننساهم كما نَسُوا لقاء يومهم هذا»، وكما كانوا بآياتنا يجحدون.

وتأويلُ الكلام: فاليومَ نتركهم في العذابِ، كما تركوا العملَ في الدنيا للقاءِ الله يومَ القيامة، وكما كانوا بآيات الله يجحدون ـ وهي حججه التي احتجَّ بها عليهم، من الأنبياءِ والرسلِ والكتبِ وغير ذلك. «يجحدون»، يُكَذِّبُونَ ولا يُصَدِّقُونَ بشيءٍ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أقسم، يا محمدُ، لقد جئنا هؤلاء الكَفَرَةَ بكتابٍ ـ يعني القرآن الذي أنزَلَهُ إليه. يقول: لقد أنزلنا إليهم هذا القرآنَ، مفصَّلاً مبيَّناً فيه الحَقُّ من الباطل. «على علم»، يقول: على عِلْمٍ منا بحقٍّ ما فُصِّل فيه، من الباطلِ الذي مَيَّز فيه بينه وبين الحق. «هدىً ورحمة»، يقول: بَيَّناهُ ليُهْدى ويُرْحَم به قومٌ يُصَدِّقُونَ به، وبما فيه من أمرِ الله ونهيِه، وأخبارِه، ووعدِه ووعيدِه، فينقذَهُمْ به من الضلالةِ إلى الهدى.

وهذه الآيةُ مردودةٌ على قوله: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ

حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]. «ولقد جِئناهُمْ بكتابٍ فَصَّلناهُ على عِلْمٍ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «هل ينظرون إلا تأويله»، هل ينتظرُ هؤلاءِ المشركونَ الذين يُكَذِّبُونَ بآياتِ الله ويجحدونَ لقاءه. «إلا تأويله»، يقول: إلا ما يؤولُ إليه أمرهم، من ورودهم على عذابِ الله، وصِلِيِّهم جَحيمَهُ، وأشباه هذا مما أوعدهم الله به.

وأما قوله: «يوم يأتي تأويلُهُ يقولُ الذين نَسُوهُ من قَبْلُ»، فإنَّ معناه: يومَ يجيءُ ما يؤولُ إليه أمرهم من عقابِ الله. «يقول الذين نَسُوهُ من قبل»، أي: يقولُ الذين ضيَّعوا وتركوا ما أُمِرُوا به من العملِ المُنَجِّيهِم مما آلَ إليه أمرُهُم يومئذٍ من العذابِ، من قبل ذلك في الدنيا. «لقد جاءت رُسُلُ رَبِّنَا بالحقِّ»، أقسم المساكينُ حين عاينوا البلاءَ وحَلَّ بهم العقاب: أنَّ رُسُلَ الله التي أتتهم بالنِّذارةِ وبَلَّغَتْهُم عن اللهِ الرسالةَ، قد كانت نَصَحَتْ لهم وصَدَقَتْهُمْ عن الله، وذلك حين لا ينفعهم التصديقُ. ولا يُنَجِّيهم من سَخَط الله وأليمِ عقابه كثرةُ القالِ والقيل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن هؤلاءِ المشركينَ الذين وَصَفَ صِفَتهم، أنهم يقولون عند حلولِ سَخَطِ الله بهم، وورودِهم أليمَ عذابهِ، ومُعَايَنَتِهم تأويلَ ما كانتْ رسلُ الله تَعِدُهُمْ: هل لنا من أصدقاءَ وأولياءَ اليومَ فيشفعوا لنا عندَ رَبِّنَا، فَتُنَجِّينا شفاعَتُهم عندهُ مما قد حَلَّ بنا من سوءِ فِعالنا في الدنيا ـ أو نردّ إلى الدنيا مرةً أخرى، فنعمل فيها بما يُرْضِيه ويُعْتِبُه من أنفسنا؟ قال هذا القولَ المساكينُ هنالكَ، لأنهم كانوا عَهِدُوا في الدنيا أنفسهم لها شفعاء تشفعُ لهم في حاجاتهم، فيذكروا ذلك في وقتٍ لا خُلةَ فيه لهم ولا شفاعة.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ وتقدست أسماؤه: «قد خسروا أنفسهم»، يقول: غَبَنُوا أنفسَهُم حظوظَها، ببيعِهم ما لا خطرَ له من نعيمِ الآخرةِ الدائمِ، بالخسيسِ من عَرَضِ الدنيا الزائلِ. «وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون»، يقول: وأَسْلَمَهُمْ لعذابِ الله، وحارَ عنهم أولياؤُهم، الذينَ كانوا يعبدونهم من دونِ الله، ويزعمونَ كَذِباً وافتراء أنهم أربابُهم من دونِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ سَيِّدَكُمْ ومُصْلِحَ أمورِكم، أيها الناسُ، هو المعبودُ الذي له العبادةُ من كل شيء. «الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيام»، وذلك يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة.

«ثم استوى على العرش». وقد ذكرنا معنى «الاستواء» بما أَغْنَى عن إعادته.

وأما قوله: «يُغْشِي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثاً»، فإنه يقول: يُورِدُ الليلَ غلى النهار فيلبسه إياه، حتى يُذْهِبَ نَضْرَتَهُ ونوره. «يطلبه»، يقول: يطلبُ الليلُ النهارَ «حثيثاً»، يعني: سريعاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلقَ السمواتِ والأرض والشمسَ والقمرَ والنجومَ، كُلُّ ذلك بأمرِه، أمرهن اللهُ فأطعْنَ أمرَهُ، ألا للهِ الخلقُ كُلُّهُ، والأمرُ الذي لا يخالفُ ولا يردّ أمره، دونَ ما سِواهُ من الأشياءِ كلها، ودونَ ما عَبَدَهُ المشركونَ من الآلهةِ والأوثانِ التي لا تَضُرُّ ولا تنفعُ، ولا تَخْلُقُ ولا تأمرُ، تباركَ اللهُ معبودُنَا الذي له عبادةُ كُلِّ شيءٍ، ربُّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ادعُوا، أيها الناسُ، ربَّكم وحدَهُ، فأخْلِصُوا له الدعاءَ، دونَ ما تَدْعُونَ من دونِهِ من الآلهةِ والأصنامِ. «تضرعاً»، يقول: تذلُّلاً واستكانة لطاعته. «وخُفْيةً»، يقول بخشوعِ قلوبِكم، وصِحَّةِ اليقينِ منكم بوحدانيتهِ فيما بينكم وبينه، لا جهاراً ومراءاةً، وقلوبكم غيرُ مُوقنةٍ بوحدانيتهِ وربوبيته، فِعْلَ أهلِ النفاقِ والخداعِ للهِ ولرسوله.

وأما قوله: «إنه لا يحب المعتدين»، فإنَّ معناه: إنَّ رَبَّكم لا يحبُّ مَن اعتدى فتجاوزَ حَدَّهُ الذي حَدَّهُ لعبادِهِ في دعائه ومسألته ربَّه، ورفعه صوتَهُ فوقَ الحَدِّ الذي حَدَّ لهم في دعائِهم إياه، ومسألتهم، وفي غير ذلك من الأمور.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، لا تُشْرِكُوا بالله في الأرض ولا تَعْصُوه فيها، وذلك هو الفسادُ فيها. «بعد إصلاحها» يقول: بعد إصلاح الله إياها لأهلِ طاعتهِ، بابتعاثهِ فيهم الرُّسُلَ دُعاةً إلى الحق، وإيضاحِه حَجَجَهُ لَهم. «وادعوه خوفاً وطمعاً»، يقول: وأخْلِصُوا له الدعاءَ والعملَ، ولا تشركوا في عملكم له شيئاً غيرَهُ من الآلهةِ والأصنامِ وغير ذلك، وليكُنْ ما يكونُ منكم في ذلكَ خوفاً من عقابهِ، وطمعاً في ثوابه. وإنَّ مَنْ كان دعاؤُه إياه على غيرِ ذلك، فهو بالآخرةِ من المكذِّبينَ، لأنَّ مَنْ لم يَخَفْ عقابَ الله ولم يَرْجُ ثوابه، لم يُبَال ما ركبَ من أمر يَسْخَطُهُ الله ولا يرضاه. «إنَّ رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين»، يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ثوابَ الله الذي وَعَدَ المحسنينَ على إحسانِهم في الدنيا، قريبٌ منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أنْ يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعَدَّ لهم من كرامتهِ إلَّا أنْ تفارقَ أرواحُهم أجسادَهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خلقَ السموات والأرضَ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، هو الذي يرسلُ الرياح نَشْراً[1] بين يدي رحمته.

(١) إنما قال ذلك لأنه لم يستجزْ إلا قراءتها بالنون، وهي في مصحفنا بالباء كما ترى.

و«النشر» بفتحِ «النونِ» وسكونِ «الشين»، في كلام العرب، من الرياحِ الطيبةِ اللينةِ الهبوبِ، التي تنشئُ السحابَ. وكذلك كُلُّ ريحٍ طيبةٍ عندهم فهي «نشر».

وبهذه القراءة قرأ ذلك عامةُ قَرَأةِ الكوفيين، خَلاَ عاصم بن أبي النجود، فإنه كان يقرؤه: «بشراً» على اختلافٍ عنه فيه.

فروى ذلك بعضهم عنه: ﴿بُشْراً﴾، بالباء وضمها، وسكون الشين.

وبعضهم، بالباء وضمها وضم الشين.

وكان يتأوّل في قراءته ذلك كذلك قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، تُبَشِّرُ بالمطرِ، وأنه جمع «بشير» يبشر بالمطر، جُمع «بُشُراً»، كما يجمع «النذير» «نُذُراً».

وأما قَرَأةُ المدينةِ وعامة المكيين والبصريين، فإنهم قرأوا ذلك: ﴿وَهُوَ الَّـذِي يُرْسِل الرِّيَاحَ نُشُراً﴾، بضم «النون»، و«الشين» بمعنى جمع «نَشور» جمع «نشراً»، كما يجمع «الصبور» «صُبُراً» و«الشكور» «شُكُراً».

وكان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العرب يقول: معناها إذا قرئت كذلك: أنها الرياحُ التي تهبُّ من كُلِّ ناحيةٍ، وتجيءُ من كُلِّ وجهٍ.

وكان بعضهم يقول: إذا قرئت بضم النون، فينبغي أنْ تُسَكَّنَ شِينُها، لأنَّ ذلك لغة بمعنى «النَّشْر» بالفتح. وقال: العرب تضم النون من «النُّشْر» أحياناً، وتفتح أحياناً بمعنى واحد. قال: فاختلافُ القَرَأةِ في ذلك على قدر اختلافها في لغتها فيه. وكان يقول: هو نظير «الخَسْف»، «والخُسْف»، بفتح الخاء وضمها.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يقالَ: إنَّ قراءةَ مَنْ قرأ ذلك: ﴿نَشْراً﴾

و«نُشُراً»، بفتح «النون» وسكون «الشين»، وبضم «النون» و«الشين» قراءتان مشهورتان في قَرَأَةِ الأمصار.

أما «بُشْراً»[1] بالباء وضمها فلا أحِبُّ القراءةَ بها، وإنْ كان لها معنى صحيح ووجهٌ مفهوم في المعنى والإعراب.

وأما قوله: «بين يدي رحمته»، فإنه يقول: قُدَّامَ رحمتِه وأمامها.

و«الرحمة» التي ذكرها جَلَّ ثناؤُهُ في هذا الموضع، المطر.

فمعنى الكلام إذاً: والله الذي يرسلُ الرياح لَيِّناً هبوبُهَا، طَيِّباً نسيمُهَا، أمامَ غَيْثِه الذي يسوقه بها إلى خَلْقِه، فينشىءُ بها سَحَاباً ثِقالاً حتى إذا أقَلَّتْهَا. و«الإقلال» بها، حَمْلُها، كما يقال: «استقلَّ البعير بحمله»، و«أقله»، إذا حمله فقام به - ساقَهُ اللهُ لإحياءِ بلدٍ ميتٍ، قد تَعَفَّتْ مزارِعُه، ودَرَستْ مشاربه، وأجدبَ أهلُه، فأنزلَ به المطرَ، وأخرجَ به من كُلِّ الثمرات.

وأما قوله: «كذلك نُخْرِجُ الموتى لعلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: كما نحيي هذا البلدَ الميتَ بما ننزلُ به من الماءِ الذي ننزله من السحابِ، فنخرجُ به من الثمراتِ بعد موتِهِ وجدوبتِهِ وقُحُوطِ أهله، كذلك نخرجُ الموتى من قبورِهم أحياءً بعد فنائِهم ودُرُوسِ آثارِهم. «لعلكم تذكرون»، يقول تعالى ذِكْرُه للمشركينَ به من عَبَدَةِ الأصنام، المكذبينَ بالبعثِ بعد المماتِ، المنكرين للثوابِ والعقاب: ضربتُ لكم، أيها القومُ، هذا المثل الذي ذكرتُ لكم: من إحياءِ البلدِ الميتِ بقَطْرِ المطرِ الذي يأتي به السحابُ الذي تنشرهُ الرياحُ التي وصفتُ صِفَتَها، لتعتبروا فتذكَّرُوا وتعلموا أنَّ مَنْ كان ذلك من

---

(١) سقط في هذا الموضع وقبله من المخطوط والمطبوع كلام، فوضعنا العبارة التي بين القوسين ليكونَ الكلام متصلاً.

قدرته، فيسيرٌ في قدرته إحياءُ الموتى بعد فنائها، وإعادتها خَلْقاً سويًّا بعد دُرُوسها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والبلدُ الطيبةُ تُرْبَتُه، العذبةُ مشاربه، يخرجُ نباته إذا أنزلَ اللهُ الغيثَ وأرسلَ عليه الحَيَا، بإذنه، طيباً ثمرُه في حينه ووقته. والذي خَبُثَ فَرَدُؤَتْ تُربته، ومَلحتْ مشاربه، لا يخرجُ نباته إلا نكداً ـ يقول: إلا عَسِراً في شدة.

وقوله: «كذلك نُصَرِّفُ الآيات لقومٍ يشكرون»، يقول: كذلك: نُبين آية بعد آيةٍ، ونَدلي بحجةٍ بعد حجة، ونضربُ مثلاً بعد مَثَلٍ، لقومٍ يشكرونَ اللهَ على إنعامِه عليهم بالهدايةِ، وتبصيره إياهم سبيلَ أهلِ الضلالة، باتباعهم ما أمرَهُمْ بإتباعه، وتجنُّبهم ما أمرهم بتجنبهِ من سُبُلِ الضلالة. وهذا مَثَلٌ ضربَه اللهُ للمؤمنِ والكافر، فالبلدُ الطيبُ الذي يخرجُ نباته بإذنِ ربه، مَثَلٌ للمؤمن ـ والذي خَبُثَ فلا يخرجُ نباته إلا نكداً، مَثَلٌ للكافر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

أقسم رَبُّنَا جَلَّ ثناؤُهُ للمخاطبينَ بهذه الآية: أنه أرسلَ نوحاً إلى قومه، مُنْذِرَهُمْ بأسَهُ، ومخوِّفَهم سَخَطه، على عبادتهم غيره، فقال لِمَنْ كفرَ منهم:

يا قوم، اعبدُوا الله الذي له العبادةُ، وذِلُّوا له بالطاعةِ، واخضعوا له بالاستكانةِ، ودَعُوا عبادةَ ما سواه من الأندادِ والآلهة، فإنه ليس لكم معبودٌ يستوجبُ عليكم العبادةَ غيرُه، فإني أخافُ عليكم إنْ لم تفعلوا ذلك «عذابَ يوم عظيم»، يعني: عذابَ يوم يَعْظُمُ فيه بلاؤكم بمجيئِهِ إياكم بسخَطِ ربِّكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾

وهـذا خبرٌ من الله جَلَّ ثَناؤُهُ، عن جواب مشركي قومِ نوحٍ لنوحٍ، وهم «الملأ»، و«الملأ»، الجماعةُ من الرجالِ، لا امرأةَ فيهم - أنهم قالوا له حين دعاهم إلى عبادةِ الله وحدَهُ لا شريكَ له: «إنَّا لنراكَ»، يا نوحُ. «في ضلالٍ مبين»، يعنون في أمرٍ زائلٍ عن الحَقِّ، مبين زوالهُ عن قَصْدِ الحقّ لمن تأمَّلَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قال نوحٌ لقومِهِ مجيباً لهم: يا قوم، لم آمُرْكُمْ بما أمَرْتُكم به من إخلاصِ التوحيدِ لله، وإفرادِه بالطاعةِ دونَ الأندادِ والآلهة، زوالاً مني عن مَحَجَّةِ الحقِّ، وضلالاً لسبيلِ الصواب، وما بي ما تَظُنُّونَ من الضلالِ، ولكنّي رسـولٌ إليكم من رَبِّ العـالمين بما أمرتكم به: من إفرادِه بالطاعة، والإقرارِ له بالوحدانية، والبراءةِ من الأندادِ والآلهة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ

مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

وهذا خبرٌ من الله جَلَّ ثناؤهُ عن نبيه نوح عليه السلام أنه قال لقومه الذين كفروا بالله وكَذَّبُوه: «ولكني رسولٌ من رَبِّ العالمين»، أرسلني إليكم، فأنا أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربي، وأنصحُ لكم في تحذيري إياكم عقابَ الله على كُفْرِكُمْ به، وتكذيبكم إيايَ، وردّكم نصيحتي. «وأعلمُ من الله ما لا تعلمون»، من أنَّ عِقابَهُ لا يُرَدُّ عن القومِ المجرمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾

وهذا أيضاً خبرٌ من الله عَزَّ ذِكْرُه عن قِيْلِ نوحٍ لقومِهِ أنه قال لهم، إذْ رَدُّوا عليه النصيحةَ في الله، وأنكروا أنْ يكونَ اللهُ بعثه نبيًّا، وقالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾، [هود: ٢٧]: «أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءكم ذِكْرٌ من ربكم»، يقول: أوعجبتم أنْ جاءكم تَذكيرٌ من اللهِ وعِظَةٌ، يُذَكِّرُكم بما أنزلَ رَبُّكم. «على رجلٍ»، قيل: معنى قوله «على رجل منكم»، مع رجل منكم. «لينذركم»، يقول: لينذركم بأسَ الله ويُخَوِّفَكُمْ عِقابه على كُفْرِكم به. «ولتتقوا»، يقول: وكي تَتَّقُوا عِقابَ الله وبأسَهُ، بتوحيدِه وإخلاصِ الإيمانِ به، والعملِ بطاعته. «ولعلكم ترحمون»، يقول: وليرحمكم رَبُّكم إنِ اتَّقيتم اللهَ، وخِفْتُموه وحَذِرتُمْ بأسَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فكذَّبَ نوحاً قومُه إذْ أخبرهم أنه للهِ رسولُ إليهم، يأمرهم بخلعِ الأنداد، والإقرارِ بوحدانيةِ الله، والعملِ بطاعته، وخالفوا أمرَ رَبِّهم، ولَجُّوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاهُ اللهُ في الفُلْكِ والذين معه من المؤمنينَ به، وكانوا بنوح عليه السلام أنفساً عشرة.

وكان حَمَلَ معه في الفلك من كل زوجين اثنين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

و«الفُلْكُ»، هو السفينة.

«وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا»، يقول: وأغرقَ اللهُ الذين كَذَّبُوا بحججه، ولم يَتَّبِعُوا رُسُلَهُ، ولم يقبلوا نصيحتَهُ إياهم في الله بالطوفان.

«إنهم كانو قوماً عمين»، يقول: عَمِينَ عن الحَقِّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً ـ ولذلك نَصَبَ «هوداً»، لأنه معطوفٌ به على «نوح» عليه السلام ـ قال هود: يا قوم، اعبدُوا الله فأفردوا له العبادةَ، ولا تجعلوا معه إلهاً غيره، فإنه ليس لكم إلهٌ غيره. «أفلا تتقون»، رَبَّكم فَتَحْذَرُونَهُ، وتَخافونَ عقابه بعبادتكم غيره، وهو خالِقُكُم ورازقكم دونَ كُلٍّ ما سواه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ

بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه مُخْبِراً عما أجاب هوداً به قومُه الذين كفروا بالله: «قال الملأ الذين كفروا»، يعني: الذين جحدوا توحيدَ الله وأنكروا رسالةَ الله هوداً إليهم. «إنَّا لنراكَ»، يا هودُ «في سفاهةٍ»، يعنون: في ضلالةٍ عن الحَقِّ والصوابِ بتركك دِينَنا وعبادةَ آلهتنا. «وإنَّا لنظنُّكَ من الكاذبينَ»، في قِيلكَ: «إنِّي رسولٌ من رب العالمين» قال: «يا قومِ ليس بي سَفاهةٌ»، يقول: أي ضلالةٌ عن الحَقِّ والصواب. «ولكني رسولٌ من رَبِّ العالمين»، أرسلني، فأنا أُبَلِّغُكم رسالاتِ ربي، وأُؤَدِّيها إليكم كما أمرني أنْ أؤدِّيَها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

يعني بقوله: «أبلغكم رسالاتِ ربِّي»، أؤدي ذلك إليكم، أيها القومُ. «وأنا لكم ناصحٌ»، يقول: وأنا لكم في أمري إياكم بعبادةِ الله دونَ ما سِواهُ من الأندادِ والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصحٌ، فاقبلوا نصيحتي، فإني أمينٌ على وحي الله، وعلى ما ائْتَمَنَنِي اللهُ عليه من الرسالةِ، لا أكذبُ فيه ولا أزيدُ ولا أبدِّلُ، بل أُبَلِّغُ ما أُمِرت كما أُمرتُ. «أوَ عجبتم أنْ جاءكم ذِكْرٌ من رَبِّكم على رجلٍ منكم لينذركم»، يقول: أو عجبتم أنْ أنزلَ الله وَحْيَهُ بتذكِيركُمْ وعِظَتِكُمْ على ما أنتم عليه مُقيمونَ من الضلالة، على رجلٍ منكم لينذركم بأسَ الله ويُخَوِّفَكُمْ عِقابه. «واذكروا إذْ جعلكم خُلفاءَ من بعدِ قومِ نوحٍ»، يقول: فاتقوا الله في أنفسكم، واذكروا ما حَلَّ بقومِ نوحٍ

من العذابِ إذْ عَصَوْا رسولهم، وكفروا بربهم، فإنكم إنما جعلكم رَبُّكم خلفاءَ في الأرضِ منهم لَمَّا أهلكهم أبدلكم منهم فيها، فاتقوا الله أنْ يحلَّ بكم نظير ما حَلَّ بهم من العقوبةِ، فَيُهْلِككم ويبدل منكم غيركم، سنَّته في قوم نوحٍ قَبْلَكم، على معصيتكم إياهُ وكفركم به. «وزادكم في الخَلْقِ بَسْطةً»، زاد في أجسامكم طولاً وعِظَماً على أجسامِ قومِ نوحٍ، وفي قُواكُمْ على قواهم، نعمةً منه بذلك عليكم، فاذكروا نِعَمَهُ وفضله الذي فَضَّلكم به عليهم في أجسامِكم وقُوَاكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاصِ العبادةِ له، وترك الإشراك به، وهجرِ الأوثانِ والأندادِ. «لعلكم تفلحون»، يقول: كي تُفْلِحُوا فتدركوا الخلودَ والبقاءَ في النعيمِ في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قالَتْ عادٌ له: أَجِئْتَنَا تَتوعَّدُنَا بالعقابِ من الله على ما نحنُ عليه من الدين، كي نعبدَ الله وحده، ونَدينَ له بالطاعةِ خالصاً، ونهجرَ عبادةَ الألهةِ والأصنامِ التي كان آباؤنا يعبدونها، ونتبرَّأ منها؟ فلسنا فاعِلي ذلك، ولا نحنُ مُتَّبِعُوكَ على ما تَدْعُونَا إليه، فائتِنَا بما تَعِدُنَا من العقابِ والعذابِ على تَرْكِنَا إخلاصَ التوحيدِ لله، وعبادتنا ما نعبدُ من دونه من الأوثان، إنْ كنتَ من أهلِ الصدق على ما تقول وتَعِدُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال هودٌ لقومه: قد حَلَّ بكم عذَابٌ وغضبٌ من الله.

وأما قوله: «أتجادلونني في أسماء سَمَّيتُموها أنتم وآباؤكم»، فإنه يقول: أتخاصمونني في أسماء سَمَّيتموها أصناماً، لا تَضُرُّ ولا تنفعُ. «أنتم وآباؤكم ما نَزَّلَ الله بها من سُلطان»، يقول: ما جَعَلَ اللهُ لكم في عبادَتِكم إياها من حجةٍ تحتجُّونَ بها، ولا معذرة تعتذرونَ بها، لأنَّ العبادةَ إنما هي لمن ضَرَّ ونفعَ، وأثابَ على الطاعةِ وعاقبَ على المعصية، ورزقَ ومنَع. فأما الجمادُ من الحجارةِ والحديد والنحاس، فإنه لا نَفْعَ فيه ولا ضرٌّ، إلا أنْ تتخذ منه آلةٌ، ولا حُجَّةَ لعابدٍ عَبَدَهُ من دونِ الله في عبادته إياه، لأنَّ الله لم يأذَنْ بذلك، فيعتذر مَنْ عَبَدَهُ بأنه يعبدهُ اتباعاً منه أمرَ الله في عبادته إياه. ولا هو - إذْ كان الله لم يأذَنْ في عبادته - مما يُرْجَى نفعه، أو يُخَافُ ضُرُّه، في عاجلٍ أو آجل، فَيُعْبَدَ رَجاءَ نفعهِ، أو دفعَ ضُرِّهِ - «فانتظروا إني معكم من المنتظرين»، يقول: فانتظروا حُكْمَ الله فينا وفيكم. «إني معكم من المنتظرين»، حُكْمَهُ وفصلَ قضائِه فينا وفيكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ٧٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأنجينا هوداً والذينَ معه من أتباعهِ على الإيمانِ به والتصديقِ به وبما دَعَا إليه، من توحيدِ الله، وهَجْرِ الآلهةِ والأوثان. «برحمةٍ مِنَّا وقطعنا دابرَ الذين كَذَّبُوا بآياتنا»، يقول: وأهلكنا الذين كذَّبُوا من قوم هودٍ بحججنا جميعاً عن آخِرِهم، فلم نُبْقِ منهم أحداً.

«وما كانوا مؤمنين»، يقول: لم يكونوا مُصَدِّقينَ بالله ولا برسولِه هود.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا إلى ثمودَ أَخاهُم صالحاً.

«قال يا قومِ اعبدوا اللهَ ما لكم من إلهٍ غيرُه»، يقول: قال صالح لثمود: يا قومِ اعبدوا اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، فما لكم إلهٌ يجوزُ لكم أنْ تعبدوه غيره، وقد جاءتكم حُجَّةٌ وبرهانٌ على صِدْقِ ما أقولُ، وحقيقةِ ما إليهِ أدعو، من إخلاصِ التوحيدِ لله، وإفرادِه بالعبادةِ دونَ ما سِواهُ، وتصديقي على أني له رسولٌ. وبَيِّنتي على ما أقولُ وحقيقة ما جِئْتُكم به من عند ربي، وحجتي عليه، هذه الناقةُ التي أخرجَها الله من هذه الهَضْبة، دليلاً على نُبُوَّتي وصِدْقِ مقالتي، فقد عَلِمْتُمْ أنَّ ذلك من المعجزاتِ التي لا يقدرُ على مِثْلِها أحدٌ إلا الله.

وإنما استشهدَ صالح، فيما بلغني، على صِحَّةِ نُبُوَّته عند قومِهِ ثمود بالناقةِ، لأنهم سألُوهُ إيَّاها آيةً ودلالةً على حقيقةِ قولِهِ.

وأما قوله: «ولا تَمَسُّوها بسوءٍ»، فإنه يقول: ولا تَمَسُّوا ناقةَ اللهِ بعقرٍ ولا نَحْرٍ. «فيأخذكم عذابٌ أليم»، يعني: موجع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيْلِ صالحٍ لقومِهِ، واعظاً لهم: واذكروا،

أيها القومُ، نعمةَ الله عليكم. «إذ جعلكم خلفاء»، يقول: تَخْلفونَ عاداً في الأرضِ بعد هلاكها.

وأما قوله: «وبوَّأكُم في الأرض»، فإنه يقول: وأنزلكم في الأرض، وجعلَ لكم فيها مساكنَ وأزواجاً. «تَتَّخِذُونَ من سهولها قُصوراً وتَنْحِتُونَ الجبالَ بيوتاً»، ذكر أنهم كانوا يَنْقُبونَ الصخرَ مساكن.

وقوله: «فاذكروا آلاءَ الله»، يقول: فاذكروا نعمةَ الله التي أنعم بها عليكم. «ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفسدينَ».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «قال الملأ الذين استكبروا من قومه»، قال: الجماعةُ الذين استكبروا من قومِ صالحٍ عن اتباعِ صالح والإيمانِ باللهِ وبه. «للذينَ استُضْعِفُوا»، يعني: لأهلِ المسكنةِ من تُبَّاعِ صالحٍ والمؤمنينَ به منهم، دونَ ذوي شرفهم وأهلِ السُّؤدد منهم. «أتعلمونَ أنَّ صالحاً مرسلٌ من ربه»، أرسلهُ اللهُ إلينا وإليكم، قال الذين آمنوا بصالح من المُستضعفينَ منهم: إنَّا بما أَرسلَ اللهُ به صالحاً من الحقِّ والهدى مؤمنونَ، يقول: مُصَدِّقُونَ مُقِرُّونَ أنه من عندِ الله، وأنَّ الله أمرَ به، وعن أمرِ الله دعانا صالحٌ إليه. «قال الذين استكبروا»، عن أمرِ الله وأمر رسولِه صالح ـ «إنَّا»، أيها القومُ، «بالذي آمنتم به»، يقول: صَدَّقْتُمْ به من نُبُوَّةِ صالح، وأنَّ الذي جاء به حَقٌّ من عند الله. «كافرون»، يقول: جَاحدونَ مُنْكِرُونَ، لا نُصَدِّقُ به ولا نُقِرُّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فَعقرتْ ثمودُ الناقةَ التي جعلها الله لهم آيةً. «وعَتَوْا عن أمرِ رَبِّهم»، يقول: تَكَبَّرُوا وتَجَبَّرُوا عن اتباعِ الله، واستعلوا من عذابِ الله ونقمته، استعجالاً منهم للعذاب. «إنْ كنتَ من المرسلين»، يقول: إنْ كنتَ لله رسولاً إلينا، فإنَّ الله ينصرُ رُسُلَهُ على أعدائه، فعجَّلَ ذلك لهم كما استعجلوه، يقول جَلَّ ثناؤه: «فأخذتهم الرجفةُ فأصْبَحُوا في دارِهم جاثمين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأخذتِ الذين عَقَرُوا الناقةَ من ثمود «الرجفةُ»، وهي الصيحةُ.

وقوله: «فأصبحوا في دارهم جاثمين»، يقول: فأصبحَ الذين أهلكَ اللهُ من ثمود -. «في دارهم»، يعني في أرضهم التي هَلَكُوا فيها وبلدتهم.

وقوله: «جاثمين» يعني: سُقوطاً صَرْعَى لا يتحركون، لأنهم لا أرواحَ فيهم، قد هلكوا. والعرب تقول للبارِكِ على الركبة: «جاثم».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأدبرَ صالحُ عنهم حينَ استعجلوه العذابَ وعقروا ناقة

الله، خارجاً عن أرضِهم من بين أظهُرِهم، لأنَّ الله تعالى ذِكْرُه أوحَى إليه: إنِّي مُهْلِكُهم بعد ثالثة.

وقيل: إنه لم تهلك أمةٌ ونبيُّها بين أظهُرِها[1].

فأخبرَ الله جَلَّ ثناؤُهُ عن خروجِ صالح من بين قومِهِ الذين عَتَوْا على رَبِّهم حين أرادَ الله إحلالَ عقوبتِهِ بهم، فقال: «فتولَّى عنهم» صالح ـ وقال لقومه ثمود. «لقد أبلغتكُمْ رسالةَ ربي»، وأدَّيْتُ إليكم ما أمرني بأدائهِ إليكم ربِّي من أمرِهِ ونهيِهِ. «ونصحتُ لكم»، في أدائي رسالةَ اللهِ إليكم، في تحذيركم بأسَهُ بإقامتِكم على كُفْرِكُمْ به وعبادَتِكم الأوثانَ. «ولكنْ لا تُحبونَ الناصحينَ»، لكم في الله، الناهينَ لكم عن اتباعِ أهوائِكم، الصادِّينَ لكم عن شهواتِ أنفسكم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد أرسلنا لوطاً.

ولو قيل: معناه: واذكُرْ لوطاً، يا محمدُ، «إذْ قال لقومِهِ» إذ لم يكن في الكلام صلة «الرسالة»، كما كان في ذِكْرِ عادٍ وثمود ـ كان مذهباً.

وقوله: «إذ قال لقومه»، يقول: حين قال لقومِهِ من سَدُوم، وإليهم كان أُرسلَ لوطٌ. «أتأتونَ الفاحشةَ»، وكانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها، التي عاقبهم اللهُ عليها، إتيانَ الذكورِ. «ما سَبَقَكُمْ بها من أحدٍ من العالمين»، يقول: ما سبقكم بفِعْلِ هذه الفاحشةِ أحدٌ من العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ

(١) أنظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٨٥.

ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يخبر بذلك تعالى ذِكْرُه عن لوطٍ أنه قال لقومه، توبيخاً منه لهم على فِعْلِهم: إنكم، أيها القومُ، لتأتونَ الرجالَ في أدبارهم، شهوةً منكم لذلك، من دونِ الذي أباحهُ اللهُ لكم وأحَلَّهُ من النساء. «بل أنتم قوم مسرفون»، يقول: إنكم لقومٌ تأتونَ ما حَرَّمَ اللهُ عليكم، وتعصونه بفِعْلِكُمْ هذا.

وذلك هو «الإسراف»، في هذا الموضع

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وما كان جواب قوم لُوطٍ لِلُوطٍ، إذْ وَبَّخَهُم على فِعْلهم القبيح، ورُكوبهم ما حَرَّمَ اللهُ عليهم من العملِ الخبيثِ، إلا أنْ قال بعضُهم لبعضٍ: أخرجوا لوطاً وأهله ـ ولذلك قيل: «أخرجوهم»، فجمع، وقد جرى قَبْلُ ذِكْرُ «لوط» وحدَهُ دونَ غيره.

وقد يحتمل أنْ يكونَ إنما جمع بمعنى؛ أخْرِجُوا لوطاً ومَنْ كان معه على دِينهِ من قريتكم ـ فاكتفى بذكر «لوطٍ» في أولِ الكلامِ عن ذِكْرِ أتباعِه، ثم جمع في آخر الكلام كما قيل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، [الطلاق: ١].

«إنهم أناسٌ يتطهرون»، يقول: إنَّ لوطاً ومَنْ تَبِعَهُ، أناسٌ يَتَنَزَّهُونَ عَمَّا نفعله نحنُ من إتيانِ الرجالِ في الأدبار.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما أبى قومُ لوط - مع توبيخِ لوطٍ إياهم على ما يأتونَ من الفاحشة، وإبلاغه إياهم رسالةَ رَبِّه بتحريمِ ذلك عليهم - إلَّا التمادي في غيِّهم، أنجينا لوطاً وأهلَهُ المؤمنينَ به، إلَّا امرأتَهُ، فإنها كانت للوطٍ خائنةً، وبالله كافرةً.

وقوله: «من الغابرينَ»، يقول: من الباقينَ.

فإنْ قال قائلٌ: فكانت امرأةُ لوط مِمَّنْ نجا من الهلاك الذي هَلَكَ به قومُ لوط؟

قيل: لا، بل كانتْ فيمَنْ هلك.

فإن قال: فكيف قيل: «إلا امرأته كانتْ من الغابرين»، وقد قلت إنَّ معنى «الغابر»، الباقي؟ فقد وَجَبَ أنْ تكونَ قد بقيت؟

قيل: إنَّ معنى ذلك غير الذي ذهبتَ إليه، وإنما عَنَى بذلك، إلا امرأته كانت من الباقينَ قبلَ الهلاكِ، والمعمَّرينَ الذين قد أتى عليهم دَهْرٌ كبيرٌ، ومَرَّ بهم زمنٌ كثيرٌ، حتى هَرِمَتْ فيمن هَرِمَ من النـاس، فكانت مِمَّنْ غبرَ الدهرَ الطويلَ قبل هلاكِ القوم، فهلكتْ مع مَنْ هلك من قومِ لوط حين جاءهم العذاب.

وقيل: معنى ذلك: من الباقينَ في عذابِ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأمطرنا على قومِ لوطٍ الذينَ كَذَّبُوا لوطاً ولم يؤمنوا به، مَطَراً من حجـارةٍ من سِجِّيلٍ أهلكنـاهم به. «فـانْظُرْ كيف كان عاقبـةُ

المجرمينَ»، يقول جَلَّ ثناؤه: فانظر، يا محمدُ، إلى عاقبةِ هؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله من قومِ لوط، فاجترموا معاصيَ الله، وركبوا الفواحشَ، واستحلُّوا ما حَرَّمَ اللهُ من أدبارِ الرجال، كيف كانت؟ وإلى أيِّ شيءٍ صارت؟ هل كانت إلَّا البوار والهلاك؟ فإنَّ ذلك أو نظيرَهُ من العقوبة، عاقبةُ مَنْ كَذَّبكَ واستكبر عن الإيمانِ بالله وتصديقك إنْ لم يتوبوا، من قومك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(يعني): ولقد أرسلنا إلى ولدِ مَدْيَنَ، أخاهُم شعيبَ بنَ ميكيل، يَدْعُوهم إلى طاعةِ الله، والانتهاءِ إلى أمرِه، وتركِ السعي في الأرضِ بالفسادِ، والصدِّ عن سبيله، فقال لهم شعيب: يا قومِ، اعبدُوا اللهَ وحدَهُ لا شريكَ له، ما لكم من إلهٍ يستوجبُ عليكم العبادةَ غير الإلهِ الذي خلقكم، وبيده نَفْعُكم وضركم. «قد جاءتكم بَيِّنَةٌ من ربكم»، يقول: قد جاءتكم علامةٌ وحجةٌ من اللهِ بحقيقةِ ما أقولُ، وصِدْقِ ما أدعُوكم إليه. «فأوفُوا الكيلَ والميزان»، يقول: أَتِمُّوا للناسِ حقوقَهم بالكيلِ الذي تكيلون به، وبالوزنِ الذي تَزِنُونَ به. «ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهُم»، يقول: ولا تظلموا الناسَ حقوقَهم، ولا تنقصوهم إياها.

وقوله: «ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها»، يقول: ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه، وما كنتم تعملونه قبل أنْ يبعثَ الله إليكم نبيه، من عبادةِ غيرِ الله، والإشراكِ به، وبَخْسِ الناسِ في الكيلِ والوزن. «بعد إصلاحها»، يقول بعدَ أنْ قد أصلحَ اللهُ الأرضَ بابتعاثِ النبيِّ عليه السلام فيكم، يَنهاكُمْ

عَمَّا لا يحلُّ لكم، وما يكرهه الله لكم. «ذلكم خيرٌ لكم»، يقول: هذا الذي ذكرتُ لكم وأمرتكم به، من إخلاصِ العبادةِ لله وحدَهُ لا شريكَ له، وإيفاءِ الناسِ حقوقَهم من الكيلِ والوزنِ، وتركِ الفسادِ في الأرضِ، خيرٌ لكم في عاجلِ دنياكم وآجلِ آخرتكم عند الله يوم القيامة. «إنْ كنتم مؤمنين»، إنْ كنتم مُصدِّقِيَّ فيما أقولُ لكم، وأؤدِّي إليكم عن الله من أمره ونهيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوٓا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يعني بقوله: «ولا تقعدُوا بكل صِراطٍ تُوعِدُون»، ولا تجلسوا بكلِّ طريقٍ - وهو «الصراط» - تُوعِدُونَ المؤمنينَ بالقتل.

وكانوا، فيما ذُكِرَ، يقعدونَ على طريق مَنْ قَصَدَ شُعيباً وأراده ليؤمنَ به، فيتوعَّدُونَهُ ويُخَوِّفُونَهُ، ويقولون: إنه كَذَّاب!

وأما قوله: «وتَصُدُّونَ عن سبيلِ الله مَنْ آمَنَ به»، فإنه يقول: وتردُّون عن طريقِ الله، وهو الردُّ عن الإيمانِ بالله والعمل بطاعته. «مَنْ آمَنَ به»، يقول: تَرُدُّونَ عن طريقِ الله مَنْ صَدَّقَ بالله ووحَّـدَهُ. «وتبغـونهـا عوجـاً»، يقـول: وتلتمسون لِمَنْ سلكَ سبيلَ الله وآمنَ به وعملَ بطاعتهِ. «عِوَجاً». عن القصد والحق، إلى الزيغ والضلال.

وقوله: «واذكروا إذْ كنتم قليلاً فَكَثَّرَكُم»، يُذَكِّرُهم شعيب نعمةَ الله عندهم بأنْ كَثَّرَ جماعتهم بعد أن كانوا قليلاً عددهم، وأنْ رَفَعهم من الذلَّةِ والخساسةِ، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعمَ عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقـوبتَهُ بالطاعة، واحذروا نقمته بترك المعصية، - «وانظروا كيف كان عاقبةُ

المفسدينَ»، يقول: وانظروا ما نزلَ بِمَنْ كان قَبْلَكم من الأمم حين عَتَوْا على رَبِّهم وعَصَوا رسُلَهُ، من المَثُلاتِ والنقماتِ، وكيف وجدوا عُقْبَى عصيانهم! إياه؟ ألم يُهلك بعضَهم غَرَقاً بالطوفانِ، وبعضهم رجماً بالحجارة، وبعضهم بالصيحة؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

يعني بقوله تعالى ذِكْرُهُ: «وإنْ كان طائفة منكم»، وإنْ كانت جماعةَ منكم وفرقة. «آمنوا»، يقول: صَدَّقُوا بالذي أُرسلتُ به من إخلاصِ العبادةِ لله، وتركِ معاصيهِ، وظلم الناس، وبخسهم في المكاييل والموازين، فاتَّبعوني على ذلك. «وطائفةٌ لم يؤمنوا»، يقول: وجماعة أخرى لم يُصَدِّقُوا بذلك ولم يتبعوني عليه. «فاصبروا حتى يحكمَ اللهُ بيننا»، يقول: فاحتبسوا على قضاء الله الفاصلِ بيننا وبينكم. «وهو خيرُ الحاكمينَ»، يقول: والله خيرُ مَنْ يفصلُ وأعدلُ مَنْ يقضي، لأنه لا يقعُ في حُكْمِه مَيْلٌ إلى أحدٍ، ولا محاباةٌ لأحدٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قال الملأُ الذين استكبروا»، يعني بالملأ، الجماعة من الرجال، ويعني بالذين استكبروا، الذين تكبروا عن الإيمانِ بالله، والانتهاءِ إلى أمرِه، واتباعِ رسوله شعيب، لما حَذَّرهم شعيبٌ بأسَ الله، على خِلافِهم أمرَ رَبِّهم، وكفرهم به. «لَنُخرِجَنَّكَ يا شعيبُ»، ومَنْ تَبِعَكَ وصَدَّقَكَ وآمَنَ بك

وبما جئتَ به معك. «من قريتنا أو لتعودُنَّ في ملتنا»، يقول: لترجعن أنتَ وهُمْ في دِيننا وما نحنُ عليه. قال شعيب مجيباً لهم: «أَوَ لَوْ كُنَّا كارهين».

ومعنى الكلام: أنَّ شعيباً قال لقومه: أَتُخْرِجُونَنَا من قريتكم، وتَصُدُّونَنَا عن سبيلِ الله، ولو كُنَّا كارهينَ لذلك؟ ـ ثم أدخلت «ألف» الاستفهام على «واو» «ولو».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

يقـول جَلَّ ثنـاؤه: قال شعيب لقـومـهِ إذ دَعَوْهُ إلى العَوْدِ إلى مِلَّتِهم، والدخول فيها، وتوعَّدُوه بطردِه ومَنْ تَبِعَهُ من قريتهم إنْ لم يفعلْ ذلك هو وهم: «قد افترينا على الله كَذِباً»، يقول: قد اختلقنا على الله كذباً، وتَخَرَّصْنَا عليه من القولِ باطلاً ـ إنْ نحنُ عُدْنَا في ملتكم، فرجعنا فيها بعد إذْ أنقذنا اللهُ منها، بأنْ بَصَّرنَا خطأها وصوابَ الهدى الذي نحنُ عليه ـ وما يكونُ لنا أنْ نرجعَ فيها فندينَ بها، ونتركَ الحَقَّ الذي نحنُ عليه. «إلا أنْ يشاء الله ربنا»، إلا أنْ يكونَ سَبَقَ لنا في عِلْمِ الله أنَّا نعودُ فيها، فيمضي فينا حينئذٍ قضاءُ الله، فينفذ مشيئته علينا. «وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شيءٍ علماً»، يقول: فإنَّ عِلْمَ رَبِّنَا وسعَ كُلَّ شيءٍ فأحاطَ به، فلا يخفى عليه شيءٌ كان، ولا شيء هو كائن. فإنْ يَكُنْ سَبَقَ لنا في علمه أنَّا نعودُ في مِلَّتكم، ولا يخفى عليه شيءٌ كان ولا شيء هو كائن، فلابد من أنْ يكون ما قد سبق في علمه، وإلاَّ فإنَّا غير عائدينَ في مِلَّتِكم.

وقوله: «على الله توكلنا»، يقول: على الله نعتمدُ في أمورنا، وإليه نستندُ فيما تَعِدُونَنَا به من شَرِّكم، أيها القومُ، فإنه الكافي مَنْ توكَّلَ عليه.

ثم فزع صلواتُ الله عليه إلى رَبِّــه بالـدعـاءِ على قومِـه إذْ أَيسَ من فَلاحِهم، وانقطع رجاؤه من إذعانِهم لله بالطاعةِ، والإقرارِ له بالرسالةِ، وخافَ على نفسه وعلى مَن اتَّبعهُ من مؤمني قومِه من فَسَقَتِهم العطبَ والهلكةَ بتعجيلِ النقمـةِ، فقال: «ربَّنا افتحْ بيننا وبين قومنا بالحق»، يقول احكم بيننا وبينهم بحُكْمِكَ الحقِّ الـذي لا جورَ فيه ولا حَيْفَ ولا ظُلْمَ، ولكنه عَدْلٌ وحق. «وأنت خيرُ الفاتحين»، يعني: خير الحاكمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝٩٠﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وقال الجماعةُ من كَفَرَةِ رجالِ قومِ شعيب - وهم «الملأ» - الذين جَحَدُوا آياتِ الله، وكَذَّبُوا رسولَهُ، وتمادوا في غيِّهم، لآخرينَ منهم: لَئِنْ أنتم اتَّبعتُم شُعَيباً على ما يقولُ، وأجبتموه إلى ما يَدْعُوكم إليه من توحيدِ الله، والانتهاءِ إلى أمرِه ونهيه، وأقررتم بنبوَّتِهِ. «إنكم إذاً لخاسرون»، يقول: لمغبونونَ في فِعْلِكم، وترككم مِلَّتكم التي أنتم عليها مُقيمونَ، إلى دِينه الذي يدعوكم إليه - وهالِكُون بذلك من فعلكم.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾

يقول: فأخذَتِ الذينَ كفروا من قومِ شعيبٍ، الرجفةُ. وقد بَيَّنْتُ معنى «الرجفة» قَبْلُ، وأنها الزلزلةُ المحركةُ لعذابِ الله.

«فأصبحوا في دارهم جاثمين»، على رُكَبِهم، مَوْتى هَلْكى.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فأهلكَ الذين كَذَّبُوا شُعيباً فلم يؤمنوا به، فأبادَهم، فصارتْ قريتُهم منهم خاويةً خلاءً. «كأنْ لم يَغْنَوْا فيها»، يقول: كأنْ لم ينزلوا قَطُّ ولم يعيشوا بها حِينَ هَلَكُوا.

وقوله: «الذين كَذَّبُوا شعيباً كانوا هم الخاسرينَ»، يقول تعالى ذِكْرُه: لم يكن الذين اتَّبعُوا شُعيباً الخاسرينَ، بل الذين كَذَّبُوهُ كانوا هم الخاسرينَ الهالكين. لأنه أخبرَ عنهم جَلَّ ثناؤُهُ: أنَّ الذين كَذَّبُوا شعيباً قالوا للذين أرادُوا اتِّباعَهُ: «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون»، فكذَّبهم الله بما أَحَلَّ بهم من عاجلِ نَكاله، ثم قال لنبيه محمدٍ ﷺ: ما خسر تُبَّاعُ شعيب، بل كانَ الذين كذبوا شعيباً لما جاءتْ عقوبةُ الله، هم الخاسرينَ، دونَ الذينَ صَدَّقُوا وآمنوا به.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

فأدبرَ شعيب عنهم، شاخصاً من بين أَظْهُرِهم حين أتاهم عذابُ الله، وقال لما أيقن بنزولِ نقمةِ اللهِ بقومِهِ الذين كَذَّبُوه، حزناً عليهم: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي»، وأَدَّيْتُ إليكم ما بعثني به إليكم، من تحذيرِكُمْ غَضَبَهُ على إقامتكم على الكفرِ به، وظلم الناسِ أشياءهم. «ونصحتُ لكم»، بأمري

إياكم بطاعةِ الله، ونهيكم عن معصيته. «فكيفَ آسَى»، يقول: فكيف أحزنُ على قومٍ جَحَدُوا وحدانيةَ الله وكَذَّبُوا رسوله، وأتوجَّع لهَلاكهم؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ، معرِّفَهُ سُنَّتَهُ في الأمم التي قد خَلَتْ من قبل أمتِه، ومُذَكِّرَ مَنْ كفرَ به من قريش، لينزجروا عما كانوا عليه مقيمينَ من الشركِ بالله، والتكذيبِ لنبيه محمدٍ ﷺ: «وما أرسلنا في قرية من نبي»، قَبْلَكَ. «إلَّا أخذنا أهلَهَا بالبأساءِ والضراءِ»، وهو البؤسُ وشَظَفُ المعيشةِ وضِيقُهَا، و«الضراء»، وهي الضُّرُّ وسوءُ الحالِ في أسبابِ دُنياهم. «لعلهم يَضَّرَّعُونَ»، يقول: فعلنا ذلك ليتضرَّعُوا إلى رَبِّهم، ويستكينوا إليه، وينيبوا، بالإقلاعِ عن كُفْرِهم، والتوبةِ من تكذيبِ أنبيائِهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ثم بَدَّلْنَا»، أهلَ القرية التي أخذنا أهْلَها بالبأساءِ والضراء. «مكانَ السيئة»، وهي البأساء والضراء - وإنما جعلَ ذلك سيئة، لأنه مِمَّا يسوء الناس - ولا تسوؤهم «الحَسَنَة»، وهي الرخاءُ والنعمةُ والسَّعَةُ في المعيشة. «حتى عَفَوْا»، يقول: حتى كَثُرُوا.

وأما قوله: «وقالوا قد مَسَّ آباءَنَا الضَّراءُ والسراء»، فإنه خبرٌ من الله عن هؤلاء القومِ الذين أبدلهم مكانَ الحسنةِ السيئةَ التي كانوا فيها، استدراجاً

وابتلاءً، أنهم قالوا إذْ فعل ذلك بهم: هذه أحوالٌ قد أصابتْ مَنْ قَبْلَنا من آبائنا، ونالتْ أسلافَنا، ونحنُ لا نعدُو أن نكونَ أمثالَهم يصيبنا ما أصابَهُمْ من الشدةِ في المعايشِ والرخاء فيها - وهي «السراء»، لأنها تَسُرُّ أهلَها.

وجهل المساكينُ شكرَ نعمةِ الله، وأغفلوا من جهلهم استدامةَ فَضْلهِ بالإنابةِ إلى طاعتهِ، والمسارعةِ إلى الإقلاعِ عما يكرهُهُ بالتوبةِ، حتى أتاهم أمرُه وهُمْ لا يشعرون.

يقول جَلَّ جلاله: «فأخذناهُم بَغْتَةً وهم لا يشعرون»، يقول: فأخذناهم بالهلاكِ والعذابِ فجأةً، أتاهم على غِرّةٍ منهم بمجيئِهِ، وهم لا يَدْرُونَ ولا يعلمون أنّه يجيئهم، بل هُمْ بأنه آتِيهِمْ مُكَذِّبُونَ حتى يُعَايِنُوه ويَرَوه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

[(١)]يعني: ولو أنَّ أهلَ القرى الذين كَذَّبُوا فأهلكوا آمنوا واتقوا الشِّرْكَ فكان ارتكابه «لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض»، يقول: لأتاهُم الغيثُ من السماء، والنباتُ من الأرض، وجعل ذلك زاكياً كثيراً. «ولكنْ كَذَّبوا» الله ورسوله. «فأخذناهم بما كانوا يكسبون»، يعني: بكفرهم وسوءِ كَسْبِهم.

---

(١) سقط تفسير الآيات الثلاث من المخطوط والمطبوعات، وهو كما استرجح العلامة محمود شاكر نقصٌ قديم. وقد وضعنا بين قوسين تفسيراً مختصراً صنفناه من معاني القرآن للزجاج: ٢/٣٦٠، وتفسير النسفي: ٢/٦٦ وغيرهما، لئلا يبقى خالياً من تفسير.

وقوله «أَفَأَمِنَ أهلُ القرى أنْ يأتيهم بأسُنَا بياتاً وهم نائمون» يعني: أَفَأَمِنَتِ الأمةُ التي كَذَّبت الله ورسولَهُ أنْ يأتيهم عذابنا ليلاً وهم نائمون. «أو ضُحى وهم يلعبون»، يقول: نهاراً وهم في غيرِ ما يُجدي عليهم مشغولون).

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٩٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أفأَمِنَ، يا محمدُ، هؤلاء الذين يُكَذِّبُونَ اللهَ ورسولَهُ، ويجحُدونَ آياتهِ، استدراجَ اللهِ إيَّاهُمْ بما أنعم به عليهم في دنياهم من صِحَّةِ الأبدان ورخاءِ العيش، كما استدرجَ الذين قَصَّ عليهم قصَصهم من الأممِ قَبْلَهم، فإنَّ مَكْرَ الله لا يأمنه، يقول: لا يأمَنُ من ذلك أنْ يكونَ استدراجاً، مع مقامِهم على كُفْرِهم، وإصرارِهم على معصيتهم. «إلا القومُ الخاسرون»، وهم الهالكون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠﴾

يقول: أوَ لَمْ يَبِنْ للَّذين يُسْتخلفون في الأرض بعد هلاكِ آخرينَ قَبْلَهُمْ كانُوا أهلَها، فساروا سِيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعَتَوْا عن أمرِ رَبِّهم. «أنْ لو نشاءُ أصبناهم بذنوبهم»، يقول: أنْ لو نشاءُ فَعَلْنَا بهم كما فعلنا بِمَنْ قبلَهم، فأخذناهم بذنوبِهم، وعَجَّلْنَا لهم بأسَنا كما عَجَّلناهُ لِمَنْ كان قَبْلَهم ممن وَرِثُوا عنه الأرضَ، فأهلكناهم بذنوبهم. «ونطبعُ على قلوبهم»، يقول: ونختمُ على قلوبِهم. «فهم لا يسمعون»، موعظةً ولا تذكيراً، سماعَ مُنْتَفعٍ بهما.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذه القرى التي ذكرتُ لكَ، يا محمدُ، أمْرَها وأمْرَ أهلِهَا - يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب. «نَقُصُّ عليكَ من أنبائها»، فنخبركَ عنها وعن أخبارِ أهلها، وما كانَ من أمْرِهم وأمرِ رُسلِ الله التي أرسلتُ إليهم، لتعلمَ أنا ننصرُ رُسُلَنا والذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا على أعدائنا وأهلِ الكفرِ بنا، ويعلمَ مُكَذِّبُوكَ من قومكَ ما عاقبةُ أمرِ مَنْ كَذَّبَ رُسُلَ الله، فيرتدعوا عن تكذيبكَ، ويُنِيبُوا إلى توحيدِ الله وطاعته. «ولقد جاءتهم رُسُلُهم بالبيناتِ»، يقول: ولقد جاءتْ أهلَ القرى التي قصصتُ عليك نبأها، «رسلهم بالبينات»، يعني بالحجج البَيِّناتِ. «فما كانوا ليؤمنوا بما كَذَّبُوا من قَبْلُ»، يقول: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل، بما سبقَ في عِلْمِ الله أنهم يكذبون به يومَ أخرجهم من صلب آدمَ عليه السلام.

وأما قوله: «كذلك يطبعُ اللهُ على قلوبِ الكافرينَ»، فإنه يقول تعالى ذِكْرُه: كما طبعَ الله على قلوبِ هؤلاء الذين كفروا بربِّهم وعصوا رُسُله من هذه الأمم التي قَصَصْنَا عليكَ نبأهم، يا محمدُ، في هذه السورة، حتى جاءهم بأسُ الله فهلكوا به. «كذلك يطبعُ الله على قلوبِ الكافرينَ»، الذين كتب عليهم أنهم لا يؤمنون أبداً من قومك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ولم نَجِـدْ لأكثرِ أهلِ هذه القرى التي أهلكناها واقْتَصَصْنَا عليكَ، يا محمدُ، نبأَهَا «من عهدٍ»، يقول: من وفاءٍ بما وَصَّيْنَاهُمْ به، من توحيدِ الله، واتِّباعِ رسله، والعَملِ بطاعتِه، واجتنابِ معاصيه، وهجرِ عبادةِ الأوثانِ والأصنام.

«وإنْ وجـدنـا أكثرهم»، يقول: وما وجدنا أكثرهم إلا فَسَقَةً عن طاعةِ رَبِّهم، تاركينَ عهدَهُ ووصيته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ثم بعثنا من بعدِ نوحٍ وهود وصالح ولوط وشعيب، موسى بن عِمْرانَ.

«بآياتنا» يقول: بحُجَجِنَا وأدلَّتنا. «إلى فرعونَ ومَلَئِه»، يعني: إلى جماعةِ فرعونَ من الرجالِ. «فظلموا بها»، يقول: فكفروا بها.

ومعنى ذلك: فظلموا بآياتنا التي بعثنا بها موسى إليهم، وإنما جاز أنْ يقالَ: «فظلموا بها»، بمعنى: كَفَرُوا بها، لأنَّ الظلم وَضْعُ الشيءِ في غيرِ موضعه.

والكفـرُ بآياتِ الله، وَضْـعٌ لها في غيرِ موضعها، وصَرْفٌ لها إلى غيرِ وجهها الذي عُنِيت به. «فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المفسدين»، يقول جَلَّ ثناؤه لنبيه محمدٍ ﷺ: فانظر، يا محمدُ، بعينِ قلبكَ، كيف كان عاقبةُ هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض؟ - يعني فرعون وملأه، إذْ ظلموا بآياتِ الله التي جاءهم بها موسى عليه السلام، وكان عاقبتهم أنهم أُغْرِقُوا جميعاً في البحر.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: وقال موسى لفرعون: يا فرعون إنِّي رسولٌ من رَبِّ العالمين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٠٦﴾

اختلفت القَرَأَةُ في قراءةِ قوله: «حقيقٌ على أنْ لا أقولَ على اللهِ إلَّا الحَقَّ».

فقرأه جماعةٌ من قَرَأَةِ المكيين والمدنيين والبصرة والكوفة: ﴿حَقِيقٌ عَلَى أنْ لَا أَقُولَ﴾، بإرسالِ «الياء» من «على»، وترك تشديدها، بمعنى: أنا حقيقٌ بأنْ لا أقولَ على الله إلا الحق - فوجهوا معنى «على» إلى معنى «الباء» كما يقال: «رميتُ بالقوس» و«على القوس» - و«جئتُ على حالٍ حسنة» و«بحال حسنة»[(١)].

وكان بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العرب يقول: إذا قرىء ذلك كذلك، فمعناه: حريصٌ على أنْ لا أقولَ، أو: فحق أنْ لا أقولَ[(٢)].

وقرأ ذلك جماعة من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ ألَّا أقُولَ﴾، بمعنى: واجبٌ عليَّ أن لا أقولَ، وحق عليَّ أنْ لا أقول.

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٨٦.
(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/٢٢٤.

والصوابُ من القول في ذلك أنهما قراءتان مشهورتان متقاربتا المعنى، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمةٌ من القَرَأةِ، فبأيَّتِهِمَا قرأ القارئُ فمصيبٌ في قراءته الصوابَ.

وقوله: «قد جئتكم ببيِّنةٍ من ربِّكم»، يقول: قال موسى لفرعونَ ومَلَئِه: قد جئتكم ببرهانٍ من ربِّكم، يشهدُ، أيها القومُ، على صِحَّةِ ما أقولُ، وصِدْقِ ما أذكرُ لكم من إرسالِ الله إيايَ إليكم رَسولًا، فأرسِلْ يا فرعونُ معي بني إسرائيلَ. فقال له فرعونُ: «إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ»، يقول: بحجةٍ وعلامةٍ شاهدةٍ على صِدْقِ ما تقولُ. «فأْتِ بها إنْ كنتَ من الصادقين».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤُه: فألقى موسى عَصَاهُ. «فإذا هي ثعبانٌ مبين»، يعني حية. «مبين»، يقول: تَتَبيَّنُ لمن يراها أنها حيةٌ.

وأما قوله: «ونزَع يده فإذا هي بيضاء للناظرين»، فإنه يقول: وأخرجَ يده، فإذا هي بيضاء تلوحُ لمن نظرَ إليها من الناس.

وكان موسى، فيما ذُكِرَ لنا، آدمَ[١]، فجعل الله تَحوُّلَ يدهِ بيضاءَ من غير بَرَصٍ، له آيةً، وعلى صِدْقِ قوله: «إني رسولٌ من رب العالمين»، حُجةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

(١) الآدم: الأسمر.

يقول تعالى ذِكْرُه: قالت الجماعةُ من رجالِ قومِ فرعونَ والأشراف منهم. «إنَّ هذا»، يَعْنُونَ موسى صلواتُ الله عليه. «لساحرٌ عليم»، يعنون أنه يأخذُ بأعينِ الناسِ بخداعهِ إياهم، حتى يُخَيل إليهم العصا حيّة، والآدم أبيض، والشيء بخلافِ ما هُوَ به.

وقوله: «عليم»، يقول: ساحرٌ عليمٌ بالسحر. «يريدُ أنْ يخرجكم من أرضكم»، أرضِ مصرَ، معشرَ القبطِ السحرة، وقال فرعونُ للملأ: «فماذا تأمرون»، يقول: فأي شيءٍ تأمرون أنْ نفعلَ في أمره؟ بأي شيءٍ تشيرون فيه؟

وقيل: «فماذا تأمرون»، والخبرُ بذلك عن فرعون، ولم يذكر فرعون، وقَلَّمَا يجيءُ مثل ذلك في الكلام، وذلك نظير قوله: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ* ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، [يوسف: ٥١، ٥٢]. فقيل: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب»، من قولِ يوسف، ولم يذكر يوسف، ومن ذلك أن يقول: «قلتُ لزيدٍ قُمْ، فإني قائم»، وهو يريدُ: «فقال زيد إنِّي قائم».

القَوْلُ فى تَأْويل قَوْلـه تَعـالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال الملأ من قومِ فرعونَ لفرعونَ: أرجئه، أي: أَخِّرْهُ.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة ذلك.

فقرأته عامة قرأة المدينة وبعض العراقيين: ﴿أرْجِهِ﴾ بغيرِ الهمزِ، وبجرِّ «الهاء».

وقرأه بعض قَرَأةِ الكوفيين: ﴿أَرْجِهْ﴾ بترك الهمز وتسكين «الهاء»، على لغةِ مَنْ يقف على الهاءِ في المكنيِّ في الوصل، إذا تحركَ ما قَبْلَها.

وقرأه بعض البصريين: ﴿أَرْجِئْهُ﴾ بالهمز وضم «الهاء»، على لغة قيس.

وأولى القراءات في ذلك بالصواب، أشهرها وأفصحها في كلام العرب، وذلك ترك الهمز وجرُّ «الهاء»، وإنْ كانت الأخرى جائزة، غير أن الذي اخترنا أفصح اللغات وأكثرها على ألسنِ فصحاءِ العرب.

وأما قوله: «وأرسل في المدائنِ حاشرين»، يقول: مَنْ يحشرُ السَّحَرَةَ فيجمعهم إليك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾

وهـذا خبـرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن مشورةِ الملأ من قومِ فرعونَ على فرعونَ، أنْ يرسلَ في المدائنِ حاشرينَ يحشرونَ كُلَّ ساحرٍ عليم.

وفي الكلام محذوف، اكتفى بدلالةِ الظاهر من إظهارِهِ، وهو: فأرسل في المدائن حاشرين، يحشرون السحرة.

«فجاء السحرةُ فرعونَ قالوا إنَّ لنا لأجراً»، يقول: إنَّ لنا لثواباً على غَلَبَتِنَا موسى عندكَ. «إنْ كنا»، يا فرعونُ، «نحن الغالبين».

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَـى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

يقول جَلَّ ثناؤه: قال فرعونُ للسحرةِ، إذ قالوا له: إنَّ لنا عندكَ ثواباً إنْ نحنُ غلبنا موسى؟ قال: نعم، لَكُمْ ذلكَ، وإنكم لَمِمَّنْ أُقَرِّبُه وأُدْنيه مني. «قالوا يا موسى»، يقول: قالتِ السحرةُ لموسى: يا موسى، اخترْ أنْ تُلْقِي عصاكَ، أو نُلقي نحنُ عِصِيَّنا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى للسحرةِ: أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُونَ! فالقتِ السحرةُ ما معهم، فلما ألقوا ذلك. «سَحَرُوا أعينَ الناس»، خَيَّلُوا إلى أعينِ الناسِ بما أحدثوا من التخييلِ والخُدَعِ أنها تسعى. «واسترهبوهم»، يقول: واسترهبوا الناسَ بما سحروا في أعينهم، حتى خافوا من العصيِّ والحبال، ظنًّا منهم أنها حَيَّات. «وجاؤوا»، كما قال اللهُ، «بسحرٍ عظيم»، بتخييلٍ عظيمٍ كبيرٍ من التخييلِ والخداع.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأوحينا إلى موسى أنْ ألقِ عصاكَ، فألقاها فإذا هي تلقمُ وتبتلعُ ما يسحرون كذباً وباطلاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فظهرَ الحَقُّ وتبين لمن شهده وحضره في أمرِ موسى، وأنه لله رسولٌ يدعو إلى الحق. «وبَطَلَ ما كانوا يعملون»، من إفْكِ السحرِ وكَذِبهِ ومخايله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فغلب موسى فرعونَ وجموعَهُ. «هنالك»، عندَ ذلك «وانقلبوا صاغرين»، يقول: وانصرفوا عن موطِنهم ذلك بصغَرٍ مقهورينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأُلقيَ السحرةُ عند ما عَاينُوا من عظيمِ قُدْرَةِ الله، ساقطينَ على وجوههم سُجَّداً لربهم، يقولون: «آمنا بربِّ العالمين»، يقولون: صَدَّقْنا بما جاءنا به موسى، وأنَّ الذي علينا عبادته، هو الذي يملكُ الجنَّ والإنسَ وجميعَ الأشياءِ، وغير ذلك، ويُدَبِّرُ ذلك كله. «رَبِّ موسى وهارون»، لا فرعونَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال فرعونُ للسحرةِ إذْ آمنوا بالله ـ يعني صَدَّقُوا رسولَهُ

موسى عليه السلام، لما عاينوا من عظيمِ قُدْرةِ الله وسلطانه: «آمنتم به»، يقول: أَصَدَّقْتُم بموسى وأقررتم بنبوَّته. «قبلَ أنْ آذَنَ لكم»، بالإيمانِ به. «إن هذا»، يقول: تَصْدِيقُكم إياهُ، وإقراركم بنبوَّته. «لمكرٌ مكرتمُوه في المدينة»، يقول: لخدعةٌ خَدَعتم بها مَنْ في مدينتنا، لِتُخْرِجُوهم منها. «فسوفَ تعلمون»، ما أفعلُ بكم، وما تَلْقَوْنَ من عقابي إياكم على صنيعكم هذا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مخبراً عن قِيْلِ فرعونَ للسحرةِ إذْ آمنوا بالله وصَدَّقُوا رسوله موسى: «لأُقَطِّعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خِلاف»، وذلك أنْ يقطعَ من أحدهم يَدَهُ اليمنى ورِجْلَهُ اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالفَ بين العضوين في القَطْع، فمخالفته في ذلك بينهما هو «القطعُ من خِلافٍ».

ويقال: إنَّ أوَّلَ مَنْ سَنَّ هذا القطعَ فرعون. «ثم لأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعينَ»، وإنما قال هذا فرعونُ، لما رأى من خذلانِ اللهِ إياهُ، وغَلَبَةِ موسى عليه السلام وقهره له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال السحرةُ مُجيبةً لفرعونَ، إذْ تَوَعَّدَهُمْ بقطعِ الأيدي

والأرجلِ من خِلاف، والصلب: «إنَّا إلى رَبِّنا منقلبون»، يعني بالانقلابِ إلى الله، الرجوع إليه والمصير. وقوله: «وما تَنْقِمُ مِنَّا إلَّا أنْ آمنا بآياتِ ربنا»، يقول ما تُنْكِرُ منا، يا فرعون، وما تَجِدُ علينا، إلَّا من أجلِ أنْ آمنا، أي صَدَّقْنَا. «بآياتِ ربنا»، يقول: بحججِ رَبِّنَا وأعلامِه وأدلتِه التي لا يقدرُ على مِثْلِهَا أنتَ ولا أحدٌ، سِوى الله الذي له ملكُ السمواتِ والأرض. ثم فزعوا إلى الله بمسألتهِ الصبرَ على عذابِ فرعونَ، و قبض أرواحِهم على الإسلام، فقالوا: «رَبَّنَا أفرِغْ علينا صبراً»، يعنون بقولهم: «أفرغ»، أَنْزِلْ علينا حَبْساً يَحْبِسُنَا عن الكفرِ بكَ، عند تعذيبِ فرعونَ إيَّانَا. «وتَوَفَّنَا مسلمين»، يقول: واقبضنا إليك على الإسلامِ دِينِ خليلكَ إبراهيم ﷺ، لا على الشِّرْكِ بِكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقالت جماعةُ رجالٍ من قومِ فرعونَ لفرعونَ: أَتَدَعُ موسى وقومَهُ من بني إسرائيل. «ليفسدوا في الأرض»، يقول: كي يفسدوا خَدَمَكَ وعبيدكَ عليكَ في أرضك من مصر. «ويَذَرَكَ وآلهتَكَ»، يقول: «ويذرك»، ويدع خِدْمتك موسى وعبادتَكَ وعبادَةَ آلهتك.

وفي قوله: «ويذرك وآلهتك»، وجهان من التأويل.

أحدهما: أَتَذَرُ موسى وقومَهُ ليفسدوا في الأرض، وقد تركَكَ وتركَ عبادتك وعبادةَ آلهتك ـ وإذا وُجِّه الكلامُ إلى هذا الوجهِ من التأويلِ، كان النصبُ في قوله: «ويذرك»، على الصرف، لا على العطفِ به على قوله: «ليفسدوا».

والثاني: أتذرُ موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وليذرك وآلهتك كالتوبيخ

منهم لفرعونَ على تركِ موسى ليفعلَ هذين الفِعْلَيْنِ. وإذا وجِّه الكلامُ إلى هذا الوجه، كان نصب «ويذرك» على العطف على «ليفسدوا».

والوجه الأول أوْلى الوجهين بالصوابِ، وهو أن يكون نصب «ويذرك» على الصرف، لأنَّ التأويلَ من أهلِ التأويل به جاء.

كأنه وجَّه تأويله إلى: أتذر موسى وقومه، ويذرك وآلهتك، ليفسدوا في الأرض.

وقد تحتمل هذه القراءة أن يكون معناها: أَتَذَرُ موسى وقومَهُ ليفسدوا في الأرض، وهو يَذَرُكَ وآلهتك ـ فيكون «يذرك» مرفوعاً بابتداءِ الكلامِ والسلامةِ من الحوادث.

وأما قوله: «وآلهتك»، فإنَّ قَرَأَةَ الأمصارِ على فتح «الألف» منها ومدِّها، بمعنى: وقد ترك موسى عبادتكَ وعبادةَ آلهتك التي تعبدها.

وقوله: «قال سَنُقَتِّلُ أبناءهم»، يقول: قال فرعونُ: سنقتل أبناءهم الذكور من أولاد بني إسرائيل. «ونَسْتَحْيِي نساءهم»، يقول: ونستبقي إناثهم. «وإنا فوقَهم قاهرون»، يقول: وإنا عَالُونَ عليهم بالقهرِ، يعني بقهر الملك والسلطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «قال موسى لقومه»، من بني إسرائيل، لما قال فرعون للملأ من قومه: «سنقتل أبناء بني إسرائيل ونستحيي نساءهم». «استعينُوا بالله»،

على فرعونَ وقومِه فيما يَنُوبُكم من أمرِكم. «واصبروا»، على ما نَالَكُمْ من المكارِه في أنفسِكم وأبنائِكم من فرعونَ.

وقوله: «إنَّ الأرضَ لله يورثها مَنْ يشاءُ من عباده»، يقول: إنَّ الأرضَ لله، لَعَلَّ الله أنْ يورثكم - إنْ صبرتم على ما نالَكُمْ من مكروهٍ في أنفسكم وأولادكم من فرعون، واحْتَسَبْتُمْ ذلك، واستقمتم على السداد - أرضَ فرعونَ وقومه، بأنْ يُهْلِكَهُمْ ويستخلفكم فيها، فإنَّ الله يورثُ أرضَهُ مَنْ يشاءُ من عباده. «والعاقبةُ للمتقين»، يقول: والعاقبةُ المحمودةُ لمن اتقى اللهَ وراقبه، فخافَهُ باجتنابِ معاصِيه، وأدَّى فرائِضَهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال قومُ موسى لموسى، حينَ قالَ لهم: «استعينوا بالله واصبروا». «أُوذِينَا»، بقتلِ أبنائنا. «مِنْ قَبْلِ أنْ تَأْتِيَنَا»، يقول: مِنْ قبل أنْ تأتينا برسالةِ الله إلينا، لأنَّ فرعونَ كان يقتلُ أولادهم الذكور حين أظلَّهُ زمانُ موسى على ما قد بينتُ فيما مضى من كتابنا هذا.

وقوله: «ومِنْ بعدِ ما جِئتنا»، يقول: ومن بعدِ ما جئتنا برسالةِ الله، لأنَّ فرعونَ لما غُلِبَتْ سَحَرَتُهُ، وقال للملأ من قومه ما قالَ، أرادَ تجديدَ العذاب عليهم بقتلِ أبنائِهم واستحياءِ نسائهم.

وقيل: إنَّ قومَ موسى قالوا لموسى ذلك، حينَ خافوا أنْ يُدْرِكَهُمْ فرعونُ وهُمْ منه هاربونَ، وقد تراءى الجمعانِ، فقالوا له: «يا موسى أُوذينا مِنْ قَبْلِ أن

تأتينـا»، كانوا يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا. «ومن بعد ما جئتنا»، اليومَ يُدْرِكُنا فرعونُ فيقتلنا.

وقوله: «قال عسى رَبُّكم أنْ يُهلكَ عَدُوَّكُم»، يقول جَلَّ ثناؤه: قال موسى لقومه: لعـلَّ رَبَّكُم أنْ يُهلكَ عدوكم فرعـون وقومه. «ويستخلفكم»، يقول: يجعلكم تَخْلُفُونهم في أرضِهم بعد هلاكِهم، لا تخافونهم ولا أحداً من الناسِ غيرهم. «فينظُرَ كيف تعملون»، يقول: فيرى رَبُّكم ما تعملونَ بعدهم، من مسارعَتِكُمْ في طاعته، وتثاقلكم عنها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد اختبرنا قومَ فرعونَ وأتباعه على ما هُمْ عليه من الضلالةِ. «بالسنين»، يقول: بالجُدوبِ سنةً بعد سنة، والقحوط. «ونَقْصٍ من الثمرات»، يقول: واختبرناهم مع الجدوبِ بذهابِ ثمارِهم وغَلَّاتِهم إلا القليل. «لعلهم يَذَّكَّرُونَ»، يقول: عِظَةً لهم، وتذكيراً لهم، لينزجِرُوا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى رَبِّهم بالتوبةِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فإذا جاءت آلَ فرعونَ العافيةُ والخِصْبُ والرخاءُ وكثرةُ الثمـار، ورأوا ما يحبونَ في دُنياهم. «قالوا لنا هذه»، نحنُ أَوْلى بها. «وإنْ تُصِبْهُمْ سيئةٌ»، يعني جُدوبٌ وقُحوطٌ وبلاء. «يَطَّيَّرُوا بموسى ومَنْ معه»، يقول:

يتشاءَموا بهم، ويقولوا: ذهبتْ حُظوظُنا وأنصباؤنا من الرخاءِ والخِصْبِ والعافية، مُذْ جاءنا موسى عليه السلام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ألا ما طائر آل فرعون وغيرهم - وذلك أنصباؤهم من الرخاءِ والخِصْبِ وغير ذلك من أنصباءِ الخير والشرِّ - «إلا عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون»، أن ذلك كذلك، فلِجَهْلِهم بذلك كانوا يَطَّيَّرُونَ بموسى ومَنْ معه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقال آلُ فرعونَ لموسى: يا موسى، مهما تَأْتِنا به من علامةٍ ودلالةٍ. «لتسحرنا»، يقول: لِتَلْفِتَنَا بها عَمَّا نحنُ عليه من دينِ فرعون. «فما نحنُ لك بمؤمنين»، يقول: فما نحنُ لك في ذلك بمصدِّقينَ على أنك مُحِقٌّ فيما تَدْعُونَا إليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾

اختلف أهلُ التأويل في معنى «الطوفان».

فقال بعضهم: هو الماء.

وقال آخرون: بل هو الموتُ.

وقال آخرون: بل ذلك كان أمراً من الله طافَ بهم.

وقال بعضهم: هو كثرةُ المطرِ والريح.

والصوابُ من القول في ذلك عندي: أنه أمرٌ من الله طافَ بهم، وأنه مصدرٌ من قولِ القائل: «طافَ بهم أمرُ الله يطوفُ طُوفَاناً»، كما يقال: «نقص هذا الشيء ينقصُ نُقْصَاناً».

وإذا كان ذلك كذلك، جازَ أنْ يكونَ الذي طافَ بهم المطرَ الشديدَ وجاز أن يكون الموتَ الذريعَ.

وأما «القُمَّل»، فإنَّ أهلَ التأويلِ اختلفوا في معناه.

فقال بعضهم: هو السوسُ الذي يخرجُ من الحنطة.

وقال آخرون: بل: هو الدَّبَى، وهو صِغارُ الجرادِ الذي لا أجنحةَ له.

وقال آخرون: بل «القُمَّل»، البراغيثُ.

وقال بعضهم: هي دوابٌّ سُودٌ صغار.

وكان بعضُ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ من أهلِ البصرةِ يزعمُ[1]: أنَّ «القُمَّلُ» عند العرب الحَمْنان. و«الحمنان» ضَرْبٌ من القِرْدان[2]، واحدتها «حَمْنانة»، فوق القمْقامة[3].

وأما قوله: «آياتٍ مُفَصَّلات»، فإنَّ معناه: علامات ودلالات على صِحَّةِ

---

(١) هو أبو عبيدة في مجاز القرآن: ١/٢٢٦.

(٢) القردان: جمع قراد.

(٣) القمقامة: صغار القردان، لا يكاد يُرى من صغره، شديد التشبث بأصول الشعر، وهو ضربٌ من القمل أيضاً.

نُبُوَّةِ موسى، وحقيقةِ ما دعاهم إليه. «مفصلات»، قد فصل بينها، فجعلَ بعضَها يتلو بعضاً، وبعضها في إثرِ بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ



يقول تعالى ذِكْرُه: فاستكبرَ هؤلاءِ الذين أرسلَ الله عليهم ما ذكر في هذه الآيات من الآياتِ والحججِ، عن الإيمانِ بالله وتصديقِ رسولِه موسى ﷺ، واتباعه على ما دَعَاهُمْ إليه، وتَعَظَّمُوا على الله وَعَتَوا عليه. «وكانوا قوماً مجرمين»، يقول: كانوا قوماً يعملون بما يكرهه اللهُ من المعاصي والفِسْقِ، عُتُوًّا وتَمَرُّداً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولما وقع عليهمُ الرجزُ»، ولما نزل بهم عذابُ الله، وحَلَّ بهم سَخَطُه.

«قالوا يا موسى ادْعُ لنا رَبَّكَ بما عَهِدَ عندكَ»، يقول: بما أوصاكَ وأمرك به.

«لئن كشفتَ عنا الرجز»، يقول: لئن رفعتَ عنا العذابَ الذي نحنُ فيه. «لَنُؤْمِنَنَّ لك»، يقول: لَنُصَدِّقَنَّ بما جئتَ به ودعوتَ إليه، ولَنُقِرَّنَّ بِهِ لكَ

«ولَنُرْسِلَنَّ معكَ بني إسرائل»، يقول: ولَنُخَلِّيَنَّ معك بني إسرائيل، فلا نمنعهم أنْ يذهبوا حيث شاؤوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فدعا موسى رَبَّهُ فأجابه، فلما رفع اللهُ عنهم العذابَ الذي أنزله بهم. «إلى أجلٍ هُمْ بالغوه»، ليستوفوا عذابَ أيامِهم التي جعلَها اللهُ لهم من الحياةِ أجلاً، إلى وقتِ هلاكِهم. «إذا هُمْ ينكثون»، يقول: إذا هم يَنْقضُونَ عهودَهم التي عاهدوا ربَّهم وموسى، ويقيمون على كُفْرِهم وضلالهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما نَكَثُوا عهودَهم. «انتقمنا منهم» يقول: انتصرنا منهم بإحلالِ نِقْمَتِنَا بهم، وذلك عذابه. «فأغرقناهم في اليَمِّ»، وهو البحر.

«بأنهم كذبوا بآياتنا»، يقول: فعلنا ذلك بهم بتكذيبهم بحُجَجِنَا وأعلامنا التي أَرَيْنَاهُمُوهَا. «وكانوا عنها غافلينَ»، يقول: وكانوا عن النقمة التي أحللناها. بهم، غافلينَ قبلَ حلولها بهم أنَّها بهم حالَّةٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ

كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: وأورثنا القومَ الذين كان فرعونُ وقومه يَسْتضعفونَهم فيذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءَهُمْ، ويستخدمونهم تسخيراً واستعباداً من بني إسرائيل. «مشارقَ الأرض»، الشأم، وذلك ما يلي الشرق منها. «ومغارِبَها التي باركنا فيها»، يقول: التي جعلنا فيها الخيَر ثابتاً دائماً لأهلها.

وإنما قال جَلَّ ثناؤُهُ: «وأورثنا»، لأنه أورثَ ذلك بني إسرائيلَ بِمَهْلِكِ مَنْ كان فيها من العمالقة.

وأما قوله: «وتمت كلمةُ رَبِّكَ الحسنى»، فإنه يقول: وَفَى وعدُ الله الذي وَعَدَ بني إسرائيلَ بتمامه على ما وَعَدَهُمْ، من تمكِينهم في الأرض، ونصره إياهم على عَدُوِّهم فرعون. «وكلمته الحسنى» قولُه جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وأما قوله: «ودَمَّرْنَا ما كان يصنعُ فرعونُ وقومه»، فإنه يقول: وأهلكنا ما كان فرعونُ وقومُه يصنعونه من العِمارات والمزارِع. «وما كانوا يعرشون». يقول: وما كانوا يَبْنُونَ من الأبنيةِ والقصورِ، وأخرجناهم من ذلك كُلِّه، وخَرَّبنا جميع ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقطعنا ببني إسرائيل البحرَ بعد الآياتِ التي أَرَيْنَاهُمُوها، والعبر التي عاينوها على يدي نبيِّ الله موسى، فلم تَزْجُرْهُم تلك الآياتُ، ولم تَعِظْهُمْ تلك العِبَرُ والبيناتُ! حتى قالوا مع مُعَايَنَتِهم من الحججِ ما يحقُّ أنْ يُذْكَرَ معها البهائم، إذْ مَرُّوا على قومٍ يعكفونَ على أصنامٍ لهم، يقول: يقومون على مُثُل لهم يعبدونها من دون الله. «اجعل لنا» يا موسى «إلهاً»، يقول: مثالاً نعبدُه وصنماً نَتَّخِذُه إلهاً، كما لهؤلاءِ القومِ أصنامُ يعبدونها. ولا تنبغي العبادةُ لشيءٍ سوى الله الواحد القهار. وقال موسى صلواتُ الله عليه: إنكم، أيها القومُ، قومٌ تَجْهلونَ عظمةَ الله وواجبَ حَقِّه عليكم، ولا تعلمونَ أنه لا تجوزُ العبادةُ لشيءٍ سوى الله الذي له ملكُ السمواتِ والأرض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه عن قِيْلِ موسى لقومهِ من بني إسرائيل. يقول تعالى ذِكْرُه: قال لهم موسى: إنَّ هؤلاء العُكوف على هذه الأصنامِ، الله مُهْلِكٌ ما هُمْ فيه من العمل، ومُفْسِدُه ومُخْسرهم فيه، بإثابَتِه إياهم عليه العذابَ المهين. «وباطلٌ ما كانوا يعملون»، من عبادَتِهم إياها، فَمُضْمَحِلٌّ، لأنه غيرُ نافِعهم عند مجيءِ أمرِ الله وحلولهِ بساحتهم، ولا مدافع عنهم بأسَ الله إذا نزلَ بهم، ولا مُنْقذهم من عذابهِ إذا عَذَّبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى لقومه: أسِوَى الله أَلْتَمِسُكم إلهاً، وأجعل

لكم معبوداً تعبُدُونَهُ، والله الـذي هو خالقكم فَضَّلكُمْ على عالمي دَهْرِكم وزمانِكم؟ يقول: أَفَأَبْغيكُمْ معبوداً لا ينفعُكُمْ ولا يَضُرُّكُمْ تعبدونه، وتتركون عبادةَ مَنْ فَضَّلكم على الخَلْقِ؟ إنَّ هذا منكم لجهلٍ!

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لليهودِ من بني إسرائيلَ الذين كانوا بين ظهراني مُهَاجَرِ رسولِ الله ﷺ: واذكروا - مع قِيْلِكُم هذا الذي قُلتموهُ لموسى بعد رؤيتكم من الآياتِ والعبر، وبعد النعمِ التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تَقَدَّمَتْ - فِعْلَكم ما فعلتم. «إذ أنجيناكم من آلِ فرعون»، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقتِه في الكفرِ باللهِ من قومه. «يسومونكم سوء العذابِ»، يقول: إذْ يحملونكم أقبحَ العذابِ وسيئه.

«يقتلون أبناءكم»، الذكورَ من أولادِهم. «ويستحيون نساءكم»، يقول: يستبقون إناثهم. «وفي ذلكم بلاءٌ من رَبِّكم عظيم»، يقول: وفي سَوْمِهم إياكم سوء العذاب، اختبارٌ من الله لكم ونعمةٌ عظيمة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وواعدنا موسى لِمُنَاجَاتِنَا ثلاثينَ ليلة. وقيل إنها ثلاثون ليلة من ذي القعدة.

«وأتممناها بِعَشْرٍ»، يقول: وأتممنا الثلاثينَ الليلة بعشرِ ليالٍ تتمةَ أربعينَ ليلة.

وقيل: إنَّ العشر التي أتمها به أربعينَ، عشر ذي الحجة.

وأما قوله: «فَتَمَّ ميقاتُ رَبِّه أربعينَ ليلة»، فإنه يعني: فكمل الوقتُ الذي واعدَ اللهُ موسى أربعينَ ليلة، وبلغها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لما مضى لموعدِ رَبِّه قال لأخيهِ هارون: «اخْلُفني في قومي»، يقول: كُنْ خليفتي فيهم إلى أن أرجع.

«وأصلِحْ»، يقول: وأصلحهم بحملكَ إياهم على طاعةِ الله وعبادته.

وقوله: «ولا تتبع سبيلَ المفسدين»، يقول: ولا تَسْلُكْ طريقَ الذين يفسدون في الأرضِ، بمعصيتهم رَبَّهم، ومعونتهم أهل المعاصي على عِصيانهم رَبَّهم، ولكن اسلكْ سبيلَ المطيعينَ رَبَّهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولما جاء موسى للوقتِ الذي وعدنا أنْ يلقانا فيه. «وكَلَّمَهُ رَبُّه»، وناجاه - «قال» موسى لربه - «أرِني أنظُرْ إليكَ»، قال الله له مجيباً: «لن تراني ولكن انظر إلى الجبل».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما اطَّلَعَ الرَّبُّ للجبلِ، جعلَ اللهُ الجبلَ دكًّا، أي: مستوياً بالأرض. «وخَرَّ موسى صَعِقاً»، أي: مَغْشِيّاً عليه.

واختلفت القَرَأَةُ في قراءة قوله: ﴿دكًّا﴾.

فقرأته عامةُ قَرَأَةِ أهلِ المدينة والبصرة: «دكًّا»، مقصوراً بالتنوين بمعنى: «دكَّ اللهُ الجبلَ دكًّا»، أي: فَتَّتَهُ، واعتباراً بقولِ الله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، [الفجر: ٢١] وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، واستشهد بعضُهم على ذلك بقول حميد:

يَدُكُّ أركانَ الجِبالِ هَزَمُهْ ... تَخْطُر بالبِيضِ الرِّقاقِ بُهَمُهْ

وقرأته عامةُ قَرَأَةِ الكوفيين: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، بالمد وترك الجر والتنوين. مثل «حمراء»، و«سوداء».

وأَوْلى القراءتين في ذلك بالصوابِ عندي، قراءةُ مَنْ قرأ: ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾، بالمد وترك الجر، لدلالةِ الخبرِ الذي رويناه عن رسولِ الله ﷺ على صحته. وذلك أنه رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «فَسَاخَ الجبلُ»[1]، ولم يقل: «فَتَفَتَّتَ»، ولا «تَحَوَّلَ تراباً». ولاشكَّ أنه إذا ساخَ فذهب، ظهرَ وجهُ الأرضِ، فصار بمنزلةِ الناقةِ التي قد ذهب سنامُهَا، وصارت دكاء بلا سنام. وأما إذا دُكَّ بعضه، فإنما يكسرُ بعضه بعضاً ويتفتتُ ولا يَسُوخ.

---

(١) يعني حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس، حينما سُئِلَ رسول الله ﷺ عن هذه الآية، أخرجه الطبري (١٥٠٨٧) و(١٥٠٨٨)، والترمذي (٣٠٧٤) وصححه، والحاكم: ٢/٣٢٠، وصححه ووافقه الذهبي.

فمعنى الكلام إذاً: فلما تَجلَّى رَبُّه للجبلِ ساخَ، فجعلَ مكانَهُ أرضاً دَكَّاء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَـٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾.

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما ثابَ إلى موسى عليه السلام فَهْمه من غَشيتِهِ، وذلك هو الإفاقةُ من الصعقةِ التي خَرَّ لها موسى ﷺ. «قال سبحانكَ»، تنزيهاً لكَ، يا رب، وتبرئةً أنْ يراكَ أحدٌ في الدنيا، ثم يعيش. «تُبْتُ إليكَ»، من مسألتي إياكَ ما سألتُكَ من الرؤيةِ. «وأنا أوَّلُ المؤمنين»، بكَ من قومي، أنْ لا يراكَ في الدنيا أحدٌ إلا هَلَكَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِي وَبِكَلَـٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ١٤٤﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه، قال الله لموسى: يا موسى: «إِنِّي اصطفيتُكَ على الناس»، يقول: اخْتَرْتُكَ على الناسِ. «برسالاتي»، إلى خلقي، أرسلتكَ بها إليهم. «وبكلامي»، كَلَّمْتُكَ وناجيتكَ دونَ غيركَ من خَلْقي. «فَخُذْ ما آتيتُكَ» يقول: فخذ ما أعطيتُكَ من أمري ونَهْيِي وتَمَسَّكْ به، واعملْ به (بجدٍ)[1] «وكُنْ من الشاكرين»، لله على ما آتاكَ من رسالتِهِ، وخَصَّكَ به من النجوى، بطاعتِه في أمرِه ونهيه، والمسارعةِ إلى رِضاه.

---

(١) في الأصل نقص يُرَجِّحُ أنه «واعمل به بجدٍّ»، كما جاء بعدُ في تفسير الآية ١٤٥: «خُذْها بجدٍّ في العمل بما فيها واجتهاد».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكتبنا لموسى في ألواحه.

وقوله: «من كُلِّ شيءٍ»، يقول: من التذكيرِ والتنبيهِ على عَظَمَةِ الله وعِزِّ سلطانه. «موعظةً»، لقومهِ ومَنْ أُمِرَ بالعملِ بما كُتِبَ في الألواح. «وتفصيلاً لكل شيء»، يقول: وتبييناً لكلِّ شيءٍ من أمر اللهِ ونهيِهِ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وقلنا لموسى، إذْ كتبنا له في الألواحِ من كُلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ: خُذِ الألواحَ بقوة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: قلنا لموسى: «وأْمُرْ قومكَ»، بني إسرائيل «يأخذوا بأحسنها»، يقول: يعملوا بأحسن ما يجدون فيها.

فإن قال قائلٌ: وما معنى قوله: «وَأْمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسنها»، أكانَ من خِصَالِهم ترك بعضِ ما فيها من الحسن؟

قيل: لا، ولكن كان فيها أمرٌ ونهيٌ، فأمرهم اللهُ أنْ يعملوا بما أمرهم بعمله، ويتركوا ما نَهاهم عنه، فالعملُ بالمأمورِ به، أحسنُ من العملِ بالمنهيِّ عنه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لموسى، إذْ كتب في الألواح من كُلِّ شيءٍ: خُذْهَا بجدٍّ في العمل بما فيها واجتهادٍ، وأْمُرْ قومكَ يأخذوا بأحسن ما فيها، وانْهَهُمْ عن تَضييعِها وتضييعِ العملِ بما فيها والشرك بي، فإنَّ مَنْ أشركَ بي منهم ومن غيرهم، فإني سأريه في الآخرةِ عند مصيرهِ إليَّ، «دارَ الفاسقين»، وهي نارُ الله التي أعَدَّهَا لأعدائه.

وإنما قال: «سأريكم دارَ الفاسقين»، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سَأُرِيكَ غداً إلامَ يصيرُ إليه حالُ مَنْ خالفَ أمري!»، على وجه التهدُّدِ والوعيدِ لِمَنْ عَصَاهُ وخالفَ أمره.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ

اختلف أهلُ التأويلِ في معنى ذلك.

فقال بعضهم: معناهُ: سأنزعُ عنهم فَهْمَ الكتاب.

وقال آخرون في ذلك: معناه: سأصرفهم عن الاعتبارِ بالحجج.

وأوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أن يُقالَ: إنَّ الله أخبرَ أنه سيصرفُ عن آياتِه، وهي أدِلَّته وأعلامُه على حقيقةِ ما أمرَ به عبادَهُ وفرض عليهم من طاعتهِ في توحيده وعَدْلِه، وغير ذلك من فرائضِه. والسموات والأرض وكل موجود من خَلْقِه، فمن آياتِه، والقرآن أيضاً من آياته، وقد عَمَّ بالخبرِ أنه يصرفُ عن آياتِه المتكبرينَ في الأرض بغيرِ الحَقِّ، وهُم الذينَ حقَّت عليهم كلمةُ الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فَهْمِ جميعِ آياته والاعتبارِ والادِّكَارِ بها مصروفونَ، **لأنهم** لو وُفِّقُوا لِفَهْمِ بعضِ ذلك فَهُدُوا للاعتبارِ به، اتَّعَظُوا وأنابوا إلى الحَقِّ، وذلك غير

كائنٍ منهم، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لَا يُؤمِنُوا بِهَا﴾، فلا تبديلَ لكلمات الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإنْ يَرَ هؤلاء الذين يتكبرونَ في الأرضِ بغير الحق - و«تكبرهم فيها بغيرِ الحق»، تَجَبّرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمانِ باللهِ ورسوله، والإذعانِ لأمرِهِ ونهيه، وهُمْ لله عبيدٌ يَغْذُوهم بنعمتِه، ويريحُ عليهم رزقه بُكْرةً وعشيًّا، «كُلَّ آيةٍ»، يقول: كُلَّ حُجَّةٍ لله على وحدانيتِه وربوبتِهِ، وكُلَّ دلالةٍ على أنه لا تنبغي العبادةُ إلا له خالصةً دونَ غيره. «لا يؤمنون بها»، يقول: لا يُصَدِّقُوا بتلك الآيةِ أنها دالةٌ على ما هيَ فيه حجةٌ، ولكنهم يقولون: «هي سِحْرٌ وكَذِبٌ». «وإنْ يَرَوْا سبيلَ الرشد لا يتخذوه سبيلاً»، يقول: وإنْ يَرَ هؤلاء الذين وَصَفَ صِفَتَهُم طريقَ الهدى والسداد الذي إنْ سلكوهُ نَجَوْا من الهَلَكَةِ والعطبِ، وصاروا إلى نعيمِ الأبد، لا يسلكُوه ولا يَتَّخِذُوه لأنفسِهم طريقاً، جهلاً منهم وحيرة. «وإنْ يَرَوْا سبيلَ الغَيِّ»، يقول: وإنْ يَرَوْا طريقَ الهلاكِ الذي إنْ سلكوه ضَلُّوا وهَلَكُوا.

«يتخذوه سبيلاً»، يقول: يسلكوهُ ويجعلوهُ لأنفسهم طريقاً، لِصَرْفِ اللهِ إيَّاهُمْ عن آياتِه، وطَبْعِه على قلوبهم، فهم لا يُفْلِحُونَ ولا ينجحونَ. «ذلك بأنهم كَذَّبُوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»، يقول تعالى ذِكْرُه: صرفناهم عن آياتنا أنْ يَعْقِلُوها ويفهموها فيعتبروا بها ويذكروا فينيبوا، عقوبةً مِنَّا لهم على تكذيبهم بآياتنا. «وكانوا عنها غافلينَ»، يقول: وكانوا عن آياتِنَا وأدِلَّتِنَا الشاهدِة على

حقيقةِ ما أمرناهُمْ به ونهيناهم عنه. «غافلينَ»، لا يَتفكَّرونَ فيها، لاهِينَ عنها، لا يعتبرونَ بها، فَحَقَّ عليهم حينئذٍ قولُ رَبِّنا فعَطِبوا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وهؤلاء المستكبرونَ في الأرض بغيرِ الحَقِّ، وكلّ مكذِّبٍ حججَ الله ورسله وآياته، وجاحدٍ أنه يومَ القيامة مبعوثٌ بعد مماتِه، ومُنكرٍ لقاءَ الله في آخرته ـ ذهبتْ أعمالُهم فَبَطُلَتْ، وحصلتْ لهم أوزارُهَا فَثَبَتَتْ، لأنهم عَمِلُوا لغيرِ الله، وأتعبوا أنفسهم في غيرِ ما يُرْضِي الله، فصارتْ أعمالُهم عليهم وبَالاً. يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «هل يُجْزَوْنَ إلَّا ما كانوا يعملون»، يقول: هل يُثَابونَ إلَّا ثوابَ ما كانوا يعملون؟ فصار ثوابُ أعمالهم الخلودَ في نارٍ أحاطَ بهم سُرَادِقُهَا، إذْ كانت أعمالُهم في طاعةِ الشيطانِ، دونَ طاعةِ الرحمن، نعوذُ بالله من غضبه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واتَّخَذَ بنو إسرائيلَ قومُ موسى، مِنْ بعدِ ما فَارقَهُمْ موسى ماضياً إلى رَبِّه لمناجاتِه، ووفاءً للوعدِ الذي كان رَبُّه وَعَدَهُ. «مِنْ حُلِّيهم عِجْلاً»، وهو وَلَدُ البقرةِ، فعبدُوهُ. ثم بَيَّنَ تعالى ذِكْرُه ما ذلكَ العجل فقال: «جسداً له خوار» ـ و«الخوار» صوتُ البقر ـ يُخْبِرُ جَلَّ ذِكْرُه عنهم أنهم ضَلُّوا بما لا يَضِلُّ بمثْلِه أهلُ العقل. وذلك أنَّ الربَّ جَلَّ جلالُه الذي له ملكُ السمواتِ

والأرض، ومُدَبِّرُ ذلك، لا يجوزُ أنْ يكونَ جسداً له خُوار، لا يكلمُ أحداً، ولا يرشدُ إلى خيرٍ. وقال هؤلاء الذين قَصَّ الله قَصَصهم لذلك: «هذا إلهنا وإلهُ موسى»، فعكفوا عليه يعبدونه، جهلاً منهم، وذهاباً عن الله وضلالاً.

وقوله: «ألم يَرَوْا أنه لا يُكَلِّمُهم ولا يَهْدِيهم سبيلاً»، يقول: ألم يَرَ الذين عكفوا على العجلِ الذي اتخذوه من حُلِيِّهم يعبدونه، أنَّ العجل لا يُكَلِّمُهم ولا يهديهم سبيلاً؟ يقول: ولا يُرْشِدُهم إلى طريق؟ وليس ذلك من صفةِ رَبِّهم الذي له العبادةُ حقاً، بل صِفَتُه أنه يكلمُ أنبياءَهُ ورُسُلَهُ، ويرشدُ خَلْقَهُ إلى سبيلِ الخير، وينهاهم عن سبيلِ المهالكِ والردى.

يقول الله جَلَّ ثناؤُهُ: «اتَّخَذُوهُ»، أي: اتَّخَذُوا العِجْلَ إلهاً، وكانوا باتخاذِهم إياهُ ربّاً معبوداً ظالمينَ لأنفسهم، لعبادَتِهم غيرَ مَنْ له العبادةُ، وإضافتهم الأُلوهةَ إلى غيرِ الذي له الأُلوهةُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولما سُقِطَ في أيديهم»، ولما نَدِمَ الذين عبدوا العجلَ الذي وَصَفَ جَلَّ ثناؤُهُ صِفَتَهُ، عند رجوعِ موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحُكْمِه فيهم.

وكذلك تقولُ العربُ لكلِّ نادمٍ على أمرٍ فاتَ منه أو سَلَفَ، وعاجزٍ عن شيء: «قد سُقِطَ في يديه» و«أسقط»، لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك أنْ يضربَ الرجلُ الرجلَ أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرضِ ليأسره، فيكتفه. فالمرميُّ به مسقوطٌ في يدي الساقطِ به. فقيل لكلِّ عاجزٍ عن

شيءٍ، وضارعٍ لِعَجْزِهِ، متندِّمٍ على ما قاله: «سُقِطَ في يديه» و«أسقط»[1].

وعَنَى بقولـه: «ورأوا أنهم قد ضَلُّوا»، ورأوا أنهم قد جَارُوا عن قَصْدِ السبيل، وذهبوا عن دِينِ الله، وكفروا بربهم، قالوا تائبينَ إلى الله مُنِيبينَ إليه من كُفْرِهم به: «لَئِنْ لم يرحمنا رَبُّنا ويَغْفِرْ لنا لنكونَنَّ من الخاسرين».

ومعنى قوله: «لئن لم يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويغفرْ لنا»، لئن لم يَتعطَّفْ علينا رَبُّنَا بالتوبةِ برحمتهِ، ويَتَغَمَّدْ بها ذُنوبَنَا، لنكونَنَّ من الهالكينَ الذين حَبِطَتْ أعمالُهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ

يقول تعالى ذِكْرُه: ولما رجع موسى إلى قومهِ من بني إسرائيل، رجع غضبـانَ أَسِفـاً، لأنَّ الله كان قد أخبَـرَهُ أنه قد فَتَنَ قومَهُ، وأنَّ السامريَّ قد أَضَلَّهم، فكان رجوعُه غضبانَ أسفاً لذلك.

و«الأسف» شِدَّةُ الغضبِ، والتَّغَيُّظُ به على مَنْ أغضبه.

وقال آخرون: الحزن.

وقوله: «قال بِئْسَما خَلَفْتُموني من بعدي»، يقول: بئس الفعل فَعَلْتُمْ بعدَ فراقي إياكم وأوليتموني فيمن خلفتُ ورائي من قومي فيكم، وديني الذي أَمَرَكُمْ به رَبُّكم.

وقوله: «أَعَجِلْتُمْ أمرَ رَبِّكم»، يقول: أسبقتم أمرَ رَبِّكم في نفوسكم وذهبتم عنه؟

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء: ١/٣٩٣، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: ١/٢٢٨.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وألقى موسى الألواحَ.

وسببُ إلقاءِ موسى الألواحَ كان من أجلِ غَضَبِه على قومِه لعبادَتِهم العجلَ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ بذلك أخبرَ في كتابِه فقال: «ولما رَجعَ موسى إلى قومِهِ غضبانَ أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي أَعَجِلْتُمْ أمرَ رَبِّكم وألقى الألواحَ وأخذَ برأسِ أخيهِ يَجُرُّهُ إليه».

وقوله: «إنَّ القومَ استضعفوني وكادوا يقتلونني»، يعني بالقوم، الذين عكفوا على عبادةِ العجلِ وقالوا: «هذا إلَهُنَا وإلهُ موسى»، وخالفوا هارون. وكان استضعافُهم إياهُ: تركهم طاعته واتباع أمرِه. «وكادوا يقتلونني»، يقول: قاربوا ولم يفعلوا.

وأما قوله: «ولا تجعلني مع القومِ الظالمين»، فإنه قولُ هارونَ لأخيه موسى. يقول: لا تجعلني في موجدتكَ عليَّ وعقوبتكَ لي ولم أخالفْ أمركَ، محلَّ مَنْ عَصَاكَ فخالفَ أمركَ، وعَبَدَ العجلَ بعدكَ، فظلم نفسه، وعَبَدَ غير مَنْ له العبادة، ولم أُشايعهم على شيءٍ من ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: قال موسى، لما تَبَيَّنَ له عُذْرُ أخيه، وعلم أنه لم يُفَرِّطْ في الواجبِ الذي كان عليه من أمرِ الله، في ارتكاب ما فعله الجَهَلَةُ مِن عَبَدَةِ

العجل: «رَبِّ اغفر لي»، مستغفراً من فعله بأخيه، ولأخيه من سالفٍ سَلَفَ له بينه وبين الله: تَغَمَّد ذنوبَنا بسترٍ منك تَسْتُرها به. «وأدْخِلْنَا في رحمتك»، يقول: وارحمنا برحمتكَ الواسعة عبادَك المؤمنينَ، فإنكَ أنتَ أرحمُ بعبادكَ من كُلِّ مَنْ رحم شيئاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ١٥٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الذين اتَّخَذُوا العِجلَ» إلهاً. «سينالهم غَضَبٌ من رَبِّهم»، بتعجيلِ اللهِ لهم ذلكَ. «وذِلَّةٌ»، وهي الهوانُ، لعقوبةِ الله إياهم على كُفْرِهم بربِّهم. «في الحياة الدنيا»، في عاجل الدنيا قبل آجلِ الآخرة.

ويعني بقـولـه: «وكـذلك نجزي المفترين»، وكما جزَيتُ هؤلاء الذين اتخذوا العجلَ إلهاً، من إحلال الغضبِ بهم، والإذلالِ في الحياة الدنيا على كُفْرِهم رَبَّهم، وردَّتهم عن دينهم بعد إيمانِهم بالله، كذلك نجزي كُلَّ مَن افترى على الله، فكذبَ عليه، وأقَرَّ بألوهيةِ غيرِه، وعَبَدَ شيئاً سِواهُ من الأوثانِ، بعد إقرارِه بوحدانيةِ الله، وبعد إيمانهِ به وبأنبيائهِ ورُسُلِه وقِبْلِ ذلك، إذا لم يَتُبْ من كُفْرِه قبل قتله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٥٣﴾

وهذا خبرٌ من الله تعالى ذِكْرُه أنه قابلٌ من كُلِّ تائبٍ إليه من ذَنْبٍ أتاهُ، صغيرةً كانت معصيتُـه أو كبيرةً، كُفْراً كانت أو غيرَ كفرٍ، كما قبل من عَبَدَةِ العجل توبتَهم بعدَ كفرهم به بعبادتِهم العجلَ وارتدادِهم عن دينهم.

يقول جَلَّ ثناؤه: والذين عملوا الأعمالَ السيئة، ثم رجعوا إلى طَلَبِ رِضَى الله بإنابتهم إلى ما يحبُّ مِمَّا يكرهُ، وإلى ما يرضى مما يسخطُ، من بعد سيءِ أعمالهم، وصَدَّقُوا بأنَّ الله قابلٌ توبةَ المذنبينَ، وتائبٌ على المُنيبينَ، بإخلاصِ قلوبهم ويقينٍ منهم بذلك ـ. «لَغفورٌ»، لهم، يقول: لساترٌ عليهم أعمالَهم السيئة، وغير فاضِحهم بها ـ. «رحيمٌ»، بهم، وبكلِّ مَنْ كان مِثْلَهُمْ من التائبينَ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقوله: «ولما سكتَ عن موسى الغضبُ»، ولما كفَّ عنه وسكنَ.

«أخذ الألواح»، يقول: أخذها بعد ما ألقاها، وقد ذهبَ منها ما ذهب. «وفي نسختها هُدى ورحمة»، يقول: وفيما نسخ فيها، أي كتب فيها. «هدى» بيان للحق. «ورحمة للذين هم لربِّهم يَرْهَبُونَ»، يقول: للذين يخافونَ الله ويخشونَ عقابَهُ على معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ

يقول تعالى ذِكْرُه: واختار موسى من قومهِ سبعينَ رجلاً، للوقتِ والأجلِ الذي وَعَدَهُ الله أنْ يَلْقَاهُ فيه بهم، للتوبةِ مما كان من فِعْلِ سُفَهائِهم في أمرِ العجل.

وقد بينا معنى «الرجفة» فيما مضى وأنَّها: ما رجَفَ بالقوم وزَعْزَعَهُمْ وحَرَّكهم، أهلكهم بَعْدُ فأماتهم، أو أصعقهم فَسَلَبَ أفهامَهُمْ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾

(يعني): إنَّ موسى إنما حزنَ على هلاكِ السبعينَ بقوله: «أَتُهْلِكُنَا بما فعلَ السفهاءُ منا»، وأنَّه إنما عَنَى بـ«السفهاء» عَبَدَةَ العجلِ. وذلك أنه محالٌ أنْ يكونَ موسى ﷺ كان تخيَّرَ من قومه لمسألةِ ربِّه ما أراهُ أنْ يسألَ لهم إلا الأفضلَ فالأفضلَ منهم، ومحالٌ أن يكون الأفضل كان عنده مَنْ أشركَ في عبادةِ العجلِ واتخذَه دونَ اللهِ إلهاً.

قال: فإنْ قال قائلٌ: فجائزٌ أن يكونَ موسى عليه السلام كان معتقداً أن الله سبحانه يعاقبُ قوماً بذنوب غيرهم، فيقول: أتهلكنا بذنوبِ مَنْ عبدَ العجلَ، ونحنُ من ذلك برآء؟

قيل: جائزٌ أن يكون معنى «الإهلاك» قبض الأرواحِ على غيرِ وجهِ العقوبة، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنِ امرؤٌ هَلَكَ﴾، [النساء: ١٧٦] - يعني: مات - فيقول: أَتُمِيتُنَا بما فعلَ السُّفهاء منّا؟

وأما قوله: «إنْ هيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ»، فإنه يقولُ جلَّ ثناؤُهُ: ما هذه الفِعْلَةُ التي فعلَها قومي، من عبادتهم ما عبَدُوا دونكَ، إلا فتنةٌ منك أصَابتهم - ويعني بـ«الفتنة»، الابتلاء والاختبار - يقول: ابتليتهم بها، ليتبينَ الذي يضلُّ عن الحقِّ بعبادته إياه، والذي يهتدي بتركِ عبادته. وأضاف إضلالَهم وهدايتهم إلى الله، إذْ كان ما كانَ منهم من ذلك عن سببٍ منه جَلَّ ثناؤُهُ.

وقـوله: «أنت وَلِيُّنا»، يقول: أنتَ نَاصِرُنَا. «فاغفرْ لنا»، يقول: فاستُرْ علينا ذُنوبَنا بتركك عقابَنا عليها. «وارحمنا»، تَعَطَّفْ علينا برحمتك «وأنتَ خيرُ الغافرين»، يقول: خيرُ مَنْ صَفَح عن جُرْمٍ، وسَتَر على ذَنْبٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: مُخْبِراً عن دعاءِ نبيه موسى عليه السلام أنه قال فيه: «واكتُبْ لنـا»، أي: اجعلنـا مِمَّنْ كَتَبتَ له. «في هذه الـدنيا حسنَةً»، وهي الصالحاتُ من الأعمال. «وفي الآخرة»، ممن كتبتَ له المغفرةَ لذنوبِه.

وقوله: «إنا هُدْنَا إليكَ»، يقول: إنَّا تُبْنَا إليك.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: قال الله لموسى: هذا الذي أصبتُ به قومكَ من الرجفةِ، عذابي أُصيبُ به مَنْ أشاءُ من خَلْقي، كما أصيبُ به هؤلاء الذين أصبتُهم به من قومكَ. «ورحمتي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ»، يقـول: ورحمتي عمَّتْ خَلْقي كلهم.

وأما قوله: «فسأكتبها للذين يتقون»، فإنه يقول: فسأكتبُ رحمتي التي وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ ـ ومعنى «أكتبُ» في هذا الموضع: أكتبُ في اللوح الذي كُتِبَ في التوراة. «للذين يتقون»، يقول: للقومِ الذينَ يخافونَ اللهَ ويخشونَ

عقابَهُ على الكفرِ به والمعصيةِ له في أمرِه ونهيه، فيؤدُّونَ فرائضَهُ، ويجتنبونَ معاصيه.

وأما قوله: «والذين هم بآياتنا يؤمنون»، فإنه يقولُ: وللقومِ الذين هُمْ بأعلامنا وأدِلَّتِنا يُصَدِّقونَ ويُقِرُّون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾

وهذا القولُ إبانةٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ عن أنَّ الذين وعَدَ موسى نبيُّهُ عليه السلام أنْ يكتبَ لهم الرجمةَ التي وصفَها جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «ورحمتي وسعتْ كل شيء»، هُمْ أمةُ محمدٍ ﷺ، لأنه لا يُعلمُ للهِ رسولٌ وُصفَ بهذه الصفةِ - أعني «الأمي» - غير نبينا محمدٍ ﷺ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يأمرُ هذا النبيُّ الأميُّ أتباعَه بالمعروف - وهو الإيمانُ بالله ولزوم طاعتهِ فيما أمرَ ونَهى، فذلك «المعروف» الذي يأمرهم به. «وينهاهم عن المنكر»، وهو الشِرْكُ بالله، والانتهاءُ عَمَّا نهاهم الله عنه.

وقـولـه: «ويُحِلُّ لهمُ الطيباتِ»، وذلك مما كانتِ الجاهليةُ تُحَرِّمُهُ من البحائِرِ والسَّوائبِ والوصائِلِ والحوامي. «ويحرمُ عليهم الخَبَائث»، وذلك لحم الخنزيرِ والرِّبا وما كانوا يَسْتحِلُّونه من المطاعمِ والمشاربِ التي حَرَّمَها الله.

وأما قوله: «ويَضعُ عنهم إصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم»، فإنَّهُ العهدُ والميثاق الذي كان أخذه على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة.

فمعنى الكلام: ويضع النبيُّ الأميُّ العهدَ الذي كان اللهُ أخذَه على بني إسرائيلَ، من إقامةِ التوراةِ والعملِ بما فيها من الأعمالِ الشديدة، كقطعِ الجلد من البولِ، وتحريمِ الغنائمِ، ونحو ذلك من الأعمالِ التي كانت عليهم مفروضةً، فنسخها حُكْمُ القرآن.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٥٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فالذين صَدَّقُوا بالنبيِّ الأميِّ وأقَرُّوا بنبوَّتِه. «وعزَّروه»، يقول: وَقَّرُوه وعَظَّمُوه وحَمَوْهُ من الناسِ.

وقوله: «ونصروه»، يقول: وأعانُوه على أعداءِ الله وأعدائِه، بجهادِهم ونصب الحربِ لهم. «واتَّبعُوا النورَ الذي أُنزلَ معه»، يعني القرآن والإسلام. «أولئك هُمُ المفلحون»، يقول: الذين يفعلونَ هذه الأفعالَ التي وَصَفَ بها جَلَّ ثناؤُهُ أتباعَ محمدٍ ﷺ، هم المُنْجِحُونَ المدرِكُونَ ما طَلَبُوا ورَجَوْا بفعلهم ذلك.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «قل»، يا محمدُ للناسِ كلهم. «إنّي رسولُ الله إليكم جميعاً»، لا إلى بعضِكم دونَ بعضٍ، كما كان مَنْ قَبْلي من

الرُّسلِ مُرْسَلاً إلى بعضِ الناسِ دونَ بعضٍ فمن كان منهم أُرسِلَ كذلك، فإنَّ رسالتي ليست إلى بعضِكم دونَ بعضٍ، ولكنها إلى جميعِكُمْ.

وقوله: «الذي» من نعت اسم «الله» وإنما معنى الكلام: قل: يا أيها الناسُ إني رسولُ الله، الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرض، إليكم.

ويعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «الذي له ملكُ السمواتِ والأرض»، الذي له سلطانُ السَّمواتِ والأرض وما فيهما، وتدبيرُ ذلك وتصريفه. «لا إله إلا هو»، يقول: لا ينبغي أنْ تكونَ الألوهةُ والعِبادةُ إلاَّ له جَلَّ ثناؤُهُ، دونَ سائرِ الأشياء غيره من الآندادِ والأوثانِ، إلاَّ لمن له سلطانُ كُلِّ شيءٍ، والقادرُ على إنشاءِ خَلْقِ كُلٍّ ما شاءَ وإحيائه، وإفنائِه إذا شاء إماتته. «فآمنوا بالله ورسوله»، يقول جَلَّ ثناؤه: قُلْ لهم: فَصَدِّقُوا بآياتِ الله الذي هذه صِفَتُه، وأقِرُّوا بوحدانيتِه، وأنه الذي له الأُلوهةُ والعبادةُ، وصَدِّقُوا برسوله محمدٍ ﷺ أنَّه مبعوثٌ إلى خَلْقِه، داعٍ إلى توحيدِه وطاعته.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

أما قوله: «النبي الأميّ»، فإنه من نعتِ رسولِ الله ﷺ. «الذي يؤمنُ بالله»، يقول: الذي يُصَدِّقُ بالله وكلماته.

ثم اختلف أهلُ التأويل في تأويلِ قوله: «وكلماته».

فقال بعضهم: معناه: وآياته.

وقال آخرون: بل عَنَى بذلك عيسى بنَ مريمَ عليه السلام.

والصوابُ من القول في ذلك عندنا، أنَّ الله تعالى ذِكْرُه أمرَ عبادَهُ أنْ

يُصَدِّقُوا بنبوَّةِ النبيِّ الأمي الذي يؤمنُ بالله وكلماته، ولم يخصص الخبرَ جَلَّ ثناؤُهُ عن إيمانه من «كلمات الله» ببعضٍ دون بعضٍ، بل أخبرهم عن جميع «الكلمـات»، فالحقُّ في ذلك أنْ يعمَّ القول، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان يؤمنُ بكلماتِ الله كُلِّها، على ما جاءَ به ظاهرُ كتابِ الله.

وأمـا قولـه تعالى: «واتبعوه لعلكم تهتدون»، فاهتدوا به، أيها الناسُ، واعملوا بما أمركم أنْ تعملوا به من طاعةِ الله. «لعلكم تهتدون»، يقول: لكي تهتدوا فترشدوا وتصيبوا الحقَّ في اتِّباعِكم إيَّاهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيل قَوْله تَعَالَى: وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: «ومن قوم موسى»، يعني بني إسرائيل. «أمةٌ»، يقول: جماعة. «يَهْدُونَ بالحقِّ»، يقول: يهتدون بالحق، أي يستقيمون عليه ويعملون. «وبـه يعـدلـون»، أي: وبالحق يُعْطُونَ ويأخذونَ، ويُنصفون من أنفسِهم فلا يجورون.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ

يقول تعالى ذِكْرُه: فَرَّقْنَاهُم - يعني قوم موسى من بني إسرائيل، فرَّقهم الله فجعلهم قبائلَ شتى، اثنتى عشرة قبيلة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ

وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «وأوحينا إلى موسى»، إذْ فرّقنا بني إسرائيلَ قومه اثنتي عشرة فرقة، وتَيَّهْنَاهُمْ في التيه، فاستسقوا موسى من العَطشِ وغَوْرِ الماء. «أن آضْرِبْ بعصَاك الحجر».

«فانبجست» فانصبَّتْ وانفجرتْ من الحجرِ اثنتَا عَشْرَةَ عيناً من الماء، «قد عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ»، يعني كل أناس من الأسباطِ الاثنتي عشرة. «مَشْرَبَهم»، لا يدخـلُ سبطٌ على غيره في شِرْبِـه. «وظَلَّلْنـا عليهم الغمامَ»، يُكِنُّهم من حَرِّ الشمسِ وأذاها.

«وأنــزلنـا عليهم المَنَّ والسلوى»، طعـامـاً لهم. «كُلُوا من طيبـاتِ ما رزقناكم»، يقول: وقُلْنَا لهم: كُلُوا من حَلالٍ ما رَزَقْناكم، أيها الناسُ، وطَيَّبْنَاهُ لكم. «وما ظَلَمُونا ولكنْ كانوا أنفسَهُمْ يَظلمون»، وفي الكلام محذوفٌ، ترك ذكره استغناءً بما ظهرَ عما ترك، وهو: «فأجِمُوا[1] ذلك، وقالوا: لَنْ نصبرَ على طعامٍ واحد، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ». «وما ظلمونا»، يقول: وما أَدْخَلُوا علينا نَقْصاً في ملكنا وسلطاننا بمسألتهم ما سألوا، وفِعْلِهم ما فعلوا. «ولكن كانـوا أنفسهم يظلمـون»، أي: ينقصونها حُظُوظَها باستبدالهم الأدنى بالخيرِ، والأرذَلَ بالأفضل.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ

---

(١) يقال: «أجِمَ الطعامَ يأجمه أجماً»، إذا كرهَهُ ومَلَّهُ من طول المداومة عليه.

لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ أيضاً، يا محمدُ، من خطأ فِعْلِ هؤلاء القـوم ، وخِلافهم على رَبِّهم، وعصيانهم نبيَّهم موسى عليه السلام، وتبديلهم القولَ الذي أمروا أنْ يقولوه حين قالَ الله لهم: «اسكنوا هذه القرية»، وهي قرية بيتِ المقدس. «فكلوا منها»، يقول: من ثمارها وحبوبها ونباتها. «حيث شئتم»، منها، يقول: أنَّى شِئْتُمْ منها. «وقولوا حِطَّةٌ»، يقول: وقولوا: هذه الفعلة «حِطَّةٌ»، تحطُّ ذنوبَنا. «نغفر لكم»، يَتَغَمَّدْ لكم رَبُّكم. «ذنوبكم»، التي سَلَفَتْ منكم، فيعفو لكم عنها، فلا يؤاخذكم بها. «سنزيدُ المحسنين»، منكم، وهم المطيعونَ لله، على ما وَعَدْتُكم من غفران الخطايَا.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

يقـول تعـالى ذِكْرُه: فَغَيَّرَ الذين كفروا بالله منهم ما أَمَرَهُم اللهُ به من القولِ ، فقالوا ـ وقد قيل لهم: قولوا: هذه حطة ـ: «حنطة في شعيرة». وقولهم ذلكَ كذلك، هو غيرُ القولِ الذي قيلَ لهم قولوه. يقول الله تعالى: «فأرسلنا عليهم رِجْزاً من السماءِ»، بَعثنا عليهم عذاباً، أهلكناهم بما كانوا يُغَيِّرُونَ ما يُؤْمَرُونَ به، فيفعلون خِلافَ ما أمرهم اللهُ بفعله، ويقولون غير الذي أمرهم الله بفعله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم

بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: واسأل، يا محمدُ، هؤلاءِ اليهود، وهم مُجَاوِرُوكَ، عن أمرِ «القريةِ التي كانت حاضرةَ البحرِ»، يقول: كانت بحضرةِ البحرِ، أي بقربِ البحرِ وعلى شاطئه.

وقوله: «إذ يَعْدُونَ في السبتِ»، يعني به أهله، إذ يعتدون في السبت أمرَ الله، ويتجاوزونه إلى ما حَرَّمَهُ الله عليهم.

وكان اعتداؤهم في السبت: أنَّ الله كانَ حَرَّمَ عليهم السبت، فكانوا يصطادونَ فيه السمكَ.

«إذْ تأتيهم حِيتانُهم يومَ سَبْتِهم شُرَّعاً»، يقول: إذْ تأتيهم حيتانهم يومَ سبتهم الذي نُهُوا فيه العملَ. «شُرَّعاً»، يقول: شارعة ظاهرةً على الماء من كُلِّ طريقٍ وناحيةٍ، كشوارع الطرق.

وقوله: «ويومَ لا يَسْبِتُونَ»، يقول: ويوم لا يعظمونه تعظيمهم السَّبتَ، وذلك سائر الأيامِ غير يومِ السبت. «لا تأتيهم»، الحيتانُ. «كذلك نَبْلُوهم بما كانوا يَفْسُقُونَ»، يقول: كما وصفنا لكم من الاختبارِ والابتلاءِ الذي ذكرنا، بإظهارِ السمكِ لهم على ظهرِ الماء في اليومِ المُحَرّمِ عليهم صَيْدُه، وإخفائه عنهم في اليوم المُحَلَّلِ صيدُه. «كذلك نبلوهم»، ونختبرهم. «بما كانوا يفسقون».

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذْكُرْ أيضاً، يا محمدُ. «إذْ قالت أمةٌ

منهم»، جماعةٌ منهم لجماعةٍ كانت تَعِظُ المعتدينَ في السبتِ، وتَنْهاهم عن معصيةِ الله فيه. «لِمَ تَعِظُونَ قوماً اللهُ مُهْلِكُهم»، في الدنيا بمعصيتِهم إياهُ، وخلافِهم أَمْرَهُ، واستحلالهم ما حرم عليهم. «أو مُعَذِّبُهم عذاباً شديداً»، في الآخرة، قال الذين كانوا يَنْهونهم عن معصيةِ الله مُجيبيهم عن قولهم: عظتنا إياهُم معـذرةٌ إلى رَبِّكم، نؤدِّي فَرْضَهُ علينا في الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكـر. «ولعلهم يتقـون»، يقول: ولعلهم أنْ يَتَّقُوا اللهَ فيخافوه، فَيُنِيبُوا إلى طاعته، ويتوبوا من معصيتِهم إيَّاهُ، وتَعَدِّيهم على ما حرَّم عليهم من اعتدائِهم في السبت.

«ولعلهم يتقون»، أي: ينزعونَ عَمَّا هُمْ عليه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ



يقول تعالى ذِكْرُه: فلما تركت الطائفةُ التي اعتدت في السبتِ ما أمرَها اللهُ به من تركِ الاعتداءِ فيه، وضيَّعت ما وَعَظَتْها الطائفةُ الواعظةُ وذكَّرتها به، من تحذيرِها عقوبةَ اللهِ على معصيتها، فتقدَّمَتْ على استحلالِ ما حرم الله عليهـا، أنجى اللهُ الـذين يَنْهَـوْنَ منهم عن «السوء» - يعني عن معصيةِ الله واسْتحلال حِرْمه[1]. «وأخذنا الذين ظلموا»، يقول: وأخذَ اللهُ الذين اعتدوا في السبت، فاستحلُّوا فيه ما حَرَّمَ اللهُ من صيدِ السمكِ وأكلِه، فأحلَّ بهم بأسَهُ، وأهلكهم بعذابٍ شديدٍ بئيسٍ بما كانوا يخالفونَ أمرَ الله، فيخرجون من طاعتِهِ إلى معصيتِهِ، وذلك هو «الفِسْق».

(١) الحِرْم: هو الحرام.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما تَمَرَّدُوا، فيما نهوا عنه من اعتدائهم في السبت، واستحلالهم ما حَرَّمَ اللهُ عليهم من صيدِ السمكِ وأكلِه، وتمادوا فيه. «قلنا لهم كُونوا قِردةً خاسئين»، أي: بُعَداء من الخير.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وإذْ تَأَذَّنَ»، واذكُرْ، يا محمدُ، إذْ آذَنَ ربُّكَ، وأعلمَ.

وقوله: «لَيَبْعَثَنَّ عليهم»، يعني: أعلم ربك ليبعثَنَّ على اليهودِ مَنْ يَسُومُهم سُوءَ العذابِ. قيل: إنَّ ذلك، العربُ، بَعَثَهُمُ اللهُ على اليهودِ، يقاتلون مَنْ لم يُسْلِمْ منهم ولم يُعْطِ الجزيةَ، ومَنْ أعطى منهم الجزيةَ كان ذلك له صَغاراً وذِلَّةً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ ربكَ، يا محمدُ، لسريعُ عقابُه إلى مَن استوجبَ منه العقوبة على كُفْرِه به ومعصيته. «وإنه لغفورٌ رحيم»، يقول: وإنه لَذُو صَفْحٍ عن ذنوبِ مَنْ تابَ من ذنوبِه، فأنابَ وراجعَ طاعته، يستر عليها بعفوه عنها.

«رحيمٌ»، له، أنْ يعاقبه على جُرْمِه بعد توبتِهِ منها، لأنه يقبلُ التوبةَ ويُقِيلُ العَثْرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وفَرَّقْنَا بني إسرائيلَ في الأرضِ. «أمماً» يعني: جماعاتٍ شتى مُتَفَرِّقِينَ.

وقوله: «منهم الصالحون»، يقول: مِنْ هؤلاء القومِ الذينَ وَصَفَهم اللهُ من بني إسرائيل. «الصالحون»، يعني: مَنْ يؤمنُ باللهِ ورسُلِه. «ومنهم دون ذلك»، يعني: دون الصالح.

وإنما وصفهم الله جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم كانوا كذلك قبلَ ارتدادِهم عن دِينهم، وقبل كُفْرِهم بربهم، وذلك قبل أنْ يُبْعَثَ فيهم عيسى بن مريم صلوات الله عليه.

وقوله: «وبلونَاهُمْ بالحسناتِ والسيئاتِ لعلَّهم يرجعون»، يقول: واختبرناهم بالرخاءِ في العيش، والخَفْضِ في الدنيا والدَّعةِ، والسَّعَةِ في الرزق، وهي «الحسنات» التي ذكرها جَلَّ ثناؤُهُ - ويعني بـ«السيئات»، الشدة في العيش، والشظف فيه، والمصائب والرزايا في الأموال. «لعلَّهم يرجعون»، يقول: ليرجِعُوا إلى طاعةِ رَبِّهم ويُنِيبُوا إليها، ويتوبوا من معاصيه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ

يقول تعالى ذِكْرُه: فَخَلَفَ من بعدِ هؤلاءِ القومِ الذين وَصَفَ صِفَتَهُم. «خَلْفٌ»، يعني: خَلفُ سوءٍ. يقول: حَدَثَ بعدهم وخلافَهم، وتبدل منهم، بَدَلُ سَوْءٍ.

فتأويلُ الكلام إذاً: فتبدَّلَ من بعدهم بَدَل سوء، ورثوا كتابَ الله فَعُلِّمُوه، وضَيَّعُوا العملَ به، فخالفوا حُكْمَهُ، يُرْشَون في حكم الله، فيأخذون الرشوةَ فيه من عَرَض هذا العاجلِ «الأدنى»، - يعني بـ«الأدنى» الأقرب من الآجل الأبعد. ويقولون إذا فعلوا ذلك: إنَّ الله سيغفرُ لنا ذنوبَنا، تمنِّياً على اللهِ الأباطيلَ، كما قال جَلَّ ثناؤُهُ فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. «وإنْ يَأْتِهم عَرَضٌ مِثْلُه يأخذُوه»، يقول: وإنْ شرع لهم ذَنْبٌ حرامٌ مثله من الرشوةِ بعد ذلكَ، أخذُوه واستحلُّوه ولم يَرْتَدِعُوا عنه. يخبرُ جَلَّ ثناؤُهُ عنهم أنهم أهلُ إصرارٍ على ذُنوبِهم، وليسوا بأهلِ إنابةٍ ولا تَوْبة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «ألم يُؤْخَذْ»، على هؤلاء المرتشينَ في أحكامهم، القائلينَ: «سيغفر الله لنا فِعْلَنا هذا»، إذا عُوتِبُوا على ذلك. «ميثاقُ الكتاب»، وهو أخذُ اللهِ العهودَ على بني إسرائيلَ، بإقامةِ التوراةِ، والعملِ بما فيها. فقال جَلَّ ثناؤُهُ لهؤلاءِ الذين قَصَّ قصتهم في هذه الآية، مُوَبِّخاً على خِلافِهم أمرَهُ، ونقضِهم عهدَهُ وميثاقه: ألم يأخُذ اللهُ عليهم ميثاقَ كتابِه، ألَّا يقُولُوا على الله

إلَّا الحق، ولا يُضيفوا إليه إلَّا ما أنزلَهُ على رسولهِ موسى ﷺ في التوراةِ، وأنْ لا يكذبُوا عليه؟

وأما قوله: «ودَرَسُوا ما فيه»، فإنه معطوفٌ على قولهِ: «وَرِثُوا الكتابَ»، ومعناه: «فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتابَ»، «ودرسوا ما فيه»، - ويعني بقوله: «ودرسوا ما فيه»، قَرَأُوا ما فيه، يقول: ورثوا الكتابَ فعلمُوا ما فيه ودَرَسُوه، فضيَّعُوه وتركوا العملَ به، وخالفوا عهدَ الله إليهم في ذلك.

«والدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتقون»، يقول جَلَّ ثناؤُهُ: وما في الدارِ الآخرةِ، وهو ما في المَعَادِ عند الله، مما أعَدَّ لأوليائهِ، والعاملينَ بما أنزل في كتابه، المحافظينَ على حدودِه. «خيرٌ للذين يتقون الله»، ويخافونَ عِقابَهُ، فيراقبونه في أمرِه ونهيِه، ويطيعونه في ذلك كله في دنياهم. «أفلا يعقلون»[1]، يقول: أفلا يعقلُ هؤلاء الذين يأخذونَ عَرَضَ هذا الأدنى على أحكامِهم، ويقولون: «سَيُغْفَرُ لنا»، أنَّ ما عندَ الله في الدارِ الآخرة للمتقينَ العادلِينَ بين الناسِ في أحكامِهم، خيرٌ من هذا العَرَضِ القليلِ الذي يستعجلونَهُ في الدنيا على خِلافِ أمرِ الله، والقضاءِ بين الناسِ بالجور؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

واختلفت القَرَأةُ في قراءةِ ذلك.

فقرأ بعضهم: ﴿يُمْسِكُونَ﴾ بتخفيفِ الميم وتسكينها، من «أمْسَكَ يُمْسِكُ».

(١) «أفلا يعقلون» - بالياء - فهذه قراءته لها خلافاً لما جاء في المصحف، لذلك تركناها كما هي.

وقرأه آخرون: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾، بفتح الميم وتشديد السين، من «مَسَّكَ يُمَسِّكُ»[1].

ويعني بذلك: والذين يعملون بما في كتابِ الله. «وأقاموا الصلاةَ»، بحدودها، ولم يُضَيِّعُوا أوقاتَها. «إنَّا لا نُضيعُ أجرَ المصلحين». يقول تعالى ذِكْرُه: فمن فعلَ ذلك من خَلْقِي، فإني لا أضيعُ أجرَ عمله الصالح.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكُرْ، يا محمدُ، إذ اقتلعنا الجبلَ فرفعناهُ فوقَ بني إسرائيلَ، كأنه ظُلَّةُ غمامٍ من الظِّلال ـ وقلنا لهم: «خذُوا ما آتيناكم بقوة»، من فرائِضِنا، وألزمناكم من أحكامِ كتابِنَا، فاقبلوه، اعملوا باجتهادٍ منكم في أدائِه، من غيرِ تقصيرٍ ولا توانٍ. «واذكروا ما فيه»، يقول: ما في كتابنا من العهودِ والمواثيقِ التي أخذنا عليكم بالعملِ بما فيه. «لعلكم تتقون»، يقول: كي تَتَّقُوا رَبَّكم، فتخافُوا عقابه بترككم العملَ به إذا ذكرتم ما أخذَ عليكم فيه من المَواثيق.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

---

(٢) لم يُرجِّحْ أبو جعفر الطبري إحدى القراءتين، ومعنى ذلك جوازهما عنده، فبأيِّهما قرأ القارىء فهو مصيبٌ.

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: واذْكُرْ، يا محمدُ، رَبَّكَ إذ استخرج ولـد آدم من أصلابِ آبائهم، فقرَّرهم بتوحيدِه، وأشْهَدَ بعضَهم على بعضٍ شهادَتَهم بذلك وإقرارَهم به.

(وأمـا قولـه جَلَّ ثناؤُهُ): «شهدنا أنْ تقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كُنَّا عن هذا غافلين»، فالظاهرُ يدلُّ على أنه خبرٌ من الله عن قِيلِ بني آدمَ بعضِهم لبعضٍ، لأنه جَلَّ ثناؤُهُ قال: «وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا»، فكأنه قِيلَ: فقال الذين شَهِدُوا على المُقرِّينَ حين أَقَرُّوا فقالوا: «بلى» ـ: شهدنا عليكم بما أقررتُمْ به على أنفسِكم، كيلا تقولوا يومَ القيامةِ إنَّا كنا عن هذا غافلين.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: شهدنا عليكم، أيها المُقِرُّونَ بأنَّ الله ربكم، كيلا تقولوا يومَ القيامة: «إنَّا كُنَّا عن هذا غافلينَ»، إنا كُنَّا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلةٍ منه. «أو تقولوا إنما أشركَ آباؤُنا من قَبْلُ وكنا ذُريةً من بعدهم»، اتَّبَعْنَا منهـاجَهم. «أَفَتُهْلِكُنَـا»، بإشراكِ مَنْ أشركَ من آبائنا، واتباعنا منهاجَهم على جهلٍ مِنَّا بالحق؟

ويعني بقوله: «بما فعلَ المُبْطِلُونَ»، بما فَعَلَ الذين أبطلوا، في دَعواهم إلهاً غيرَ الله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وكما فَصَّلْنَا، يا محمدُ، لقومكَ آيات هذه السورة، وبيَّنا فيها ما فعلنا بالأممِ السالفةِ قبلَ قومك، وأحْلَلْنَا بهم من المَثُلات بكفرهم وإشراكهم في عبادتي غيري، كذلك نُفَصِّلُ الآياتِ غيرها ونُبَيِّنُها لقومكَ، لينزجروا ويرتدعوا، فَيُنِيبُوا إلى طاعتي، ويتوبوا من شِرْكِهم وكفرهم، فيرجعوا إلى الإيمانِ والإقرارِ بتوحيدي، وإفرادِ الطاعة لي، وتركِ عبادةِ ما سواي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ ﷺ: «واتْلُ»، يا محمدُ، على قومكَ. «نبأَ الذي آتيناهُ آياتِنَا»، يعني خبره وقصته.

وكانت آياتُ الله للذي آتاهُ الله إياها فيما يقال: اسم الله الأعظم ـ وقيل: النبوّة.

وأما قوله: «فانسلخ منها»، فإنه يعني: خرجَ من الآياتِ التي كان اللهُ آتاهَا إياهُ، فتبرَّأ منها.

وقوله: «فأتبعه الشيطانُ»، يقول: فصيَّرهُ لنفسه تابعاً ينتهي إلى أمرِه في معصية الله، ويخالفُ أمرَ رَبِّه في معصيةِ الشيطانِ وطاعةِ الرحمن.

وقوله: «فكان من الغاوين»، يقول: فكانَ من الهالكينَ، لضلالهِ وخلافهِ أمرَ رَبِّه، وطاعة الشيطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولو شِئنا لرفعنا هذا الذي آتيناهُ آياتنا بآياتنا التي آتيناهُ. «ولكنه أخلدَ إلى الأرض»، يقول: سَكَنَ إلى الحياةِ الدنيا في الأرض، وما إليها، وآثَرَ لَذَّتَها وشهواتِها على الآخرةِ. «واتَّبَعَ هَواهُ»، ورفضَ طاعةَ اللهِ وخالَفَ أمرَهُ.

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «ولو شئنا لرفعناه بها».

فقال بعضهم: معناه: لرفعناه بعِلْمِه بها.

وقال آخرون: معناه: لرفعنَا عنه الحالَ التي صارَ إليها من الكفرِ بالله، بآياتنا.

وأَوْلى الأقوالِ في تأويل ذلك بالصوابِ أنْ يقالَ: إنَّ الله عَمَّ الخبرَ بقوله: «ولو شئنا لرفعناه بها»، أنه لو شاء رفعه بآياتِهِ التي آتاهُ إياها، و«الرفع»، يَعمُّ معانيَ كثيرة: منها الرفعُ في المنزلةِ عِنْدَهُ، ومنها الرفعُ في شرفِ الدنيا ومكارمِها، ومنها الرفعُ في الذِّكْرِ الجميل والثَّناءِ الرفيع. وجائزٌ أنْ يكونَ اللهُ عَنى كلَّ ذلك: أنه لو شاء لرفعه، فأعطاهُ كُلَّ ذلك، بتوفيقِهِ للعملِ بآياتِهِ التي كان آتاهَا إياهُ. وإذْ كان ذلك جائزاً، فالصوابُ من القولِ فيه أنْ لا يُخَصَّ منه شيء، إذْ كان لا دلالةَ على خصوصِه من خبرٍ ولا عقلٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث

يقول تعالى ذِكْرُه: فمثل هذا الذي آتيناهُ آياتِنَا فانسلخَ منها، مثلُ الكلبِ الذي يَلْهَثُ، طَرَدْتَهُ أو تَرَكْتَهُ.

ثم اختلف أهلُ التأويلِ في السبب الذي من أجله جَعَلَ اللهُ مثَله كمثلِ الكلب.

فقال بعضهم: مَثَّلَهُ به في اللهثِ، لتركهِ العملَ بكتابِ اللهِ وآياتِه التي آتاها إياهُ، وإعراضِه عن مواعظِ الله التي فيها إعراضُ مَنْ لم يُؤْتِه اللهُ شيئاً من ذلك. فقال جَلَّ ثناؤُهُ فيه، إذْ كان سواء أمرُه، وُعِظَ بآياتِ الله التي آتاها إياهُ أو لَمْ يُوعَظْ، في أنه لا يتَّعظُ بها، ولا يتركُ الكفرَ به: فمثله مثل الكلبِ الذي سواءٌ أمره في لهثه، طُرِدَ أو لم يُطْرَدْ، إذْ كان لا يتركُ اللهثَ بحالٍ.

وقال آخرون: إنما مَثَّلَهُ جَلَّ ثناؤُهُ بالكلبِ، لأنه كان يلهثُ كما يلهثُ الكلبُ.

وأوْلى التأويلين في ذلك بالصوابِ، تأويلُ مَنْ قال: إنما هو مَثَلٌ لتركه العمل بآياتِ الله التي آتاها إياهُ، وأنَّ معناه: سواء وُعِظَ أو لَمْ يُوعَظْ، في أنه لا يتركُ ما هُوَ عليه من خلافِه أمرَ ربِّهِ، كما سواءٌ حُملَ على الكلبِ وطُرِدَ أو تُرِكَ فلم يُطْرَدْ، في أنه لا يَدَعُ اللهثَ في كِلْتَا حالتيه.

وإنما قلنا: ذلك أوْلى القولين بالصوابِ، لدلالةِ قولِه تعالى: «ذلك مَثَلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بآياتنا»، فجعلَ ذلك مثلَ المكذِّبينَ بآياته. وقد علمنا أن اللُّهاثَ ليس في خِلْقَةِ كُلِّ مُكَذِّبٍ كُتب عليه تركُ الإنابةِ من تكذيبِهِ بآياتِ الله، وأنَّ ذلك إنما هو مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لهم. فكان معلوماً بذلك أنّه للذي وصفه الله صِفَتَهُ في هذه الآية، كما هو لسائرِ المكذبينَ بآياتِ الله، مَثَلٌ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: هذا المثلُ الذي ضربتُه لهذا الذي آتيناهُ آياتِنا فانسلخَ منها، مثلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بحُجَجِنَا وأعلامِنا وأدِلَّتِنَا، فَسَلَكُوا في ذلك سبيلَ هذا المُنْسَلخِ من آياتنا الذي آتيناها إياهُ، في تركه العملَ بما آتيناهُ من ذلك.

وأما قوله: «فاقْصُصِ القَصَصَ»، فإنه يقولُ لنبيه محمدٍ ﷺ: فاقصص، يامحمـدُ، هذا القصصَ الذي اقتصصْتُه عليكَ ـ من نبأ الذي آتيناهُ آياتنا وأخبارَ الأمم التي أخبرتكَ أخبارَهم في هذه السورة، واقتصَصْتُ عليك نبأَهم ونبأَ أشباهِهم، وما حَلَّ بهم من عقوبتنا، ونزلَ بهم حين كَذَّبُوا رُسُلَنا من نقمتنا ـ على قومكَ من قريش، ومَنْ قِبَلَكَ من يهـودِ بني إسرائيل، ليتفكَّرُوا في ذلك، فيعتبروا ويُنِيبُـوا إلى طاعتنـا، لئـلا يحـلَّ بهم مثل الذي حلَّ بِمَنْ قَبْلَهُم من النِّقمِ والمَثُلاتِ، ويتدبَّرهُ اليهودُ من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقةَ أمركَ وصحَّةَ نبوَّتِكَ، إذْ كان نبأ «الذي آتيناهُ آياتنا»، مِنْ خَفِيِّ عُلومهم، ومكنون أخبارهم، لا يعلمه إلَّا أحبارُهم، ومَنْ قرأ الكُتبَ ودَرَسَها منهم. وفي عِلْمِكَ بذلك ـ وأنتَ أميٌّ لا تكتبُ، ولا تقرأ، ولا تدرسُ الكتبَ، ولم تجالِسْ أهلَ العلم ـ الحجّةُ البَيِّنَةُ لكَ عليهم بأنكَ للهِ رسولٌ، وأنك لم تعلم ما علِمتَ من ذلك وحالُك الحال التي أنت بها، إلَّا بوحيٍ من السماء.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧﴾

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: ساءَ مثـلاً القـومُ الذين كَذَّبُوا بحججِ الله وأدلته فجحدوها، وأنفسَهم كانوا ينقصُونَ حظوظَها ويبخسونها منافعَها، بتكذيبهم بها، لا غيرها.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝١٧٨﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: الهدايةُ والإضلالُ بيدِ الله، و«المهتدي» ـ وهو السالكُ

سبيلَ الحق، الراكبُ قصدَ المحجّةِ - في دينه، مَنْ هَداهُ الله لذلك فوفّقهُ لإصابتِه، والضالُّ مَنْ خَذَلَهُ الله فلم يُوَفِّقْهُ لطاعتِه. ومَنْ فعلَ الله ذلك به فهو «الخاسرُ»، يعني الهالكُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ولقد خلقنا لجهنَّمَ كثيراً من الجِنِّ والإنس.

وقال جَلَّ ثناؤُهُ: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس»، لنفاذِ عِلْمِه فيهم بأنهم يَصيرونَ إليها بكُفْرِهم بربِّهم.

وأما قوله: «لهم قلوبٌ لا يفقهون بها»، فإنَّ معناه: لهؤلاءِ الذينَ ذَرَأَهمُ الله لجهنمَ مِنْ خَلْقِه، قلوبٌ لا يتفكَّرونَ بها في آياتِ الله، ولا يتدبَّرُونَ بها أدِلَّتَهُ على وَحْدَانيتِه، ولا يعتبرونَ بها حُجَجَهُ لرسُلِه، فيعلموا توحيدَ ربِّهم، ويعرفوا حقيقةَ نبوّةِ أنبيائهم. فوصفهم ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ بأنهم: «لا يفقهونَ بها»، لإعراضِهم عن الحَقِّ، وتَرْكِهم تدبُّرَ صِحَّةِ نبوّةِ الرسل، وبُطُولِ الكفر.

وكذلك قوله: «ولهم أعينٌ لا يُبصرونَ بها»، معناه: ولهم أعينٌ لا ينظرونَ بها إلى آياتِ الله وأدلته، فيتأمَّلُوها، ويتفكَّرُوا فيها، فيعلموا بها صِحَّةَ ما تَدْعُوهم إليه رُسُلهم، وفسادِ ما هُمْ عليه مقيمون، من الشركِ باللهِ، وتكذيبِ رسله. فوصفهم الله بتركهم إعمالَها في الحقِّ، أنهم لا يُبْصِرُونَ بها.

وكذلك قوله: «ولهم آذانٌ لا يسمعونَ بها»، آياتِ كتابِ الله، فيعتبروها ويَتفكَّرُوا فيها، ولكنهم يُعْرِضُونَ عنها ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وذلك نظير وَصْفِ اللهِ إيَّاهم في موضعٍ آخرَ بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. والعربُ تقول ذلك للتاركِ استعمالَ بعضِ جوارِحه فيما يصلحُ له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «أولئك كالأنعام»، هؤلاء الذين ذَرَأهم لجهنَمَ، هُمْ كالأنعامِ، وهي البهائمُ التي لا تفقه ما يُقالُ لها، ولا تفهمُ ما أبصرته، لما يَصْلُح ولما لا يَصْلُح، ولا تعقلُ بقلوبها الخيرَ من الشرِّ، فتميز بينهما. فَشَبَّههم اللهُ بها، إذْ كانوا لا يتذكَّرونَ ما يرون بأبصارهم من حُجَجِه، ولا يتفكَّرونَ فيما يسمعون من آي كتابهِ. ثم قال: «بَلْ هُمْ أضَلُّ»، يقول: هؤلاء الكَفَرَةُ الذين ذَرَأهم لجهنَمَ، أشدُّ ذهاباً عن الحقِّ، وألزم لطريقِ الباطلِ، من البهائمِ، لأنَّ البهائمَ لا اختيارَ لها ولا تمييزَ فتختار وتميز، وإنما هي مُسَخَّرةٌ، ومع ذلك تهربُ من المضارِّ، وتطلبُ لأنفسها من الغذاءِ الأصلحَ. والذين وصفَ الله صِفَتهم في هذه الآية، مع ما أُعْطُوا من الأفهام والعقولِ المميِّزةِ بين المصالح والمضارِّ، تترك ما فيه صلاحُ دنياها وآخرتها، وتطلب ما فيه مضارّها، فالبهائمُ منها أشدُّ، وهي منها أضَلّ، كما وصفها به ربُّنا جَلَّ ثناؤُهُ.

وقوله: «أولئك هم الغافلون» يقول تعالى ذِكْرُه: هؤلاء الذين وصفتُ صِفَتَهم، القومُ الذين غفلوا ـ يعني: سهوا ـ عن آياتي وحججي، وتركوا تَدَبُّرَها والاعتبارَ بها والاستدلالَ على ما دلَّتْ عليه من توحيدِ رَبِّها، لا البهائم التي قد عَرَّفَها رَبُّها ما سَخَّرها له.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

يقول تعالى ذِكْرُه: «ولله الأسماءُ الحسنى»، وهي كما قال ابنُ عباس: ومن أسمائه: «العزيز الجبار» وكُلُّ أسمائه حَسَنٌ. (وما رواه) أبو هريرة، عن رسولِ الله ﷺ قال: إنَّ للهِ تسعةً وتسعينَ اسماً، مئة إلا واحداً، مَنْ أحصاها كُلَّها دخلَ الجنة[1]

وأما قوله: «وذَرُوا الذين يُلْحِدُونَ في أسمائِه»، فإنه يعني به المشركينَ.

وكان إلحادُهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عَمَّا هيَ عليه، فَسَمَّوْا بها آلهتهم وأوثانَهم، وزادُوا فيها، ونَقَصُوا منها، فَسَمَّوْا بعضَها «اللات»، اشتقاقاً منهم لها من اسمِ اللهِ الذي هو «الله»، وسَمَّوْا بعضَها «العُزَّى»، اشتقاقاً لها من اسم الله الذي هو «العزيز».

واختلف أهلُ التأويل في تأويل قوله: «يلحدون».

فقال بعضهم: يُكَذِّبُونَ.

وقال آخرون: معنى ذلك: يُشْرِكُون.

وأصلُ «الإلحاد» في كلامِ العربِ، العدولُ عن القَصْدِ، والجورُ عنه، والإعراضُ. ثم يستعملُ في كل مُعْوَجٍّ غيرِ مستقيم. ولذلك قِيل لِلَحْدِ القبرِ: «لَحْدٌ»، لأنه في ناحيةٍ منه، وليس في وسطه. يقال منه: «ألحدَ فلانٌ يُلْحِد إلحاداً»، «ولَحد يَلْحَدُ لَحْداً ولُحُوداً.

---

(١) أخرجه المؤلف من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة (١٥٤٥٢)، وكذلك مسلم ( ) وأخرجه البخاري (٦٤١٠) ومسلم ( ) من طريق الأعرج عن أبي هريرة.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٨١﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: ومن الخَلْقِ الذين خَلَقْنَا «أمةٌ»، يعني جماعةٌ. «يَهْدُونَ»، يقول: يهتدونَ بالحقِّ. «وبه يَعْدِلُونَ»، يقول: وبالحَقِّ يَقْضُونَ ويُنصفونَ الناس.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: والذين كَذَّبُوا بأدلتنا وأعلامِنا فَجَحَدُوها، ولم يتذكَّروا بها، سَنُمْهِلُه بغِرَّتِه، ونُزَيِّنُ له سوءَ عملِه، حتى يحسبَ أنه فيما هوَ عليه من تكذيبِه بآياتِ الله إلى نفسه مُحْسِنٌ، وحتى يبلغَ الغايةَ التي كُتِبتْ له من المَهَلِ، ثم يأخذُه بأعمالِه السيئة، فيجازِيه بها من العقوبةِ ما قَدْ أعدَّ له. وذلك استدراجُ الله إياهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وأُؤخرُ هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا.

وأصل «الإملاء» من قولهم: «مضى عليهم مَلِيٌّ، ومِلاوةٌ ومُلاوَة ومَلاوة» بالكسر والضم والفتح ـ «من الدهر»، وهي الحِينُ، ومنه قيل: انتظرتُكَ مَلِياً. ليبلغوا بمعصيتهم رَبَّهم، المقدارَ الذي كتبَهُ لهم من العقابِ والعذابِ. «إن كيدي»، والكيدُ هو المكرُ. وقوله: «متين»، يعني: قوي شديد.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَوَ لَمْ يتفكَّرْ هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا، فيتدبَّروا بعقولهم ويعلموا أنَّ رسولَنا الذي أرسلناه إليهم لا جِنَّةَ به ولا خَبَلَ، وأنَّ الذي دعاهم إليه هو الرأي الصحيح، والدينُ القويم، والحقُّ المبين؟

ويعني بقوله: «إنْ هُوَ إلَّا نذيرٌ مبين»، ما هو إلا نذيرٌ يُنْذِرُكم عقابَ الله على كُفْرِكم به، إنْ لم تُنِيبُوا إلى الإيمانِ به.

ويعني بقوله: «مبين»، قد أبانَ لكم، أيها الناسُ، إنذارُه ما أَنْذَرَكُمْ به من بأسِ الله على كُفْرِكم به.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أَوَ لَمْ يَنْظُرْ هؤلاءِ المُكَذِّبُونَ بآياتِ الله، في ملكِ الله وسلطانِه في السمواتِ وفي الأرضِ، وفيما خَلَقَ جَلَّ ثناؤُهُ من شيءٍ فيهما، فيتدبَّرُوا ذلكَ، ويعتبروا به، ويعلموا أنَّ ذلك لِمَنْ لا نظيرَ له ولا شبيه، ومِنْ فِعْلِ مَنْ لا ينبغي أنْ تكونَ العبادةُ والدينُ الخالصُ إلَّا له، فيؤمنُوا به، ويُصَدِّقُوا رسولَهُ ويُنِيبُوا إلى طاعته، ويخلعوا الأندادَ والأوثانَ، ويحذرُوا أنْ تكونَ آجالهم قد اقتربَتْ، فيهلكُوا على كُفْرِهم، ويصيرُوا إلى عذابِ الله وأليمِ عقابه.

وقوله: «فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون»، يقول: فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرِ ترهيبٍ بعدَ تحذيرِ محمدٍ ﷺ وترهيبه الذي أَتَاهُمْ به من عندِ الله في آي كتابه،

يُصَدِّقُونَ، إنْ لم يُصَدِّقُوا بهذا الكتابِ الذي جاءهم به محمدٌ ﷺ من عند الله تعالى؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: إنَّ إعراضَ هؤلاء الذين كَذَّبُوا بآياتنا، التاركي النظر في حججِ الله والفكرِ فيها، لإضلالِ اللهِ إياهم، ولو هَدَاهُم اللهُ لاعْتَبَرُوا وتَدَبَّرُوا فأبصرُوا رُشْدهم، ولكنَّ الله أضلَّهم، فلا يُبصرونَ رشداً ولا يهتدون سبيلاً، ومَنْ أضَلَّه عن الرشادِ فلا هاديَ له إليه، ولكنَّ الله يَدَعُهم في تَمَادِيهم في كُفْرِهم، وتمرُّدِهم في شِرْكِهم، يَتردَّدُونَ، ليستوجِبُوا الغايةَ التي كتبها اللهُ لهم من عقُوبته وأليمِ نَكاله.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾

(يعني جَلَّ ثناؤُه): يسألك القومُ الذين يسألونكَ عن الساعةِ: «أيَّانَ مُرْسَاها»؟ يقول: متى قيامُها؟

وأما قوله: «قُلْ إنَّما عِلْمُها عند ربي لا يُجَلِّيها لوقتها إلاَّ هُوَ»، فإنه أمرٌ من الله نبيَّه محمداً ﷺ بأنْ يُجيبَ سائليه عن الساعةِ بأنه لا يعلمُ وقتَ قيامها إلا اللهُ الذي يعلمُ الغيبَ، وأنه لا يُظْهِرُهَا لوقتها ولا يَعْلَمُهَا غيرُه جَلَّ ذِكْرُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾

معنى ذلك: ثَقُلَتِ الساعةُ في السموات والأرضِ على أهلها، أنْ يَعرفُوا وقتَها وقيامَها، لأنَّ الله أخفى ذلك عن خَلْقِه، فلم يُطْلِعْ عليه منهم أحداً. وذلك أنَّ الله أخبرَ بذلك بعدَ قوله: «قُلْ إنما عِلْمُهَا عند ربي لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو»، وأخبر بعده أنها لا تأتي إلا بَغْتَةً، فالذي هو أوْلى: أن يكونَ ما بينَ ذلك أيضاً خبراً عن خفاءِ عِلْمِهَا عن الخَلْقِ، إذْ كان ما قبله وما بعده كذلك.

وأما قوله: «لا تأتيكم إلَّا بغتةً»، فإنه يقول: لا تجيءُ الساعةُ إلا فجأةً، لا تشعرونَ بمجيئها.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: يسألُكَ هؤلاءِ القومُ عن الساعةِ، كأنك حَفِيٌّ عنها، يعني: كأنك حَفِيٌّ[1] بالمسألةِ عنها فتعلمها.

وأما قوله: «قُلْ إنما عِلْمُهَا عند الله»، فإنَّ معناه: قُلْ، يا محمدُ، لسائليكَ عن وقتِ الساعة وحينِ مجيئها: لا علمَ لي بذلك، ولا عِلْمَ به إلَّا عند الله الذي يعلمُ غيبَ السموات والأرض. «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون»، يقول: ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون أنَّ ذلك لا يعلمُه إلا اللهُ، بَلْ يحسبونَ أنَّ عِلْمَ ذلكَ يوجدُ عند بعضِ خَلْقِه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١٨٨﴾

(١) الحَفِيُّ: العالم المُستقصي، ومنه قوله تعالى: ﴿إنه كان بي حَفِياً﴾.

يقـول تعـالى ذِكْـرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، لسائليكَ عن الساعةِ: «أيَّانَ مُرْسَاها؟» «لا أملكُ لنفسي نَفْعاً ولا ضَرًّا»، يقول: لا أقدرُ على اجتلابِ نفعٍ إلى نفسي، ولا دفع ضُرٍّ يحلُّ بها عنها، إلا ما شاء الله أنْ أملكه من ذلك، بأنْ يُقَوِّيني عليه ويُعِينني. «ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ»، يقول: لو كنتُ أعلمُ ما هو كائنٌ مما لم يَكُنْ بعد. «لاستكثرتُ من الخير»، يقول: لأعددتُ الكثيرَ من الخير.

ثم اختلف أهـلُ التـأويل في معنى «الخير» الـذي عَنَـاهُ الله بقـولـه: «لاستكثرتُ من الخير».

فقال بعضهم: معنى ذلك: لاستكثرتُ من العملِ الصالحِ.

وقـال آخرون: معنى ذلك: «ولو كنتُ أعلم الغيب»، لأعددتُ للسنةِ المجدبةِ من المُخْصِبَةِ، ولعرفتُ الغلاءَ من الرُّخْصِ، واستعددتُ له في الرُّخْصِ.

وقـوله: «وما مَسَّنيَ السُّوءُ»، يقول: وما مَسَّنيَ الضُّرُّ. «إنْ أنَا إلَّا نذيرٌ وبشير»، يقول: ما أنا إلَّا رسولُ لله أرسلني إليكم، أنذر عِقَابَهُ مَنْ عَصَاهُ منكم وخالف أمره، وأبشِّر بثوابهِ وكرامته مَنْ آمنَ به وأطاعه منكم.

وقوله: «لقومٍ يُؤمنون»، يقول: يُصَدِّقُونَ بأني للهِ رسولُ، ويُقِرُّونَ بحقيقةِ ما جئتهم به من عنده.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «هو الذي خَلَقكُم من نفسٍ واحدة»، يعني بـ«النفس الواحدة»، آدم.

ويعني بقـوله: «وجعلَ منها زوجَها»، وجعلَ من النفسِ الواحدةِ، وهو آدم. «زوجها»، حواء.

ويعني بقوله: «ليسكُنَ إليها»، ليأوي إليها، لقضاءِ حاجَتِه ولَذَّته.

ويعني بقوله: «فلما تَغَشَّاها»، فلما تَدَثَّرها لقضاءِ حاجتِهِ منها، فقضى حاجَتَهُ منها. «حَمَلَتْ حملاً خفيفاً»، وفي الكلام محذوفٌ، ترك ذكرُه استغناءً بما ظهرَ عما حذف، وذلك قولُه: «فلما تَغَشَّاهَا حملت»، وإنما الكلام: فلما تغشاها ـ فقضى حاجتَهُ منها ـ حَمَلَتْ.

وقـولـه: «حملت حملاً خفيفاً»، يعني بـ «خفة الحمل»، الماء الذي حملته حواء في رَحِمها من آدم، أنه كان حَمْلاً خفيفاً، وكذلك هو حملُ المرأة ماءَ الرجلِ، خفيفٌ عليها.

وأما قوله: «فَمَرَّتْ به»، فإنه يعني: استمرَّت بالماء، قامتْ به وقَعَدتْ، وأتَمَّت الحملَ.

ويعني بقوله: «فلما أثقلت»، فلما صارَ ما في بطنها من الحملِ الذي كان خفيفاً، ثقيلاً، ودَنَتْ وِلاَدَتُهَا.

«دَعَوَا الله رَبَّهُمَا»، يقول: نادى آدمُ وحواءُ رَبَّهُمَا وقالا: يا رَبَّنَا، «لَئِنْ آتَيْتَنَا صالحاً لنكونَنَّ من الشاكرين».

واختلف أهل التأويل في معنى «الصلاح»، الذي أقسم آدمُ وحواءُ عليهما السلام أنه إنْ آتاهما صالحاً في حَمْلِ حواء: لَنكونَنَّ من الشاكرين.

فقال بعضهم: ذلك هو أن يكونَ الحملُ غلاماً.

وقال آخرون: بل هو أنْ يكونَ المولودُ بشراً سَوِيًّا مثلهما، ولا يكون بهيمة.

والصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ الله أخبر عن آدمَ وحواء أنهما دَعَوَا الله رَبَّهما بحملِ حواء، وأقسما لئن أعطاهُمَا ما في بطنِ حواء، صالحاً، ليكونانِ للهِ من الشاكرينَ.

و«الصلاح»، قد يشمل معاني كثيرة: منها «الصلاح» في استواءِ الخَلْقِ، ومنها «الصلاح» في الدِّين، و«الصلاح»، في العقلِ والتدبير.

وإذْ كان ذلك كذلك، ولا خبرَ عن الرسولِ يُوجِبُ الحجةَ بأنَّ ذلك على بعضِ معاني «الصلاح» دونَ بعضٍ، ولا فيه من العقلِ دليلٌ، وَجَبَ أن يُعَمَّ كما عَمَّهُ اللهُ فيقال: إنهما قالا: «لَئِنْ آتيتَنا صَالحاً»، بجميعِ معاني «الصلاح».

وأما معنى قوله: «لنكونَنَّ من الشاكرين»، فإنه: لنكونَنَّ مِمَّنْ يَشْكُركَ على ما وهبتَ له من الولدِ صالحاً.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: فلما رَزَقَهُمَا اللهُ ولداً صالحاً كما سألا «جعلا له شُركاءَ فيما آتاهما»، ورَزَقَهُمَا.

ثم اختلف أهلُ التأويل في «الشركاء» التي جَعَلاها فيما أُوتيَا من المولود.

فقال بعضهم: جعلا له شُركاءَ في الاسم.

وقال آخرون: بل المعنيُّ بذلك: رجلٌ وامرأة من أهلِ الكفرِ من بني آدم، جعلا للهِ شُركاءَ من الآلهةِ والأوثانِ حين رَزَقهما ما رَزَقَهُمَا من الولدِ. وقالوا: معنى الكلام: «هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعَلَ منها زَوْجَها ليسكُنَ إليها فلما تَغَشّاها»، أي هذا الرجلُ - «حملت حملاً خفيفاً فلما أثقلت»، دَعَوْتُمَا الله رَبَّكُما. قالوا: وهذا مما ابْتُدِىءَ به الكلامُ على وجه الخطابِ، ثم رُدَّ إلى الخبرِ عن الغائبِ، كما قِيلَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] وقد بَيَّنّا نظائرَ ذلك بشواهدِه فيما مضى قَبْلُ.

وأَوْلى القولين بالصوابِ، قولُ مَنْ قالَ: عَنَى بقوله: «فلما آتاهُمَا صالحاً جعلا له شركاء» في الاسم، لا في العبادة - وأن المعنيَّ بذلك آدم وحواء، لإجماعِ الحُجَّةِ من أهلِ التأويلِ على ذلك.

فإنْ قال قائلٌ: فما أنتَ قائلٌ - إذْ كان الأمرُ على ما وصفت في تأويلِ هذه الآية، وأنَّ المعنيَّ بها آدم وحواء - في قوله: «فتعالى اللهُ عَمَّا يُشركون»؟ أهو استنكافٌ من الله أنْ يكونَ له في الأسماء شريك، أو في العبادة؟ فإنْ قلت: «في الأسماء»، دلَّ على فسادِه قوله: «أَيُشْرِكُونَ ما لا يخلقُ شيئاً وهم يُخْلَقُون»؟ فإنْ قلت: «في العبادة»، قيلَ لك: أفكانَ آدمُ أشركَ في عبادةِ اللهِ غيرَهُ؟

قيل له: إنَّ القولَ في تأويل قوله, «فتعالى الله عما يشركون»، ليس بالذي ظننتَ. وإنما القولُ فيه: فتعالى الله عما يُشْرِكُ به مشركُو العربِ من عَبَدَةِ الأوثانَ. فأمَّا الخبرُ عن آدم وحواء، فقد انقضى عند قولِه: «جَعَلا له شُركاء فيما آتاهما»، ثم استؤنف قوله: «فتعالى الله عما يشركون».

وأما قوله: «فتعالى الله عما يشركون»، فتنزيهٌ من اللهِ تباركَ وتعالى نفسَهُ، وتعظيمٌ لها عَمَّا يقول فيه المُبْطِلُونَ، ويَدَّعُونَ معه من الآلهةِ والأوثان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ١٩١﴾

يقـول تعالى ذِكْرُه: أَيُشْرِكُونَ في عبادةِ الله، فيعبدونَ معه «ما لا يَخلقُ شيئاً»، والله يَخْلقُهَا ويُنْشِئُهَا؟ وإنما العبادةُ الخالصةُ للخالقِ لا للمخلوق.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: أيشركُ هؤلاء المشركونَ في عبادةِ الله ما لا يَخْلُقُ شيئاً من خَلْقِ الله، ولا يستـطيعُ أنْ ينصـرهم إنْ أرادَ الله بهم سوءاً أو أَحلَّ بهم عقوبةً، ولا هو قادرٌ إنْ أرادَ به سوءاً نَصْرَ نفسِه ولا دَفْعَ ضُرٍّ عنها؟ وإنما العابدُ يعبـدُ ما يعبدُه لاجتلابِ نفعٍ منه أو لدفع ضُرٍّ منه عن نفسِه، وآلهتهم التي يعبدونها ويشركونها في عبادة الله، لا تنفعهم ولا تضرهم، بل لا تجتلبُ إلى نفسها نفعاً ولا تدفعُ عنها ضرًّا، فهي من نفع غير أَنْفُسِهَا أو دفعِ الضُّرِّ عنها أبعدُ؟ يُعَجِّبُ تباركَ وتعالى خَلْقَهُ من عظيمِ خطأ هؤلاءِ الذينَ يشركونَ في عبادَتِهم الله غيرَه.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ١٩٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه في وَصفِه وعَيْبِه ما يشركُ هؤلاءِ المشركونَ في عبادَتِهم ربَّهم إياهُ. ومِنْ صِفَتِه أنكم، أيها الناسُ، إنْ تَدْعُوهم إلى الطريقِ المستقيمِ والأمرِ الصحيحِ السديد لا يَتَّبِعُوكُمْ، لأنها ليست تعقلُ شيئاً، فتترك من الطُّرُقِ ما كانَ عن القصدِ مُنْعَدِلاً جائراً، وتركب ما كان مستقيماً سديداً.

وإنما أرادَ الله جَلَّ ثناؤُهُ بوصفِ آلهتهم بذلك من صِفَتِها، تَنْبيهَهُمْ على عظيمِ خَطَئِهم وقُبْحِ اختيارِهم. يقول جَلَّ ثناؤه: فكيف يهديكم إلى الرشاد مَنْ إنْ دُعيَ إلى الرشادِ وعُرِّفَهُ لم يَعْرِفْهُ، ولم يَفْهَمْ رشاداً من ضلالٍ، وكان سواءً دعاءُ داعِيه إلى الرشادِ وسكوته، لأنه لا يفهمُ دعاءه، ولا يسمعُ صوته، ولا يعقلُ ما يقالُ له. يقول: فكيف يُعْبَدُ مَنْ كانت هذه صِفَتُه، أم كيف يُشْكِل عظيمُ جَهْلِ مَن اتَّخَذَ ما هذهِ صِفَتُه إلهاً؟ وإنما الربُّ المعبودُ هو النافعُ مَنْ يَعْبُده، الضارُّ مَنْ يَعْصِيه، الناصرُ وَلِيَّهُ، الخاذلُ عَدُوَّهُ، الهادي إلى الرشادِ مَنْ أطاعَهُ، السامعُ دُعاءَ مَنْ دَعَاهُ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾

يقول جَلَّ ثناؤه لهؤلاءِ المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ، مُوَبِّخَهُمْ على عبادَتِهم ما لا يَضُرُّهُمْ ولا ينفعهم من الأصنام: «إنَّ الذين تدعون»، أيها المشركونَ، آلهةً - «من دونِ الله»، وتَعْبُدُونَها، شِرْكاً منكم وكُفْراً باللهِ. «عِبادٌ أمثالكم»، يقول: هم أملاكٌ لربِّكم، كما أنتم له مماليك. فإنْ كنتم صادقينَ أنها تَضُرُّ وتنفعُ، وأنها تستوجبُ منكم العبادةَ لنفعها إياكم، فليستجيبوا لِدُعَائِكم إذا دَعَوْتُموهم، فإنْ لم يستجيبوا لكم، لأنها لا تسمعُ دُعَاءَكم، فأيقِنُوا بأنها لا تنفعُ ولا تَضُرُّ، لأنَّ الضُّرَّ والنفعَ إنما يكونانِ مِمَّنْ إذا سُئِلَ سمعَ مسألةَ سائِله وأعطى

وأفْضَلَ، ومَنْ إذا شكي إليه من شيءٍ سمع، فَضَرَّ مَنِ استحقَّ العقوبةَ، ونَفَعَ من لا يستوجبُ الضُّرَّ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لهؤلاء الذين عَبَدُوا الأصنامَ من دونه، مُعَرِّفَهم جَهْلَ ما هُمْ عليه مُقيمونَ: أَلِأَصْنَامِكم هذه، أيها القومُ. «أرجلٌ يمشون بها»، فيسعونَ معكم ولكم في حوائِجكم، ويتصرفون بها في منافِعكم. «أم لهم أيدٍ يبطشونَ بها»، فيدفعونَ عنكم وينْصُرونَكُم بها عند قصد مَنْ يقصِدُكم بشرٍّ ومكروهٍ. «أمْ لَهُمْ أعينٌ يُبصرونَ بها»، فيُعَرِّفُونكم ما عاينوا وأبصروا مما تغيبونَ عنه فلا ترونه. «أم لهم آذانٌ يسمعونَ بها»، فيخبرونَكُمْ بما سمعوا دونكم مما لم تسمعوه. يقول جَلَّ ثناؤُه: فإنْ كانت آلهتكم التي تعبدونَها ليس فيها شيءٌ من هذه الآلاتِ التي ذكرتُها، والمُعَظَّمُ من الأشياء إنما يُعَظَّمُ لما يُرْجَى منه من المنافعِ التي توصل إليه بعض هذه المعاني عندكم، فما وجهُ عبادَتِكم أصنامَكم التي تعبدونها، وهي خالية من كُلِّ هذه الأشياء التي بها يُوصَلُ إلى اجتلابِ النفعِ ودَفْعِ الضر؟

وقوله: «قُلِ ادْعُوا شركاءَكم ثم كِيدُونِ»، قُلْ، يا محمدُ، لهؤلاء المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان: ادْعُوا شركاءَكم الذين جعلتموهم للهِ شُركاء في العبادة. «ثم كِيدونِ»، أنتم وهي. «فلا تُنْظِرُونِ»، يقول: فلا تؤخرونِ بالكيدِ والمكر، ولكن عَجِّلُوا بذلك. يُعْلِمُه جَلَّ ثناؤُهُ بذلك أنهم لن يضروه، وأنه قد عَصَمَهُ منهم، ويُعَرِّفُ الكَفَرَةَ به عَجزَ أوثانِهم عن نُصْرَةِ مَنْ بغى أولياءهم بسوءٍ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيه محمدٍ: قُلْ، يا محمد، للمشركينَ من عَبَدَةِ الأوثان. «إنَّ وَلِيِّيَ»، نَصِيري ومُعِيني وظَهيري عليكم. «الله الذي نَزَّلَ الكتابَ» عليَّ بالحق، وهو الذي يتولَّى مَنْ صلح عملُه بطاعتِه من خَلْقِه.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَـالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

وهذا أيضاً أمرٌ من الله جَلَّ ثناؤُهُ لنبيه أنْ يقولَهُ للمشركينَ. يقول تعالى ذِكْرُه: قُلْ لهم: إنَّ الله نصيري وظهيري، والذين تدعون أنتم، أيها المشركونَ، من دونِ الله من الآلهـةِ، لا يستـطيعـونَ نَصْرَكُمْ، ولا هُمْ مع عَجْزِهم عن نُصْرَتِكُم يقدرونَ على نصرة أنفسِهم. فأي هذين أوْلى بالعبادةِ وأحق بالألوهة؟ أَمَنْ ينصرُ وَلِيَّهُ ويمنعُ نفسه مِمَّنْ أرادَهُ، أم مَنْ لا يستطيعُ نَصْرَ وليه ويعجزُ عن منعِ نفسِه مِمَّنْ أرادَهُ وبَغاه بمكروهٍ؟

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

يقـول جَلَّ ثنـاؤه لنبيه محمـدٍ ﷺ: قُلْ للمشـركين: وإنْ تدعوا، أيها المشركون، آلهتَكُمْ إلى الهدى ـ وهو الاستقامة إلى السداد ـ «لا يَسمعوا»، يقول: لا يسمعوا دُعَاءَكم. «وتراهم ينظرونَ إليك وهم لا يبصرون».

وهذا خطابٌ من الله نبيَّهُ ﷺ. يقول: وتَرَى، يا محمدُ، آلهتهم ينظرونَ

إليكَ وهم لا يُبصرون - ولذلك وَحَّدَ. ولو كان أمر النبي ﷺ بخطابِ المشركين، لقال: «وترونهم ينظرون إليكم».

فإنْ قال قائلٌ: فما معنى قوله: «وتَراهُمْ ينظرونَ إليكَ وهم لا يبصرون»؟ وهل يجوزُ أنْ يكونَ شيءٌ ينظر إلى شيءٍ ولا يراه؟

قيل: إنَّ العربَ تقولُ للشيءِ إذا قابل شيئاً أو حاذاه: «هو ينظر إلى كذا»، ويقال: «منزلُ فلانٍ ينظرُ إلى منزلي»، إذا قَابَلَهُ, وحكى عنها: «إذا أتيتَ موضعَ كذا وكذا فنظرَ إليكَ الجبل، فَخُذْ يميناً أو شمالاً»، وحدثت عن أبي عبيد قال: قال الكسائي: «الحائطُ ينظرُ إليك»، إذا كان قريباً منكَ حيثُ تراه.

فمعنى الكلام: وترى، يا محمدُ، آلهةَ هؤلاءِ المشركينَ من عَبَدَةِ الأوثانِ، يقابلونكَ ويحاذونكَ، وهم لا يُبْصِرُونَك، لأنه لا أبصارَ لهم.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

اختلف أهلُ التأويل في تأويل ذلك:

فقال بعضهم: تأويلُه: «خُذِ العفوَ» من أخلاقِ الناسِ، وهو الفضل وما لا يجهدهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خُذِ العفوَ من أموالِ الناسِ، وهو الفضل. قالوا: وأمر بذلك قبل نزولِ الزكاةِ، فلما نزلتِ الزكاةُ نُسِخَ.

وقال آخرون: بل ذلك أمرٌ من اللهِ نبيَّهُ ﷺ بالعفوِ عن المشركينَ، وترك الغِلْظَة عليهم، قبل أن يفرض قتالهم عليه.

وأوْلى هذه الأقوالِ بالصواب، قولُ مَنْ قالَ: معناه: خذ العفوَ من أخلاقِ الناس، واترك الغِلظَةَ عليهم ـ وقال: أُمِرَ بذلك نبيُّ الله ﷺ في المشركين.

وإنما قلنا ذلك أوْلى بالصوابِ، لأنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أتبعَ ذلك تعليمَهُ نبيَّهُ ﷺ محاجَّتهُ المشركينَ في الكلام، وذلك قوله: «قُلِ ادْعُوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرونِ»، وعقَّبه بقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾، فما بين ذلك، بأنْ يكون من تأديبه نبيَّه ﷺ في عشرتهم به، أشبهُ وأوْلى من الاعتراضِ بأمرِه بأخذِ الصدقة من المسلمين.

فإنْ قال قائلٌ: أفمنسوخٌ ذلك؟

قيل: لا دلالةَ عندنا على أنه منسوخٌ، إذْ كان جائزاً أنْ يكون ـ وإنْ كان اللهُ أنزله على نبيه عليه السلام في تعريفه عِشْرَةَ مَنْ لم يُؤْمَر بقتالِه من المشركينَ ـ مُراداً به تأديبُ نبيِّ الله والمسلمين جميعاً في عِشْرَةِ الناس، وأمرهم بأخذِ عفو أخلاقهم، فيكون وإن كان من أجلهم نزل، تعليماً من الله خَلْقَهُ صفةَ عِشرة بعضهم بعضاً، إذا لم يجب استعمال الغلظة والشدة في بعضهم. فإذا وجب استعمال ذلك فيهم، استعمل الواجبَ، فيكون قوله: «خذ العفو»، أمراً بأخذه ما لم يجب غيرُ العفو، فإذا وجب غيره أخذ الواجب وغير الواجب إذا أمكن ذلك. فلا يحكم على الآية بأنها منسوخة، لما قد بيَّنَّا ذلك في نظائره في غير موضع من كتبنا.

وأما قوله: «وأمر بالعرف» فإنه يعني: أنَّ الله أمرَ نبيه ﷺ أنْ يأمرَ الناسَ بالعُرْفِ ـ وهو المعروفُ في كلامِ العرب، مصدر في معنى: «المعروف».

فإذْ كان معنى «العرف» ذلك فمن «المعروف»: صِلَةُ رَحِمِ مَنْ قَطعَ، وإعطاءُ مَنْ حَرمَ، والعفو عمن ظلم. وكُلُّ ما أمرَ اللهُ به من الأعمالِ أو نَدَبَ

إليه، فهو من «العُرْفِ». ولم يخصص اللهُ من ذلك معنىً دون معنى، فالحقُّ فيه أن يقالَ: قد أمرَ الله نبيَّهُ ﷺ أنْ يأمرَ عبادَهُ بالمعروف كله، لا ببعضِ معانيهِ دونَ بعضٍ.

وأما قوله: «وأعْرِضْ عن الجاهلينَ»، فإنه أمرٌ من الله تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يُعْرِضَ عَمَّنْ جهِلَ. وذلك وإنْ كان أمراً من الله نبيَّهُ، فإنه تأديبٌ منه عَزَّ ذِكْرُه لخلقِه باحتمالِ مَنْ ظَلَمَهُمْ أو اعتدى عليهم، لا بالإعراضِ عَمَّنْ جهلَ الواجبَ عليه من حَقِّ الله، ولا بالصفحِ عَمَّنْ كفرَ باللهِ وجهل وحدانيتَهُ، وهو للمسلمين حَرْبٌ.

القَوْلُ فِي تَأْويلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

يعني جَلَّ ثناؤُهُ بقوله: «وإما ينزغنكَ من الشيطانِ نَزْغٌ»، وإما يُغْضِبَنَّكَ من الشيطانِ غضبٌ يَصُدُّكَ عن الإعراضِ عن الجاهلينَ، ويحملكَ على مجازاتِهم. «فاستعذْ باللهِ»، يقول: فاستَجِرْ بالله من نَزْغِه. «إنه سميع عليم»، يقول: إنَّ الله الذي تستعيذُ به من نَزْغِ الشيطانِ. «سميعٌ»، لجهلِ الجاهلِ عليكَ، ولاستعاذتكَ به من نزغه، ولغيرِ ذلك من كلامِ خَلْقِه، لا يخفى عليه منه شيءٌ. «عليمٌ»، بما يُذْهِبُ عنكَ نزغَ الشيطان، وغير ذلك من أمورِ خَلْقِه.

وأصل «النزغ»، الفساد، يقال: «نزغ الشيطانُ بين القَوم»، إذا أفسدَ بينهم، وحَمَّلَ بعضَهم على بعض.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «إنَّ الذين اتقوا» الله من خَلْقِه، فخافوا عقابَهُ، بأداءِ فرائضِه واجتنابِ معاصيه. «إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا»، ويقول: إذا أَلَمَّ بهم لَمَمٌ من الشيطانِ، من غضبٍ أو غيرِه مما يصدُّ عن واجبِ حَقِّ اللهِ عليهم، تَذَكَّرُوا عقابَ الله وثوابه، ووَعْدَهُ ووعيدَهُ، وأبصروا الحَقَّ فعملُوا به، وانتهوا إلى طاعةِ الله فيما فَرَضَ عليهم، وتركوا فيه طاعةَ الشيطان.

وأما قوله: «فإذا هُمْ مُبصرون»، فإنه يعني: فإذا هم مبصرون هُدَى الله وبيانَهُ وطاعته فيه، فَمُنْتَهُونَ عَمَّا دَعَاهم إليه طائفُ الشيطان.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ۝٢٠٢﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: وإخوانُ الشياطينِ تَمُدُّهم الشياطينُ في الغي. يعني بقوله: «يمدونهم»، يَزِيدُونَهُمْ، ثم لا ينقصون عما نقص عنه الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان.

وإنما هذا خبرٌ من الله عن فريقي الإيمانِ والكفر، بأنَّ فريقَ الإيمان وأهل تقوى الله إذا استزلَّهم الشيطانُ تذكروا عظمةَ الله وعقابه، فكفَّتهم رَهْبَتُه عن معاصيه، وردَّتْهُمْ إلى التوبةِ والإنابةِ إلى الله مما كانَ منهم زلَّةً - وأنَّ فريق الكافرين يزيدهم الشيطانُ غيًّا إلى غيِّهم إذا ركبوا معصيةً من معاصي الله، ولا يحجزهم تقوى الله، ولا خوف المعاد إليه عن التمادي فيها والزيادةِ منها، فهو أبداً في زيادة من ركوبِ الإثمِ، والشيطانُ يزيده أبداً، لا يُقصر الإنسي عن شيء من ركوب الفواحش، ولا الشيطان من مَدِّه منه،

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾

يقول عزَّ ذِكْرُه: وإذا لم تأتِ، يا محمدُ، هؤلاءِ المشركينَ بآية من الله «قالوا لولا اجْتَبَيْتَهَا». يقول: قالوا: هَلَّا اخْتَرْتَها واصْطَفَيْتَهَا. من قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، [آل عمران: ١٧٩]، يعني: يختارُ ويَصْطَفي.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٠٣﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لنبيه محمدٍ ﷺ: قُلْ، يا محمدُ، للقائلينَ لَكَ إذا لم تأتِهم بآيةٍ: «هَلَّا أَحْدَثْتَها من قِبَلِ نَفْسِكَ!»: إنَّ ذلك ليسَ لي، ولا يجوزُ لي فِعْلُه، لأنَّ الله إنما أمرني باتباعِ ما يُوحَى إليَّ من عندِه فإنما أتبعُ ما يُوحَى إليَّ من ربي، لأني عَبْدُه، وإلى أمرِه أنتهي، وإياهُ أُطيعُ. «هذا بصائِرُ من رَبكم»، يقول: هذا القرآنُ والوحيُ الذي أتلوه عليكم. «بصائر من ربكم»، يقول: حُجَجٌ عليكم، وبيانٌ لكم من رَبِّكم.

وقوله: «وهدى»، يقول: وبيانٌ يَهدي المؤمنينَ إلى الطريقِ المستقيمِ. «ورحمةٌ»، رَحِمَ اللهُ به عبادَهُ المؤمنينَ، فأنقذهم به من الضلالةِ والهلكةِ. «لقومٍ يؤمنون»، يقول: هو بصائرُ من الله وهدى ورحمة لمن آمنَ، يقول: لمن صَدَّقَ بالقرآنِ أنه تنزيلُ الله ووحيُه، وعَمِلَ بما فيه، دونَ مَنْ كَذَّبَ به وجَحَدَهُ وكفرَ به، بَلْ هو على الذين لا يؤمنون به عَمًى وخِزْيٌ.

القَـوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِـهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾

يقول تعالى ذِكْرُه للمؤمنينَ به، المُصَدِّقينَ بكتابِهِ، الذين القرآنُ لهم هُدَى

ورحمةٌ: «إذا قُرِئ» عليكم، أيها المؤمنونَ، «القرآنُ». «فاستمعوا له»، يقول: اصغُوا له سمعكم، لتتفهَّمُوا آياتِهِ، وتعتبرُوا بمواعظِه. «وأنصتوا»، إليه لتعقِلُوهُ وتتدبَّرُوه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه. «لعلَّكُمْ تُرْحَمُون»، يقول: ليرحَمَكُمْ رَبُّكم باتِّعاظِكم بمواعظِه، واعتبارِكم بعبَرِهِ، واستعمالكم ما بَيَّنَهُ لكم رَبُّكم من فرائِضِه في آيِهِ.

ثم اختلف أهلُ التأويل في الحال التي أمر الله بالاستماعِ لقارئِ القرآنِ إذا قرأ والإنصاتِ له.

فقال بعضُهم: ذلك حال كون المصلي في الصلاة خلفَ إمامٍ يأتمُّ به، وهو يسمعُ قراءةَ الإمامِ، عليه أنْ يستمعَ لقراءته. وقالوا: في ذلك أُنزلتْ هذه الآيةُ.

وقال آخرون: بل عُنيَ بهذه الآية، الأمرُ بالإنصاتِ للإمامِ في الخطبة، إذا قرأ القرآن في خطبته.

وقال آخرون: عنى بذلك الإنصات في الصلاة، وفي الخطبة.

وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ مَنْ قال: امرُؤ باستماعِ القرآنِ في الصلاة إذا قرأ الإمامُ، وكان مِنْ خَلْفِه ممن يأتمُّ به يسمعه، وفي الخطبة.

وإنما قلنا ذلك أَوْلى بالصواب، لصحَّةِ الخبرِ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «إذا قرأ الإمامُ فأنْصِتُوا»[1]، وإجماعِ الجميعِ على أنَّ علىَ مَنْ سمعَ خطبةَ الإمامِ ممن عليه الجمعةُ، الاستماعَ والإنصاتَ لها، مع تَتَابُعِ الأخبارِ بالأمرِ بذلك عن رسولِ الله ﷺ، وأنه لا وقتَ يجبُ على أحدٍ استماع القرآن، والإنصات لسامعِهِ، من قارئِه، إلاَّ في هاتين الحالتين، على اختلافٍ في

(١) انظر طرق الحديث في البيهقي: ٢/١٥٥-١٥٦.

إحداهما، وهي حالة أنْ يكونَ خلفَ إمامٍ مُؤتَمّ به. وقد صَحَّ الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ بما ذكرنا من قولِه: «إذا قرأ الإمامُ فأنصتوا»، فالإنصاتُ خَلفَهُ لقراءتِه واجبٌ على مَنْ كان به مؤتماً سامعاً قراءته، بعمومِ ظاهرِ القرآنِ والخبرِ عن رسولِ الله ﷺ.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: «واذْكُرْ»، أيُّها المستمعُ المُنْصِتُ للقرآنِ، إذا قُرِىءَ في صلاةٍ أو خطبة[1]، «رَبَّك في نفسِكَ»، يقول: اتَّعِظْ بما في آيِ القرآنِ واعتبِرْ به، وتَذَكَّرْ مَعَادكَ إليه عند سَمَاعِكَهُ. «تَضَرُّعاً»، يقول: افعل ذلك تَخَشُّعاً لله وتواضُعاً له. «وخِيفةً»، يقول: وخوفاً للهِ من أنْ يعاقِبَكَ على تقصيرٍ يكونُ منك في الاتعاظِ به والاعتبار، وغفلةٍ عما بَيَّنَ اللهُ فيه من حدودِه. «ودونَ الجهرِ من القول»، يقول: ودعاء باللسان لله في خفاءٍ لا جهار. يقول: لِيَكُنْ ذِكْرُ الله عند استماعِكَ القرآنَ في دعاءٍ إنْ دَعَوْتَ غير جهار، ولكنْ في خفاءٍ من القول.

وأما قوله: «بالغُدُوِّ والآصالِ»، فإنه يعني: بالبُكَرِ والعَشِيَّاتِ.

وأما قوله «ولا تَكُنْ من الغافلينَ»، فإنه يقول: ولا تَكُنْ من اللَّاهينَ إذا قُرِىءَ القرآنُ عن عِظَاتِه وعِبَرِهِ وما فيه من عجائبه، ولكن تَدَبَّرْ ذلك وتَفَهَّمْهُ، وأَشْعِرْهُ قلبكَ بذكرِ اللهِ، وخضوعٍ له، وخوفٍ من قُدْرَةِ اللهِ عليكَ إنْ أنتَ غفلتَ عن ذلك.

---

(١) اعترض العلامة ابن كثير على تفسير الطبري لهذه الآية بهذا المعنى، فذكر أنَّ ذلك مُنافٍ للإنصات المأمور به، بل المراد الحضُّ على كثرة الذِّكْر من العباد بالغُدُوِّ والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين. وهو أصوب من رأي الطبري.

القَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

يقول تعالى ذِكْرُه: لا تَسْتَكْبِرْ، أيها المستمعُ المُنْصِتُ للقرآنِ، عن عبادةِ رَبِّكَ، واذْكُرْهُ إذا قُرِىءَ القرآنُ تضرعاً وخيفة ودونَ الجهرِ من القولِ، فإنَّ الذين عندَ رَبِّكَ من ملائكته، لا يستكبرونَ عن التواضعِ له والتَّخَشُّعِ، وذلك هو «العبادة». «ويُسَبِّحُونَهُ»، يقول: ويُعَظِّمُونَ رَبَّهم بتواضُعِهم له وعبادَتِهم. «وله يَسْجُدونَ»، يقول: ولله يُصَلُّونَ ـ وهو سُجُودُهم ـ فَصَلُّوا أنتم أيضاً له وعَظِّمُوه بالعبادةِ، كما يفعله مَنْ عِنْدَهُ من ملائكَتِه.

المجلد الثالث

فهرس المحتويات

تفسير سورة المائدة ٣
تفسير سورة الأنعام ٢١٥
تفسير سورة الأعراف ٣٩٧
الفهرس ٥٤٩